

نام كتاب: المهدي المنتظر عند الشيعة الإثني عشرية

پديدآور: علي، جواد

تاريخ وفات پديدآور: ١٤٠٨ هـ. ق

مترجم: دودو، ابو العيد

موضوع: شناخت نامه امام مهدي

زبان: عربي

تعداد جلد: ١

ناشر: مكتبة طريق المعرفة

مكان چاپ: نجف اشرف (عراق)

سال چاپ: ١٤٢٦ هـ. ق

نوبت چاپ: ١

ص: ٥

المقدمة

لقد تقدمت الدراسات الإسلامية في أوربا تقدما كبيرا. فقام غولدتسيهر بدراسات واسعة عن الحديث، و بحث نولدكه في القرآن و تاريخه، و درس فيلهاوزن تاريخ ما قبل الإسلام و صدر الإسلام. و رغم كل هذه الإنجازات، فإنه لا تزال هناك فروع علمية في الدراسات الإسلامية، قد تكون أقل أهمية، لأنها لا تتصل بالعالم الإسلامي كله، و لذلك لم تكد تعرف بسبب قلة تأثيرها في العالم الإسلامي بالذات و لم تقدم البحوث عنها. إلا أن على البحوث الإسلامية أن تهتم بهذه الميادين، التي أهملت حتى الآن إلى حد ما.

هذه الدراسة المقدمة تتصل بتاريخ أوساط إسلامية خاصة، و هي الشيعة، أي أتباع علي و آل بيته. و قد تم اختيار تلك الفترة الغامضة، عند ما اختفى الإمام الثاني عشر، أي عقب علي بن أبي طالب، من الأرض حسب اعتقاد الشيعة و ناب عنه سفراؤه - و

عددهم أربعة. فى هذا الفترة كان الشيعة فى غاية الضعف، لكنهم لم يلبثوا أن تقوّوا و كانت لهم سطوة بعد ذلك و ظهوروا فى أيام حكم البويهيين. و لم يزل الكثير من هذه المرحلة غامضا. و هذه الأطروحة تقوم لأول مرة بمحاولة الفصل بين الحقيقة التاريخية و الأسطورة فى تلك المرحلة التى لم يتم بحثها.

قبل أن نتطرق إلى موضوعنا، ينبغى للمؤلف إهداء الشكر الجزيل،

ص:٦

و هو واجب عليه، لمن هو مدين لهم من الشرقيين و الأوروبيين، الذين ساعدوه بالإجابة عن أسئلته أو تقديم المعلومات أو النصائح له، خصوصا لعالمى و رئيسى الشيعة فى العراق، السيد هبة الدين الشهرستانى، وزير الثقافة و رئيس محكمة التمييز الجعفرية فيما بعد، و المجتهد الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، العالم الشيعى فى مدينة النجف الأشرف على الجهود التى بذلها و على الأسئلة المختلفة التى أجابها عنها.

و الشخصيتان معروفتان عند زملاء التخصص فى الشرق و فى أوروبا باستعدادهما الدائم لتقديم ما يطلب منهما من المعلومات.

من المستحيل على الأجنبى فى ألمانيا أن ينجز عملا علميا دون أن يتقدم بشكره الجزيل إلى الشعب الألمانى و سلطاته، من الشخصيات الوظيفية و المدنية على مساعدتهم الكبيرة له و تسهيل أموره الدراسية و الحياتية. و إنى لأقدم لأساتذتى فى برلين و هامبورغ، مدير الفرع الإسلامى فى متحف القيصر فريدريش بيرلين الأستاذ الدكتور إرنست كونل، الذى درست هناك تحت إشرافه، و مدير مركز الأجانب فى الوزارة الملكية البروسية الخاصة بالعلوم و التربية و الثقافة الشعبية الأستاذ الدكتور ريمه، الذى سهر تلقائيا على تسوية شئون الطلبة العراقيين فى ألمانيا، و أخيرا أقدم شكرى الجزيل كذلك إلى الدكتور ر. شتروتمان على ما بذله من جهده و حرصه على أن أنجز دراستى و ما أسداه إلى من نصيحة و مساعدة فى شئون الحياة الخاصة. أشعر أننى مدين بشكل خاص أيضا للأستاذ الدكتور شاده على ما كلفته من جهد و وقت من أجل مشاركته التلقائية فى الاشراف على إعداد رسالتى.

هامبورغ، ٦ نوفمبر ١٩٣٨

ص:٧

تمهيد

انقسم الإسلام كما انقسمت المسيحية إلى ديانات، و تمثلت أسباب انقسام الكنيسة المسيحية فى اختلاف الآراء حول طبيعة المسيح و إرادة الإنسان الحرة، أما فى الإسلام فقد لعبت السمات السياسية و العائلية الدور الأول^١. ففى المركز الثانى بعد السنة

^١ (١) أمير على سيد، روح الإسلام، ص ٢٩٢.

تأتى من حيث العدد فرقة ما يسمى بالشيعة الاثنى عشرية، يشكل أتباعها ٩ / ١٠ من سكان إيران المعاصرة^٢، و مليوناً و نصف المليون فى العراق و ٥ ملايين فى الهند و فى المناطق ذات الأقليات الدينية^٣. و هذه الفرقة من الشيعة تدعى الإمامية أو الجعفرية أيضاً.

و كلمة «شيعة» تعنى فى العربية «الحزب». ثم أصبحت فيما بعد لا تطلق إلا على أسرة على بن أبى طالب^٤. و يعود اسم الإمامية إلى اعتقادهم بالإمامة، بمعنى القيادة الدينية، التى تشكل نواة عقيدتهم^٥.

و الإمامة تنتمى عند الشيعة إلى الأسس الرئيسة الخمسة للدين:

ص: ٨

١. التوحيد، ٢. العدل، ٣. النبوة، ٤. الإمامة و البعث^٦. و يصل عدد الأئمة بعد النبى (عليه السلام) إلى اثنى عشر إماماً، و من هنا جاء الاسم «الشيعة الاثنا عشرية». و كان الإمام الأول على بن أبى طالب، و الأخير هو المهدي. و من مات من غير أن يؤمن بالأئمة الاثنا عشر، يعد كافراً^٧.

و على الرغم من أن الاثنى عشرية يشكلون الأغلبية بين غير السنيين، فليست هناك حتى اليوم دراسة علمية حديثة شاملة حول الاثنى عشرية.

إلا أن الأعمال التى رأيتها حول هذا الموضوع، و التى توجد من بينها دراسات متميزة، يقدم بعضها ما لا غنى عنه من هذه المصادر، بينما يعالج بعضها الآخر المشاكل و المراحل المفردة، بشكل يدل حقا على أن هناك نوعاً من الحرص على دراسة تلك الميادين، و لكنها فى مجموعها لا تزال تنقصها الدراسة النقدية المنهجية الشاملة^٨. يقول ا. غ. براون:

«إننا لا نملك عرضاً مفهوماً موثقاً به عن مبادئ الشيعة فى أية لغة أوربية^٩.» و يعيد شتروتمان الأسباب المفترضة لذلك إلى: «أن كتابة تاريخ الشيعة و تاريخ عقيدتهم و دراسة طبيعتهم الداخلية بشكل مفصل يعتمد عليه لا تزال غير ممكنة فى هذا الوقت فى ألمانيا لأسباب خارجية.

^٢ (٢) إقبال على شاه، شرق إيران، ص ١٦٠.

^٣ (٣) ضحى الإسلام، ج ٣، ص ٢١٣ و الشيعة، ص ٧٠.

^٤ (٤) لسان العرب، ج ١٠، تحت كلمة «شيعة». مقدمة ابن خلدون، ص ٣٥٥.

^٥ (٥) ضحى الإسلام، ج ٣، ص ٢١٢ و محاضرات غولدتسيهر عن الإسلام، ص ٢١٦.

^٦ (٦) أصل الشيعة، ص ٩٤ و ٩٦.

^٧ (٧) الكافي، ص ٨٦.

^٨ (٨) أنظر عقيدة الشيعة، ص VII.

^٩ (٩) الأدب الفارسى فى العصر الحديث، ص ٤١٨.

حتى هذه الدراسة الصغيرة، التي هي بين أيدينا، تعاني، إذا ما نحن أخذنا بعين الاعتبار المجموعة الضخمة من المصادر الشيعية، التي ليست في متناول اليد - تعاني من قلة المصادر^{١٠}».

لقد اتبع المستشرقون المحدثون منهجا جديدا، فلم يعودوا يرجعون، كما كانوا في السابق، إلى المصادر السنية، بل أصبحوا

ص:٩

يعتمدون في بحوثهم بالدرجة الأولى على المصادر الشيعية، على غرار ما فعله شتروتمان مثلا في كتابه «الاثنا عشرية»، الذي يعالج المشكل في عهد المغول. و يمكن على العموم اعتبار هذا الميدان العلمي كله أرضا لا تزال بكرًا.

في سنة ١٩٢٥ أصدر نيرغ H.S. Nyberg الكتاب العربي «الانتصار في الرد على ابن الراوندي». و بعد أن تحدث في مقدمته عن قيمة الكتاب و معناه، أراد توضيح جوهر الشيعة. و رغم تقدم العلم في هذا الميدان، و مع أن هذه الفترة قد عرفت مصادر شيعية غير قليلة، لم تلبث أن أصبحت في متناول الأيدي مطبوعة أيضا، فقد اكتفى نيرغ بتلك الأفكار القديمة عن الشيعة، التي أملت عليها أصحابها الكراهية الدينية المتعصبة. و هكذا كان التجسيم مثلا (ص ٥٣، سطر ٧ و ما بعده) و تناول المذهب الشيعي على أنه خليط من الثنوية و الإسلام (ص ٥٥، سطر ١٠ و ما بعده) و كذلك بعض المزاعم الأخرى من الكتب الدينية القديمة، التي لم يتطرق إليه الشك عنده، في حين أنها تحتوى على الخرافات المعادية.

إن الشيعة يرفضون الاعتذار بقلّة المراجع بوصفه تهربا «لأن كل إنسان يريد أن يكتب عن موضوع، يجب عليه أولا أن يجمع المصادر، ثم ينظم موادها و يفحصها بكل ما يمكنه من دقة. و إلا فإنه لا يحق له أن يكتب شيئا عن هذا الموضوع و ينشره على الناس^{١١}». «و من الواجب الخلقى على الباحث متقصى الحقيقة أن يدع جانبا جميع الروايات المتعصبة و المتحيزة^{١٢}».

لقد شغل الداعى الحسينى نفسه فى كتابه «تبصرة السنة» بالمآخذ الموجهة إلى الشيعة. فهو يقول، عند ما يحاول المرء أن يجعل من الشيعة، دون سند من مؤلفاتهم، و إنما اكتفاء بالروايات الشفوية و المفاهيم

ص:١٠

المفهومة غلطا، مسلمين سيئين، فإن من حق الشيعة أيضا أن يتخذوا نفس الإجراء ضد أهل السنة. و يورد المؤلف أمثلة من أوساط السنيين الصوفية و من أربع مدارس سنية و يشير إلى أن بعض الشخصيات السنية يعدون عند أهل السنة فى مرتبة تساوى مرتبة الإله و يطرح هذا السؤال:

^{١٠} (١٠) الشيعة الاثنا عشر، ص VII .

^{١١} (١١) أصل الشيعة، ص ٥٠.

^{١٢} (١٢) آثار الشيعة، ص ١.

لما ذا يصح للسنيين أن يلوموا الشيعة على إجلالهم لعلّ يوصفه قديسا، ما داموا هم أنفسهم يقومون بمثل هذا؟^{١٣}.

علينا إذن أن نكون حذرين عند ما تقارن الطوائف الإسلامية بعضها ببعض الآخر، فالمؤلفون يسعون إلى اضطهاد الطوائف الأخرى، غير الطوائف التي ينتمون إليها، و إلى إرغام جميع المؤمنين على الإيمان بها وحدها، حتى ولو هم لجؤوا إلى الكذب والافتراء^{١٤}. مثل هذه النوايا لم تحمل المقريزي وحده على القول بأن العقيدة الأصلية للشيعة قد جاءت من اليهودية. فابن حزم الظاهري و الشهرستاني وغيرهما من أصحاب الطوائف ليسوا بريئين من مثل هذه الآراء الخاطئة. و الحكم لا يختلف عن بعض المنتمين إلى أوساط المؤرخين الحقيقيين، مثل ابن خلدون، الذي روى أن المهدي كان قد دخل في سرداب بيت متطرف من بيوت الشيعة بالحلة و غاب فيه^{١٥}. حتى الرحالة ابن بطوطة يدعى في رحلته^{١٦} أنه سمع من أهل الحلة يقولون إن الإمام الثاني عشر قد اختفى بعد دخوله أحد المساجد.

إن هذه الآراء تحملنا على الظن بأن المؤلفين لا علم لهم باختفاء الإمام الثاني عشر و لا بإنشاء مدينة الحلة، و ما قالوه عن الإمام الثاني عشر من أنه اختفى في الحلة، التي لم تكن موجودة آنذ، أى سنة ٢٦٠ للهجرة و إنما أنشأها صدقة بن منصور المزيدي في سنة ٤٩٥ / ١١٠١ - ٢،

ص: ١١

لم يرد في أى كتاب من كتب الشيعة^{١٧}.

و إننا لنجد فيها أخطاء حتى بالنسبة للاسم، فقد اعتبر السبكي أبا جعفر الطوسي في كتابه «طبقات» شافعيًا، و بعضهم اعتبر الشريف الرضى زيديًا، و ما أشبه ذلك من الأخطاء^{١٨}. لذلك يجب فحص المصادر بدقة، فقد كان من السهل في ذلك الحين أن يقع عالم مرموق في مثل هذه الأخطاء و التحريفات. لقد آن الأوان أيضا لإعادة النظر في مفهوم «الشيعة» المستعمل عموما و تحديده. و هكذا يجب أن يبعد الراوندية أو أبو مسلمية، الذين يعتقدون بإمامة العباس، عم رسول الله، فالشيعة إنما هم أولئك الناس، الذين لا يؤمنون إلا بعلي بن أبي طالب و أعقابه^{١٩}.

^{١٣} (١٣) تبصرة العوام، ص ٢٠٢ و أماكن أخرى.

^{١٤} (١٤) خندانى النوبختى، مقدمة، ص ط، و الأشعرى، مقالات الإسلاميين، ص ١.

^{١٥} (١٥) مقدمة ابن خلدون، ص ٣٥٩، و آثار الشيعة، ج ٣، ص ٢.

^{١٦} (١٦) رحلة ابن بطوطة، ج ٢، ص ٩٦.

^{١٧} (١٧) دائرة المعارف الإسلامية، مقال الحلة، و ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٢٢.

^{١٨} (١٨) آثار الشيعة، ج ٣، ص ٥٢.

^{١٩} (١٩) فيما يتصل بتحديدات مفهوم الشيعة و تفسير التعاليم الشيعية ينظر كتب الشيعة! و من بينها خندانى النوبختى، ص ٥٠، ثم أصل الشيعة، ص ٧١، و تبصرة العوام، ص ٢٢٤ و مواضع مختلفة! و كتاب آثار الشيعة، و يتكون في الأصل من ٢٠ جزءا - طبع منه جزءان، و هو يقدم معلومات عن المسائل المتصلة بهذا الميدان.

وكذلك ينبغي أن يكون موقف المرء من الرزائية، و هي فرع من الراوندية، و الخرمية و البابكية، و السنبادية و الحلولية و غيرها. عند ما يبحث المرء تعاليم هذه الفرق، لا يجد أى أثر لعبادة على و أعقابه، و إنما يجد أسماء أخرى، بحيث يكون من الخطأ نسبة هذه العقائد إلى جماعة الشيعة بصورة مطردة^{٢٠}.

ص: ١٢

لقد أصبحت هذه الأخطاء و المواقف المقصودة قديمة. كان بابويه قد حارب فى عصره أولئك الناس، الذين اتهموا الشيعة بالتشبيه فى تصورهم للإله، فوضع كتابا تحت عنوان «التوحيد»^{٢١}، و قد اتجه المرتضى فى «رسالة الانتصار» إلى أولئك الذين يحاولون التفريق بشكل جوهري بين الشيعة و السنة، و أوضح أن الفرق فى الحقيقة ليس أكبر من الفرق بين المدارس السنية^{٢٢}.

عند ما يقارن المرء دفاع الشيعة عن أنفسهم بـمآخذ السنيين عليهم و يفحصها حسب المناهج الدراسية الحديثة، فإنه سيكتشف المسائل المبهمة و التشويهاات، و يستخلص من ذلك مفهوما جديدا عن الشيعة و عن الاثنى عشرية، و إننا لنأمل فى أن تقدم فى المستقبل دراسات خصبة عن هذا الميدان.

ص: ١٣

الفصل الأول فكرة الإمامة عند الاثنا عشرية

يتمثل المبدأ الأساسى، الذى يميز الشيعة عن بقية المسلمين، فى فكرة الإمامة، أى القيادة السياسية الدينية. فالإمامة و حاملها نفسه قد نصبهما الله و أحدهما عن طريق نبيه^{٢٣}. و سلطة الإمام تشمل الأرض كلها^{٢٤}، فهو يحكمها بلا حدود، لأن الله و كل إليه أمرها^{٢٥}، و كل ما يوجد فيها و فوقها، سواء أ كان معدنا، أم غابة، أم حيوانا، برا أم بحرا، فالأشياء كلها ملك للإمام، و له الخمس مما يكسبه الناس من أعمالهم^{٢٦}.

^{٢٠} (٢٠) عن هذه الفرق المختلفة ينظر زيادة على دائرة المعارف الإسلامية: عن الرزائية، الذين هم أيضا من أتباع العباس، فرق الشيعة، ص ٢١: ١٤، مقالات، ص ٢٢: ٢١، أنساب، ورقة ٢٥١ ب، الخطط، ج ٤، ص ١٧٧، خندانى النويختى، ٢٥٦، و عن الخرمية ينظر الشهرستانى، ص ١١٣ و ١٣٢، فرق الشيعة، ص ٤٣٨: ٤، تبليس إبليس، ص ١٠٩، و ١١٢، أنساب، ورقة ١٩٦ أ، و عن البابكية ينظر خندانى النويختى، ص ٢٥١ و ٢٥٤، و عن السنبادية ينظر خندانى النويختى، ص ٢٥٨.

^{٢١} (٢١) الكنتورى، ص ٤٣٠.

^{٢٢} (٢٢) نفسه ص ٤١.

^{٢٣} (١) أصل الشيعة، ص ١٠١.

^{٢٤} (٢) الكافى، ص ٢٨٩.

^{٢٥} (٣) نفسه، ص ٢٢٠.

^{٢٦} (٤) كما كان الأمر مع النبى بشأن غنائم الفتوح.

إذا تولى إنسان تسيير قطعة أرض دون علم الإمام فإن من حق الإمام نزعها منه^{٢٧}، وإذا ما عجز شخص من الأشخاص عن استغلال قطعة أرض أو تركها غير مزروعة و جاء آخر و تولى تسييرها بنفسه أو استغلها لحسابه، فإنه يكتسب حق الملكية و عليه أن يدفع الخراج للإمام.

و سيبقى هذا النظام قائما إلى أن يأتي زمان «الإمام المختفى»، و عندئذ سيتولى تسيير الأرض بنفسه و يوزعها بين جميع المؤمنين^{٢٨}.

ص: ١٤

و لكن الإمام ليس فى حاجة إلى خراج من هذا النوع، و الناس الذين يدعون ذلك سيوسمون بميسم الكفر، ذلك أن الشيعة يأخذ الخراج ليظهر نفسه من أدران الدنيا^{٢٩}، و هذا التقليد يعود إلى الإمام جعفر الصادق.

ثم إن الحق لا يكون إلا مع الإمام أو وكلائه^{٣٠}، و إذا ذهب شيعى إلى حاكم دنيوى ليس شيعيا ليطلب منه حقه، فإن هذا يعد أمرا سيئا للغاية و يكون بمثابة من يتوجه إلى الشيطان و يطلب منه ذلك، حتى و لو اتسم هذا الأمر بالعدل^{٣١}.

إن الأئمة، الذين يحكمون العالم باسم الله بعد نبيه هم على بن أبى طالب، صهر النبى (صلى الله عليه و سلم)، و ابنه الحسن و الحسين، ابنا فاطمة، آل بيت النبى، و الأحفاد المباشرين للحسين إلى المهدي، صاحب الزمان، الذى اختفى سنة ٢٦٠ للهجرة، و الشيعة ينتظرون رجوعه إلى يومنا هذا، و علم الأنساب هذا فى حوزة الشيعة الاثنى عشرية. بعد أبناء الحسن و الحسين ينتهى ميراث التعاقب بين الإخوة^{٣٢}. و لا ترتبط الإمامة بسن معينة، لأن المسيح بن مريم كان قد جاء بالمعجزات و هو طفل، و أن داود أوحى الله إليه أن سليمان سيكون خليفته^{٣٣}.

و لما كان الإمام لا يستطيع أن يشرف على حزبه كله، فإنه يعين نوابا عنه فى المدن و الأماكن، التى توجد بها طوائف شيعية. و كان هؤلاء النواب يسهرون على أمور هذه الطوائف، و يجمعون الخراج و يرسلون إلى الإمام ما تبقى منه بعد إنفاق الأموال المخصصة للشؤون الاجتماعية^{٣٤}.

^{٢٧} (٥) الكافي، ص ٣٠٠.

^{٢٨} (٦) نفسه، ص ٢٢٠.

^{٢٩} (٧) نفسه، ص ٢٢٠.

^{٣٠} (٨) ميرزا مخدوم، ص ٥٦.

^{٣١} (٩) الكافي، ص ٢٠.

^{٣٢} (١٠) الغيبة، ص ١٤٦، و إكمال الدين، ص ..

^{٣٣} (١١) الكافي، ص ١٩٥.

^{٣٤} (١٢) كاشف الغطاء، رسالة بتاريخ ٢٨ محرم ١٣٥٥ للهجرة.

و كانت للوكلاء فى الحقيقة السلطة المطلقة فى الطوائف، بينما لم يكن الأئمة فى النهاية أئمة حقيقيين، كما لا حظ شتروتمان بحق و كان الأول فى ذلك، و منهم جعفر الصادق، الإمام السادس نفسه^{٣٥}. و كثيرا ما كان النزاع يقوم بين النواب حول المناطق التابعة لهم و اختصاصاتهم فيها عند جباية الأموال. فى البداية كان لكل نائب منطقته المحددة، لكن أبا على بن رشيد لم يكن يكفيه ما كان يجمعه فى منطقته، فكان يطلب من الغرباء عن منطقته، من بغداد أو من المدائن، دفع الضريبة، مع أن هاتين كانتا تابعتين لمنطقة طائفة أيوب بن نوح، فكتب أيوب إلى الإمام يشكو إليه فعله. و لم يكن فى وسع الإمام سوى أن يكتب إلى الاثنين آمرا بإيهما بقاء كل واحد منهما فى منطقته حفاظا على الأمن و النظام^{٣٦}. إن هذه النزاعات لتضع أمام المؤرخين مهمة صعبة، و ذلك لما فى روايات أتباع الوكلاء و أصدقاء الإمام من اختلاف و تضارب، و لهذا فإن تراجم الشخصيات الشيعية المهمة جميعها تعاني مما فى الروايات من تناقض و أخطاء.

لا يقوم التنظيم الكامل للشيعية، و على رأسهم الإمام و نوابه، بمثابة دولة داخل دولة، إلا فى حالة من السرية التامة بطبيعة الحال. فالحكومة تخشى خطر الشيعة و تستعمل جهازا واسعا من المخابرات^{٣٧}، و لكن الشيعة أنفسهم كانوا يلتزمون الحذر فى دعوتهم، و مع ذلك لم تكن هناك مؤسسة واحدة لم تتسرب إليها الخلايا الشيعية^{٣٨}. لقد أراد عبيد الله، الوزير الأول، اكتشاف المنظمة الشيعية، و أرسل جواسيسه لهذا السبب حتى يتسلموا الجباية من النواب. و لكن القيادة العليا بادرت فى الحين إلى إصدار أمر إلى النواب بعدم جباية الأموال فى هذه السنة، و هكذا فشل

مشروع الوزير الأول، و وجد النواب أنفسهم فى مأمن منه^{٣٩}.

كان على الإمام أن يقبل بمراقبة الدولة له، فكان الجواسيس يحيطون به عند كل خطوة يخطوها، بحيث إنه كان يعيش دائما مهموما خائفا على حياته و قضيته، و لم يكن يسمح لنفسه الظهور أمام الناس من غير حذر و حيلة^{٤٠}. و كذلك لم يكن فى وسع الوكلاء أن يعملوا باسم الإمام إلا فى تستر تام. و كانت ثمة عناصر لا تحصى استغلت هذه الظروف للقيام باختلاس الأموال و امتلاكها بطرق غير شرعية. و لم يكن للإمام فى هذه الحالات حول و لا قوة، لأنه لم يكن يستطيع الاتجاه إلى الأجهزة العدلية الحكومية، و لو أنه فعل ذلك لثم اعتقاله هو نفسه. و هكذا لم يبق له سوى التشرّد و الحرمان، و حتى هذه الوسيلة كثيرا ما كان مآلها الفشل.

^{٣٥} (١٣) دائرة المعارف الإسلامية، مادة الشيعة.

^{٣٦} (١٤) الكشي، ص ٣١٩.

^{٣٧} (١٥) الدرجات الرفاعة، ص ٢.

^{٣٨} (١٦) مجالس المؤمنين (غير مرقمة) الفصل العاشر فى مادة على بن يقطين.

^{٣٩} (١٧) الكافي، ص ٢٩٣.

^{٤٠} (١٨) ضحى الإسلام، ص ٢٩٦ و مواضيع مختلفة منه.

وكان الحكام الخونة يعرفون كيف يحمون أنفسهم من ذلك بطريقة متميزة، و هي تكوين مجموعة ثابتة من الأتباع، يقاومون بها الإمام عن طريق نشر أحاديث مشكوك فيها أو مزيفة و يحاولون قدر الإمكان تقديمه على أساس أنه الخليفة غير الشرعى لإمام سابق، كانوا يزعمون أنه لا يزال حيا أو عائدا. و من هذه النزاعات يتضح انشقاق عدد من الفرق الجديدة بين الشيعة. و حسبنا أن نتذكر الأحداث التى وقعت بعد موت الإمام موسى بن جعفر (ولد سنة ١٢٨ / ٧٤٥، و توفى سنة ١٨٣ / ٧٩٩) عند ما اعترف معظم الشيعة بعلى بن موسى الرضا بوصفه خليفة لهم و إماما. فكتب الإمام الجديد إلى وكلائه بشأن الأمور، التى كانت لا تزال تنتظر حلولها، أى الأموال التى تمت جبايتها باسم أبيه، فلم يستجب لطلبه الوكيل زياد بن مروان بمبلغ ٧٠٠٠٠ ألف دينار، و كذلك على بن أبى حمزة بمبلغ ٣٠٠٠٠ و عثمان بن عيسى الرّواسى بنفس المبلغ، و إنما نازعوا فى شرعية الرضا بدعوى أن الإمام السابق لم يمّت، و إنما اختفى

ص: ١٧

من العالم، و لذلك فهم يحتفظون بالأموال باسم الإمام موسى بن جعفر^{٤١}.

إن هذه الأحداث و أمثالها، التى تحدثت عنها كتب الكشى، و النجاشى، و الطوسى و غيرهم لتصعب من مهمة المؤرخ فى تقديم صورة واضحة عن تطور الشيعة فى ذلك الوقت و توضيح السبب فى اختفاء أغلب فرق الشيعة، بحيث لم يبق منها فى النهاية إلا القليل.

المصادر

تم منذ الغيبة تأليف عدد كبير من الكتب عن موضوع الإمام المختفى، و قد ضاعت مجموعة منها، بينما وصلنا مجموعة أخرى. لقد أورد غير الشيعيين، حتى من المرتدين من اليهود و النصارى، فى كتبهم أساطير، و حكايات عجيبة، و روايات لطيفة، و عقائد أخروية، فتحوّل فى بعض الأحيان إلى صور من الأشكال القصصية العجيبة، و ساعدت على نشأة آداب جميلة غنية. فكان لا بد أن ينقذ أحد من الموت فى الصحراء أو عند غرق السفينة، على أن يتم ذلك بصورة رائعة، كما نقرأ مثلا فى «جنة المأوى» للطبرسى، و تدخلات مشابهة للمهدى فى ثوب قصصى، يكون جوا ملائما لقيام الدليل على وجود الإمام المخفى و معرفة ما وراء ذلك من أسباب. هناك من الناس من يذكرون كتبنا، وضعت قبل غيبة الإمام الثانى عشر، و تنبأت بعودته على نحو بديع، و قيل إنها تضمنت تفاصيل عن زمن الولادة و الحياة و الغيبة. لذلك ليس من السهل على العالم أن يجد طريقه عبر هذا الثراء من الحكايات الخرافية، و يستخرج منها القليل مما يمكن استعماله فى دراسته.

و كذلك الأمر بالنسبة إلى النواب، إلى السفراء، الأربعة للإمام الثانى عشر، فقد وجدت تراجم، اهتمت بكتابات السفراء إلى أعضاء الطوائف

ص: ١٨

^{٤١} (١٩) الغيبة، ص ٤٦، منهج المقال، ص ١٥٢.

و احتفظت برسائلهم، على أن هذه الكتابات كلها للأسف قد ضاعت.

لقد كتب الرجال الموالون عن المهدي و سفرائه الأربعة. و لكي يتيح للقارئ أن يتتبع في كتاب معين التطور الكامل لفكرة المهدي، حرصنا على أن نرتب المؤلفين ترتيبا زمنيا.

و نبدأ بتعداد كتب الرجال، الذين لا نستطيع أن نعرف منهم ما إذا كان الأشخاص، الذين قدموها لنا على أساس أنهم مؤلفوها، قد ماتوا قبل الغيبة الصغرى للإمام الثاني عشر أم أنهم ماتوا في الوقت المبكر منها. لقد كان أولئك الكتاب، فيما تقوله الرواية، في عصر الأئمة و عاشوا معهم. أما ما إذا كان الأمر يتعلق في هذه الكتب بشيء زائف من نوع الحكايات العجيبة أو ما إذا كان المهدي المتحدث عنه فيها ليس هو مهدينا نفسه، فلا يمكننا الحكم على ذلك، لأن المهدي، كما نرى، لم يكن هو الأول بمفرده، بل ظهرت هناك لدى الفرق الشيعية المختلفة شخصيات أخرى، تمثل المهدي. لذلك نكتفي بإيراد الرواية كما نجدها عند هبة الدين الشهرستاني و سير علماء الشيعة. و لكننا نلاحظ من جهة أخرى أن الكتب، التي تعالج موضوع الغيبة، تتضمن عادة فصولا من الأخبار، التي يقدمها أشخاص ثبت أنهم لم يعيشوا في زمن الغيبة الصغرى و لذلك أريد لهذه الأخبار أن يتم عرضها علينا بطريقة رائعة^{٤٢}.

أبو الحسن بن علي بن فضال^{٤٣}

(ت ٢٢٤ هـ) يقال عنه إنه كان «فطحيا»^{٤٤}، ثم انسلخ فيما بعد عن هذه الفرقة

ص: ١٩

و اتبع القول بإمامة علي بن موسى الرضا. و قد وصلنا الكتاب المنسوب إليه عن موضوعنا تحت عنوان: الغيبة.

الحسن بن علي البطاجني^{٤٥}

(القرن الثالث الهجري) يروى أنه كان معاصرا للإمام علي بن موسى الرضا (١٥٣- ٢٠٣ هـ) و أحد رؤساء الواقفية^{٤٦}، و هو ما آخذه عليه الإمام الرضا. من الكتب الكثيرة للبطاجني، التي تتصل بميداننا:

^{٤٢} (٢٠) أنظر الطوسي، الغيبة، ص ١١٩ و صفحات أخرى.

^{٤٣} (٢١) منهج المقال، ص ١٠٣ و هبة الدين، رسالة خاصة.

^{٤٤} (٢٢) الفطحية هم أتباع عبد الله بن جعفر الصادق، الذي كان أفضح (عريض الرأس أو مسطح القدم)، و لذلك أطلق على أتباعه هذا الاسم. عن الفطحية أنظر نوبختي، فرق الشيعة، ص ٦٥، و الأشعري، مقالات، ص ٢٧ و ما بعدها، كشي، ص ١٦٤ و ما بعدها و ٢٤٥، و السمعاني، الأنساب، ورقة ٤٢٩، و عباس إقبال، خنداني النوبختي، ص ٢٦٠ و الطوسي، الغيبة، ص ٦٠.

^{٤٥} (٢٣) منهج المقال، ص ١٠٢ و هبة الدين، رسالة خاصة.

^{٤٦} (٢٤) الواقفية تعني «المنقطعين عن تعداد الإمامة»، و انظر عن الواقفية الأشعري، ص ٢٧، و فرق الشيعة، ص ٦٨، و الكشي، ص ٣٨٤ و ما بعدها، الشهرستاني، ص ١٢٧، و خنداني النوبختي، ص ٢٦٦، و الطوسي، ص ٢٠ و إضافة إلى ذلك الكتب التاريخية الدينية.

كتاب القائم الصغير.

كتاب الرجعة.

محمد بن الحسن القمي البصري^{٤٧}

(القرن الثالث الهجري) قيل عنه أيضا إنه كان معاصرا للإمام الرضا، و منه سمع البصري شخصا أحاديث و وضع كتابا تحت عنوان " الرسالة المذهبة عن الرضا".

أما عن موضوع المهدى فقد كتب:

كتاب صاحب الزمان كتاب وقت خروج القائم عليه السلام.

ص: ٢٠

علي بن الحسن الطاطري^{٤٨}

(توفي في القرن الثالث الهجري) كان يتاجر في نوع من الأقمشة، و عرف بالطاطري، و كان إلى جانب مهنته من رؤساء الواقفية و من المتعصبين لعقيدته. و لا يهمننا من كتبه الكثيرة، التي تتصل بالحقوق الشرعية، سوى كتاب: الغيبة.

علي بن عمر الأعرج^{٤٩}

(القرن الثالث الهجري)

قيل إنه ينتمي أيضا إلى الواقفية، و كتابه المقصود هنا هو الغيبة، و قد جاء في «منهج المقال» أنه كان صديقا لذكريا المؤمن، و لكن المؤمن كان معاصرا لجعفر الصادق (ولد سنة ٨٠ أو ٨٣ و توفي ١٨٣ هـ)، و موسى الكاظم (١٢٨ أو بعد ذلك - ٨٣ هـ) و علي الرضا (١٥٣ - ٢٠٣ هـ)^{٥٠}

إبراهيم بن صالح الأنماطي

(القرن الثالث للهجرة)

^{٤٧} (٢٥) منهج المقال، ص ٢٩٠، هبة الدين، رسالة خاصة، منتهى المقال، ص ٢٦٨.

^{٤٨} (٢٦) منهج المقال، ص ٢٢٩، و هبة الدين، رسالة خاصة.

^{٤٩} (٢٧) منهج المقال، ص ٢٦٠، و هبة الدين، رسالة خاصة.

^{٥٠} (٢٨) منهج المقال، ص ٢٣٦، و هبة الدين، رسالة خاصة.

انقسمت الآراء حوله، فهناك من يقول إنه عاش في عصر الإمام الهادي (٢١٢ أو ٢١٤ - ٢٥٤ هـ). و ذكر أحمد بن نوح، و هو معاصر للطوسي، أن معظم كتب الأنماطي قد فقدت و لم يبق منها سوى كتاب:

الغيبة^{٥١}، ينظر معالم العلماء، ص ٣.

علي بن مهزيار الأهوازي

(القرن الثالث الهجري)

قيل إن أباه كان مسيحيا، و لكن ابنه أسلم، و عاش ابن مهزيار في

ص: ٢١

عهد الإمام الرضا (١٥٣ - ٢٠٣ هـ) حتى عهد الهادي، و شغل وظيفة عند الأئمة المذكورين. و نذكر من كتبه المختلفة التاريخية و الدينية و غيرها:

كتاب القائم^{٥٢}.

محمد بن عيسى بن عبيد بن يقطين

(القرن الثالث الهجري) قيل إنه عاش في عهد الإمام التاسع (ولد سنة ١٩٥، و توفي سنة ٢٢٠ هـ) و كانت له صلة به مشافهة و كتابة. و يقال إن ابن يقطين قد نشر كتابا تحت عنوان: التوقيعات^{٥٣}.

الفضل بن شاذان

(توفي سنة ٢٦٠ هـ) قيل إنه عاش في عهد الإمام الرضا إلى سنة وفاة الإمام الخامس، و كان له اعتباره بصفته أديبا، و ألف ١٨٠ كتابا، و ذكرت مدينة نيسابور على أنها مسقط رأسه، و يقال إن الأئمة أثنوا على مؤلفاته، و كان له بطبيعة الحال أعداء يدعون عكس ذلك، لأن أفكاره لم تكن بعيدة عن أفكار يونس بن عبد الرحمن، و من ثم اغتابه أعداء هذا الرجل. و نذكر من كتب ابن شاذان ١٨٠ ما يلي:

كتاب الغيبة كتاب القائم حديث الرجعة الحجة البليغة في إثبات القائم منتخب كتاب الرجعة

^{٥١} (٢٩) منهج المقال، ص ١٥٠.

^{٥٢} (٣٠) منهج المقال، ص ٢٢، و هبة الدين، رسالة خاصة.

^{٥٣} (٣١) منهج المقال، ص ٢٣٩، و هبة الدين، رسالة خاصة.

و قد اعتمد الحر العاملي على هذا الكتاب و ضمه إلى ملاحظاته الخاصة، كما ذكر هبة الدين^{٥٤} في رسالته إلى مؤلف هذه الأطروحة^{٥٥}.

إبراهيم بن إسحاق النهاوندى

(توفى فى نهاية القرن الثالث و بداية القرن الرابع الهجرى) و يعرف أيضا باسم الأحمري، و الاعتماد عليه قليل، و لذلك رفضه معظم كتاب التراجم. سمع عنده فى سنة ٢٦٩ هـ القاسم بن محمد الهمداني، و المعروف من كتب النهاوندى هو كتاب: الغيبة^{٥٦}.

عبد الله بن جعفر بن الحسين أبو العباس الحميرى القمى

(توفى بعد سنة ٢٩٠ هـ) اعتبر فى عصره أكبر عالم فى مدينة قم، و كان رئيس الطائفة الشيعية الموجودة هناك. بعد سنة ٢٩٠ هـ جاء إلى الكوفة و علم فيها. و كان يعد من خاصة أصدقاء الإمام الحادى عشر، و قد جمع مراسلاته معه فى كتاب، و ألف إلى ذلك كتباً عديدة^{٥٧}. و قد نقل الطوسى و ابن بابويه القمى الصدوق الكثير عنه فى كتبهما، و يقال إن من بين ما عاشه الحميرى ولادة الإمام الثانى عشر^{٥٨}. و لعل الطوسى و ابن بابويه قد استعملا هما أنفسهما كتب الحميرى. و لنذكر له هنا الكتب التالية:

(١) كتاب الغيبة،

(٢) كتب المسائل و التوقيعات،

(٣) كتاب مسائل عن محمد بن عثمان العمرى.

محمد بن مسعود بن محمد بن أيوب العياشى

(توفى فى نهاية القرن الثالث و بداية القرن الرابع الهجرى)

^{٥٢} (٣٢) منهج المقال، ص ٣١٣، و هبة الدين، رسالة خاصة.

^{٥٥} (٣٣) منهج المقال، ص ٢٦٠، و هبة الدين، رسالة خاصة.

^{٥٦} (٣٤) الكنتورى، ص ٤٥٢، منهج المقال، ص ٢٠، و هبة الدين، رسالة خاصة.

^{٥٧} (٣٥) فهرست الطوسى، ص ١٨٩، منهج المقال، ص ٢٠١، و كنتورى، ص ٤٥٢، و هبة الدين، رسالة خاصة.

^{٥٨} (٣٦) نفسه و كتاب الغيبة مثل الطوسى و غيره.

يبدو أنه كان أديبا غزير الإنتاج، فقد نسب إليه حوالى مائتى كتاب، معظمها يعالج الشريعة. و يقال إنه قد ورث عن أبيه ثروة كبيرة، و لكن الابن كان قد جمع فى بيته علماء و طلاب العلم، فأنفق، كما ذكر عنه، كل ميراثه على العلم و طلابه. و قد ذكر أنه كان فى بداية تعلمه سنيا، و لكنه سرعان ما انتمى إلى الشيعة. و نحن نعرف أن أحد طلابه، و هو رجل يدعى حيدر السمرقندى، قد عاش فى بداية القرن الرابع. و أذكر من عناوين كتب ابن عياش التى وصلتنا ما يلى:

(١) كتاب الغيبة

٥٩ (٢) كتاب الرجعة ٦٠.

علان الرازى، أحمد بن إبراهيم الرازى الكلينى^{٦١}

(توفى فى بداية القرن الرابع الهجرى) هو عم الكلينى المعروف، الذى توفى فى سنة ٣٢٨ هـ، و أذكر من مجموعة الكتب، التى ألفها الرازى:

أخبار القائم^{٦٢}

على بن محمد بن على السواق

(توفى فى بداية القرن الرابع الهجرى) كان الحديث ميدان تخصصه. و من عناوين كتبه، التى وصلتنا، آخذ

ص: ٢٤

فى تعدادى: كتاب الغيبة. أما بالنسبة لحياة هذا الرجل، فيقدم لنا سنداً عنها شخص يعرف باسم عبيد الله أحمد الأنبارى، و هو تلميذ له عاش فى بداية القرن الرابع الهجرى^{٦٣}.

محمد بن القاسم أبو بكر البغدادى

(توفى فى بداية القرن الرابع الهجرى)

كان معاصرا لأبى على بن همام، الذى توفى فى سنة ٣٣٢ للهجرة.

^{٥٩} (٣٧) منهج المقال، ١٢٨.

^{٦٠} (٣٨) منهج المقال، ص ٢١٩، و هبة الدين، رسالة خاصة.

^{٦١} (٣٩) كلين مكان فى مقاطعة الرى. يذكر بروكلمان، تاريخ الأدب العربى، ج ١ ص ١٨٧، ٣، محمد بن يعقوب الكلينى المعروف. ينظر كذلك فصلنا عن الكلينى.

^{٦٢} (٤٠) هبة الدين، رسالة خاصة، و انظر عن إعلان منهج المقال، ص ٣١ و ٣٢٩.

^{٦٣} (٤١) هبة الدين، رسالة خاصة، و منهج المقال، ص ٢٣٨ و ٢١٧.

و الكتاب الذى ينبغى ذكره هنا هو:

كتاب الغيبة^{٦٤}.

محمد بن إبراهيم النعماني

(توفى بعد ٣٢٨ هـ)

مؤلف كتاب الغيبة المشهور يعرف أيضا بلقب ابن زينب. و قد اتخذته الطلبة فى مسجد العتيقة ببغداد^{٦٥} كتابا تعليميا، و نصحوا بالاستفادة منه.

و كان النعماني من تلاميذ الكليني. ينظر بروكلمان، تاريخ الأدب العربى، التكملة ١، ص ٣٢١، رقم ١٩.

و ذهب إلى دمشق و مات فيها. و طبع الكتاب على الحجر فى طهران بإيران^{٦٦}، و عنوانه:

كتاب الغيبة.

ص: ٢٥

أبو الحسن أحمد بن جعفر بن محمد المنادى

(توفى بعد ٣٣٠ هـ)

لقد اختصر المؤلف كتاب: المقتصر على محدث العوام لبناء ملاحم غابر الأيام، و انتهى من تأليفه سنة ٣٣٠ هـ، و ذكر أحد العلماء أن الكتاب كان موجودا سنة ٤٨٠ للهجرة^{٦٧}.

عبد العزيز بن يحيى الجلودى

(توفى سنة ٣٣٢ هـ)

^{٦٤} (٤٢) هبة الدين، رسالة خاصة، و منهج المقال، ص ٣١٥.

^{٦٥} (٤٣) ذكر التجاشى (توفى سنة ٤٥٠ هـ) أنه ملك الكتاب و أن الشيعة كانوا يستعملونه فى ذلك الحين.

^{٦٦} (٤٤) هبة الدين، رسالة خاصة، منهج المقال، ص ٢٧٣، و الكنتورى، ص ٤٥٢، الشيعة و الفنون، ص ٩٢، علم الهدى (الطوسى) List of Shi ,ah books , ص ٢٤٤).

^{٦٧} (٤٥) بحار، ج ١٣، ص ٢٧.

تقع جلود فى ضواحي البصرة، و قد كتب المؤلف كتبا كثيرة يتصل معظمها بالتاريخ. عاش فى زمن الغيبة الصغرى، و عنوان كتابه:

أخبار المهدي^{٦٨}.

محمد بن على بن الفضل بن تمام بن سكين

(توفى بعد ٣٤٠ هـ)

هو واحد من أشهر كتاب الشيعة، و يعتبر عالما كبيرا. درس عليه التلعكبرى سنة ٣٤٠ هـ و استلم منه الإجازة فى هذا السنة. و يسمى كتابه الذى يستحق الذكر هنا:

كتاب الفرخ فى الغيبة^{٦٩}.

أبو محمد الطبرى المرعشى الحسن بن حمزة الحسينى

(توفى سنة ٣٥٨ هـ)

هو مؤلف كتاب بعنوان الغيبة، و كان يعتبر عالما ورعا، و قد ذكر الطوسى أن بعض الناس قد درسوا عليه سنة ٣٦٤ للهجرة، و هذا القول

ص: ٢٦

غير صحيح، و كثيرا ما يرتكب الطوسى مثل هذه الأخطاء. كان المفيد المشهور من تلاميذ الطبرى أيضا^{٧٠}.

محمد بن أحمد بن عبد الله الصفوانى

(توفى فى منتصف القرن الرابع الهجرى)

كان من تلاميذ الكلينى الشهير (توفى ٣٢٨ هـ). عاش فترة من الزمن فى الموصل، و كانت له صلة بأسرة حمدان الحاكمة. و قد كرس حياته لدراسة الفقه، و أطلق عليه لقب شيخ الطائفة اعترافا بفضله. كتب السيرة نفسها تعدّه أميا، و مع ذلك تفوق على معاصريه بعلمه و سعة اطلاعه^{٧١}. و من مؤلفاته:

^{٦٨} (٤٦) منهج المقال، ص ١٩٥، هبة الدين، فى رسالة خاصة.

^{٦٩} (٤٧) الكنتورى، ص ٤٥٣، و منهج المقال، ص ٣٠٩.

^{٧٠} (٤٨) منهج المقال، ص ٩٨.

^{٧١} (٤٩) منهج المقال، ص ٢٨٠، و هبة الدين، رسالة خاصة.

كتاب الغيبة.

الحسن بن محمد بن يحيى أبو محمد

(توفي ٣٥٨ هـ)

يعرف الحسن أيضا بابن أخى طاهر. و يصفه كتاب التراجم بأنه مجموعة من النوادر المأثورة المشكوك فى صحتها. مات فى بغداد، و دفن بها فى بيته بسوق العطش. عنوان كتابه:

كتاب الغيبة و ذكر القائم^{٧٢}.

الحسين بن حمدان الجنبلانى

(توفى سنة ٣٥٨ هـ)

و يعرف أيضا بالخصيبى و أحيانا الحزبى، كانت له عند النصيرية رتبة باب، و لذا رفضه الشيعة الاثنا عشرية، لكنهم مع ذلك أوردوا فى

ص: ٢٧

كتبهم مقتبسات من مؤلفاته باعتبارها براهين و أدلة، كما ذكرت فى أطروحتى فى غير ما موضع. و أذكر من كتبه الكثيرة، التى وصلتنا عناوينها^{٧٣} الشهيرة منها:

كتب الإخوان، كتاب المسائل،

كتاب تاريخ الأئمة، و كتاب الرسالة.

و تحتوى المكتبة الوطنية البروسية على مخطوطات تحت رقم ٤٧٧، يقال إن مضمونها يعود إلى الخصيبى. و قد فحصت هذه المخطوطات فوجدتها تحتوى على أخطاء نحوية، و كلمات تنطوى على أغلاط تاريخية و أشعار فظة.

أبو جعفر محمد بن على بن الحسين بن موسى بن بابويه القمى

(توفى سنة ٣٨١ هـ)

^{٧٢} (٥٠) منتهى المقال، ص ٢٠٤، منهج المقال، ص .. و هبة الدين، رسالة خاصة.

^{٧٣} (٥١) منهج المقال، ص ١١٢، و منتهى المقال، ص ١١٩.

هو الشيخ الصدوق المعروف، مؤلف الكتاب، الذي يحتوى على ٦٢ فصلا، و هو كتاب: كمال (إكمال) الدين و تمام (إتمام) النعمة فى إثبات الغيبة و كشف الحيرة.

تتعلق الفصول ٤٥-٤٩ بالمهدى، أما بقية فصول الكتاب فتتحدث عن الناس الذين عاشوا طويلا، و عن الأنبياء، الذين اختفوا لمدة طويلة أو قصيرة. ينظر شتروتمان، مصادر الشيعة، ص ١٥، رقم ٢٤، و بروكلمان، تاريخ الأدب العربى، ج ١ .. و التكملة ٣٢١/ ١٠ و ما بعدها.

كتب أخرى لابن بابويه عن الغيبة:

رسالة فى الغيبة إلى أهل الرى و المقيمين بها و غيرهم، المقنع فى الغيبة،

ص: ٢٨

طبع على الحجر فى طهران سنة ١٢٧٤ هـ.

كتاب المصباح الخامس عشر، و هو جزء من مجموعة تتعلق بالتوقيعات و المرسل إليهم، تاريخ الغيبة،

مخطوطة فى المكتبة الوطنية البروسية ببرلين المحفوظة تحت رقم ٤٦٥.

كتاب الرجعة، كتاب علامات آخر الزمان، السر المكتوم إلى اليوم المعلوم، الرسائل الثلاث فى غيبة الإمام الثانى عشر^{٧٤}.

كان ابن بابويه يرى رأى مواطنيه فى قم أن الأئمة يمكن أن يعترهم النسيان، فأخذه بعض الناس على ذلك^{٧٥}.

حنظلة بن زكريا بن يحيى بن حنظلة التميمى القزوينى أبو الحسن

(توفى سنة ٣٨٥ هـ)

كان معاصرا للتلعكبرى، الذى درس عليه و توفى سنة ٣٨٥ هـ، و عنوان كتاب حنظلة هو: كتاب الغيبة^{٧٦}.

عبد بن محمد البلوى

^{٧٤} (٥٢) روضات الجنات، ج ٣، ص ٥٥٧. عن ابن بابويه ينظر كتاب الخانجى رضى، الفصل ٤: أخبار رقم ٢٣٩، ص ٦٨، و هبة الدين، رسالة خاصة، ثم فهرست

كتاب الخانجى، ص ١٣١: الكتورى، ص ٢٧٥.

^{٧٥} (٥٣) منتهى المقال، ص ١٢٣، منهج المقال، ص ١٢٧ و ٣٨٥.

^{٧٦} (٥٣) منتهى المقال، ص ١٢٣، منهج المقال، ص ١٢٧ و ٣٨٥.

البلوى قبيلة في مصر، و قد أثنى بعض الكتاب على مؤلف:

كتاب الأبواب،

ص: ٢٩

و لكن آخرين انتقدوه. كان خطيبا و معلما للفقهاء^{٧٧}.

أبو محمد عبد الوهاب المادرائي أو الماداري

(توفي في نهاية القرن الرابع و بداية الخامس للهجرة)

لا نجد كثيرا عن حياته في كتب التراجم، فعلينا لذلك أن نكتفي بذكر مؤلفه:

كتاب الغيبة^{٧٨}.

أبو نصر هبة الله أحمد بن محمد الكاتب

(توفي بعد ٤٠٠ هـ)

كان معاصرا للشيخ الطوسي و يلقب أيضا بابن برنية. كان مختصا في علم الكلام. يقال إن جدته كانت ابنة السفير الثاني. و هو من تلاميذ الحسن بن شيبه العلوي، الذي كان زيدا، فكان يرى نتيجة لتأثره بأستاذه، على العكس من إخوانه في الدين، أن الأئمة ثلاثة عشر عوض اثني عشر، و زيد واحد من الثلاثة عشر. وردت ملاحظة في خندانى النوبختي مؤداها أن هبة الله قد عاش الغيبة الصغرى و أنه كان معاصرا للسفير الثالث ابن روح^{٧٩}، و لكن هذا خطأ. ذلك أن مصدر الخانداني النوبختي، و هو رجال النجاشي، ص ٣٠٨، يذكر أن النجاشي التقى بهبة الله لآخر مرة في النجف سنة ٤٠٠ للهجرة^{٨٠}. و قد كتب هبة الله عن موضوعنا في كتابه:

كتاب في أخبار أبي عمر و أبي جعفر العمريين^{٨١}.

ص: ٣٠

^{٧٧} (٥٤) الكنتوري، ص ٤٢١، منهج المقال، ص ٢١٠.

^{٧٨} (٥٥) منهج المقال، ص ٢١٦، و هبة الدين، رسالة خاصة.

^{٧٩} (٥٦) خندانى النوبختي، ص ١١٠.

^{٨٠} (٥٧) منتهى المقال، ص ٤٠٠، منهج المقال، ص ٣٥٩، النجاشي، ص ٣٠٨.

^{٨١} (٥٨) نفسه. ضد الإيضاح، ص ٣٥٤.

أحمد بن محمد بن نوح أبو العباس الصيرفي

(توفي في النصف الأول من القرن الخامس الهجري)

سكن البصرة و كان معلم النجاشي، و قد تحدث النجاشي عنه. كان الصيرفي يعتقد أن الله يرى بالعين يوم القيامة، و هذا الانحراف و غيره عن عقائد الشيعة يوحى بالتأثير السني^{٨٢}. لقد لاحظ الطوسي أنه سمع بالصيرفي، و تأسف لعدم رؤيته له، لأن الصيرفي كان يسكن البصرة^{٨٣}.

و كتاب أبي العباس الصيرفي، الذي استعمله هبة الله بن أحمد الكاتب كمصدر رئيس يدعى:

كتاب أخبار الأبواب أو أخبار الوكلاء الأربعة.

و قد استعمل الطوسي كتاب الصيرفي، فهو يكثر من ذكره في كتابه «الغيبة» و يقول عنه إن الصيرفي يرجع إلى أبي نصر الكاتب^{٨٤}.

أحمد بن محمد بن الحسن بن عياش الجوهري

(توفي سنة ٤٠١ هـ)

ينتسب المؤلف إلى أسرة معروفة في بغداد، و قد ألف كتباً كثيرة.

و يبدو أنه كان يتاجر في الأحجار الكريمة، لأنه وضع كتاباً عن فن صناعة اللؤلؤ و الأحجار الكريمة^{٨٥}. و قد أجهد نفسه بحفظ الأحاديث عن ظهر قلب، حتى إنه عانى في أواخر حياته من ضعف الذاكرة. كان هو و أبوه صديقين للنجاشي، و لكن النجاشي لم يكتب شيئاً عن الجوهري، لأن

ص: ٣١

الناس كانوا يشكون في عقل صديقه. و كتاب الجوهري الذي يهمننا هنا هو:

كتاب ما نزل من القرآن في صاحب الزمان و الوكلاء الأربعة، أو كتاب الوكلاء الأربعة^{٨٦}.

^{٨٢} (٥٩) الطوسي، فهرست، ص ٤٨، منهج المقال، ص ٣٩، منتهى المقال، ص ٤٥.

^{٨٣} (٦٠) الطوسي، فهرست، ص ٤٨، معالم العلماء، ص ١٨.

^{٨٤} (٦١) ينظر الغيبة، ص ٢٣٠، ٢٣١ و مواضع مختلفة من الكتاب.

^{٨٥} (٦٢) منهج المقال، ص ٤٥.

^{٨٦} (٦٣) نفسه، هبة الدين، رسالة خاصة.

المفيد محمد بن النعمان العكبرى البغدادى

(توفي سنة ٤١٣ هـ)

اشتهر هو الآخر بلقب ابن المعلم، و يعتبر فقيها كبيرا بين فقهاء الشيعة. يقال إن ٨٠. ٠٠٠ شخص شاركوا فى تشييع جنازته، و كان قد درس عليه كثير من الفقهاء^{٨٧}. و كتبه المتصلة بالغيبة هي:

الإرشاد فى معرفة حجج الله على العباد، و هذا الكتاب يعالج موضوع الأئمة الاثنى عشر، و تواريخ ميلادهم و الآيات القرآنية التى فسرهما الشيعة على أن لها صلة بهم، و كذلك بعض أقوال الأئمة^{٨٨}. و قد صدر الكتاب مطبوعا على الحجر بمدينة تبريز سنة ١٣٠٨ هـ.

كتاب الغيبة، أو مسائل الغيبة، بمعنى المسائل المتعلقة بالغيبة، و لا ينبغى الخلط بين هذا الكتاب و بين كتب: المسائل العشرة، للمؤلف نفسه.

مختصر كتاب الغيبة.

ص: ٣٢

المرتضى على بن الحسين الموسوى

(توفي سنة ٤٣٦ هـ)

كان من تلاميذ الشيخ المفيد، يدعو إلى الكلام المنظم و ينتقد بدعاء أتباع الأخبار الآحاد و أشياعها. و كان شاعرا معروفا له مكانته فى ميدان الأدب. و قد حاول بجميع الوسائل نشر عقيدته و تبريرها داخل الدين الإسلامى، و كتب ضد أولئك الذين حاولوا أن يقذفوا الشيعة بأنها غريبة عن الإسلام و أنها اتجاه خاص، و تفاوضوا مع الخليفة القادر بشأن الاعتراف بالذهب الشيعى و مساواته بالمذاهب السنية الأربعة. و قد روى أن الخليفة طلب ١٠٠٠٠٠ دينار من أجل الاعتراف، و أنه اكتفى بمبلغ ثمانين ألف دينار عندها لم يتمكن الشيعة من جمع ذلك المبلغ. و يقال إن المفاوضات فشلت لأنه كان من المستحيل على الشيعة حتى جمع هذا المبلغ المطلوب أيضا، حسب ما ذكره الشيعة عن هذه المسألة^{٨٩}.

من كتب المرتضى العديدة، التى تتصل بميداننا، ما يلى:

^{٨٧} (٤٤) روضات الجنات، ج ٣، ص ٥٤٣.

^{٨٨} (٤٥) الكنتورى، ص ٣٨، فهرست كتاب الخانجى، مجالس، ص ٩٦-٩٧، و انظر عن المفيد المنتظم، ج ٢، ص ٢٤٢ (مخطوطة برلين).

^{٨٩} (٤٦) روضات الجنات، ج ٣، ص ٣٨٥-٣٨٦، و الكنتورى، ص ٤١.

المقنع في الغيبة

كتاب الغيبة،

و قد طبع مع كتاب: حاشية تعليقات الخراساني، في طهران.

الشافى في الإمامة^{٩٠}.

محمد بن زيد بن علي الفارس

(توفي في بداية القرن الخامس الهجرى)

كان من بين تلاميذه المفيد النيسابورى^{٩١} عبد الرحمن بن أحمد بين الحسين، الذى درس أيضا على المرتضى، و الطوسى، و سلال (توفى

ص: ٣٣

سنة ٤٤٩ هـ) و الراضى، أخى المرتضى^{٩٢}.

محمد بن علي بن عثمان الكراجكى

(توفى ٤٤٩ هـ)

من علماء الحديث المشهورين، درس على علماء مختلفين من الشيعة، منهم المفيد، و المرتضى، و الطوسى، و كتب شروحا على مؤلفاتهم، و لنذكر من بين مؤلفاته الخاصة:

البرهان على طول عمر صاحب الزمان^{٩٣}.

أحمد بن محمد بن عمر بن موسى الجراح

(توفى في منتصف القرن الخامس الهجرى)

^{٩٠} (٦٧) هبة الدين، رسالة خاصة، روضات الجنات، ج ٣، ص ٣٨٦.

^{٩١} (٦٨) تذكرة المتبحرين، ص ٤٥٨، هبة الدين، رسالة خاصة.

^{٩٢} (٦٩) تذكرة المتبحرين، ص ٥٠.

^{٩٣} (٧٠) تذكرة المتبحرين، ص ٥٠٤، و هبة الدين، رسالة خاصة.

كان يلقب أيضا بابن الجندی، و كان من العلماء الذين درس عليهم النجاشی^{٩٤}. و كتاب الجراح يحمل العنوان المذكور مرارا و تكرارا:

كتاب الغيبة.

أحمد بن علی أبو العباس الرازی الخضیب

(٣٧٠ - ٤٥٠ هـ)

هناك آراء متعددة حوله، فقد أوضح بعضهم أنه اتخذ لنفسه آراء غلاة الشيعة، بينما اعتبره بعضهم الآخر متدينا صالحا^{٩٥}. و كتابه هو:

الشفاء و الجلاء فی الغيبة.

أبو الفرج المظفر علی بن الحسين الهمدانی الأسدی

(توفي فی منتصف القرن الخامس الهجرى)

ص: ٣٤

سنتحدث عنه عند ما نتطرق للسفير الرابع. و كتابه المهم يسمى:

كتاب الغيبة.

أبو جعفر بن محمد الحسن بن علی الطوسى

(توفي سنة ٤٦٠ أو ٤٥٩ هـ)

ألف الطوسى كتابه «الغيبة» بأمر من أستاذه المفيد^{٩٦}. و محتواه يشبه تقريبا محتوى كمال الدين للصدوق بن بابويه، على أن الطوسى يتوسع فى بعض الفصول، و قد طبع الكتاب سنة ١٣٢٥ بمدينة تبريز.

و كثيرا ما يناقض الطوسى نفسه، و سأقدم البرهان على ذلك فى أطروحتى، و ليس فى هذا الكتاب فقط، بل إن هذا النوع من التناقض هو ما يميز كل مؤلفاته بالذات. فقد أورد أحكاما متناقضة للمسألة نفسها، فاختلف فيه علماء الشيعة بعده، و مع ذلك

^{٩٤} (٧١) هبة الدين، رسالة خاصة، و منهج المقال، ص ٤٦، و تذكرة المتبحرين، س ٤٦١.

^{٩٥} (٧٢) منهج المقال، ص ٣٨ و ما بعدها.

^{٩٦} (٧٣) الغيبة، ص ٢.

دأبوا على الإحالة عليه. و هناك من حاول فيما بعد أن يجد مبررا لتلك التناقضات، و هو أن الطوسي كان يسهو و يختلط الأمر عليه لغزارة علمه^{٩٧}. و نلاحظ كذلك تذبذبا غريبا فى اتجاهه العلمى: فهو مرة مثل الأخباريين، و مرة أخرى مثل الأصوليين^{٩٨}. و قد هاجمه بسبب هذا التذبذب محمد بن أحمد بن إدريس (توفى سنة ٥٧٨ أو ٥٩٨ هـ)، الذى جاء بعده، بحدّة إلى حد ما^{٩٩}. و قد نال الطوسي فى بغداد شهرة كبيرة، حتى إن الخلفاء عينوه مدرسا لعلم الكلام، و كان له حوالى ٣٠٠ تلميذ من الشيعة و السنة على السواء. ترك بغداد فى سنة ٤٤٨ بعد الهجرة ليذهب إلى النجف، لأن السنين هاجموا جانب الكرخ و حرقوا بيته^{١٠٠}. ينظر بروكلمان، التتمة، ص ٧٠٥، ٢١.

ص: ٣٥

محمد بن الحسن بن حمزة الجعفرى أبو على

(توفى ٥٦٣ هـ)

كان نائب أستاذه المفيد و خليفته، و هناك كتب كثيرة تنسب إليه، منها:

المسألة فى مولد صاحب الزمان^{١٠١}.

أبو عبد الله محمد بن على بن الحسن العلوى

(عاش فى منتصف القرن السادس الهجرى)

ألف كتبا بعنوان: كتاب التنازى. فى هذا الكتاب القصصى يتحدث عن رحلة بحرية من مدينة الباهلة المسيحية إلى جزيرة، تتواصل الرحلة به منها إلى أن يصل إلى جزيرة، توجد بها مملكة ابن المهدي، ثم يصل أخيرا إلى جزيرة، يحكم المهدي نفسه. و هذه المدينة الفاضلة هى المملكة المثالية التى يكون فيها جميع الناس سعداء راضين بما لهم فيها من حظ و نصيب و نعيم، تسود فيها الثروة و الجباية، و لا يوجد بها فقراء، و الديانة الرسمية الوحيدة فيها هى الديانة الشيعية^{١٠٢}.

أمين الدين أبو على الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسى

^{٩٧} (٧٤) روضات الجنات، ج ٣، ص ٥٨٠ - ٥٨٢.

^{٩٨} (٧٥) نفسه

^{٩٩} (٧٦) روضات الجنات، ج ٣، ص ٥٩٩.

^{١٠٠} (٧٧) نفسه

^{١٠١} (٧٨) منتهى المقال، ص ٢٦٨، و منهج المقال، ص ٢٩٠.

^{١٠٢} (٧٩) بحار، ج ٣١، ص ٢٥٥.

(توفى سنة ٥٤٨ هـ و قيل ٥٥٢ هـ)

يعالج الإمامة فى كتابه: علم الورى بأعلام الهدى. و قد قسم الكتاب إلى أجزاء، و قسمت أبوابه بدورها إلى فصول. يتحدث فى القسم الأول عن حياة النبى و تعاليمه، و يتحدث فى الثانى عن على، و فى الثالث عن إمامة أبنائه، و يتحدث الأخير عن تعاليم الإمامة و الإمام الثانى عشر.

و فى الفصل الأخير يعالج الغيبة على العموم و تصرفات المؤمنين فى هذا

ص: ٣٦

العصر^{١٠٣}. و له كتاب آخر: كنوز النجاح^{١٠٤}. ينظر شتروتمان، الإسلام IX، و بروكلمان، التكملة، ص ٧٠٨ - ٧٠٩.

قطب الدين أبو الحسين سعيد بن هبة الله بن الحسن الراوندى

(توفى سنة ٥٦٣ هـ)

يتحدث فى كتابه الخرائج و الجرائح فى المعجزات، عن معجزات النبى و الأئمة. و يتكون من ٢٠ فصلا، ١٣ عن معجزات النبى و الأئمة الاثنى عشر و السبعة الأخرى عن النبى محمد و كذلك عن الكتب، التى ظهرت قبل الإسلام و بشرت بمجىء النبى^{١٠٥}. طبع الكتاب فى بومباى سنة ١٣٠١ للهجرة (٢٨٣). ينظر بروكلمان، التكملة، ص ٦٢٤، د ٨ و ٧١٠، ٣ س.

أحمد بن الحسين بن عبد الله المهرانى الآبى

(توفى فى القرن السادس الهجرى)

أراد فى كتابه النقدى أن يدافع عن عقيدته أمام الناس، الذين لا يؤمنون بالإمام المختفى، و لذلك جعل لكتابه عنوان:

ترتيب الأدلة فيما يلزم خصوم الأئمة دفعه عن الغائب و الغيبة^{١٠٦}.

رشيد الدين أبو جعفر محمد بن على بن شهر اشوب المازندراني

(توفى ٥٨٨ هـ)

^{١٠٣} (٨٠) الكنتورى، ص ٥٤، و تذكرة المتبحرين، ص ٤٩٢.

^{١٠٤} (٨١) الكنتورى، ص ٢٠٤.

^{١٠٥} (٨٢) كتاب الخانجى، ص ٧٠.

^{١٠٦} (٨٣) تذكرة المتبحرين، ص ٤٥٨ (عدد الصفحات من منهج المقال) و معالم، ص ٢٠.

كان فقيها أديبا، حصر عمله الرئيس في ميدان التراجم، و عنوان كتابه هو: مناقب آل أبي طالب. و فيه يتحدث هو الآخر عن الأئمة الاثنى

ص: ٣٧

عشر^{١٠٧}، و يتكون الكتاب من سبعة أجزاء و قد تم طبعه على الحجر في مجلدين بطهران.

الأشرف بن الغر بن هاشم

(توفي ٦١٠ للهجرة)

يعرف أيضا بالتاج العلوي، و هو مؤلف:

كتاب الغيبة^{١٠٨}.

يحيى بن أبي طي الغساني

(توفي سنة ٦١٠ هـ)

ألف هذا المؤرخ الشيعي المعروف «كتاب الجواهر»، و خص فيه السفير الثالث بست صفحات^{١٠٩}. و كانت أسرة طي مشهورة جدا بين الشيعة، و قد أنجبت عددا من العلماء المشهورين^{١١٠}، و استعمل كتابه عدد كبير من المؤرخين من أمثال ابن العديم الحلبي في كتابه «تاريخ حلب» و الذهبي في أماكن كثيرة من كتابه «تاريخ الإسلام»، و كذلك ابن الفرات المصري في تاريخه، ثم المقرئ.

سبط بن الجوزي

(توفي سنة ٦٥٤ هـ)

هو شمس الدين بن قز أوغلي. كان أبوه عتيقا تركيا، و كان جده لأمه العالم و المؤرخ ابن الجوزي، بحيث أصبح سبط بن الجوزي مؤرخا أيضا. درس سبط في بغداد، ثم انتقل إلى دمشق و اشتغل بها خطيبا

ص: ٣٨

^{١٠٧} (٨٤) نفسه، ص ٥٠٤.

^{١٠٨} (٨٥) هبة الدين، رسالة خاصة.

^{١٠٩} (٨٦) الذهبي، ج ٢ مخطوط، ص ١٣٢.

^{١١٠} (٨٧) خندانى النوبختي، ص ٢٢٢، أمل الآمل، ص ٤٨٨، روضات الجنات، ص ٢٠٠ / ١.

و عالما إلى أن وافاه أجله. يتصل من أعماله بموضوعنا كتابه «تذكرة خواص الأمة بذكر خصائص الأئمة»، و هو تاريخ الأئمة الاثنى عشر.

و يتحدث المؤلف هنا عن الإمام الثاني عشر، المهدي، حسب تصور الشيعة له، و لذلك وجه إليه المؤرخ الذهبي كلمات لاذعة^{١١١}. و قد طبع الكتاب على الحجر بطهران سنة ١٢٨٥ هـ^{١١٢}. ينظر بروكلمان، ج ١، ص ٣٤٧ / ٣

أبو عبد الله بن يوسف الشافعي الكنجي

(توفي سنة ٦٥٨ هـ)

يتناول كتابه، و هو بعنوان: «كتاب البيان في أخبار صاحب الزمان»، سيرة المهدي و يستشهد بكتب السنة. و يقال إن المؤلف نفسه كان سنيا (شافعيا)^{١١٣}، و يحتوى كتابه على ٢٥ فصلا. و هو أيضا مؤلف كتاب «كفايات الطالب في مناقب علي بن أبي طالب»، و قد اعتمد على كتابه الشيعة و السنة على السواء. و كان قد كتبه للوزير الأول و المستشار دون ذكر اسمه، و طبع الكتاب ملحقا بكتاب الغيبة للطوسي في تبريز سنة ١٣٢٤ هـ^{١١٤}.

رضي الدين علي بن موسى الطاوس (الطاوسي)

(توفي سنة ٦٦٤ هـ)

كان عالما و شاعرا، و كتب العديد من الكتب^{١١٥}، و صلتنا منها بعض المخطوطات بخط يده، فهناك على سبيل المثال «كتاب الطرائف في

ص: ٣٩

مذاهب الطوائف» المحفوظ تحت رقم ٢١٧٧ ب م ٢٧٣ في المكتبة الوطنية البروسية ببرلين، بالقسم الشرقي. و إلى هذا ينتمي كتاب «ربيع الشيعة»، الذي يتناول السفراء الأربعة و الوكلاء الذين نابوا عنه. و هو يحتوى، بناء على ما عرفناه من كتب أخرى، على أشياء كثيرة لا وجود لها عند الطوسي، حتى إنه يروى في بعض الأحيان عكس ما يرويه الطوسي، كما هو الأمر مثلا فيما يتصل بابن بلال، الذي اعتبره الطوسي كافرا و هاجمه بسبب ذلك، بينما اعتبره ابن طاوس مؤمنا، بل إنه اعتبره زيادة على ذلك

^{١١١} (٨٨) تاريخ آداب اللغة، ج ٣، ص ٨٢ / ٨٣.

^{١١٢} (٨٩) أخبار، ج ٤، ص ٥٨، رقم ١٠، فهرست، كتاب الخانجي، مجلس فضلي.

^{١١٣} (٩٠) الغيبة، المقدمة، ص ٢ - ٤.

^{١١٤} (٩١) نفسه، و ص ٣٠٢ - ٣٠٤.

^{١١٥} (٩٢) تذكرة المتبحرين، ص ٤٩٠.

وكيلاً^{١١٦}. وقد اعتمد عليه الأسترآبادى بن على بن إبراهيم مؤلف كتاب «الرجال الكبير» (توفى سنة ١٠٣٦ هـ) اعتماداً كبيراً، و هذا يعنى بالضرورة أن الكتاب كان لا يزال موجوداً فى عصره. وقد استعملت فى أطروحتى ما وصلنا منه عن طريق مؤلفين آخرين. وقد قيل إن عدد تلاميذه كان كبيراً جداً.^{١١٧} وفى وسعنا أن نستعمل من كتب ابن طاوس فى موضوع الغيبة الصغرى كتابين^{١١٨} له هما:

ربيع الشيعة، غياث سلطان الورى^{١١٩}.

بهاء الدين أبو الحسن على بن عيسى الإربلى

(توفى سنة ٦٩٢ هـ)

لم يكن فقيهاً وأديباً فقط، وإنما كان شاعراً أيضاً، ويتضح لنا فنه فى أحد كتبه، وهو «كشف الغمة فى معرفة الأئمة»، حرص فيه على ذكر كل إمام، ومنهم المهدي، نثراً (ترجمة وما شابهها) و شعراً. وكان الانتهاء من تأليف الكتاب سنة ٦٨٧ هـ، ومن الممكن اليوم الحصول عليه فى طبعة

ص: ٤٠

صدرت فى إيران^{١٢٠}. ينظر بروكلمان، التكملة، ص ٧١٣ / ١٠.

الفضل بن يحيى الطيبي

(عاش فى نهاية القرن السابع و بداية الثامن الهجريين)

أصل هذا الرجل من الكوفة، ولكنه عاش فى الحلة و النجف. و قد سمعنا أنه درس على الإربلى المذكور و نال منه الإجازة. و الطيبي مؤلف قصة إيطارية، تقوم على تجربة وقعت سنة ٦٩٩ هـ فى مدينة الحلة لشخص يدعى زين الدين بن على بن فاضل المازندراني^{١٢١}. فقد روى هذا للمؤلف أنه ذهب مع أستاذه السنى لتعلقه به إلى إسبانيا، فانتابته الحمى هناك فى أول مدينة وصلا إليها، فتركه أستاذه فى تلك المدينة و واصل طريقه إلى المكان الذى كان يقصده. ولكنه زين الدين شفى من مرضه بعد ثلاثة أيام، و سمع أن هناك جزيرة تدعى «جزائر الرافضة»، لا يسكنها سوى الشيعة. فانضم فى غمرة فرحته بذلك - فقد كان شيعياً -

^{١١٦} (٩٣) الغيبة، ص ٢٦٠.

^{١١٧} (٩٤) منهج المقال، ص ٣٠٦.

^{١١٨} (٩٥) ينظر على الخصوص تراجم الوكلاء إضافة إلى مواضع مختلفة من الكتاب.

^{١١٩} (٩٦) ينظر بحار، ج ١٣، ص ٢٥٣.

^{١٢٠} (٩٧) تذكرة المتبحرين، ص ٤٨٩، كتاب الخانجى راضوى، نسخ ٤: أخبار، ص ٧٦، رقم ٢٣٤، كنتارى: ٤٦٧، أمل الآمل، ص ٥٤، روضات الجنات، ص ٣٩٦.

^{١٢١} (٩٨) مازندران مدينة فى إيران، ينظر ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٩٢.

إلى المسافرين، الذين كانوا قد جاءوا من تلك الجزيرة إلى إسبانيا، و سافر معهم إليها. و فى «الجزيرة الخضراء» تجلى له سحر الطبيعة، و تحدث فيها أيضا مع العلماء و سئل عن الديانة التى كان يدين بها، لأنه لم يكن من الواجب أن يكون المرء مسلما فقط، وإنما يجب أن يكون فوق ذلك شيعيا أيضا، و ناقش مع عالم يدعى شمس الدين مسائل دينية، و سجل أجوبته عن المشاكل، التى لا يوجد لها حل عادة، فى كتاب، أسماه «الفوائد الشمسية». و قد نصحه العالم شمس الدين بعدم البقاء فترة طويلة فى الجزيرة، فعمل بنصيحته و عاد إلى وطنه. و هذه القصة موجودة بتمامها فى «بحار الأنوار»، ج ١٣، ص ١٤٣ - ١٤٨^{١٢٢}.

ص: ٤١

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قيمان شمس الدين زاهبي

(توفى سنة ٦٧٣هـ - ٧٤٨هـ) اختصر الذهبى الصفحات الست التى كتبها ابن أبى طى عن السفير الثالث، و لم يتم طبع الكتاب. و هناك مخطوطات مختلفة منه ببرلين و غوتاGotha و باريس و كذلك فى مدن أخرى أوربية و شرقية.

و المخطوطات غير متجانسة، بعضها لا يحتوى إلا على مقتبسات من الأصل سجلت بصورة لا تخلو من تعسف، فقد وجدت أن الصفحات الست لابن أبى طى ليست محفوظة فى المكتبة الوطنية البروسية، و إنما فى المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم القسم العربى ١٥٨١^{١٢٣}. ينظر بروكلمان، ج، ص ٤٦، و خاندانى النوبختى، ص ٢٢١ و ما بعدها.

الحسن بن سليمان بن محمد بن خالد الحلبي

(توفى فى نهاية القرن الثامن و التاسع الهجرى) كان من تلاميذ الشهيد الأول (قتل سنة ٧٨٦هـ). و كتاب الحلبي الذى يجب علينا ذكره هنا يدعى:

كتاب الرجاء^{١٢٤}

على بن عبد الله بن عبد الحميد بن فخار بن مسعد الحسيني النجفي

(نهاية القرن الثامن الهجرى) ألف مجموعة من الكتب فى عصر العالم الشهيد الأول القليل سنة ٧٨٦هـ. و نذكر من كتب النجفى هنا:

كتاب الغيبة،

^{١٢٢} (٩٩) عن كتاب هذه القصة ينظر أيضا تذكرة المتبحرين، ص ٤٩٢.

^{١٢٣} (١٠٠) عن الذهبى ينظر تاريخ أدب اللغة العربية، ج ٣، ص ١٨٩.

^{١٢٤} (١٠١) تذكرة المتبحرين، ص ٤٦٧، و هبة الدين، رسالة خاصة.

الأنوار المضيئة في الحكمة الشرعية المستنبطة من الآيات الإلهية في أحوال صاحب العصر و الزمان عليه السلام.

ص: ٤٢

و يتألف الكتاب الأخير من ١٢ فصلا، كلها تقدم الدليل على أن الإمام الثاني عشر قد عاش فعلا، و يستدل المؤلف على ذلك بالكتب الشيعية و السنية على السواء. كتب عن والدى الإمام الثاني عشر، و عن تاريخ ولادته، و عن الزمن المفترض لحياته، و عن وكلائه و توقيعاته، و ذكر بعضا من الناس، الذين ادعوا أنهم رأوا الإمام الثاني عشر^{١٢٥}.

و قد اختصر الكتاب شخص يدعى أبا على محمد بن همام تحت عنوان «مختصر الأنوار المضيئة في الحكم الشرعية»^{١٢٦}. و توجد في موضع آخر من الكتتورى ملاحظة تدل على أن الحسينى قد ألف كتابا آخر تحت عنوان «السلطان المفرج عن أهل الإيمان»^{١٢٧}، و لكن هذا الكتاب يذكر في «بحار الأنوار» تحت عنوان «السلطان المفرج عن أهل الإيمان» و ينسب إلى على بن عبد الحميد النيلي^{١٢٨}.

على بن الحسين بن عبد العالى الكركى المحقق الثانى

(توفى سنة ٩٣٩ أو ٩٤٠ هـ)

كان من العلماء الذين نشروا العقيدة الشيعية في بلاد فارس، و كان له أثر كبير في الشاه طهماسب، الذى ينحدر من الأسرة الصفوية. و عن طريق هذا العالم تولى زملاؤه في المهنة قيادة الدولة. و نذكر من كتبه، التى طبعت منها أعداد كبيرة:

رسالة في الغيبة^{١٢٩}.

ص: ٤٣

محمد باقر بن سيد شمس الدين الحسينى الداماد

(توفى سنة ١٠٤٠ هـ)

^{١٢٥} (١٠٢) الكتتورى، ص ٦٩، بحار ج ١٣، ص ٢٥٢.

^{١٢٦} (١٠٣) الكتتورى، ص ٢٩٥.

^{١٢٧} (١٠٤) نفسه، ص ٣١١ رقم ١٦٦٢.

^{١٢٨} (١٠٥) بحار، ج ١٣، ٢٥٧.

^{١٢٩} (١٠٦) آثار الشيعة، ج ٤، ص ١١٩. ابتداء من صفحة ١١٦ توجد ترجمة جيدة لهذا العالم.

ألف كتاباً^{١٣٠} بعنوان: رسالة فى مناهج تسميات المهدى^{١٣١}.

محمد بن الحسن الحر العاملى

(توفى فى القرن الأول للهجرة)

ألف كتاباً بعنوان: «إثبات الهداة بالنصوص و المعجزات»، يصف فيه معجزات المهدى^{١٣٢}.

و للشهيد الثانى كتب أخرى هى:

رسالة الرجاء، و يتضمن ١٢ فصلاً، تحتوى على ٦٠٠ حديث، و ٦٤ آية من القرآن.

كشف التعمية فى حكم التسمية.

منظومة فى تاريخ النبى و الأئمة.

و له شهرة فى علم الحديث، و ينتمى إلى مجموعة الأخبارية^{١٣٣}، و لنذكر له زيادة على ذلك كتاب: الإيقاظ من الهجعة بالبرهان على الرجعة^{١٣٤}.

محمود بن فتح الله الحسينى الكاظمى

يقال إنه كان معاصراً للحر العاملى و ألف كتاباً بعنوان: رسالة فى الرجعة^{١٣٥}.

ص: ٤٤

محمود بن غلام على الطبسى

قليل عنه أيضاً إنه كان معاصراً للحر العاملى، و كان قاضياً فى مدينة مشهد^{١٣٦}.

^{١٣٠} (١٠٧) روضات الجنات، ج ١، ص ١١٤.

^{١٣١} (١٠٨) بحار، ج ١٣، ص ١٧٢.

^{١٣٢} (١٠٩) تذكرة المتبحرين، ص ٤٤٨، و روضات الجنات، ج ٣، ص ٥٤٤.

^{١٣٣} (١١٠) هبة الدين، رسالة خاصة.

^{١٣٤} (١١١) الكنتورى، ص ٢٦٣، رقم ١٣٩٥.

^{١٣٥} (١١٢) نفسه، ص ٢٦٣، رقم ١٣٩٦.

^{١٣٦} (١١٣) هبة الدين، رسالة خاصة.

محمد بن الحسين بن عبد الصمد الحارثي البهائي

(ولد سنة ٩٥٣ و توفي ١٠٣٠ أو ١٠٣١ هـ)

و هو عالم شاعر، ينتسب إلى جبل عامل، ألف مجموعة شعرية تحت عنوان «الفوز و الأمان في المهدي صاحب الزمان». و قد كبرت هذه المجموعة بما أضافه إليها الكثير من الشعراء من أشعارهم الخاصة، منهم على سبيل المثال الشيخ جعفر الخطي، و الأمير إبراهيم القزويني (توفي ١٣٤٥ هـ)، و شرح كثير من مؤرخي الأدب هذه الأشعار، مثل عبد الله بن نور الدين الغضائري، الذي أطلق على شرحه عنوان «وسيلة الفوز و الأمان»، و قد طبع الشرح ملحقاً بكتاب كشكول البهائي. و كتب الشيخ جعفر النقدي أيضاً شرحاً له بعنوان متن الرحمن (طبع أيضاً)^{١٣٧}. و قد اشتغل البهائي أيضاً بعلم الرياضيات و علم الفلك. أما في ميدان التوحيد و الفقه، فكان يرى أن القاضى الشرعى، الذى يحكم بعدل، لا ينبغى له أن يتحمل مسئولية الخطأ أمام الله و أن السنة - على العكس من المفهوم الشيعى - لا يخلدون فى النار.

سيد على خان الحويزى

(توفى فى نهاية القرن الحادى عشر الهجرى)

كان أميراً و عالماً، و اعترف به الصفويون أميراً على منطقته، و ألف كتباً عديدة، منها كتابه «خير المقال»، الذى كتبه سنة ١٠٨٩ هـ، و تحدث

ص: ٤٥

فيه عن النبى و عن الأئمة^{١٣٨}.

سيد نعمة الله الجزائرى

(ولد سنة ١٠٥٠ هـ)

من كتبه العديدة بخط يده «كتاب المقالات»، الذى يوجد موجز منه فى بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٢٨٢، يتحدث فيه عن رحلة تاجر إلى جزيرة الإمام فى الخليج الفارسى^{١٣٩}.

سيد محمد مؤمن الحسينى الأسترآبادى

^{١٣٧} (١١٤) روضات الجنات، ج ٣، ص ٥٣٢ و ما بعدها، و تذكرة المتبحرين، ص ٤٥٠.

^{١٣٨} (١١٥) آثار الشيعة، ج ٤، ص ٢٠١؛ و الحويزة مكان بين واسط و البصرة و خوزستان (ينظر ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ٣٧١).

^{١٣٩} (١١٦) قصص العلماء، ص ٣٣٧.

(توفي ١٠٦٩ أو ١٠٨٨ هـ)

سماه هبة الدين في رسالته حجي ميرزا محمد مؤمن و ذكر سنة وفاته ١٠٨٨ هـ، و عنوان كتاب الأسترآبادي هو «رسالة في الرجاء»^{١٤٠}.

سيد حسين بن سليمان بن إسماعيل التنكاني (الكتكاني) البحراني

(توفي سنة ١١٠٧ هـ)

عوض التنكاني يدعى هذا العالم أحيانا الكتكاني^{١٤١}، و كمكان مكان في البحرين، و هو من رجال الحديث، لم ينازعه في مجده في عصره سوى المجلسي، و قد توفي التنكاني سنة ١١٠٧ هـ^{١٤٢}. قال مؤلف «كتاب قصص العلماء» إنه توفي سنة ١١٠٩ هـ^{١٤٣}. و هذا خطأ، لأن التنكاني خلف العالم الشهير ابن ماجد^{١٤٤}، و كان هذا معاصرا

ص: ٤٦

لمحمد بن الحسن بن علي، المعروف بابن الحر العاملي^{١٤٥}. فابن الحر العاملي لم يولد إلا في سنة ١٠٣٣ هـ، لذلك لا بد أن يكون التنكاني قد عاش سنوات بعد ١٠٣٣ هـ، و عند ما قرأ بأن سليمان بن عبد الله البحراني، تلميذ التنكاني و توفي سنة ١١٢٠ هـ، كان قد تولى منصب أستاذه، فإننا نقتنع بأن التاريخ الصحيح هو ١١٠٧ هـ. لقد عاش البحراني ٥٠ سنة، فلا بد أن يكون قد ولد سنة ١٠٧٠ هـ^{١٤٦}. إذن فدعوى «قصص العلماء» خاطئة. و كتابا التنكاني اللذان ينبغي لنا ذكرهما هنا، هما:

المحجة فيما نزل بالحجة، كتاب مولد القائم.

محمد باقر بن محمد تقى الأصفهاني المجلسي

(توفي سنة ١١١٠ هـ)

كان يعيش في مدينة أصفهان، و كان له نفوذ كبير على الشاه الصفوي سلطان حسين. و قد اهتم المجلسي خاصة بالأحاديث، التي لم ترد في كتب الأحاديث الشيعية الأربعة و اشتغل مترجما إلى الفارسية. كان قد سمع أن هناك و ثنا في أصفهان، يعبد الهنود

^{١٤٠} (١١٧) الكنتوري، ص ٥٢٦، رقم ١٣٩٣، و هبة الدين، رسالة خاصة.

^{١٤١} (١١٨) قصة العلماء، ص ٢٢٥.

^{١٤٢} (١١٩) الكنتوري، ص ٤٩٣.

^{١٤٣} (١٢٠) قصص، ص ٢٢٥.

^{١٤٤} (١٢١) نفسه.

^{١٤٥} (١٢٢) قصص العلماء، ص ٢٢٤.

^{١٤٦} (١٢٣) قصص، ص ٢١٥.

سرا، و مع أن الهنود كانوا يقدمون أموالا كثيرة من أجل السماح لهم بعبادة الأوثان، فقد نجح المجلسى فى تحطيم ذلك الوثن^{١٤٧}.
و نذكر من كتب المجلسى الكثيرة ما يتصل منها بموضوعنا:

بحار الأنوار،

ص: ٤٧

و يتضمن ٢٥ أو ٢٦ جزءا فى ١٤ مجلدا. الجزء ١٣ يتناول المهدي و الغيبة. و قد جمع الكتاب من مصادر مختلفة، كانت فى متناول المؤلف، ينظر شتروتمان، مصادر الشيعة، ص ٢ أعلاه، حيث ذكر أيضا بروكلمان ص ٤١١ فقرة ٢ رقم ٦، و براون ص ٤٠٩ و ٤١٧. و قد صدرت المجلدات كلها فى طبعة على الحجر فى بلاد فارس.

علائم الظهور؛

فى هذا الكتاب يحاول المجلسى أن يبرهن من خلال مقارنة حديثين أن حكم الصفويين هو علامة الغيبة^{١٤٨}. و قد ألف الكتاب بالفارسية و طبع على الحجر فى الهند^{١٤٩}.

كتاب التوقيعات و ترجماتها إلى الفارسية و الكتاب ترجمة لجميع التوقيعات، التى تنسب إلى الإمام الثانى عشر، إلى اللغة الفارسية. طبع فى بومباى^{١٥٠}.

أبو الحسن الشريف العاملى

(معاصر المجلسى)

قليل إنه كان تلميذ المذكور سابقا و ألف كتابا شاملا تحت عنوان «ضياء العالمين». و قد ذكر أن هذا الكتاب يحتوى زيادة على النثر، على ٦٠. ٠٠٠ بيت من الشعر، يتناول الجزء الأول الغيبة منه و يتحدث عن معاصرى المؤلف، الذين رأوا الإمام الثانى عشر فى الغيبة الكبرى أو ادعوا أنهم كانوا على صلة به^{١٥١}.

ص: ٤٨

عبد الله بن نور الدين البحرانى

^{١٤٧} (١٢٤) روضات الجنات، ج ١، ص ١١٨. فى قصص العلماء، ص ١٦١ و ما بعدها، يجد المرء الشيء الكثير عن حياة المجلسى.

^{١٤٨} (١٢٥) فهرست كتاب الخانجى رضى، القسم الرابع، ص ١٩، رقم ١٠٦.

^{١٤٩} (١٢٦) نفسه.

^{١٥٠} (١٢٧) هبة الدين، رسالة خاصة.

^{١٥١} (١٢٨) بحار، ج ١٣، ص ٢٧٣ (أى جنة المأوى).

(توفى سنة ١١١٤ هـ)

كتابه «العوالم» مقسم إلى أربعة مجلدات كبيرة، و منهجه هو منهج المجلسي في كتابه «بحار الأنوار»، و لكنه استعمله بشكل أفضل. و قد طبع الكتاب في إيران، و الجزء الأول منه يتحدث عن النبوة، و الثانى عن الإمامة، و الثالث عن الغيبة، و الرابع عن على بن أبى طالب^{١٥٢}.

مولى محمد رضا الإمامى

(توفى سنة ١١٣٧ هـ)

كتابه «جنة الخلود فى الآثار المتعلقة بالأئمة»، يتناول الأئمة على شكل ألواح، و كان قد أهداه المؤلف إلى الشاه حسين الصفوى^{١٥٣}.

طبع فى طهران سنة ١٨٤١ م^{١٥٤}.

شيخ محمد بن أبى عزيز الخطى البحرانى

(توفى سنة ١٢٠٠ هـ)

كتابه يحمل عنوان «ذخيرة المحشر فى أحوال الإمام المنتظر»^{١٥٥}.

على أصغر بن على أكبر البروجردى

(توفى فى القرن الثالث عشر الهجرى) عنوان كتابه «نور الأنوار فى آثار ظهور الحجة و رجعة الأئمة الأطهار»، و قد انتهى من تأليفه سنة ١٢٢٣ هـ^{١٥٦}.

ص: ٤٩

سيد دلدار على بن محمد الناصر آبادى

^{١٥٢} (١٢٩) لغة العرب، ج ٧، ص ٢٢٣.

^{١٥٣} (١٣٠) كتاب الخانجى رضى، ص ٢١٨.

^{١٥٤} (١٣١) أئمة الشيعة الاثنا عشر، ص ٣٧٥، The Twelve - Shi'a Imam.

^{١٥٥} (١٣٢) هبة الدين، رسالة خاصة.

^{١٥٦} (١٣٣) نفسه.

(توفى سنة ١٢٢٥ أو ١٢٣٥ هـ)

كتب هذا العالم كتباً يرد فيها على كتب السنة، التي تنكر وجود المهدي، و تتمثل هذه الردود فيما يلي:

«رسالة في غيبة صاحب العصر و الزمان خليفة الرحمن، و رسالة الغيبة في الرد على التحفة الاثنا عشرية»^{١٥٧}.

شيخ أحمد الأحسائي

(توفى سنة ١٢٤١ أو ١٢٤٢ هـ)

أصله من جزيرة البحرين الصغيرة الواقعة في الخليج الفارسي، و عاش فترة طويلة في إيران و العراق. و يقال إن مبالغته في تمجيد الأسرة المقدسة قد حملت معظم علماء ذلك العهد على إصدار فتوى يتهمونه فيها بالزندقة، و يعرف أتباعه بالشيخية. بعد موته ترأس مذهبه الشيخ كاظم الرشتي (توفى ١٢٥٨ هـ). و بما أن أصل هذا الرجل، و هو تلميذ الأحسائي، من مدينة رشت (في إيران) فقد اتخذ تلاميذه اسم الرشتية.

و لنذكر من كتب أستاذه: «رسالة في العصمة و الرجعة»، و قد لا حظ هبة الدين أن مؤلف كتاب الشيخ هو مهدي بن أحمد، و كان من تلاميذ المؤلف^{١٥٨}.

ص: ٥٠

سيد عبد الله شبر

(توفى سنة ١٢٤٢ هـ)

تحدث هبة الدين عن عنواني كتابين من كتبه:

علامات الظهور و أحوال الإمام المستور خطبة الملاحم الكبيرة^{١٥٩}.

شيخ درويش علي بن الحسين بن علي بن محمد البغدادي الحائري

^{١٥٧} (١٣٤) أحسن الوديعه، ج ١، ص ٨، و الكتتوري، ص ٢٧٥ رقم ١٤٧٥.

^{١٥٨} (١٣٥) أبو الفضائل، كتاب مجموعة الرسائل، ص ٧٧ و ما بعدها، هبة الدين، رسالة خاصة، الفريد كريم، تاريخ أفكار الإسلام السائدة، ص ٢٠٦

Alfred von Kremer, Gesch. d. herrsch. Ideen des Islams, S

٢٠٩، الآلوسی، مختصر التحفة، ص ١٧ و ما بعدها.

^{١٥٩} (١٣٦) هبة الدين رسالة خاصة.

(توفي سنة ١٢٧٧ هـ)

نذكر من مؤلفاته هنا:

الشهاب الثاقب في أحوال الإمام الغائب^{١٦٠}.

سيد أسد الله بن حجة الإسلام الأصفهاني

(توفي ١٢٩٠ هـ)

يحمل كتابه عنوان: كتاب الغيبة^{١٦١}.

سيد محمد حسين بن ميرزا علي أصغر الطباطبائي التبريزي

(توفي سنة ١٢٩٣ هـ)

عنوان الكتاب، الذي وصلنا منه هو: سر الغيبة اللاهوتية^{١٦٢}.

المفتي مير عباس الکناهوري

(توفي ١٣٠٢ هـ)

كتابه يدعى: نسيم الصبا في قصة الجزيرة الخضراء^{١٦٣}.

ص: ٥١

نجف علي بن محمد رضا الزنوزي التبريزي

(كان معاصرا لناصر الدين شاه (١٢٤٧-١٣١٣ هـ)

^{١٦٠} (١٣٧) نفسه.

^{١٦١} (١٣٨) هبة الدين، رسالة خاصة.

^{١٦٢} (١٣٩) هبة الدين، رسالة خاصة.

^{١٦٣} (١٤٠) هبة الدين، رسالة خاصة.

يتحدث التبريزي في كتابه «جواهر الأخبار» عن الأئمة، و من بينهم الإمام الثاني عشر. و قد تم تأليف الكتاب سنة ١٢٨٠ هـ و طبع في تبريز^{١٦٤}.

سيد محمد حسين الشهرستاني

(توفي ١٣١٥ هـ)

عنوان كتابه «الحجة البليغة في إثبات وجود إمام العصر»، طبع باللغة الفارسية^{١٦٥}.

سيد مصطفى بن إبراهيم بن سيد حيدر الكاظمي

(سنة ١٢٥٠ - ١٣١٨ هـ)

كتابه يحمل عنوان: «كتاب بشارات الإسلام في علامات المهدي عليه السلام». و قد طبع الكتاب، الذي يبلغ عدد صفحاته ٤٠٢، في بغداد بمطبعة الآداب سنة ١٣٢٢ هـ، و كذلك في سورية^{١٦٦}.

حاج ميرزا حسين النوري الطبرسي

(عاش من ١٢٥٤ - ١٣٢٠ هـ في النجف)

هناك علماء شيعيون كبار، لا يزالون اليوم على قيد الحياة، كانوا قد درسوا على المؤلف الشهير لكتاب «كتاب جنة المأوى في من فاز بقاء الحجة و معجزته في الغيبة الكبرى»، و منهم هبة الدين الشهرستاني على سبيل المثال^{١٦٧}. و الكتاب المذكور مهم جدا، فهو يحدثنا عن آراء شيعة

ص: ٥٢

اليوم في المهدي. و قد صدر ملحقا بالمجلد الثالث عشر من بحار الأنوار. ينظر، شتروتمان، مصادر الشيعة، ص ٢١، رقم ٥٣.

فضل الله بن مولى عباس

(توفي سنة ١٣٢٧ هـ)

^{١٦٤} (١٤١) كتاب خاتمة، قسم ٤، ص ٣٠، رقم ٦٩.

^{١٦٥} (١٤٢) هبة الدين، رسالة خاصة.

^{١٦٦} (١٤٣) أحسن الوديعه، ج ١، ص ٢٣، وهبة الدين، رسالة خاصة.

^{١٦٧} (١٤٤) أحسن الوديعه، ج ١، ص ٨٩، وهبة الدين، رسالة خاصة.

عنوان كتابه: الصحيفة المهدوية^{١٦٨}.

أغا أشرف الحسيني

(توفي القرن الرابع عشر الهجري)

نذكر هنا كتابه: «بشرى ظهور» و الأمر يتعلق بأشعار باللغة الفارسية^{١٦٩}.

محمد باقر بن محمد جعفر البحاري

(توفي سنة ١٣٣٢ أو ١٣٣٣ هـ)

يجب أن نذكر هنا ثلاثة مؤلفات:

مقارنات ظهور الحجة الوجيزة في غيبة الحجة ذيل كتاب النور في الإمام المستور^{١٧٠}

سيد حسين بن نصر الله الموسوي

(توفي في القرن ١٤ الهجري)

عنوان كتابه: هداية الأنعام فيمن رأى الحجة في المنام. طبع في طهران ١٣٣١ للهجرة^{١٧١}.

ص: ٥٣

سيد حسن صدر الدين

(توفي ١٩٣٣ ميلادي)

أصله من جبل عامل، و لكنه عاش حياته بوصفه مجتهدا في كاظمين، و هو ضاحية من بغداد، و اشتهر من مؤلفاته:

^{١٦٨} (١٤٥) هبة الدين، رسالة خاصة.

^{١٦٩} (١٤٦) هبة الدين، رسالة خاصة.

^{١٧٠} (١٤٧) هبة الدين، رسالة خاصة.

^{١٧١} (١٤٨) هبة الدين رسالة خاصة

إثبات الحجة، و هو كتاب يتصل بموضوعنا، و كتاب الشيعة و فنون الإسلام، و هو معجم لتراجم علماء الشيعة مرتب حسب المواضيع^{١٧٢}، صدر سنة ١٩١٣ م بصيدا، بسورية (لبنان اليوم).

العلماء المعاصرون و مؤلفاتهم حسب ما ذكره هبة الدين

سيد أولاد حيدر: الدر المقصود فى أحوال الإمام الموعود. طبع باللغة الأردنية.

سيد رضا الهندى: قصيدة الرد عليهم.

سيد على أكبر نهاوندى:

(١) كتاب الغيبة

(٢) الياقوت الأحمر فيمن رأى الإمام المنتظر.

محمد جواد البلاغى: قصيدة الرد على منكرى الحجة.

محمد حرز النجفى: كتاب الغيبة.

محمد حسين كاشف الغطاء: قصيدة الرد عليهم. طبع فى النجف ملحقا بكتاب كشف الأستار.

محمد بن رجب على طهرانى: الصحيفة المهدوية.

هبة الدين شهرستانى: كتاب غيبة الإمام.

زيادة على جميع هؤلاء المؤلفين، الذين ذكرتهم من جهة بناء على أقوال هبة الدين و على ما ورد فى هذا المصدر من غيره، و من جهة أخرى

ص: ٥٤

بناء على ما توصلت إليه بنفسى من المصادر مع مراعاة التاريخ الدقيق لتاريخ الميلاد أو الوفاة، فقد بقى مجموعة من الكتاب، لم أوفق فى العثور على أى شىء يتصل بحياتهم زمينا:

أحمد بن رميح

نشر:

ذكرى القائم من آل محمد.

إثبات الوصية لأئمة المؤمنين^{١٧٣}

حسن بن عبد الرزاق الكاشي

له رسالة في الرجعة^{١٧٤}. و ذكر هبة الدين كتابا بعنوان «البر المخزون في الرجعة»، يحمل اسم المؤلف المذكور، إلا أن هبة الدين يجعل لقبه اللاهجي بدل الكاشي، و يضيف هبة الدين أن الكتاب قد وضع بالفارسية و أنه رآه في النجف^{١٧٥}.

حسن بن محمد ولي الرومي

ترجم الجزء ١٣ من بحار الأنوار إلى اللغة الفارسية^{١٧٦}.

حيدر علي بن المحقق الشرواني

ذكر له مؤلفا بعنوان: رسالة في ترجمة النواب الأربعة في الغيبة الصغرى^{١٧٧}.

داود بن إبراهيم

ذكر هبة الدين أن الفترة، التي عاش فيها هذا الكاتب، مجهولة

ص: ٥٥

و يكتفي بالقول بأنه رأى كتابا لإبراهيم بعنوان «نظم الفتن»^{١٧٨}.

سيد محمد سبطين سرسوي

^{١٧٣} (١٥٠) هبة الدين، رسالة خاصة، منهج المقال، ص ٣٦.

^{١٧٤} (١٥١) الكتتوري، ص ٢٦٣، رقم ١٣٩٤.

^{١٧٥} (١٥٢) هبة الدين، رسالة خاصة.

^{١٧٦} (١٥٣) نفسه.

^{١٧٧} (١٥٤) نفسه.

^{١٧٨} (١٥٥) نفسه.

طبع كتابه «الصراف السوى فى أحوال المهدي» باللغة الأردية فى الهند^{١٧٩}.

شيخ الشريعة الأصفهاني

نذكر له كتاب: إثبات وجود الحجة^{١٨٠}.

عبد الغنى الحر العاملى

كتابه: منتظم الدرر فى مدح الإمام الغائب^{١٨١}.

عبد الكريم النجفى

مقالة فى غيبة صاحب الزمان، و هو كتاب فى الرد على العالم السنى محمود شكرى الآلوسى حول وجود المهدي^{١٨٢}.

مولانا على

كتابه يحمل عنوان: كتاب الغيبة و كشف الحيرة^{١٨٣}.

سيد على بن أبى القاسم القمى اللاهورى

طبع كتابه: المهدي الموعود، باللغة الأردية^{١٨٤}.

ص: ٥٦

عيسى بن مهران المستعطف أبو موسى

هو مؤلف كتاب المهدي، عاش قبل النجاشى (توفى سنة ٤٥٠ هـ)^{١٨٥}.

^{١٧٩} (١٥٦) هبة الدين، رسالة خاصة.

^{١٨٠} (١٥٧) هبة الدين، رسالة خاصة.

^{١٨١} (١٥٨) نفسه

^{١٨٢} (١٥٩) نفسه

^{١٨٣} (١٦٠) نفسه

^{١٨٤} (١٦١) نفسه

^{١٨٥} (١٦٢) منهج المقال، ص ٢٥٦، وهبة الدين، رسالة خاصة.

كاظم الهزار جريبي

كتابه يسمى: كتاب الغيبة، و هناك أيضا ترجمة من بحار الأنوار، ج ١٣ إلى الفارسية^{١٨٦}.

محمد باقر الرشتي

كان هذا الرجل تلميذا لشخص يدعى ميرزا أبو القاسم القمي و كتب «رسالة في وجوب إجراء الحدود للحكيم في زمان الغيبة»، و كان ذلك بعد أن سمع من أستاذه أنه يشك في شرعية أحكام قضاة الشيعة، لأن الإمام الثاني عشر كان قد اختفى^{١٨٧}. و توجد مخطوطة الكتاب في مكتبة محمد باقر البرجندی في إيران^{١٨٨}.

محمد رضا نجيب الدين التبريزي

له كتاب واحد فقط: البصر في أحوال الإمام المنتظر^{١٨٩}.

محمد شمس آبادي

له كتاب: الشمس الظلام في أحوال الحجة. طبع باللغة الأردية^{١٩٠}.

ص: ٥٧

محمد هادي الميرلوحى الحسيني

له كتاب: الأربعون حديثا فيما يتعلق بالحجة^{١٩١}.

محمد كاظم بن صافي

يتناول الجزء السابع من كتابه «معارف الأنوار» موضوع الغيبة^{١٩٢}.

^{١٨٦} (١٦٣) هبة الدين، رسالة خاصة.

^{١٨٧} (١٦٤) لغة العرب، ج ٦، ص ٥١٧.

^{١٨٨} (١٦٥) نفسه.

^{١٨٩} (١٦٦) هبة الدين، رسالة خاصة.

^{١٩٠} (١٦٧) نفسه.

^{١٩١} (١٦٨) نفسه.

^{١٩٢} (١٦٩) نفسه.

معلی بن محمد البصری

عند ما نفحص الكتاب، الذين تحدثوا عنه، نتأكد من أنه كان قد عاش قبل الغيبة الصغرى، و كتابه الذى نذكره هنا هو: سيرة القائم^{١٩٣}.

مهدى بن سيد على البحرانى النجفى

له كتابان:

كشف الحيرة فى صاحب الطلعة المنيرة كشف الستر عن صاحب الأمر^{١٩٤}.

ميرزا محمد الرضا الواعظ الهمداني

طبع كتابه كشف المحجة فى أحوال الحجة مع كتاب الأنوار القدسية فى طهران^{١٩٥}.

نصر بن على الجهمى

جاء فى بحار الأنوار أنه كان سنيا و ألف كتابا عن السفراء الأربعة

ص: ٥٨

اعتمادا على مصادر سنية. و يقال أيضا إنه وضع كتابا بعنوان تاريخ الأئمة الاثنى عشر^{١٩٦}.

كتب مجهولة المؤلفين^{١٩٧}

المجهول الأول

الأربعون حديثا فى المهدي أو كفاية المهتدى^{١٩٨}.

^{١٩٣} (١٧٠) منهج المقال، ص ٢٨٩ و ٣٣٩، وهبة الدين، رسالة خاصة

^{١٩٤} (١٧١) نفسه

^{١٩٥} (١٧٢) نفسه.

^{١٩٦} (١٧٣) هبة الدين، رسالة خاصة، بحار، ج ١٣، ص ٢٧، و لغة العرب، ج ٦، ص ٥٩٣.

^{١٩٧} (١٧٤) لا يذكر هبة الدين اسم المؤلفين، و لم يكن من الممكن معرفة الأسماء من مصادر أخرى، و لذلك يذكر المؤلفون بصفته مجهولين إلى أن يتم العثور على أسمائهم.

^{١٩٨} (١٧٥) هبة الدين، رسالة خاصة.

المجهول الثاني

إرشاد الجهلة المنكرين للغيبة و الرجعة، و هذا الكتاب يعالج اختفاء ١٧ نبيا و رجعة المهدي في اليوم الذي يسبق بعث الموتى^{١٩٩}.

المجهول الثالث

رسالة في أحوال المهدي^{٢٠٠}.

المجهول الرابع

رسالة في غيبة الحجة، و الكتاب محفوظ في خزانة مسجد الإمام الرضا بمشهد^{٢٠١}.

المجهول الخامس

كشف المخفى في مناقب المهدي^{٢٠٢}.

ص: ٥٩

المجهول السادس

نور الأنوار في علائم ظهور الغائب عن الأبصار^{٢٠٣}.

المجهول السابع

هدية المهدية في أحواله عليه السلام، و قد طبع هذا الكتاب في إيران^{٢٠٤}.

ص: ٦١

الفصل الثاني الخلفاء «الحقيقيون» للنبي

^{١٩٩} (١٧٦) نفسه.

^{٢٠٠} (١٧٧) لغة الغرب، ج ٦، ص ٥٩٣.

^{٢٠١} (١٧٨) هبة الدين، رسالة خاصة.

^{٢٠٢} (١٧٩) بحار، ج ١٣، ص ٢٦.

^{٢٠٣} (١٨٠) هبة الدين، رسالة خاصة.

^{٢٠٤} (١٨١) نفسه.

يعتبر على بن أبى طالب عند الشيعة هو الخليفة الأول بعد النبى.

وبعد يأتى ابنه الحسن. و بعد مقتل أخيه و خلفته الحسين (سنة ٦١ هـ حوالى ٦٨٠ م) لم يعد أعقاب الإمام الثالث، الذين يعترف بهم الشيعة الاثنا عشرية كأئمة، يقومون بالعمل السياسى، و إنما بايعوا الخليفة. كان الاثنا عشرية يؤكدون طبعاً أن هذا يحدث ظاهرياً فقط و أنهم لم يتنازلوا أبداً عن حقهم فى الحكم. و قد نصح محمد الباقر، الإمام الخامس، أخاه زيدا أن يتخلى عن مشاريعه الانقلابية و أن يكون سلبياً فى سلوكه^{٢٠٥}.

و كان أتباع جعفر الصادق، الإمام السادس، يطالبونه بأخذ حقه بالقوة، و لكنه كان يرفض ذلك بصورة دائمة^{٢٠٦}. و قد ابتعد جميع خلفاء جعفر الصادق عن الناس و عن السياسة و اكتفوا بالانشغال بالعلم. و لم يصبح معروفاً عند الرأى العام سوى الإمام الثامن، على بن موسى الرضا، و لكن ذلك لم يكن بإرادة منه، و إنما كان الخليفة المأمون هو الذى جعله خليفة له^{٢٠٧}.

لما ذا لم ينجح على و ابنه فى سياستهم، و لما ذا اتخذ خلفاؤهم هذا الموقف السلبى؟ يبدو لى أن الإجابة عن هذا السؤال الصعب هى ما

ص:٦٢

صرح بى الأحنف عن الحسين، عند ما طلب منه الحسين المشاركة فى حربه: «لقد اخترنا أهل أبى الحسن (بن على)، فلم نجد فيهم لا موهبة الحكم و لا جباية المال و لا استعمال الحيلة فى الحرب»^{٢٠٨}. و كان الفرزدق قد قال للحسين بن على عند ما التقى به و سأله عن أهل الكوفة:

«قلبيهم معكم، و سيفهم ضدكم و النصر فى السماء»^{٢٠٩}.

كان الإمام على رجلاً، صاحب مبادئ صارمة لا تتغير. و كان الورع و احتقار الملذات الدنيوية، اللذان سادا أيام النبى و خليفته، قد خفا أو اختفيا أيام الخليفة الثالث. فزاد عدد الناس، الذين كانوا يملكون ألفاً من العبيد و البضائع و فائضاً من العقار و الأموال^{٢١٠}. كان ديوان على يختلف عن ذلك كثيراً، فقد طلب منه ذات يوم عقيل، أخوه، مبلغاً من المال لأداء ما عليه من دين، لكنه لم يستطع الحصول على شىء منه، لأن مدخول على لم يكن يكفى لذلك و لم يكن من حقه أخذه شيئاً من بيت المال العام. و عندئذ اتجه

^{٢٠٥} (١) ضحى الإسلام، ج ٣، ص ٢٧٥؛ مقدمة بن خلدون، (باريس) ص ٣٥٧.

^{٢٠٦} (٢) ضحى الإسلام، ج ٣، ص ٢٦١؛ مروج الذهب، ج ٢، ص ١٦٦.

^{٢٠٧} (٣) ابن الأثير، ج ٦، ص ١٢٠، الفخرى، ص ٢٦٠.

^{٢٠٨} (٤) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج ١، ص ٢١١.

^{٢٠٩} (٥) العقد الفريد، ج ١، ص ١٥٣.

^{٢١٠} (٦) ليس من الضروري ذكر جميع هذه المصادر، لأنها تتكرر كثيراً، و أذكر من بينها الشهرستاني (طبعة القاهرة)، ج ١، ص ٢٤؛ المسعودى، مروج الذهب، ج ٤،

عقيل إلى عدو أخيه، الذى لم يكن لديه ما هو أعز عليه من شراء الذمم والضماير^{٢١١}. وبلغ من تقوى على أنه أراد أن يعدم ابن الخليفة الثانى، الذى أراد أن يأخذ ثأر قاتل أبيه، و هو فارسى ضعيف الإيمان، و من زوجته و ابنته^{٢١٢}. فكان على من يريد المال و الجاه أن يتوجه إلى معاوية، و من يبحث عن الجنة و التقوى أن يذهب إلى على ليجدهما عنده.

نجد مثل هذه الحكايات و أمثالها فى كتب التاريخ، و هى تبين لنا

ص: ٦٣

لما ذا لم ينجح على و ابنه فى أزمنة من هذا النوع.

^{٢١٣} عند ما بايع الناس الحسن بعد مقتل أبيه، وجه إليه ابن عباس، الذى كان مستشارا لعلی و انسلخ عنه لاختلافه معه فى سياسته الداخلية، نصيحة للحسن مكتوبة يدعوه فيها إلى شراء قلوب الناس المترددة، ما دام ذلك لا يسىء إلى عقيدته و إلى إعطاء الأسر المعروفة ما هى أهل له من احتلال مناصب فى الدولة حتى يتوصل إلى ما يريده من سلام مع جميع القبائل.

و كان للنزاع بين أفراد أسرة على بن أبى طالب ذاتها دور فى هذا الفشل. فقد حاول أعداؤهم بطريقة خبيثة نشر الفتنة بين الحسين و بين أخيه غير الشقيق ابن الحنفية، و لكن هذه المساعى الشريرة لم تكلل بالنجاح، لأن محمد بن الحنفية كان قد شعر بنيتهم السيئة، فسعى إلى إخبار أخيه غير الشقيق بما استشفه من مساعى الأعداء^{٢١٤}.

لم يكن هناك على العكس من ذلك تفاهم بين عقب الحسن و عقب الحسين. كان هناك نزاع حتى بين أفراد الأسرتين، أسرة الحسن و أسرة الحسين، و اختلاف فى رأى: فخرج بعضهم دون البعض الآخر على السلطة، فكان أن تم دحرهم بسهولة بطبيعة الحال^{٢١٥}. و كان زيد، أخو الإمام محمد الباقر، ضد ما ذهب إليه أخوه من أنه لا يحق له أن يعلن الحرب، لأنه يعرف قلوب الناس و دوائر نفوسهم. لذلك لم يعمل بنصيحة أخيه، فذهب ضحية الثورة، التى كان قد تحمس لها إلى حد كبير. لم يكن زيد متفقاً مع أخيه لا فى مسألة الإمامة، و لا فى مسألة العلاقة بالمعتزلة، و لا حتى فى الافتخار بعلم الأئمة بوصفهم خلفاء النبى، ذلك لأن زيدا كان قد استمد علمه من واصل بن عطاء^{٢١٦}.

ص: ٦٤

^{٢١١} (٧) الأعلام، ج ٢، ص ٦٤٧ و الإصابة، ج ٤، ص ٢٥٥.

^{٢١٢} (٨) الإصابة، ج ٥، ص ٧٧.

^{٢١٣} (٩) العقد الفريد، ج ١، ص ٨.

^{٢١٤} (١٠) زهر الآداب (الطبعة المصرية سنة ١٣١٦ هـ)، ص ٦٦.

^{٢١٥} (١١) ابن الأثير، ج ٥، ص ٩١؛ منهج المقال، ص ٣٦٢ و الكشى، ص ١٧٠ - ١٧١.

^{٢١٦} (١٢) ضحى الإسلام، ج ٣، ص ٢٧٥؛ الشهرستانى (الطبعة المصرية)، ج ١، ص ٢٠٩؛ ابن خلدون، المقدمة (باريس ١٨٥٨)، ص ٣٥٧.

لم تترك الثورات العديدة، التي قام بها أعضاء هذه الأسرة، للخلفاء أن ينعموا بالراحة أبداً، حتى إنهم لجؤوا إلى جميع الوسائل لحماية أنفسهم منهم. و يروى أن بعض أعضاء الأسرة قد قبلوا الرشوة و ارتضوا الخيانة^{٢١٧}. ثم إن الأسرة كلها بدأت تخضع شيئاً فشيئاً لمراقبة الحكومة بحكم تشعب جهاز المخابرات و تنوعه لدى الخلفاء. و قد ظهر أشخاص من بغداد، كانوا يحملون معهم أموالاً و رسائل مزيفة من الشيعة، و اتصلوا بأعضاء من هذه الأسرة و حاولوا أن يقدموا لهم الأموال ليدفعوهم إلى تحرير جواب خطي. لكن هؤلاء الخونة الغواة لم يجدوا منفذاً إلى جعفر الصادق، لأنه كان يعرف خططهم المدبرة، فتخلى عن السياسة تماماً و تفرغ للعلم^{٢١٨}.

كانت السياسة المعادية لأسرة علي تتوقف على شخصية الخليفة، فإذا كان يتعاطف مع آل البيت، كانت لهم أوقات تكون فيها أمورهم على أحسن ما يرام. و لكن الخليفة، ليكون على ثقة من أمرهم، نقل مقامهم الرئيس من المدينة إلى بغداد، حيث تم إخضاعهم لرقابة صارمة. و كان على الأئمة الآخرين أن ينتقلوا إلى مقامهم الجديد سامراء و أن يعيشوا فيها و كأنهم في سجن. كانت قد فرضت عليهم مراقبة شديدة، و كان الخلفاء يأمرهم، بناء على نصائح يتقدم إليهم بها أصحاب الطموح و أعداء أسرة علي، بتفتيش بيت الإمام عدة مرات، و لكن ذلك كان بالنسبة إليهم بدون جدوى^{٢١٩}.

لقد أدت مثل هذه الأوضاع إلى انزعاج الأئمة خوفاً من أن تكون لهم علاقة مع الناس. و هكذا كان الإمام العاشر، الذي كانت حاشيته لا تزال بعد صغيرة جداً، و ابنه الإمام الحادي عشر، يتجنب كل اختلاط بعامة

ص: ٦٥

الناس، حتى إنه يروى عنه أنه كان له ستار، يحجبه عن أتباعه حتى لا يتمكنوا من رؤيته. و لم يكن الناس يرون وجهه إلا عند ذهابه إلى الخليفة. و قد أراد المسعودي، الذي دأب على رواية مثل هذه الأمور، أن يربط تصرف هذا الإمام باختفاء الإمام الثاني عشر: لقد فعل الإمام الحادي عشر ذلك ليتعود الشيعة على اختفائهم و عدم رؤيتهم^{٢٢٠}.

و قد أصبحت عزلة الأئمة الآخرين بالنسبة إلينا سبباً في غموض تواريخ محياهم و مماتهم، حتى إننا نعتمد في معظم الأحوال على الافتراضات المحضة، و ما بقي من تاريخ الأئمة إنما هو بشكل رئيس حكايات عجيبة، ينبغي أخذها بحذر شديد.

لقد تركت سياسة الأئمة المشؤومة، و عدم قيام أية ثورة ضد الخلفاء، و مواقف الأئمة المسالمة، في نفوس الشيعة، خصوصاً كبار السن منهم - تركت السؤال الملتهب عن نهاية الانتظار و إحقاق الحق، الذي لن يتخلى عنه الأئمة - تركته لا يعرف الجواب. و لم يتوقف الشيعة عن سؤال الإمام عن موعد التحرير، و عند ما تكون هناك أثناء ذلك إشارة إلى المستقبل البعيد، يتساءلون عن الشخص الذي سيأخذ الحق و العظمة الموعودة، على أنهم يعزّون دائماً بخليفة الإمام حتى تطمئن قلوبهم:

^{٢١٧} (١٣) الكشي، ص ١٧٠ - ١٧١؛ منهج المقال، ص ٣٦٢.

^{٢١٨} (١٤) مروج الذهب، ج ٢، ص ١٦٦؛ ضحى الإسلام، ٢٦١.

^{٢١٩} (١٥) المنتظم، ص ١٦٣.

^{٢٢٠} (١٦) المسعودي، إثبات الوصية، ص ٢٥٦.

الوقت و الشخص بيد الله، و هما رهن إشارته، كان هذا دائما هو الجواب على الأسئلة الكثيرة، التي كان الشيعة ينهالون بها على أئمتهم. و قد رويت الأجوبة في كتب الأخبار المأثورة^{٢٢١}. تتابع الأئمة بعدها الواحد بعد الآخر، و لما جاء زمن الإمام الحادى عشر، و حدثت أزمة كبيرة فى صفوف الشيعة بسبب موت الإمام الأخير سنة ٢٦٠ هـ و عقبه: هل ترك الإمام الحادى عشر ولدا؟ و ما هو مستقبل الشيعة من الآن فصاعدا؟

و تساءل الناس، إذا كان الإمام قد ترك ولدا، فلما ذا لم نر هذا الولد و أين

ص: ٦٦

هو؟ و لما صح أن الإمام لم يكن له عقب، فقد أخذ الناس يشكون فى شرعية الإمام الحادى عشر و يحاولون أن يتخذوا أخاه جعفرا بمثابة الإمام الحق، فالإمام فى رأيهم لا يموت دون أن يترك ولدا بوصفه خليفة له^{٢٢٢}. لقد أثارت هذه التأملات وجدان الشيعة و أدت إلى انقسام حركتهم، التي كانت قبل ذلك تعاني من الضعف، إلى أربع عشرة فرقة^{٢٢٣}.

لم يكد الإمام الحادى عشر يبلغ الثلاثين، حتى قيل عنه إنه مريض مرضا قاتلا سيعجل بنهايته، و أن أخاه جعفر، و قد سمع بمرضه، قد استحق ميراث أخيه، الذى لم يكن بالشىء القليل فى ظن كثير من الناس. لم يكن يتصور أن هناك وارثا من أهل الميت، و لكنه ما أن سمع من الشيعة أن أخاه قد ترك ولدا، حتى ذهب إلى الخليفة و طلب منه أن يتحرى هذا الأمر، و هو ما قام به الخليفة ليفرق بين الشيعة و يضعفهم فى الوقت المناسب. لقد جلس مراقبو الخليفة، حسب ما جاء فى هذه القصة، قرب سرير المريض و مكثوا عنده إلى أن وافاه أجله، فقاموا بتسجيل وصيته، و فتشوا حريمه بحثا عما قد يكون هناك من عقب له.

و يروى أن النزاع حول ميراث الإمام الحادى عشر قد استمر بعد وفاته. و قد ادعت أم الإمام أن الوصية بحوزتها، بينما اعترض جعفر على ذلك و قال إنه لا توجد للميت وصية أخيرة على الإطلاق. و عند ما وصل النزاع إلى القاضى، حكم بأن يتقاسم جعفر الميراث مع الأم. كان تصرف جعفر قد أثار العداوة بين الشيعة، فأراد أن يتخلص من أعدائه باتهامهم لدى الخليفة بأنهم يدبرون له للإطاحة به و القضاء عليه^{٢٢٤}.

ص: ٦٧

و لم تستطع الطوائف الشيعية المنشقة البقاء و الاستمرار، فانحلت مع توالى الأيام. كانت الفرقة الرئيسة تؤمن بوجود ابن للإمام، و بذلك أنقذت فكرة الاثنى عشرية بالنسبة إلى العصور القادمة. كانت هناك، إلى جانب الشيعة الاثنى عشرية، التي تتصل بموضوعنا، فرقة صغيرة فى سورية، هى فرقة النصيرية. حقا إن أتباعها يؤمنون أيضا بالأئمة الاثنى عشر، و مع ذلك فما من علاقة لهم

^{٢٢١} (١٧) تعليقات على منهج المقال، ص ٩.

^{٢٢٢} (١٨) فرق الشيعة، ص ٧٩-٩٤؛ الشهرستاني، ص ١٢٩-١٣١؛ و خاندانى النوبختى، ص ١٤٩.

^{٢٢٣} (١٩) فرق الشيعة، ص ٧٩ و خاندانى النوبختى، ص ١٤٨.

^{٢٢٤} (٢٠) تاريخ الغيبة، ص ٣١.

بموضوعنا، لأن عقيدتهم تختلف عن الشيعة الاثنى عشرية الحقيقيين، ولأنهم يجعلون لسفرائهم مراتب أخرى و يعرفون أشخاصا آخرين غير السفراء^{٢٢٥}.

لقد عرف الوضع المتأزم، الذى نشأ عقب موت الإمام الحادى عشر، الحل التالى عند الفرق الشيعية الرئيسة: كان للإمام ولد. و كان هناك شهود كثيرون على ذلك، رأوا الولد، و كان هذا الولد خليفة أبيه وبقى فى وظيفته فترة من الزمن. و لكن عند ما هددت تحريات الخليفة الحثيثة أمن الإمام الثانى عشر، أخفاه الله عن أعين الناس، و لذلك لم يكن يتصل بالناس إلا عن طريق وكيله بصفته القائم بوظيفته.

تقدم لنا أول و أقدم كتب الشيعة الاثنى عشرية، التى عالجت هذا الموضوع، مثل: إكمال الدين، الغيبة للنعماني، و الإرشاد للمفيد، و الغيبة للطوسي، كمولد للإمام الثانى عشر سنة ٢٥٥ أو ٢٥٦ هـ. هناك مكان واحد فقط يرد فيه أن الإمام الحادى عشر قد كتب توقيعا لأحمد بن الحسن بن إسحاق القمي سنة ٢٥٤ هـ أنه قد ولد له ولد^{٢٢٦}.

و اعترض الشيعة الآخرون، الذين يؤمنون أيضا بالأئمة الاثنا عشر، على هذا التاريخ، كما يحدثنا النوبختي (توفى بين سنتي ٣٠٠ و ٣١٠ هـ) مؤلف كتاب «فرق الشيعة». فذكر عن بعضهم أن الإمام ولد ثمانية أشهر

ص: ٤٨

بعد موت والده^{٢٢٧}. غير أن آخرين ذهبوا إلى أنه لا يمكن تحديد سنة الميلاد^{٢٢٨}.

يعتبر أبو الحسن بن حمدان الخصيبي، و هو باب النصيرية، تحديد السنة ٢٥٧ هـ لميلاد الإمام صحيحة^{٢٢٩}.

هذه هى الآراء القديمة حول سنة الميلاد، أما فى الأزمنة المتأخرة، فقد كانت هناك تواريخ أكثر من هذه.

و لا يذكر الأشعري، الذى توفى سنة ٣٢٤ هـ، تاريخا لميلاد المهدي^{٢٣٠}. و يذكر ابن حزم الظاهري (توفى سنة ٤٥٦ هـ) مجموعة من الافتراضات الشيعية^{٢٣١}. و يبدو أنه كان على معرفة بالآراء الشيعية المختلفة، و لكنه لم يستطع تقديم ما يؤكد ما ذهب إليه. و كذلك الأمر عند البغدادي (توفى سنة ٤٢٩ هـ)^{٢٣٢} و عند بقية المؤرخين.

^{٢٢٥} (٢١) أنظر النصيرية فيما بعد.

^{٢٢٦} (٢٢) بحار، ج ١٣، ص ٣.

^{٢٢٧} (٢٣) خندانى النوبختي، ص ١٥١؛ فرق الشيعة، ص: الشهرستاني، ص.

^{٢٢٨} (٢٤) خندانى النوبختي، ص ١٥٢.

^{٢٢٩} (٢٥) بحار، ج ١٣، ص ٦.

^{٢٣٠} (٢٦) مقالات، ص ١٧.

^{٢٣١} (٢٧) ابن حزم، الفصل، ج ٤، ص ١٨١.

^{٢٣٢} (٢٨) الفرق بين الفرق، ص ٤٧.

و الاثنا عشرية أنفسهم، الذين أخذوا، كما ذكرنا، بتاريخ سنة ٢٥٥ هـ أو ٢٥٦ هـ، لم يعودوا بعد قرون يتمسكون بهذا القول، فنحن نجد عند علي بن عيسى الإربلي (توفي سنة ٦٩٢ هـ) سنة ٢٢٨ هـ بوصفها سنة ميلاد المهدي. و منذ ذلك الحين ظهرت عند هؤلاء الاثني عشرية تواريخ مختلفة و خصوصا في كتبهم المتأخرة^{٢٣٣}. و قد كتب غولتسيهر، من غير أن يحيل على مصدره، أن الإمام الثاني عشر قد ولد في بغداد سنة ٨٧٢ م^{٢٣٤}. على أنه يجب علينا أن نضع نصب أعيننا أن المصادر الشيعية

ص: ٦٩

و السنية على السواء لم تتحدث عن بغداد بوصفها مكانا للميلاد!

و يبدو أن الأخبار المتصلة بميلاد المهدي تريد أن تؤكد وجوده الواقعي، و لذلك فهي أقوال و شهادات ذات درجات متفاوتة من الصحة، تظهر لنا عقيدة الاثني عشرية. و بعض هذه الأخبار يتحدث عن حضور أصحابها عند الولادة^{٢٣٥}، و بعضها الآخر يتحدث عن القيام بدور القابلة^{٢٣٦}، و عن رؤية الطفل مرة واحدة^{٢٣٧} أو عن خبر عن الإمام الحادي عشر^{٢٣٨}. لقد أخبرنا أحمد بن بلال بن داود الكاتب، الذي كان عدوا متطرفا للعائلة المقدسة و الشيعة و وصفه أحدهم بالنفاق، أنه كان قد التقى بمفرده، بعد غيبة طويلة عن بيته، الذي كان مقابلا لبنت الإمام في سامراء، بعجوز من معارفه القديمة، حدثته أن الإمام الحادي عشر قد دعاها إلى بيته، فشاهدت هناك ميلاد طفل، و عاشت معجزة اختفائه المفاجئ، حتى إن أحمد فضل أن يتخلى عن سخريته من هذه الأسرة المحبوبة عند الله^{٢٣٩}. لكنه لا ينبغي لنا في هذا المقام أن نهمل، حيال هذه القصة، الطبيعة الساخرة المناقفة لأحمد السني هذا.

و قد وصلنا خبر حكيمة، بنت محمد بن علي بن موسى الرضا و خالة (عمة) الإمام الثاني عشر و أخت جد (جدة) الإمام الحادي عشر، في صيغ مختلفة و صور متباينة^{٢٤٠}، حتى إن باب النصيرية، الحسين بن حمدان الخصيبي، الذي يعتبره الاثنا عشرية زنديقا، يتحدث عنها^{٢٤١}.

و مضمون الرواية هو ما يلي: كان الإمام الحادي عشر قد طلب من أخت

ص: ٧٠

^{٢٣٣} (٢٩) بحار، ج ١٣، ص ٥، و الوسيلة إلى تحصيل الأمان، مخطوطة، ص ٢٤.

^{٢٣٤} (٣٠) محاضرات عن الإسلام، ص ٢١٦، و ديانا الشرق، S. ٤٣١, Die Relegionen des Orientes.

^{٢٣٥} (٣١) الغيبة، ص ١٥٠ و ما بعدها.

^{٢٣٦} (٣٢) نفسه، ص ١٥٥.

^{٢٣٧} (٣٣) نفسه، ص ١٥٨.

^{٢٣٨} (٣٤) بحار، ج ١٣، ص ٣.

^{٢٣٩} (٣٥) الغيبة، ص ١٥٥؛ بحار، ج ١٣، ص ٤.

^{٢٤٠} (٣٦) الغيبة، ص ١٥٥؛ و ابن حزم، ص ١٨١.

^{٢٤١} (٣٧) يرى دونالدسن في «عقيدة الشيعة»، ٣٨٥ أن حكيمة أخت علي الرضا، و هذا غير صحيح تماما، فعلى الرضا جدّها، كما يتضح من المواضع المذكورة أعلاه.

جده (جدته) أن تحضر إلى بيته و أن تقضى ليلتها عنده، لأن هناك ولدا سيولد له هذه الليلة و يكون خليفة الله فوق الأرض، فاستغربت أخت الجد (الجددة) كيف يولد له طفل و ليس له من بين نساء حريمه من هي حامل، فأجابها بأن نرجس، و هي عبدة عتيقة، ولدت له منه. فذهبت أخت الجد (الجددة) إلى نرجس و فحصتها، و حين عادت إلى الإمام قالت له انها لم تلاحظ شيئا على نرجس. فضحك الإمام و بين لها أن ذلك لا يلاحظ على نرجس إلا في غسق الصبح. هذا الأمر الغريب هو نفس ما وقع لمريم، أم موسى، فقد كانت حاملا، و مع ذلك فما من أحد لاحظ عليها أنها تحمل طفلا حتى زمن الولادة. قال الإمام لقد جعله الله هكذا حتى لا يقتله فرعون في رحم أمه، و كذلك الأمر بالنسبة لابن الإمام. لقد صرخت نرجس عند الغسق فعلا، فذهبت حكيمة إليها. و أمر الإمام حكيمة أن تقرأ آيات من القرآن، و في تلك اللحظة سمعت كيف يرد الطفل على تحيتها من رحم أمه نرجس و يقرأ الآيات نفسها. و حين فرغت حكيمة، ناداها الإمام، الذي كان قد لاحظ عليها ذلك، ألا تفزع، لأن الله يمنحنا الحكمة، عند ما نكون أطفالا، و يمنحها الأرض مؤخرا عند ما نكون كبارا. و عندئذ وقع قناع فوق عيني حكيمة، بحيث إنها لم تعد ترى أثرا لنرجس، فصرخت و أسرع إلى الإمام الحادى عشر، فطمأنها و أمرها بالرجوع إلى المكان، الذي ترى منه نرجس مع الطفل. و عثرت على الاثنين فعلا، و لكن الضوء الذي غمر الطفل و أمه في تلك الآونة، بهرها إلى درجة أنه كان عليها أن تستدير إلى الخلف. كانت ركبتا الطفل فوق الأرض، و جبينه يلمس الأرض، و هو يذكر صيغ شهادة المسلمين، و يقرأ آيات من القرآن، و يذكر أسماء الأئمة واحدا فواحدا إلى أن وصل إلى ذكر اسمه. و بعد ذلك أمر الإمام الحادى عشر بإحضار الطفل، فأحضر و الحمايم تطير حوله. و أمر حمامة أن تطير إلى السماء فطارت معها الحمايم كلها، و بدأت الأم تبكى، و لكن الإمام أوضح لها أنه لا ينبغي لها أن تحزن، فالطفل سيرضع من ثديها إلا أن عليه أن يتعلم ذلك

ص: ٧١

من السماء؛ فالحمامة إنما هي الملاك، الذي يعلم الأئمة. و بعد أربعين يوما عادت الحمايم، فرأت حكيمة الطفل من جديد، و لكنه كان كبيرا في حجم طفل في الثانية عشرة من عمره. و عند ما اندهشت حكيمة لذلك، قال لها الإمام إن الأئمة يكبرون بسرعة أكثر من الناس العاديين. فالشهر في نمو الإمام يعادل سنة من عمر الإنسان العادى.

و واصلت حكيمة روايتها: كانت تجيء إلى الإمام كل أربعين يوما و ترى الطفل إلى أن أصبح رجلا قبل موت الإمام بقليل. و كان الإمام قد أمرها أن تطيع ابنه المهدي، لأنه هو نفسه سيموت بعد حين. و بعد موته كان تراه في بيته مساء و صباحا و تأخذ منه أجوبة على أسئلة الشيعة دون أن تقدم له الأسئلة، و كانت توجه الأجوبة إلى من يستقبلها^{٢٤٢}.

و هناك في المصدر نفسه رواية أخرى تتضمن المحتوى نفسه، و الفرق الوحيد هو أن حكيمة تروى هنا أنها زارت الإمام في اليوم السابع بعد ولادة الطفل و لم تجد الطفل عنده. و لما سألت الإمام عن غيابه، أجابها أن الطفل في رعاية الله، كما وضعت أم موسى طفلها في رعاية الله^{٢٤٣}.

^{٢٤٢} (٣٨) إكمال الدين، ج ٢، ص ٢٣٩.

^{٢٤٣} (٣٩) الغيبة، ص ١٥٣.

على أنه يرد بعد ذلك مباشرة ما يلي: زارت حكيمة الإمام في اليوم السابع لرؤية الطفل، و سمعته يقرأ آيات من القرآن. و هذا التناقض موجود عند ابن بابويه؛ و إكمال الدين مثلما هو موجود في الغيبة للطوسي^{٢٤٤}.

هناك صيغ مختلفة لقصة حكيمة عن ميلاد الإمام الثاني عشر نجدها عند الطوسي. جاء في موضع منه أن حكيمة زارت الإمام في اليوم الثالث، فافتقدت الطفل، و لكنها لم تجرؤ على السؤال عنه. فأوضح لها الإمام بنفسه أن الطفل مثل موسى في رعاية الله؛ و لا ينبغي لحكيمة أن

ص: ٧٢

تحدث أحدا عن ذلك، لكن عليها أن تخبر المؤمنين فيما بعد أن الإمام كان له ولد و أنه الآن مخفى إلى أن يعطيه الله براق الملك جبرائيل، ليحيى إلى الأرض^{٢٤٥}. و توجد في مكان آخر الصيغة المتناقضة المذكورة أعلاه كما وردت في إكمال الدين^{٢٤٦}. و جاء في موضع آخر أن حكيمة زارت الإمام في اليوم الثالث، و رأت الطفل في المهد؛ و يحيى الإمام الطفل تحية وداع، و يطلب من حكيمة أن تلزم الصمت عن ذكر الطفل تماما^{٢٤٧}. و في موضع جديد نجد ما يناقض ما ورد في إكمال الدين كامل التناقض. فهذا المصدر يروى أن حكيمة زارت الإمام في اليوم الأربعين بعد ولادة الطفل و رآته، و لكن الطفل في زيارتها الثانية لم يعد له وجود عند الإمام، و منذ ذلك الحين لم تره أبدا^{٢٤٨}.

و نجد عند الطوسي كثيرا من هذه التناقضات، التي ليس من السهل أو لا يمكن حلها على الإطلاق. لقد ورد في الطوسي أن الإمام كتب عند ميلاد ابنه إلى شخص ما و طلب منه أن يشتري خروفا و يذبحه لأسرته كما جرت العادة بذلك. و بعد ذلك بقليل رأى الإمام الرجل و قال له إن ابنه قد مات، لكن الطوسي يروى في الوقت نفسه أن الإمام أرسل إلى الرجل خروفين و طلب منه أن يذبحهما من أجل الولد الذي ولد له^{٢٤٩}.

تعتبر الشهادات المذكورة آنفا عن ولادة الإمام الثاني عشر من أقواها، لأنها تعود إلى شاهد عيان، هي حكيمة. أما الأخبار الأخرى فمصدرها سفراء و خدم الإمام الحادي عشر، الذين رأوا الطفل مرة أو تحدثوا معه، و ليس لها ما للأولى من أهمية^{٢٥٠}.

ص: ٧٣

^{٢٤٤} (٤٠) الغيبة، ص ١٥٣.

^{٢٤٥} (٤١) نفسه، ص ١٥٢.

^{٢٤٦} (٤٢) نفسه، ص ١٥٣.

^{٢٤٧} (٤٣) نفسه، ص ١٥٣ و ١٥٤.

^{٢٤٨} (٤٤) الغيبة، ص ١٥٤.

^{٢٤٩} (٤٥) نفسه، ص ١٥٨.

^{٢٥٠} (٤٦) نفسه، ص ١٤٨ - ١٤٩، و إكمال الدين، ص ٢٣٦ - ٢٤٠، و بحار، ص ١ - ٧.

و هناك أساطير غريبة تحاك حول أم الإمام. فاسمها مليكة و هى بنت يوشوعا، ابن القيصر الرومانى (اليونانى)، و تنحدر أمها من الحواري شمعون. لقد أراد القيصر أن يزوج مليكة من ابن أخيه (أخته)، و لذلك دعا كل أعقاب الحواريين، و الرهبان، و القساوسة، و العسكريين - أكثر من ٥٠٠٠ شخص - لخطبة حفيدته. و قد رفعت الصليبان و أعلام الفرح و علاماته فى كل مكان، و فتح الإنجيل الكبير و تمت قراءة نصوص منه.

و لكن ما أن اقترب العريس من عرش الملك، حتى وقعت جميع الصليبان و وقع حفيد الملك على الأرض مغمى عليه. فاعتبر الناس المؤمنون بالأوهام هذا الذى وقع علامة شر. و فى اليوم الموالى أمر الملك بتزويج حفيدته من أخى ابن أخيه (أخته)، فوقع ما وقع فى اليوم السابق. فاشتد الحزن على لملك، و بقيت حفيدته بدون زواج. و فى الليلة نفسها رأت ملكة المسيح مع شمعون و حواريين آخرين فى بلاط جدها الملك.

فأقاموا منبرا عاليا كالسما، و ذلك فى المكان، الذى كان فيه عرش القيصر عند الخطبة. ثم جاء محمد النبى مع أعقابه، و تبادلوا محمد و عيسى التحية بحرارة، و خطبوا الفتاة للإمام الحادى عشر، و كان النبى محمد ممثلا للإمام الحادى عشر، و المسيح و شمعون ممثلين لمليكة.

فابتهجت مليكة لذلك، و لكنها لم تجرؤ على رواية ما حلمت به للملك.

و احترق قلبها شوقا إلى خطيبها، فأخذت فاطمة بنت النبى تزورها فى أحلامها إلى أن أصبحت مليكة فى أعماقها مسلمة. و فى النهاية قال لها الإمام، الذى كان يأتى إليها فى الحلم كل ليلة، أنها ستتحرر ذات يوم من جدها. كان القيصر قد خرج لمحاربة المسلمين، و عند ما انتصر المسلمون على اليونان، أخذوا معهم مليكة جارية و باعوها فى بغداد. و كان للإمام صديق يدعى بشر بن سليمان النخاس، كان نخاسا معروفا، فأرسل الإمام هذا الرجل برسالة مكتوبة باليونانية، كتبها بنفسه، إلى بغداد، و قدم فيها للصديق وصفا دقيقا للجارية و للمكان، الذى يجد فيه الجارية البائع، فنفذ بشر الأمر و تأكد من صحة كل ما قاله له الإمام. كانت الجارية قد رفضت

ص: ٧٤

أن تباع إلى أن جاء الزبون الحقيقى، و هو بشر، ففرحت بذلك و ذهبت معه فى الحين. و أراها بعد ذلك الرسالة، فزادها فرحا على فرح.

و استغرب الرجل أمرها، عند ما رآها تقبل الرسالة، مع أنها لم تكن تعرف مرسلها إطلاقا. فما كان منها إلى وصفته بأنه أحق، ثم قالت له إنها تعرف الإمام منذ مدة طويلة. و ذهبت فى الحال إلى سامراء، و أنجبت للإمام له ولدا، هو الإمام الثانى عشر^{٢٥١}.

على أنه جاء فى روايات حكيمة أن الإمام الحادى عشر زار حكيمة و رأى عندها الجارية نرجس. و لما كانت قد أعجبته، فقد أهدته حكيمة إياها، و منها جاء المهدى^{٢٥٢}. ليس من المستحيل أن تكون هذه الجارية يونانية فعلا، و أن هذا الوضع هو أساس الحكايات العجيبة عن الإمام الحادى عشر و أسطورة النسب العريق لأم المهدى، التى تظهر أن عظمة الأخير مستمدة من الحواريين.

و تذكر عدة أسماء مختلفة لأم الإمام الثانى عشر، و هى نرجس، ربحانة، سوزان (ربما سوزانه) و سيقال (إن الضوء كان يشبهه عند ولادة الإمام لمعان السيف^{٢٥٣}. و يرى ابن حزم أن كل اسم من هذه الأسماء يصف امرأة معينة و لم يعرف الشيعة، أى منهن كانت الأم الحقيقية^{٢٥٤}.

و هذا خطأ من جانبه، إذ يغلب على الظن أن هذه الأسماء كلها تطلق على الشخص نفسه^{٢٥٥}.

ص:٧٥

الفصل الثالث الغيبة و الرجعة

عند ما بلغ المهدى السنة الخامسة من عمره، مات والده، و خلع الله الإمامة على الفتى رغم شبابه، مثل يسوع، الذى تميز و هو فى المهد بالحكمة الكثيرة، التى ملكها النبى يحيى فى السنوات المبكرة من حياته^{٢٥٦}. غير أن الخليفة قام بتحريات دقيقة عن الطفل، لأنه كان يعرف أن رجلا سيولد فى هذا الوقت، يحل السلام فوق الأرض بالسيف. و بذل الخليفة قصارى جهده فى القبض على الصبى حتى لا يتولى منصبه فإذا لم يأخذ الإمام الجديد منصبه، فإن عليه أن يبقى متخفيا عن الأنظار، و إلا فإن الإمامة تصبح عديمة الأثر^{٢٥٧}. كان أبوه و أجداده قد اختلفوا تحت معطف التقية، لأن الله أمرهم أن يتخلوا عن السيف. و لما لم يكن له عقب، فإن منصب الإمامة كان ينبغى أن يختفى معه إلى أن يأتى الوقت، الذى يستطيع فيه ممارسة وظيفته دون خوف من المطاردة^{٢٥٨}.

و ليست هذه هى الحالة الأولى لغيبة الإمام، فأبو الإمام الثانى عشر لم يمت فى رأى بعض الشيعة، فهو لا يزال حيا و سيأتى بصفته الهادى الذى يرجع إلى الأرض، و قد زعم بعضهم شيئا من هذا القبيل بالنسبة إلى

ص:٧٦

^{٢٥٢} (٤٨) نفسه

^{٢٥٣} (٤٩) إكمال الدين، ص ٢٤١.

^{٢٥٤} (٥٠) ابن حزم، ج ٤، ص ١٨١.

^{٢٥٥} (٥١) بحار، ج ١٣، ص ٦.

^{٢٥٦} (١) الأصول المهمة فى معرفة الأئمة، ص ١٩٦.

^{٢٥٧} (٢) الغيبة، ص ٦٦-٦٧، و الشافى، ص ٤٦٧.

^{٢٥٨} (٣) الغيبة، ص ٦٩.

جده^{٢٥٩}. و يعتقد المحمدية أن أبا الإمام الثاني، الذي مات في حياة أبيه، هو المهدي الحقيقي و أنه لا يزال حيا^{٢٦٠}. و يرى الواقعة أن موسى بن جعفر هو المهدي^{٢٦١}، بينما هو عند الناووسية جعفر بن محمد^{٢٦٢}، و عند الكيسانية محمد بن الحنفية، و تزعم الكيسانية أنه يعيش في جبل رضوى^{٢٦٣}.

و بعض الشيعة يرون أنه الحسين بن علي بن أبي طالب، الذي سقط في كربلاء شهيدا من أجل عقيدته، فهو لم يقتل على الإطلاق، و إنما قتلوا شبيها له يدعى حنظلة بن أسعد الشيباني، فقد وقع للحسين ما وقع ليسوع، الذي قال عنه اليهود إنهم صلبوه، في حين أنهم قتلوا في الحقيقة شبيها له^{٢٦٤}. و يرى السبئية أن علي بن أبي طالب هو المهدي، الذي يعيش في السحب، و الرعد كلامه، و البرق ضربة سوطه^{٢٦٥}.

لكن غيبة المهدي الثاني عشر تختلف عن الحالات المذكورة. لقد كان المهدي الثاني عشر متخفيا أيضا، على أنه لم يكن يقطع صلته بطائفته، و هذا فضلا عن أن غيبته تفرعت إلى فرعين، الغيبة الصغرى و الغيبة الكبرى. ففي الصغرى يستعمل المهدي وسطاء معينين بينه و بين طائفته، يعينهم في هذا المنصب. و لا يعرف محل إقامته سوى هؤلاء النواب، و يحملون منه إلى الشيعة كل الأجوبة و الأوامر و المراسيم الدينية و كل ما تحتاج إليه «دولة سرية» لتسيير شئونها^{٢٦٦}. أما في وقت الغيبة

ص: ٧٧

الكبرى، فلم يعد هناك نواب، لأن المهدي يظهر بنفسه بين الحين و الآخر. فإذا ما توسل إليه شخص عند الشدة، فإنه يأخذ بيده في الحين.

و حتى عند ما يدعوه الرجل و السكين على رقبتة، فإنه ينقذه من الخطر الذي هو فيه. و قد رآه كثير من الشيعة و تلقوا مساعدة منه^{٢٦٧}. و قد سمع العلامة الحلي أن سنيا كتب كتابا هاجم فيه الشيعة، و لكنه لم يعره أحدا حتى لا يكتب عنه ما ينقضه و يرد على ما جاء فيه. فذهب العلامة الحلي إلى العالم بوصفه تلميذا، و قرأ عليه بجد و اجتهاد، مخفيا عنه عقيدته الشيعية، مدعيا أنه من أهل السنة. فوثق به العالم في النهاية، و أعاره الكتاب بعد إلحاحه عليه ليلة واحدة. و بما أن الكتاب كان كبير الحجم، فقد خشي العلامة ألا يتمكن من كتابة رده عليه في ليلة واحدة. لكن رجلا ظهر له على حين غرة، و طلب منه أن يؤدي فريضة الصلاة و أن يأوى إلى فراشه لينام، ففعل ما أمر به. و قام في صبيحة اليوم الموالي مهموما، فوجد الكتاب مكتوبا بصفة كاملة و بخط

^{٢٥٩} (٤) فرق الشيعة، ص ٧٩.

^{٢٦٠} (٥) الغيبة، ص ١٢٩.

^{٢٦١} (٦) نفسه، ص ٢١.

^{٢٦٢} (٧) نفسه، ص ٢٠.

^{٢٦٣} (٨) نفسه، ص ..

^{٢٦٤} (٩) قصيدة الحاصبي، ص ٣٥.

^{٢٦٥} (١٠) الشهرستاني، ج ٢، ص ١٣٢ و ١٣٣ و العقائد الأخرى.

^{٢٦٦} (١١) الغيبة، ص ٨٢.

^{٢٦٧} (١٢) جنة المأوى، ص ٢٨٧ - ٢٨٩.

جميل و موقعا عليه باسم الإمام الثاني عشر^{٢٦٨}، و هكذا استطاع العلامة الحلي تأليف رده^{٢٦٩}. من صلى ٤٠ ليلة قبل الجمعة أو ٤٠ ليلة قبل الأربعاء بمسجد السهلة أو مسجد الكوفة، فإنه سيرى المهدي، إلا أنه يجب على المصلي أن يحافظ على نفسه طاهرة على الدوام، و كثيرا ما يراه المصلون، غير أنهم لا يتعرفون عليه في الحين، و إنما يدركون ذلك فيما بعد^{٢٧٠}. و قد تتبع كثير من العلماء و الأتقياء من الناس الإرشادات المتصلة بالصلاة و رأوا المهدي في صور عديدة و في مناسبات مختلفة. و لم يؤلف كتاب جنة المأوى و كذلك كتب كثيرة متأخرة إلا من أجل إظهار مثل هذه الأمثلة.

ص: ٧٨

لقد اختفى الإمام إذن، و الكتب القديمة، التي ظهرت في زمن الغيبة الصغرى، و كتاب الطوسي بعد ذلك لا تحدد لنا زمان الاختفاء و لا مكانه، و ليس لدى أهل السنة أيضا تفاصيل عن ذلك^{٢٧١}. لكننا نقرأ فيما بعد في كتب أهل السنة أن الشيعة كانوا يعتقدون أن الإمام الثاني عشر قد اختفى في سرداب سنة ٢٦٦ أو ٢٦٥ هـ^{٢٧٢}. و تورد الكتب الشيعية المتأخرة الشيء نفسه و تتحدث عن الصلوات و العادات، التي يؤديها الشيعة في السرداب في ذكرى اختفاء الإمام، و يحاولون أن يبرهنوا من خلال ذلك على أنه اختفى فيه^{٢٧٣}. و لم يتحدث كتاب من كتب الشيعة في زمن الغيبة الصغرى أو الطوسي عن الاختفاء في ذلك السرداب. فمن أين إذن جاء إلى الشيعة هذا التقليد؟ يجيب مؤلف كتاب «كشف الأستار» عن هذا السؤال بوضوح تام: يقدر الشيعة هذا السرداب، لأنه الجزء الوحيد الذي بقي من مسكن الإمام. و قد أساء السنيون تقديس الشيعة، عند ما ظنوا أن الشيعة يقصدون اختفاء الإمام هنا في هذا السرداب، و مع مرور الزمن انتقل سوء الفهم إلى رواية الشيعة أنفسهم^{٢٧٤}. هناك إكنايتان متقابلتان في هذا المسألة: إما أن فكرة اختفاء الإمام في السرداب انتقلت إل عقيدة الشيعة من طريق سوء فهم أهل السنة لهذا الأمر، أو أن الشيعة كانت لهم هذه الفكرة من قبل، دون أن يتطرق إليها كاتب شيعي في ذلك الحين. و يبدو أنه من المناسب وضع قائمة زمنية لكتب السنة و الشيعة، التي تتضمن هذه الفكرة:

ص: ٧٩

ابن الجوزي، توفي سنة ٥٩٦ هـ^{٢٧٥}.

^{٢٦٨} (١٣) قصص العلماء، ص ٢٧٥.

^{٢٦٩} (١٤) قصص العلماء، ص ٧٦.

^{٢٧٠} (١٥) جنة المأوى ٢٨٧.

^{٢٧١} (١٦) الأشعري، ص ١٧، و ابن حزم، ١٨١ و مؤلفين آخرين.

^{٢٧٢} (١٧) ابن خلكان، ج ٢، ص ٥٧١، و ابن خلدون المقدمة، ص ٣٥٩. و يذكر بن خلدون أن ذلك السرداب في الحلة.

^{٢٧٣} (١٨) لبيب السير، ج ٢، ص ٣٧، و جنة الخلود، الجدول ١٩، ثم تاريخ العلويين، ص ١٧١.

^{٢٧٤} (١٩) هبة الدين، رسالة خاصة.

^{٢٧٥} (٢٠) المنتظم (مخطوط)، ص ١٦٩، تاريخ سنة ٢٦٥ هـ.

ياقوت الحموى، توفى سنة ٦٢٦ هـ^{٢٧٦}.

ابن الأثير، توفى سنة ٦٣٠ هـ^{٢٧٧}.

أبو عبد الله بن يوسف الكنجى، توفى سنة ٦٥٨ هـ^{٢٧٨}.

ابن طاوس، توفى سنة ٦٧٣ هـ، شيعى^{٢٧٩}.

ابن خلكان، توفى سنة ٦٨١ هـ^{٢٨٠}.

على بن عيسى الإربلى، توفى سنة ٦٩٢ هـ، شيعى^{٢٨١}.

ابن بطوطة، توفى سنة ٧٧٩ هـ^{٢٨٢}.

ابن خلدون، توفى سنة ٨٠٨ هـ^{٢٨٣}.

نور الدين الطبرسى، توفى سنة ٨٥٥ هـ، شيعى^{٢٨٤}.

يمكننا أن نستنتج من هذا الجدول، إن كان كاملا و صحيحا، أن السنة هم أول من عبر عن هذه الفكرة و أن معظمهم قد تحدث عنها.

لا تتحدث جميع الكتب، حتى عصر الشهرستانى، عن المهدى المنتظر فى سامراء و لا تذكر السرداب (فى الحلة). و الشهرستانى نفسه، الذى توفى سنة ٥٤٨ هـ، لا يعرف شيئا عن سرداب، و إنما يعرف فقط واقعة الاختفاء^{٢٨٥}.

ص: ٨٠

^{٢٧٦} (٢١) معجم البلدان، ج ٣، ص ١٩ و ٢٢.

^{٢٧٧} (٢٢) ابن الأثير، ج ٧، ص ٩٧.

^{٢٧٨} (٢٣) بحار، ج ١٣، ص ٢٤، و كتابه البيان فى أخبار صاحب الزمان، ص ٣٤٥.

^{٢٧٩} (٢٤) بحار، ج ١٣، ص ٢٨٠ / ٨١.

^{٢٨٠} (٢٥) نفسه، ج ٢، ص ٥٧١.

^{٢٨١} (٢٦) بحار ج ١٣، ص ٢٤.

^{٢٨٢} (٢٧) رحلة ابن بطوطة، ج ٢، ص ١٣٢ و انظر ص ٩٦ و ما بعدها.

^{٢٨٣} (٢٨) مقدمة ابن خلدون، ص ٣٥٩.

^{٢٨٤} (٢٩) الأصول المهمة، ص ١٩٨.

^{٢٨٥} (٣٠) الشهرستانى، ج ١، ص ١٢٨.

يروى لنا الإربلى في كتابه «كشف الغمة» عددا كبيرا من الحكايات ترينا الدور الكبير، الذي لعبه السرداب في ذلك الحين. كان المرضى، و اليائسون، و المطاردون و المضطربون داخليا في وقت كثرت فيه الاضطرابات السياسية و ترعرعت فيه الأوهام، يجدون ملاذهم الأخير في سرداب الإمام، يعملون هنالك على التخلص من همومهم عن طريق الصلوات أو الرسائل إلى الإمام عليهم يجدون فيه العزاء. عند ما تكون الثقة في قلوبهم، يفقد فن الطب اعتباره إلى جانب قوة السرداب العجيبة. و كانت الأخبار عن كرامات الإمام تنتقل من فم إلى فم و من كتاب إلى كتاب حتى تصل الخليفة نفسه^{٢٨٦}. لكن تقديس الإمام في سرداب سامراء و بعض الأماكن الأخرى لا يعنى بالتأكيد، كما يذكر «كشف الغمة» و كتب أخرى، أن الناس يحصرون قوة الإمام في هذه «المزارات»، ذلك أن الشيعة يعتقدون أن جميع البلدان و البحار خاضعة له و أن جلاله يمكن أن يظهر في كل مكان^{٢٨٧}.

و الإربلى لا يذكر أن الإمام اختفى في سرداب و أقام فيه. حقا إنه يأخذ «شهادة» من كتاب «كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب» للكنجى السنى، و لكن هذه الشهادة لا تعبر عن رأى الناقل، و إنما تعبر عن رأى الكنجى، الذى حاول، لسبب غير معروف، أن يقع إخوانه في الدين أن غيبة الإمام و حياته في السرداب ليس أمرا عجيبا و لا مستحيلا، ما دام الناس يعتقدون نفس المصير بالنسبة إلى بعض الأنبياء مثل يسوع^{٢٨٨}.

و نجد مفتاح فكرة السرداب عند ابن الراوندى المتوفى سنة ٥٧٣ هـ. فالمؤلف يحدثنا عن قصة اختفاء الإمام في السرداب على الشكل

ص: ٨١

التالى: أرسل الخليفة المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ / ٨٩٢ - ٩٠٢ فى منصب الخليفة) عند سماعه بإقامة الإمام فى سرداب بسامراء فرقة من الحرس و أمرهم باعتقال الإمام. فوجدوه فى السرداب يقرأ القرآن. و عند ما انتهى الإمام من ذلك، خرج بجلاله أمام أنظار الحرس، من غير أن يراه قائد الحرس أو يتكلم معه^{٢٨٩}. إذن فالشيعة يقولون إن الإمام اختفى من السرداب و لم يقولوا إنه اختفى فى السرداب و أقام فيه على ما يذهب إليه أهل السنة.

و نأتى الآن إلى المسألة الثانية، و هى اختفاء الإمام فى مدينة الحلة و انتظاره هناك. لقد اخترنا هذه المسألة فى بداية كتابنا و قدمنا الدليل على استحالتها. يروى لنا ابن بطوطة فى وصفه لرحلته عبر العراق أنه جاء إلى الحلة و شاهد كيف يأتى بعد صلاة العصر مائة رجل إلى حاكم المدينة، و يأخذون فرسا مسرجا ملجما أو بغلة، يتقدمها ٥٠ رجلا و يتبعها ٥٠ رجلا، و هم يضربون الطبول و ينفخون البوقات و يذهبون إلى المسجد الكبير، و ينادون الإمام من أمام باب مغطى بستار من الحرير. و بعد مغيب

^{٢٨٦} (٣١) بحار، ج ١٣، ص ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٣، ١٢٤ و ١١٨.

^{٢٨٧} (٣٢) هذه الفكرة موجودة فى كل كتاب من كتب الغيبة.

^{٢٨٨} (٣٣) بحار، ص ٢١ و ما بعدها و ص ٢٤.

^{٢٨٩} (٣٤) بحار، ج ١٣، ص ١١٨.

الشمس يعود الموكب و ينصرف الناس عائدين إلى بيوتهم^{٢٩٠}. و يعرف المسجد المذكور باسم مشهد صاحب الزمان أو مقام صاحب الزمان^{٢٩١}.

ص: ٨٢

و قد وردت في «بحار الأنوار» حكايات عجيبة عن هذا المقام مع ذكر التواريخ، فهناك قصة مثلاً تعود إلى سنة ٧٤٤ هـ، تتحدث عن شفاء أعمى من عماه في المسجد عن طريق الإمام^{٢٩٢}، أو سنة ٧٥٩ هـ، التي توصل فيها كسيح إلى استعمال رجله ثانية^{٢٩٣} و غير ذلك. و يتضح من هذه القصص أن الشيعة في الحلة ينتظرون الإمام، و لكن ذلك لا ينغني أنه اختفى فيها.

هناك قصص أخرى تحدثنا عن كثير من علماء الحلة، الذين ادعوا أنهم رأوا الإمام متنكراً. و معظم هذه القصص العجيبة يعود إلى عهد المغول، الذي لم تتعرض فيه الحلة لنهب الدخلاء، فتطورت لتصبح المقام الرئيس للشيعة^{٢٩٤}. و يبدو أنه لم يكن من المستحيل أن يربط الناس نجاة المدينة بكرامات المهدي و أن يكون الرأي القائل باختفاء الإمام في الحلة و انتظاره فيها قد نشأ بهذه الطريقة. و تعود هذه القصص العجيبة عن مقام أو مشهد صاحب الزمان في معظمها، بناء على ما توصلت إليه في بحوثي، إلى رجل يدعى شمس الدين محمد بن قارون، و هو «متصوف و عالم» كما تسميه القصص^{٢٩٥}.

و يذكر لنا مقام آخر كان للمهدي حضور فيه، فقد تحدث رجل يدعى شيخ جواد النعماني عن ظهور الإمام له، فسأله عن مقامه في الحلة

^{٢٩٠} (٣٥) كتب كلود هوارت Cl. Huart, تاريخ العرب, Geschichte der Araber, ج ٢، ص ٣٢٠ يقول: «عند ما مات الإمام الحادي عشر ... ترك ولدا في السادسة من عمره، يدعى محمداً، كان الخليفة قد حبسه في الحلة، حيث مات في الثانية عشرة من عمره، و لعله مات مسموماً. و لم يصدق الشيعة موته، و هم يدعون حتى اليوم أنه اختفى في غار، سيخرج منه عند ما يحين حينه ...» و هذا العرض لا يحتاج إلى تعليق، لأنني أولاً ناقشت هذه المسألة، ثم إن هوارت لا يذكر مصدره!

^{٢٩١} (٣٤) رحلة ابن بطوطة

Voyages D'Ibn Btutah, par G. Deferemery et le Dr. B. R. Sanguinetti, Paris MDCCCLXXVII, Societe Asiatique

و يذكر ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ١٥، قصصاً مشابهة عن انتظار الإمام في مدينة قاشان (و تنطق كاشان أيضاً): يخرج سكان هذه المدينة و ضواحيها عند طلوع النهار بالخيول و السيوف إلى استقبال الإمام و يعودون في المساء حزينين إلى بيوتهم. و يذكر ابن خلدون،

٨٥٨١ ParM. Quatremere, Paris, (٩٣٣) Prol'gomenes,

ما ذكره ابن بطوطة. بحار، ج ١٣، ص ١٤٧، تتضمن في المدينة الفاضلة بالجزيرة الخضراء (ظهرت المدين الفاضلة: ٦٩٩ هـ) ملاحظة أن عامة البلاد تقيم يوم الجمعة بعد منتصف كل شهر موكباً لانتظار المهدي.

^{٢٩٢} (٣٧) بحار، ص ١٢٣ / ١٢٤ (ج ١٣)، ثم ص ٢٧١.

^{٢٩٣} (٣٨) نفسه، ص ١٢٣ / ١٢٤.

^{٢٩٤} (٣٩) نفسه، ص ١٢٤؛ كثيراً ما تتكرر قصص مماثلة في هذا الكتاب.

^{٢٩٥} (٤٠) أنظر، بحار، ج ١٣، ص ١٢٠، ١٢٣، ١٢٤ و ٢٥٢.

و في النعمانية^{٢٩٦} و عن مقامه في الاثنتين، فأجابه الإمام إنه يقيم كل يوم الاثنين ليلاً و يوم الثلاثاء في النعمانية، و يقيم في الحلة كل جمعة^{٢٩٧}.

و لسنا في حاجة إلى إقامة فرضيات صعبة حول نشأة مقامات الإمام المختفى! فالذي يغلب على الظن أن قصة ما، كما نستطيع أن نتتبع ذلك من خلال الأمثلة، عن ظهور الإمام تدفع الناس إلى إقامة مقام مقدس أو مسجد يحمل اسم الإمام^{٢٩٨}.

زعم ماكس هورتن في كتابه «فلسفة الإسلام» أن «(الإمام) الثاني عشر ... اختفى و يعيش في جبل رضوان (?)»^{٢٩٩} (حجة بارباروسا) و منه يسير مصائر أهل الشيعة، أى الفرس^{٣٠٠} (?) و في نهاية الزمن يؤسس مملكة العدل^{٣٠١}. و لا أدري من أين جاء هورتن بهذه المزاعم، لأنه لا يذكر مصدره. و أظن أنه خلط بين الكيسانية، الذين يتصورون كما هو معروف أن محمد بن الحنفية يعيش في جبل رضوى، و بين تعاليم الشيعة.

و تحاول الكتب غير الشيعية أن تبرهن على أن فكرة الاختفاء قد انتشرت في الإسلام عن طريق اليهودى عبد الله بن سبأ، الذى أسلم، و كذلك بمقتضى الوصية و الإمامة^{٣٠٢}. و قد أقام بعض المستشرقين و غير المستشرقين في العصر الحديث بناء على ذلك نظرية جديدة عن أصل

الشيعة و تحدثوا عن «التأثير اليهودى»^{٣٠٣}. و الشيعة ينكرون شيئاً من هذا القبيل طبعاً، فهو لم يكن سوى الأول الذى مثل إمامة على علانية و انفصل عن أعدائه. و من ذلك أراد غير الشيعة إثبات التأثير اليهودى^{٣٠٤}.

^{٢٩٦} (٤١) النعمانية مدينة صغيرة بين بغداد و واسط على دجلة، ياقوت، ج ٤، ٧٩٦.

^{٢٩٧} (٤٢) يشار، ج ١٣، ص ٢٨٠ / ٢٨١.

^{٢٩٨} (٤٣) نفسه، ص ١١٩ و ١٢٢ و كذلك مواضيع مختلفة.

^{٢٩٩} (٤٤) الجبل يسمى رضوى.

^{٣٠٠} (٤٥) ليس الفرس وحدهم شيعة، فلما ذا لم يذكر إلا الفرس؟

^{٣٠١} (٤٦) الفلسفة الإسلامية، ص ١٣٣.

^{٣٠٢} (٤٧) الطبرى، تاريخ سنة ٣٥ هـ، ص ٢٩٤١، و الشهرستانى، ج ١، ص ١٣١ و ١٣٢.

^{٣٠٣} (٤٨) من المستشرقين مثلاً فيلها وزن، «الأحزاب السياسية الدينية المعارضة فى صدر الإسلام»

Wellhausen, Die religi? s- politischen Oppositions pareteien im altenIslam

ص ٩١. هناك خلاصة واضحة لآراء المستشرقين فى «جريدة الجمعية الشرقية الأمريكية»، Journal of the American Oreintal Society ج ٢٨،

النصف الأول، ١٨٠٧ تحت عنوان «تعليم الشيعة فى تقديم ابن حزم» بقلم إسرائيل فريدلاندر.

^{٣٠٤} (٤٩) الكشى، ص ٧١.

لم يكن عبد الله بن سبأ أول من نشر فكرة الرجعة، فقد أخذ فكرة قديمة، لم تظهر حتى في أيام عمر بن الخطاب، الخليفة الثاني، الذي أبقى، عند ما خطب في المسجد، أن يصدق بموت النبي. ذلك أن هذه الفكرة^{٣٠٥} لم تكن قبل الإسلام غريبة عن العرب و البدو^{٣٠٦}. ليس من الضروري الحديث هنا بتفصيل عن مسألة عبد الله بن سبأ، ما دام عدد كبير من الباحثين، مثل فريدلندر^{٣٠٧} وغيره، قد شغلوا أنفسهم به، ولذلك أترك هنا مسائل الرجعة والوصية جانباً. فهناك على العكس من ذلك مسائل أخرى ترتبط برجال من الشيعة، أعتقد أن على هنا أن أبحث قضية عبد الله بن سبأ من جديد، إذ يبدو لي أنه ليس من المستحيل أن تكون هذه الواقعة قد عرضت في ضوء زائف عن طريق جمع تفاصيل تاريخية مقصودة. إن نحن استطعنا الوصول إلى الحقيقة هنا، فإنه لمن الممكن عندئذ أن ننقل الفكرة نفسها إلى الرجعة والوصية.

ص: ٨٥

يروى أن عبد الله بن سبأ دخل الإسلام في عهد الخليفة عثمان^{٣٠٨}.

و بعد ذلك تنقل هذا المرتد في عدد من البلدان الإسلامية، وقيل عنه إنه كان يريد أن يقود المسلمين على طريق الضلال. فظهر أولاً في الحجاز، ثم في البصرة وأخيراً في الكوفة، وقد حاول الأمر نفسه في سورية دون جدوى.

يقال إنه ذهب أولاً إلى مصر ومنها تأمر مع عدد من البلدان ضد الخليفة، ولكن عثمان عرف حماسه وتآمره وأرسل بعض أخصائه إلى تلك البلاد ليتعرف على الوضع، فأرسل عمار بن ياسر^{٣٠٩} إلى مصر، وعاد الجميع باستثناء عمار. غير أن عجب الخليفة زال عند ما وصلته رسالة من حاكم مصر عبد بن سعد بن أبي سرح، الذي أخبره بأن عمار قد انضم إلى الثوار^{٣١٠}. و الذين نقلوا هذا الخبر أنفسهم وأخذهم الطبري، يذكرون في موضع آخر أن عبد الله بن سبأ التقى عند وصوله إلى سورية بأبي ذر و حرضه على معاوية، حاكم سورية، بهذه الكلمات: «يا أبا ذر، ألا تعجب من قول معاوية: المال كله مال الله، و كل ما يوجد إنما هو لله، و كأنه يريد أن يأخذ كل شيء لنفسه، عوض أن يقدمه للمسلمين؟» و بعدئذ أخذ أبو ذر يثير الفقراء ضد الأغنياء،

^{٣٠٥} (٥٠) الشهرستاني، طبعة القاهرة، ج ١، ص ٢٠ / ٢١، و نقدي لأحمد أمين في جريدة الطريق، في أعداد مختلفة من سنة ١٩٣٣.

^{٣٠٦} (٥١) تاج العروس، ج ٥، ص ٤٤٨ / ٤٤٩، و لسان العرب، ج ٩، ص ٤٧٢.

^{٣٠٧} (٥٢)

Zeitschrift für Assyriologie und verwandte Gebiete, Bd. XXIII und Bd.

XXIV und a. Werke

^{٣٠٨} (٥٣) مقتل عثمان، ص ٨٤: أسلم عبد الله بن سبأ سنة ٢٩ أو ٣٠ هـ.

^{٣٠٩} (٥٤) عمار بن ياسر عند فريدلندر، الجريدة الآشورية، ج ١٣ / ٣٠٢، هو حاكم مصر.

و هذا الرأي يقوم على خطأ. و مصدره هو الطبري، ص ٢٩٤٤، و لكن الطبري يقول هناك إن عمار بن ياسر لم يرسل إلى مصر إلا لمعرفة الوضع فيها، أنظر أعلاه.

^{٣١٠} (٥٥) الطبري، تاريخ سنة ٣٥ هـ، ج ١، ص ٢٩٤١.

حتى إن الحاكم أرسل أبا ذر سنة ٣٠ هـ إلى الخليفة خوفاً من حدوث انقلاب اجتماعي^{٣١١}، بينما طرد اليهودى إلى مصر^{٣١٢}. كانت لعمار و لأبى ذر، صديقى على بن أبى طالب، مكاتبتها عند الشيعة، فهما أول من نسمع

ص: ٨٦

عنهما أنهما قد حملا اسم الشيعة^{٣١٣}، و يبدو من الخبر المأثور أنهما قد تأثرا باليهودى عبد الله بن سبأ. و يذكر الطبرى فى موضع آخر أن اليهودى عبد الله بن سبأ قد جاء إلى البصرة فى الثالثة من ولاية عبد الله بن عامر و أقام عند حكيم بن جبلة من عبد قيس. و هناك جمع حوله عددا كبيرا من الغوغاء و طرح عليهم أسئلة دينية عويصة دون أن يجيب عليها، فنال بذلك بعض الشهرة. و قد سمع الحاكم بما حدث، فطلب إحضاره إليه. و عند ما سأله عن شخصه أجاب اليهودى أنه من أهل الكتاب، و أنه يتشوق إلى الإسلام و إلى حماية الحاكم. على أن هذا رفض الاستجابة له و طرده من المدينة. فاتجه عبد الله بن سبأ إلى الكوفة، و لما لم يكن له بها مقام، اتجه إلى مصر^{٣١٤}، و لا يتحدث الطبرى فى هذا المكان عن سفر اليهودى إلى سورية. اعتمادا على هذا الخبر فإن عبد الله بن سبأ كان قد ذهب إلى البصرة سنة ٣٣ هـ^{٣١٥}.

لقد أرسل الحاكم معاوية أبا ذر سنة ٣٠ هـ إلى الخليفة عثمان فى المدينة، فطرده الخليفة منها و أخرجه إلى الربرة قرب المدينة، فتوفى فيها فى شهر ذى الحجة فى السنة الثامنة من خلافة عثمان^{٣١٦}، أى سنة ٣١ أو ٣٢ هـ ٦٥٢ م، كما روى سيف بن عمر الأسدى^{٣١٧}.

إذا ما نحن أخذنا بما جاء فى الموضع الأول من الطبرى^{٣١٨} بأن عبد الله بن سبأ قد ذهب إلى سورية و التقى بأبى ذر، فإنه يتضح لنا أن هذا مستحيل، لأن الحاكم معاوية كان قد طرد أبا ذر سنة ٣٠ هـ و أن أبا ذر

ص: ٨٧

توفى سنة ٣١ هـ، فى حين أن عبد الله بن سبأ لم يذهب إلى سورية إلا فى سنة ٣٣ هـ، أى بعد سنة أو سنتين من موت أبى ذر و ثلاث سنوات بعد طرده من دمشق.

^{٣١١} (٥٦) نفسه، ص ٢٨٢٨.

^{٣١٢} (٥٧) نفسه، ص ٢٩٤١.

^{٣١٣} (٥٨) روضات الجنات، ص ٨٨.

^{٣١٤} (٥٩) الطبرى، ١، ٢٩٤١ ص.

^{٣١٥} (٦٠) نفسه، ص ٢٩٢٢؛ ابن الأثير، ج ٣، ص ٦٠؛ سير وليم موير SirWilliam Muir، الخلافة، ص ٢٠٨.

^{٣١٦} (٦١) الطبرى، ١، ص ٢٨٩٥.

^{٣١٧} (٦٢) نفسه

^{٣١٨} (٦٣) نفسه ١، ص ٢٩٤١.

و لأسباب عاطفية أيضا لا يمكن على الإطلاق أن يتأثر رجل تقى مثل أبى ذر بيهودى، لم يدخل الإسلام إلا قبل فترة قصيرة، و لم تكن له مكانة علمية متميزة فى طائفته اليهودية. و كان قد شتم كعب الأحبار، العالم المعروف^{٣١٩}، الذى أسلم عبد الله بن سبأ على يده و كانت له منزلته فى الدوائر الإسلامية، خصوصا عند الخليفة عثمان، عند ما تدخل فى مسألة قانونية مع الخليفة: «تفا لك! يا ابن اليهودية! ما ذا تعتبر نفسك هنا! إما أن تسكت و إلا فإنى سأريك كيف تسكت»^{٣٢٠}. و فى رواية أخرى قال أبو ذر: «تفا لك! يا بن السوداء! ما أسوأ لغتك عن ديننا»^{٣٢١}.

لقد وضع إسرائيل فريد لندر بحوثه عن عبد الله بن سبأ بناء على مصادر كثيرة، بل كان الآخرون الذين كتبوا عن عبد الله بن سبأ مصادفة، قد اكتفوا بمقارنة الشكل الخارجى للإخبار التى وصلتنا بعضها ببعض الآخر ليقيموا عليها نظريتهم. على أنه لا بد أولا فى رأى من فحص المضمون الحقيقى لرواية من الروايات، و التأكد من أمانة الراوى، و الإحالة الزمنية للكلمات و شكل الأسلوب و طبيعة الأفكار قبل أن تتم المقارنة بين أشكال الروايات المختلفة بعضها ببعض و إصدار حكم عليها فى مرحلة تالية.

لقد أقمنا الدليل على استحالة التقاء عبد الله بن سبأ بأبى ذر. و أريد الآن أن أقدم روايات لها علاقة بالأخبار السابقة كأمثلة لأظهر مدى قوة

ص: ٨٨

اختلاط ما هو حقيقى بما هو غير حقيقى. إن عمار بن ياسر المذكور أعلاه كان عدوا قديما للخليفة عثمان. ففى سنة ٢٣ هـ، عند ما بويع عثمان خليفة، كان عمار ينشر الإشاعات ضده، حتى إن أقرباء الخليفة تعدوا عليه بالضرب^{٣٢٢}. و عند ما أخذ الخليفة المال من خزانة الدولة ليقدمه إلى أقاربه و هاجمه عمار بسبب ذلك، عاقبه أهل الخليفة مرة أخرى بالضرب^{٣٢٣}. و عند ما طرد الخليفة أبا ذر إلى الربذة و منع من مرافقته إليها، لم يعبأ عمار و على و بنوه بمنعه^{٣٢٤}. فغضب عثمان على عمار غضبا شديدا حتى إنه رغب فى طرده أيضا،^{٣٢٥} لكن بنى مخزوم و على استطاعوا بفضل سمعتهم و نفوذهم أن يتوسطوا بين عثمان و عمار، بحيث خاف عثمان و ترك عمار فى المدينة. و سكن فى بيته، و لكنه ظل معارضا لعثمان و تابعا مخلصا لعل^{٣٢٦}. لقد كان عمار إذن معارضا كبيرا و دائما لعثمان، و لذلك لا يمكن أن يكون قد أرسله نائبا عنه إلى مصر، كما تعرض ذلك علنا الرواية فى صفحة ٥٨ من هذه الأطروحة، بل كان عمار بوصفه نائبا على عثمان على صلة بمصر، رغم أنه كان يسكن المدينة.

^{٣١٩} (٦٤) نولدكه، «الإسلام»، ج ١٣، سنة ١٩٣٢، ص ٧١ سطر ١.

^{٣٢٠} (٦٥) الطبرى، ١، ص ٢٨٥٨.

^{٣٢١} (٦٦) ابن الأثير، ج ٣، ص ٢٤٨.

^{٣٢٢} (٦٧) الطبرى، ١، ص ٢٧٥٨.

^{٣٢٣} (٦٨) ابن العبري، ص ١٧٨.

^{٣٢٤} (٦٩) ابن الأثير، ج ٣، ص ٢٤٦.

^{٣٢٥} (٧٠) ابن واضح، ص ٢٠١.

^{٣٢٦} (٧١) دائرة المعارف الإسلامية، مبحث عمار بن ياسر.

ولهذا فإنه لمن الصعب أن يكون الخليفة قد أرسل رجلا من هذا القبيل إلى مصر في قضية على هذه الدرجة من الأهمية. و نفس المصادر عند الطبرى تقول إن عمار بقى فى المدينة حتى سنة ٣٥ هـ، و هى السنة التى قتل فيها عثمان. فعند ما خرج الثوار المصريون لمهاجمة المدينة، نزلوا فى قرية ذى خشب، و بعثوا بمفاوض إلى على و عمار طالبين منهما مساعدتهم معنويا فى مشروعهم^{٣٢٧}. و مع أن الخليفة كان يعرف أن عمار

ص: ٨٩

ضده، فقد طلب منه بالذات، بناء على نصيحة رجاله له، أن يذهب إلى ذى خشب ليفاوض المصريين تجنباً لسفك الدماء^{٣٢٨}. فليس من الممكن إذن أن يكون الخليفة قد أرسل عماراً إلى مصر. من المؤكد أن سبب ذلك الخبر الزائف يكمن فى أنهم - كما وقع فى الحديث عن أبى ذر - حاولوا أن يربطوا بين عمار، و هو من رؤساء الشيعة، و بين عبد الله بن سبأ و خضوعه له قصد الحط من قيمة الشيعة.

و رواية الخبرين هما السرى و سيف بن عمر الأسدى التميمى الكوفى. و يعتبر الأول كاذباً بالنسبة إلى الذهبى السنى^{٣٢٩}، و بذلك يوصف الثانى أيضاً^{٣٣٠}. و من هنا يغلب على الظن أن روايتيهما للمسألة كان القصد منهما تشويه السمعة^{٣٣١}.

و يروى عبد الرحمن بن مالك بن ماعول أن أبا عمر بن عامر بن شراحيل الشعبى قال لمالك بن معاوية: «أحذرك من الزنادقة، و أسوأهم الرافضة، فهم يهود هذا الشعب. فالرافضة يتبعون الإسلام كما يتبع اليهود النصارى...»^{٣٣٢}. كان الشعبى شيعياً، و لكنه ترك الشيعة فيما بعد^{٣٣٣}، فقدّمه الشيعة على أنه عدو لعلى و شيعته^{٣٣٤}، و مات الشعبى سنة ١٠٤ أو ١٠٥ - ١٠٩ هـ.

فى الخبر المذكور أخيراً نجد ذكراً للرافضة، و هو أصحاب الردة.

و فى أقوال أخرى أن هذه الكلمة لم تظهر إلا فى حوالى سنة ١٢٢ هـ،

ص: ٩٠

^{٣٢٧} (٧٢) الطبرى، ج ١، ص ٢٩١٩.

^{٣٢٨} (٧٣) نفسه.

^{٣٢٩} (٧٤) الذهبى، ميزان الاعتدال، ج ٣، ص ٢٧٠.

^{٣٣٠} (٧٥) نفسه، ج ٣، ص ٤٣٧.

^{٣٣١} (٧٦) يوليوس ويلهاوزن، تصميمات و ...، ص ١ - ٧.

^{٣٣٢} (٧٧) العقد الفريد، ج ١، ص ١٩٠؛ ضحى الإسلام، ج ٢، ص ٣٣٤، و الطريق، رقم ٤٢ (١٩٣٣).

^{٣٣٣} (٧٨) ابن تيمية، منهاج السنة، ج ١، ص ٧.

^{٣٣٤} (٧٩) روضات الجنات، ج ٢، ص ١٩٣، ٣٢٦.

و هناك آراء مختلفة حول أصلها. و يقال إنما قصد بها أهل الكوفة.^{٣٣٥} فعند ما أراد زيد بن علي أن يثور على الأمويين، جاء إليه أهل الكوفة و سألوه عن رأيه في أبي بكر و عمر، فالمعروف أن الشيعة قد لعنوا ذينيك الرجلين و جميع الخلفاء و تبرّءوا منهم. لكن زيدا لم يتبرأ من أبي بكر و عمر و رفض أن يلحق السوء بهما. و عندئذ انفصل الشيعة عن زيد، و ذهبوا إلى جعفر الصادق و اعترفوا به إماما، لكن أتباع زيد القدامى أطلقوا عليه اسم «الرافضي»^{٣٣٦}.

و تفسر المصادر الشيعية هذه الكلمة على نحو آخر، عند ما جاء زيد إلى الكوفة و سمع الناس بذلك، أحاطوا به في بهجة. فقد تصوروا أن أخاه محمد الباقر، الإمام الخامس، هو الذي أرسله. و عند ما أعلن زيد عن رغبته في القيام بثورة، سأله الشيعة عما إذا مشروعه يمثل رأيه الخاص أو يمثل رأى الإمام. و لما أوضح لهم أنه يثور من تلقاء نفسه، تركه الشيعة و تبرّءوا منه، و لذلك حملوا منذ الحين اسم «الرافضة»^{٣٣٧}.

و يشك تيودور نولدكه Theodor Nöldeke في هذا الأصل لكلمة «الرافضة»، و يرى أن هذه الحكايات عن نشأة الاسم موضوعة، لكنه لا يشك على العكس من ذلك في أنه من الممكن أن تكون قد نشأت في القرن الثاني أو بداية القرن الثالث الهجري^{٣٣٨}.

ليس من الضروري بالنسبة إلى أطروحتنا أن نبحت عن الجانب الاشتقاقي للكلمة، و إنما يكفينا أن نؤكد أنها قد أطلقت على الشيعة في أيام زيد أو بعده بقليل.

ص: ٩١

(ص ٨٤) لقد اعتبر الشيعة كلمة الرافضة شتيمة، فذهب رؤساؤهم إلى جعفر الصادق، الإمام السادس، و روي له أن رجلا معينا قد أطلق عليهم هذه التسمية. فأجابهم الإمام بكلمات مطمئنة، مؤداها أن الله هو الذي سماهم هكذا؛ فقد جاء في الإنجيل أن ٧٠ شخصا قد انفصلوا عن فرعون و التحقوا بدين موسى، و لذلك أطلق عليهم اسم «الرافضة»، و هكذا هم الشيعة أنفسهم، الذين انفصلوا من جانبهم عن الدين القديم^{٣٣٩}. و لا تزال هذه الكلمة شتيمة عند السنيين^{٣٤٠}، و الشيعة بدورهم يسمون أهل السنة «نواصب»، أي أعداء علي^{٣٤١}.

^{٣٣٥} (٨٠) جريدة الطريق، رقم ٣٥ (١٩٣٣)، مقال «ضحى الإسلام»؛ و ابن خلكان، ج ١، ص ٣٠٦.

^{٣٣٦} (٨١) ابن الأثير، ج ٨، ص ٢٧٢، حوادث سنة ١٢٢ هـ.

^{٣٣٧} (٨٢) تبصرة العوام، ص ٢٧٢، مجالس المؤمنين، مقال زيد بن علي؛ و روضات الجنات، ج ١، ص ٨٨ و ما بعدها.

^{٣٣٨} (٨٣) مجلة «الإسلام DerIslam» ج ١٣، سنة ١٩٢٣، ص ٧٣.

^{٣٣٩} (٨٤) بحار، ج ١٥، ص ١٢٧ تحت

^{٣٤٠} (٨٥) روضات الجنات، ج ١، ص ٨٨.

^{٣٤١} (٨٦) تبصرة العوام، ص ٣٦٩، و روضات الجنات، نفسه. (يوجد فيه شرح لكلمات الرافضة، و روافض، و نواصب و غيرها حسب المعنى و الأصل.

توفى الشعبي، الذى وضعت الكلمة على لسانه، ١٢ إلى ١٩ سنة ثورة زيد و موته. و لذلك لا يمكن السبعى صاحب هذه الكلمة. و قد لاحظ عدو الشيعة المعروف ابن تيمية أن جميع الروايات المتعلقة بكلمة الرافضة و ربطها بالشعبي زائفة. فقد وضعها عبد الرحمن بن مالك بن مغول لتزيين حكاياته و بصفتها حجة على الشيعة^{٣٤٢}.

و يتخذ فريدلندر رواية الشعبي هذه لمقارنة الشيعة باليهودية، لأنه ليس من الممكن إقامة الدليل على المصدر الرئيس لهذه الرواية^{٣٤٣}.

و يأخذ أحمد أمين كذلك تلك الرواية على أنها رواية حقيقية و يستنتج منها أن أصل الشيعة مستمد من اليهودية^{٣٤٤}.

ص: ٩٢

و فكرة الرجعة، التى تلعب دورا كبيرا عند معظم الفرق الشيعة حتى الاثنى عشرية، زاحمتها أيام الغيبة الصغرى فكرة الاختفاء، و جعلتها الاثنا عشرية فى المقام الثانى. و الفكرة الرئيسة للرجعة و الغيبة هى فى الأصل واحدة، و لكن التحديد الدقيق لهذين المصطلحين يبين اختلافات بين الاثنين: فالغيبة تعنى غيبة الإمام الذى لم يمت و رجوعه إلى الأرض، بينما تعنى الرجعة بعث كل الأئمة و بعض أصحابهم من القبور جسديا، و كذلك بعض أعدائهم ليفرح أولئك بانتصارهم و يعاقبون أعداءهم القدامى بإقامة دمائهم^{٣٤٥}. و الاثنان، الرجعة و بعث الإمام الثانى عشر، تتمان فى وقت واحد على التقريب، و عندئذ سيكون الإمام الثانى عشر هو حاكم العالم^{٣٤٦}، و تقام مملكة الله الحقيقية. و كان جابر بن يزيد الجعفى من الذين آمنوا بالرجعة^{٣٤٧}.

و بعض الشيعة ينظرون إلى الرجعة على أنها إقامة الدولة الشيعة عند رجعة المهدي^{٣٤٨}. و قد اشتد شوق الشيعة بكل ما فى صدورهم من حرارة الإيمان إلى هذه الدولة، و قد كانوا دائما يسألون الأئمة عن هذه الدولة و عن شخصية الحاكم. و إذا لم يذكر لهم الإمام وقتا معينا و شعروا بالحزن خشية من أن يموتوا قبل عهد هذه الدولة، أخذ يعزيهم بأن الظلم كله سيزول قريبا. و من هنا وصل مؤولو الرجعة إلى فكرة إقامة المملكة الشيعة. إذن فتعاليم الرجعة ليست مذهبا دينيا، و إنما كانت نتيجة للإحباط السياسى لدى الشيعة. فقد كانت القوة بيد أعدائهم، يتمتعون بنعم الحياة الدنيا، بينما كان الأئمة يعيشون فى خوف دائم من القمع و المطاردة و الاغتيال، و كان أتباعهم، الشيعة، يشاطرونهم نفس المصير.

^{٣٤٢} (٨٧) لبعض علماء الشيعة أيضا كتب بعنوان «كتاب الرد على الرافضة»، مثل الحسين بن على بن سفيان و عبد الله الحسين بن على بن الحسين بن بابويه (أنظر الكنتورى، ص ٤٤٢). و نرى من ذلك العنوان أن هذه الفرقة من الشيعة، التى ينتمى إليها المؤلفون لا تعنى نفسها، الاثنى عشرية، و إنما تعنى فرقة أخرى.

^{٣٤٣} (٨٨)

Journal of the American Oriental Society, Bd. ١, ٧٠٩١, p. ٩١.

^{٣٤٤} (٨٩) ضحى الإسلام، ج ٢، ص ٣٣٤.

^{٣٤٥} (٩٠) بحار، ج ١٣، ص ٢٣٥.

^{٣٤٦} (٩١) بحار، ج ١٣، ص ٢٣٥.

^{٣٤٧} (٩٢) تعليقات على منهج المقال، ص ٩.

^{٣٤٨} (٩٣) بحار، ج ١٣، ص ٢٣٥.

فكان أئمتهم يعزونههم بالمستقبل، لأن ذلك كان الوسيلة الوحيدة لتقوية

ص: ٩٣

إيمانهم، حتى قيل عنهم لقد كبروا على الأمل و الانتظار^{٣٤٩}. و من هذا الموقف النفسى يمكن فهم فكرة البعث عند الخصمين، الأئمة مع أتقيائهم و أعدائهم: رؤية الموتى الأتقياء لجلال الأئمة من جهة، و الحرص على أن يبقى من يعيشون فى هذا الوقت من الشيعة على تقواهم.

و الرجعة، كما نحب أن نؤكد، ليست مذهبا دينيا، و إنما تقع فى نفس المرتبة مع رجعة المسيح أو الدجال عند أهل السنة. فكما أن الاعتقاد برجعة هؤلاء الرجال الثلاثة ليس عقيدة ملزمة عند أهل السنة، كذلك لا يعرف الشيعة عقيدة دينية فى الرجعة^{٣٥٠}. و يختلف الأمر فى الغيبة، فى اختفاء الإمام الثانى عشر، تماما: على الشيعى أن يعتقد بغيبة الإمام الثانى عشر، لأن العالم لا يمكن أن يكون بدون إمام.

و فى رأى الاثنى عشرية أن الله هو الذى حدد العدد الثانى عشر للأئمة. و لما كان الأئمة قد تعرضوا فى حوالى سنة ٢٦٠ هـ لضغوط سياسية شديدة، فقد كان عليهم أن يفكروا فى الإبقاء على حياتهم و كان على الإمام الحادى عشر أن يفكر فى حماية ابنه، لتتم مشيئة الله. و لذلك تلقى الإمام الحادى عشر حسب عقيدة الشيعة إشارة من الله تقتضى أن يغيب ابنه عن العالم و أن يظل مختفيا. و إذا ما يظهر الإمام الثانى عشر أمام الناس، فإنه لا يجوز له أن يظهر قوته، و إلا فإن الحكومة ستقتضى عليه أو تلحق ضررا بصحته. و هذه الروايات تقدم للشيعة الاثنى عشرية أساسا لفكرة الغيبة^{٣٥١}

يعتقد الشيعة الاثنا عشرية أن العالم لا يمكن أن يكون بدون هداية.

و بما أنه كان من الثابت و الطبيعى أن الإمام الثانى عشر يجب عليه أن

ص: ٩٤

يختفى عن العالم و عن طائفته، فهناك فكرة جديدة تتصل كنتيجة منطقية بفكرة النيابة عن الإمام فى الأرض أمام الطائفة. فقد اختار الله، كما قيل، فى ترتيب زمنى أربعة سفراء. و لم يجد السفير الأخير من ينوب عنه فى طائفة الاثنى عشرية. فمن سنة ٢٦٠ هـ، و هى سنة اختفاء الإمام إلى سنة ٣٢٩ هـ، التى أنهى فيها الإمام عن طريق توقيع من التوقيعات نشاط السفراء، يبدأ عد ما يسمى

^{٣٤٩} (٩٤) تعليقات على منهج المقال، ص ٩.

^{٣٥٠} (٩٥) كشف، أصل الشيعة، ص ٦٦ و ما بعدها.

^{٣٥١} (٩٦) أنظر الطوسى، ص ٥ و ما بعدها، ٧٣ و ما بعدها، و بحار، ج ١٣، ص ٤١ و ما بعدها، و كذلك مجموعة كتب الغيبة فى أماكن مختلفة!

بالغيبة الصغرى. و بسنة ٣٢٩ يبدأ زمن الغيبة الكبرى للإمام، التي لا تكون فيها وساطة بين الإمام و المؤمنين به و تدوم إلى أن يرجع الإمام الثانى عشر فى عظمتة و جلاله بسيفه و قوته ليقيم العدل من جديد^{٣٥٢}.

فى هذه الصورة المستقبلية ينعكس حلم شوق الشيعة إلى تحرير كل أفكار القوة و أخذ الثأر، التي تتنقل فى حقيقة الحاضر كاهل أئمتهم و كاهلهم هم أنفسهم و يجب عليهم أن يلعنوها^{٣٥٣}.

ص: ٩٥

الفصل الرابع السفيران الأولان للإمام الثانى عشر

تنتهى مجموعة الأئمة بالنسبة إلى الاثنى عشرية بالإمام الثانى عشر، الذى يعيش منذ سنة ٢٦٠ / ٨٧٤ فى الغيبة. و الأمر الحاسم بالنسبة إلى التنظيم و بنائه الداخلى هو الفترة الممتدة إلى سنة ٣٢٩ / ٩٤١ و هى الغيبة الصغرى، التي كان فيها الإمام الثانى عشر يتولى الهداية بنفسه، و ذلك عن طريق نواب خاصين. و هؤلاء يدعون سفراء، جمع سفير، و كان هناك أربعة منهم، الأولان هما الأب و الابن، فى حين أن الآخرين لم تكن بينهما أية قرابة، فأحدهما فارسى و الآخر مجهول. لقد استطاعوا الحصول على ما حاول الأئمة الحصول عليه عبثاً؛ و هو محاربة أولئك الذين كانوا يسعون على الدوام بدافع الرغبة فى السلطة و الطموح إلى زرع روح الشقاق بين الشيعة. فأنمر عمل التنظيم و تم الرضا عنه تحت إشراف السفير الرابع إلى درجة أن المذهب الشيعى استطاع أن يتطور و أن يعيش فترة ازدهاره العلمى^{٣٥٤}.

^{٣٥٢} (٩٧) القرمانى أحمد بن يوسف الدمشقى، أخبار الدول، ج ١، ص ٢٤٨ (طبع على هامش كتاب الكامل لابن الأثير)؛ و بهذه المناسبة يذكر القرمانى أن الشيعة يعتقدون أن المهدي بعد موت أبيه سنة ٢٦٦ هـ قد اختفى فى سرداب بغداد، يحرسه رجال الحكومة، و أن الشيعة كانوا يقودون كل جمعة فرساً مسروجا إلى السرداب و ينادون الإمام. و قد ظل هذا التقليد سارى المفعول إلى أن استولى على بغداد السلطان التركى سليم، فمنعه على الناس. على أننى لم أجد ما يؤكد ذلك فى المصادر الشيعية. لذلك أتصور أن هناك خطأ مماثلاً يشبه ما ورد فى قصة ذلك السرداب بالحلة أو أن هناك خلطاً بينه و بين قبور السفراء فى بغداد.

^{٣٥٣} (٩٨) أخبار الأنوار، ج ١٣، ص ٢٠١ و ما بعدها و ٢١٥ و ما بعدها؛ عامر على سيد، ٤١٣. p, The Spirit of Islam, Seyed, Ameer Ali. كتب تحت عن الموقف:

« كان الاثنى عشرية، أتباع الأئمة المقدسين، الذين يشجبون استعمال القوة، و لا يطالبون إلا بالسيادة الروحية، يتمسكون وحدهم بموقف الاسترجاع التام للمصالح الزمنية، إلى أن أسس الشاه إسماعيل الصفوى العظيم للاثنى عشرية الدولة الدينية فى بلاد الفرس».

^{٣٥٤} (١) عن المدخل ينظر ما يلى:

J. Wellhausen, Die religios- politischen Oppositions parteien im alten Islam, Berlin ١٠٩١; I. Goldziher, Vorlesung über den Islam, Heidelberg ٥٢٩١; Dwight Donaldson, The Shi'ite Religion, London ٣٣٩١; R. Strothmann, Die Zwölfer- Schia, Leipzig ٤٢٩١; ders. Artikel, Schia in Ensyklopadie des Islam; ders. Schia- Literatur in Bucher- Katalog O. Harrassowitz.

ذكرت هذه المجموعة من المصادر غير المرقمة فى مدخل دراسة عن السفيرين، التي استلها من أطروحته و نشرها، ربما باقتراح من أستاذه المشرف، فى مجلة»

الإسلام»

.Der Islam, Zeitschrift für Geschichte und Kultur des Islamischen Orients

و كتب الأخبار تقول عن أشخاص السفراء أنهم أخذوا مناصبهم بتوصية من الإمام. و لكن ما هي قيمة هذا الخبر؟ نحن نفرق بين خبر الإجماع المتواتر، و الضعيف، و أصناف أخرى. و يرى العالم كاشف الغطاء أن هذه الأخبار إنما هي نوع من أخبار الآحاد، و لكنها أمينة بحيث يمكن إقامة رأى علمي عليها دون حرج^{٣٥٥}. على أن المرء يقع في الكتب نفسها على أخبار من هذا النوع، يناقض بعضها بعضا، أى بناء على رواية من فم حكيمة، أخت جد (جدة) الإمام الأخير. فقد روى لنا أن على بن أحمد بن إبراهيم قد زارها - حوالى سنة ٢٦٦ هـ، بمعنى ست سنوات بعد بداية الغيبة - فى المدينة، ليلقى عليها بعض الأسئلة، و عند ما سألها عن مقام الإمام، أجابته بأن الإمام الثانى عشر قد اختفى. و عند ما سألها عن صاحب منصب الإمامة عند المؤمنين، ذكرت له أن أخت الجد (الجدة)، أم الإمام الحادى عشر، هي التي تنوب عن الإمام المختفى.

و حين اندهش على لوجود امرأة فى المنصب، أفهمته حكيمة أن الحسين بن على بن أبى طالب أوصى بأن تكون أخته وصية على ابنه على القاصر و أنها تولت قيادة الطائفة الشيعية^{٣٥٦}.

كان من عادة حكيمة، كما لاحظنا فى الموضع، الذى تحدثنا فيه عن ولادة الإمام، أنها كانت فيما قيل ترى الإمام فى الصباح و المساء و تتلقى منه الأجوبة على أسئلة لم تطرحها^{٣٥٧}. و ليس هناك فى هذين

الموضعين من حديث عن السفراء، و إنما تصف حكيمة نفسها أو أخت جد (جدة) الإمام الثانى عشر بأنها واسطة و نائبة عن الإمام المختفى.

و لم يكتب مؤرخو الدين، مثل الأشعرى، و ابن حزم، و الشهرستانى، و النوبختى الشيعى (توفى بين سنتى ٣٠٠ و ٣١٠ هـ) عن السفراء، و لم تذكر المصادر الشيعية السفراء إلا من أجل البرهنة على وجود الأئمة الاثنى عشر و على الكرامات، التي أتمها الإمام على أيدى السفراء^{٣٥٨}. و لذلك فإن إنشاء منصب السفراء لا يدخل فى العقيدة الدينية، و إلا لكانت الكتب الدينية قد تحدثت عن ذلك. جاء منصب السفير نتيجة للتنظيم، فقد وجد و يوجد شيعيون لا يعرفون عنه شيئا، و مع ذلك فهم شيعيون متدينون^{٣٥٩}. و

٢٢٧-١٩٧، ١٩٣٩، ٢٥، و هي منقولة طبعاً عن النسخة المرقونة - المترجم.

^{٣٥٥} (٢) كاشف، رسالة بتاريخ ٢٨ محرم سنة ١٣٥٦ هجرية.

^{٣٥٦} (٣) إكمال الدين، ص ٢٧٥، و الطوسى، الغيبة، ص ١٤٨ (و لكن بدل حكيمة تذكر أختها خديجة).

^{٣٥٧} (٤) إكمال الدين، ص ٢٤٠.

^{٣٥٨} (٥) الغيبة، ص ٢٧١.

^{٣٥٩} (٦) كاشف الغطاء، ٢٨ محرم ١٣٥٦.

لكن الأمر يختلف عند الفرق الشيعية الخاصة (فالباب عند النصيرية، و هو مثل السفير، يشبه الإمام، و الإيمان بالباب مثل عقيدة الإمامة فريضة دينية)^{٣٦٠}.

كان السفير فى الغيبة الصغرى هو النائب العام للإمام على جميع الشيعة، و على هذا فهو الوكيل. و تحت إمرته وكلاء أيضا هو المدبرون المحليون لأمر الطائفة. فهؤلاء يتولون شئون طوائفهم، فيجمعون المال، و لكنهم يتلقون الأوامر من السفير. و لما كان السفير هو نائب الإمام، فيجب أن يكون أتقى الناس و أفضلهم سمعة فى الطائفة، و كلماته لها اعتبارها القانونى، فالسفير لا يكذب^{٣٦١}. و عليه أن يبرهن عن طريق كرامة ما على أن الإمام هو الذى ولاه المنصب.

هكذا كان السفراء الأربع قد نفذوا كرامات الإمام^{٣٦٢}. فمن ادعى أنه سفير و لم ينتج كرامة، فقد كذب فى رأى الشيعة على الإمام، و لما يطرد

ص: ٩٨

من الطائفة. و قد اتفقت جميع المصادر على أن كان هناك أربعة سفراء بدون انقطاع، إلا أن هناك رغم ذلك أسماء أخرى للأشخاص الأربعة تسمى فى المصادر نفسها أبوابا^{٣٦٣}. فإكمال الدين يذكر رجالا آخرين بوصفهم وكلاء. فكيف نستطيع حل هذا التناقضات؟ لقد كان السفراء أنفسهم وكلاء، و كان هناك كما ذكرنا عدد كبير من الوكلاء الآخرين، فى حين لم يكن هناك سوى أربعة سفراء، و لذلك ليس من الخطأ عد السفراء مع الوكلاء بوصفهم بدورهم وكلاء. و الباب تابع للسفير من حيث المرتبة، و من ثم فهناك كثير من الأبواب. و السفير يمكن أن يكون بابا، و لكن ليس كل باب سفيرا. و هناك أيضا فرق فى المرتبة بين الوكيل و الباب: لا يمكن أن يكون كل وكيل بابا، غير أن الباب خارج منصبه يمكن أن يتقلد منصب وكيل. فالنائب و الباب يحتلان مرتبة واحدة. هذه الألقاب يتداخل أحيانا بعضها فى بعض فى كتب الغيبة. عادة تستعمل الكلمات الثلاث الأولى للسفير و يقصد بالوكيل وكيلا من المرتبة الأدنى و ليس منها كلها. و لذلك فمن المستحسن أن تطلق عند شرح المفاهيم فى اللغات الأوربية لفظة سفير على الأشخاص الأربعة المعروفين و ألا يطلق عليهم، كما ورد فى دائرة المعارف الإسلامية، اسم الوكلاء.

السفير الأول

كان أبو عمر عثمان بن سعيد العمرى أول السفراء. و كان جده عمر بن حريث الصيرافى الكوفى، و هو شيعى معروف من الكوفة، ينسب إلى بنى أسد، و لذلك فإن الجد و السفير قد عرفا باسم الأسدى. و لا نعرف شيئا عن والد السفير و مكانته فى الطائفة، و لم يذكر كذلك أى شىء عن سنة ميلاد السفير و لا عن أيام شبابه.

^{٣٦٠} (٧) العلويون ١٩٣.

^{٣٦١} (٨) كاشف الغطاء، نفسه.

^{٣٦٢} (٩) بحار، ج ١٣، ص ٩٩.

^{٣٦٣} (١٠) بحار، ج ١٣، ص ١٥٠.

يروى أن الإمام الحادى عشر أنه قال لا ينبغي تركيب اسم عثمان

ص: ٩٩

ولقب أبى عامر لاسم واحد، وإنما يجب أن يقال: العمرى. و يرى بعض الشراح أن هذا الأمر يعود إلى أن عثمان و أبى عامر اسم و لقب الخليفة الثالث، الذى يكن له الشيعة حقدا كبيرا. على أنه ليس صحيحا أن يكون الإمام الحادى عشر قد قال هذا القول، ذلك أن أسماء الأئمة أنفسهم يحملون أسماء مثل خلفاء السنة، و كذلك الشخصيات الشيعية.

لقد دخل السفير، الذى تقلد هذا المنصب عدة مرات، الخدمة فى بيت الإمام التاسع و هو فى الحادية عشرة من عمره، و لم يغادره منصبه بعد. لقد أصبح فيما بعد بوابا ثم حاجبا و كسب ثقة الإمام بصفته «يده اليمنى»، فإن الإمام كان يكلفه بتدبير جميع الأمور. و كان عثمان قد ارتقى إلى هذا المنصب فى حياة الإمام العاشر على الهادى، فأثنى عليه كثيرا.

كانت الحكومة تحرص على مراقبة الإمام العاشر و ترتاب فى أمره.

و كان هو إنسانا تقيا ورعا، منطويا على نفسه يعيش فى عزلة عن الناس، يخاف الظهور أمامهم، حتى إنه كان يبقى فى بيته فى معظم الأحيان و يتجنب الحديث مع الأفراد من أبناء طائفته. فكان يقدم عثمان لمن يأتون للحديث إليه موضحا لهم أن عثمان نائبه و أنه رجل محترم و كل ما يفعله إنما يفعله باسمه^{٣٦٤}. و شغل عثمان المنصب نفسه عند الإمام الحادى عشر، و كان هذا قد قدمه بالكلمات التى كان قد قدمه بها أبوه.

كان الشيعة يرسلون خراج الطائفة إلى الإمام من الأمكنة البعيدة و القريبة على السواء. و لأسباب معينة لم يكن الإمام نفسه يستلم المال بنفسه، فكان يأمر عثمان بأخذ المال، و يخبر الشيعة عند ما يسألونه بأن عثمان و ابنه نائبان عن الإمام و ابنه^{٣٦٥}.

و كانت مهمة عثمان و تحمله للمسؤولية فى مقر الحكومة بسامراء فى

ص: ١٠٠

منتهى الصعوبة نظرا للحراسة المشددة، و لكنه كان مع ذلك رجلا يعرف كيف يسير الأمور فى سرية تامة دون أن يلاحظ عليه أحد ذلك. كان يرتدى لباس بائع السمن و يرسل أموال الشيعة فى كيس السمن إلى الإمام. و بواسطة هذه الحيلة، التى أطلقوا عليه بسببها لقب الزيات أو السمان^{٣٦٦}، استطاع أن ينجو من مطاردة أعوان الحكومة له.

^{٣٦٤} (١١) الغيبة ٢٢٩.

^{٣٦٥} (١٢) نفسه ٢٣٠.

^{٣٦٦} (١٣) الحلى، الخلاصة ٦٨، المنتهى ٢٠٠.

و اعتنى عثمان بالإمام الحادى عشر أثناء مرضه الأخير، و قدم للميت ما يستحق من عناية و اهتمام، فغسل جنته و كفنه و دفنه. و هذه عند الشيعة هى العلامات الأصلية على أن عثمان نائب الإمام المتوفى و سفيره و أنه قد فعل كل شىء بناء على ما أمره به الإمام^{٣٦٧}.

لم يكن من السهل إذن إدارة طائفة من هذا النوع، كانت تسود حياتها عادة الاضطرابات و المنازعات و تطلعات بعض أفرادها إلى منصب النيابة، و خصوصا فى وضع سياسى متأزم لا يخلو من صعوبة دائمة بالنسبة إلى الشيعة، و ذلك لانتساع مجال أهل الفتنة فى صفوفهم و قيام ثورة القرامطة و غيرهم من الفرق الشيعية المنشقة عنهم. لو لا هذه الأوضاع فلربما كان أخو الإمام الحادى عشر، جعفر، الذى أراد هو نفسه أن يكون إماما، أقل صعوبة. لقد رفضته مجموعة كبيرة، و مهما كان له من أنصار، فإن الاثنى عشرية يقدمونه لنا على أنه «كذاب». و يوصف من الناحية الخلقية على العكس من أخيه تماما، فهو يتصف بالنشاط، و الصراحة و حب المتعة و اللهو و الخمر و الغناء. و يقال إنه كان بسبب هذه الصفات دائما فى نزاع مع أخيه، بحيث عرف الناس جميعا ما بينهما من نزاع و خصام. و لم تكن هناك أية وسيلة، لا الرشوة و لا الخيانة و لا العنف، تعد رديئة بالنسبة إلى جعفر إذا كانت تمكنه من الوصول إلى هدفه، أى الإمامة و ميراث أخيه.

حتى إنه حاول، من أجل بلوغ هذا الهدف، أن يكسب إلى جانبه عبد الله

ص: ١٠١

بن خاقان، وزير الخليفة، برشوة سنوية تقدر ب ٢٠٠٠٠ دينار، و لكن الوزير أجابه بالرفض القاطع و أحاله سخرية منه على أبناء طائفته الشيعية^{٣٦٨}.

و لما لم يستطع جعفر الحصول على مساعدة من الحكومة، أخذ يتقرب من الشيعة. فعند ما يأتى شخص من الخارج، لا يعرف شيئا عن موت الإمام الحادى عشر أو ربما لم يكن قد سمع بذلك إلا فى سامراء، كان بعض الناس يرسلونه إلى جعفر بوصفه خليفة. «و عند ما يأتى الغرباء إلى جعفر و يريدون أن يؤدوا نفس المراسيم، التى أدوها عند أخيه، و كان على «الإمام» أن يقول كم أحضروا معهم من الذهب و الفضة و ممن، عندئذ يجيب جعفر إنه ليس منجما، و كل ما يقوله الشيعة عن أخيه إنما هو زور و بهتان، فمثل هذه الأشياء لا تتم إلا بإرادة الله. و أراد جعفر الاستيلاء على المال، و لكن حامله منعه من ذلك. و انكشف النزاع، فجاء شخص و ناداهم بأسمائهم و قادهم إلى إحدى الدور، أراهم فيها الإمام الحقيقى. فذكر لهم الإمام المبلغ، الذى كان معهم، فسجدوا فوق الأرض فى الحين و حمدوا الله على أنه أظهر لهم الإمام الحقيقى.

فأمرهم الإمام بحمل المال من الآن فصاعدا إلى رجل معين فى بغداد.

^{٣٦٧} (١٤) الغيبة ٢٣١.

^{٣٦٨} (١٥) إكمال الدين ٢٦٣، تاريخ الغيبة ٤٦٥، الغيبة ١٤٦ و ما بعدها، حيث عوض «الوزير» الخليفة دون ذكر اسم الخليفة.

وانسحب الشيعة تحت حماية الحكومة خوفاً من أن يعرض جعفر طريقهم، ووجدوا كل شيء في بغداد صحيحاً كما قال الإمام^{٣٦٩}.

رغم محاولة جعفر كسب الشيعة إلى جانبه عن طريق المال، لم يتمكن من إقناعهم بإمامته. وعند ما فقد الأمل، ذهب إلى الخليفة^{٣٧٠}، ووشى بهم ونجح في إثارة الخليفة فراح يطارد الشيعة^{٣٧١}. ومن بين ما

ص: ١٠٢

رواه جعفر للخليفة أن الشيعة كانوا حتى الآن يؤمنون بوجود ولد للإمام، أخفته أمه صيقل. فأمر الخليفة بإجراء تحريات و أمر الأم أن تظهر لها الولد. فأنكرت أن تكون قد ولدت طفلاً، ولكنها اعترفت بأنها حامل.

بعد ذلك أمر الخليفة بوضعها في حريمه للمراقبة. فراقب نساء الخليفة و جواريه و نساء القاضي ابن أبي الشوارب صيقل مدة ثلاث سنوات، إلى أن وجدوا أن المراقبة لم تعد ضرورية، فتمكنت من الفرار، عند ما حدثت الاضطرابات في أماكن مختلفة من البلاد و لم يعد أحد يهتم بها^{٣٧٢}.

كان جعفر العدو للدود لصيقل و حاول إلحاق الضرر بها حيثما استطاع. على أن بعض موظفي قصر الخليفة وقفوا إلى جانب صيقل، و كان الشيعة يزدادون إيماناً بابن صيقل. فاتهمهم الجانب المعارض، لأن صيقل كانت قد جاءت إلى منزل رجل غريب، هو الحسن بن جعفر النوبختي. و تبعاً لذلك أمر الخليفة المعتضد بسجنها بين حريمه هو لا في حريم غريب. و بقيت هناك إلى أن ادركتها الوفاة في عهد المقتدر.

و كان جعفر في أثناء ذلك قد بدأ ينازع أم الإمام الحادي عشر، حادث، في الميراث. و قد ادعت حادث أن الإمام جعلها الوريثة الوحيدة، و لكن جعفر أصر على حقه في الميراث بصفته أختاً للموروث، و قد دام هذا النزاع سبع سنوات^{٣٧٣}. و رغم أن القاضي حكم للأم في الميراث، فلم يختلف أحد في حق جعفر بسبب علاقاته الجيدة، و لذلك قسم الميراث قسمين^{٣٧٤}.

و كان جعفر لا يزال يأمل أن يعترف به إماماً للشيعة، و عند ما أخذ نصيبه من الميراث، راح ينشر دعوته بينهم، و يصف نفسه بأنه الخليفة

ص: ١٠٣

^{٣٦٩} (١٦) البحار، ج ١٣، س ١١٦ / ١١٧

^{٣٧٠} (١٧) لم يذكر الاسم، و المقصود هو المعتضد

^{٣٧١} (١٨) الفصول المهمة، ١٩٦، ٢٦٠

^{٣٧٢} (١٩) كمال الدين، ص ٢٦٢. (ما بين الحاصرتين لم يرد في النسخة المرقونة، و قد نقل عن مقال المؤلف: السفيران ...، الذي نشره في مجلة الإسلام DerIslam

، عدد ٢٥، ١٩٣٩، ص ١٩٧ - ٢٢٧ - المترجم)

^{٣٧٣} (٢٠) الفصل، ج ٤، ص ٩٣ / ٩٤.

^{٣٧٤} (٢١) نفسه

الحقيقي وأن له دراية بالدين والعلم. فأنكر عليه الشيعة كل ذلك واتهموه في توقيع بأنه منافق وأنه لم يصل أربعة أيام و نصحوا جميع المؤمنين بالابتعاد عنه^{٣٧٥}. فتخلّى جعفر عن كل أمل و توجه إلى أعداء هذا الطائفة للحصول على مساعدتهم. فتفاوض مع أتباع فارس بن حاتم بن ماهويه القزويني، الذي كان الإمام قد لعنه سنة ٢٤٨ هـ. عند ما لم يتخل القزويني عن زندقته و واصل دعوته إلى الثورة على الإمام، جعل الجنة ثمنا لرأس القزويني، ثم قتل القزويني بعد ذلك بطريقة غامضة^{٣٧٦}. فأثنى جعفر على القزويني أملا في الوصول إلى غرضه و وصفه بأنه مؤمن صادق الإيمان، فاستطاع بذلك أن يكسب أتباع القزويني^{٣٧٧}. و شكرت أخت القزويني ثناءه على أخيها و أخذت تنشر خبرا، مؤداه أن الإمام العاشر قد عين جعفرا و ليس أخاه ليكون خليفته^{٣٧٨}. و اتخذت دعاية جعفر من هذا قوة جديدة و استطاع ببلاغة حديثه أن يكسب المتكلم المعروف على بن الطاهي الخزاز، أحد رؤساء الفطحية، و هي من طوائف الشيعة^{٣٧٩}.

و لكن أتباع جعفر رغم النجاح، الذي عرفوه في البداية، لم يستطيعوا بقيادة قائدهم المحافظة على طائفتهم و ازداد اختفاؤهم تدريجيا، حتى إن الطوسي لم يعرف لجعفر أتباعا^{٣٨٠}.

كان مقر جعفر سامراء، و كان الإمام العاشر و الحادي عشر مقيمين فيها أيضا، و لكن إقامتهم فيها لم تكن اختيارية كما ذكرنا سابقا^{٣٨١}.

كانت سامراء و لا زالت حتى اليوم أرضا رديئة بالنسبة إلى الشيعة. لقد

ص: ١٠٤

أنشأت سامراء بوصفها مستعمرة عسكرية للأتراك، و ذلك حتى لا يعاني سكان بغداد، فيما قيل، من عبث الجنود الأتراك و تعسفهم^{٣٨٢}. كان الجيش التركي منذ البداية ضد الشيعة و أئمتهم. و بعد انقراض الأئمة، لم يعد هناك من سبب لوجود السفير الأول في سامراء، فانتقل إلى بغداد و أقام بجانب الكرخ، الذي لا يكاد يسكنه غير الشيعة^{٣٨٣}. و أصبحت بغداد الآن مركز الحركة الشيعية و الناحية المقدسة، التي كان الشيعة يحملون المال إلى السفير فيها من مراكز بعيدة و يقدمون له أسلحتهم.

^{٣٧٥} (٢٢) إكمال الدين ٢٦، فرق الشيعة ٧٩، الغيبة ١٨٥، و ما بعدها.

^{٣٧٦} (٢٣) الغيبة ١٨٥، و ما بعدها.

^{٣٧٧} (٢٤) المنهج ٢٥٧، الكشي ٣٢٤.

^{٣٧٨} (٢٥) إكمال الدين ٣٤.

^{٣٧٩} (٢٦) فرق الشيعة ٨٢.

^{٣٨٠} (٢٧) نفسه

^{٣٨١} (٢٨) الغيبة ١٤٣، توفي الطوسي ٤٤٨ أو ٤٦٠ هجرية.

^{٣٨٢} (٢٩) ابن خلكان ٥٧٨.

^{٣٨٣} (٣٠) ياقوت، ج ٣، ص ١٤ و ما بعدها.

كما كان جعفر يطمح إلى منصب الإمام، كذلك كان الشريعي الحسن أبو محمد قد سبب للسفير الأول مصاعب كثيرة، فقد كان الشريعي يصف نفسه بأنه سفير. و كان فى وسعه أن يحتج أيضا بأنه كان صديقا حميما للإمام العاشر و الحادى عشر، و لذلك فمن حقه المطالبة بمنصب السفير. و لكن الشيعة رفضوه و لعنوه فى أحد التواقيع^{٣٨٤} و جدد الحرمان السفير الثالث مرة أخرى^{٣٨٥}. و لعل السفير الأول كان يخفى نشاطه الوظيفى عن الحكومة، و هو إجراء كان بارعا فيه حتى إن الأخبار عنه كانت قليلة جدا. فنحن لا نعرف الوسائل التى كان يستعملها لمكافحة أعدائه فى الداخل و الخارج.

كانت أسئلة الشيعة و أجوبة السفير قد جمعت فى وقته، جمعها على سبيل المثال عبد الله بن جعفر الحميرى و آخرون، و لكن معظمها ضاع للأسف، و لم يبق منها سوى القليل فى الكتب، التى تتناول بموضوع الغيبة. و قد جمع السفير الثانى، و هو ابنه، أيضا أقوال أبيه، على أن هذه المجموعة لم تصلنا هى الأخرى^{٣٨٦}.

ص: ١٠٥

و يروى لنا الزهرى أنه كان يتمنى أن يرى الإمام المختفى شخصيا، و حاول الوصول إلى هدفه بطرق عديدة، إلى أن تعرف فى النهاية على السفير الأول و ربطته به صداقة حميمة. و توسل إلى السفير فى آخر الأمر أن يريه الإمام، على أن هذا رفض طلبه فى البداية^{٣٨٧}. و ذات يوم طلب من الزهرى أن يجيئه فى صبيحة اليوم الموالى، ففعل الزهرى ما طلب منه، و وجد عند السفير تاجرا شابا، فسأله الزهرى بناء على طلب السفير عدة أسئلة عن أشياء مختلفة. كان الشاب هو الإمام المختفى نفسه، و لم يره بعد ذلك^{٣٨٨}.

و يقصد كتاب التراجم بالزهرى دائما محمد بن مسلم^{٣٨٩}، و أصله من المدينة و عاش من ١٥٢-٢٢٤ هـ، و لكن انتماءه إلى الشيعة أمر مشكوك فيه^{٣٩٠}. و مهما يكن فإن الإمام الثانى عشر، إذا نحن أخذنا ما تقوله المصادر بعين الاعتبار، قد ولد بعد ٣٠ سنة من موت محمد بن مسلم هذا. و من ثم لا بد أن يكون الحديث عن علاقة الزهرى بالسفير الأول حديثا خاطئا.

من الأسئلة الكثيرة، التى تهافتت على السفير، هناك أسئلة عن الإمام المختفى تتصل بشكل مطرد بما إذا كان السفير يعرفه و رآه. و كان على السفير طبعاً أن يجيب أنه يعرفه و أنه رآه، و إلا لأصبح منصب السفير، الذى يتقلده، أمراً مشكوكاً فيه. و لم يكن من الطبيعى تماما أن يطرح سؤال عن اسم الإمام و شخصه. و الغريب أن الكتب الشيعية تحدثنا أنه كان من الممنوع التلطف باسم الإمام، و كان السفراء يعللون ذلك بأن معرفة الاسم ستعرض الإمام إلى مطاردة أعوان الخليفة. على أن الخطر،

^{٣٨٤} (٣١) نفسه ج ٤، ص ٢٢٥.

^{٣٨٥} (٣٢) الغيبة ٢٥٨.

^{٣٨٦} (٣٣) نفسه ٢٦٨ / ٢٦٩.

^{٣٨٧} (٣٤) نفسه ٢٣٧.

^{٣٨٨} (٣٥) الطبرسى، ٢٤٥.

^{٣٨٩} (٣٦) المنتهى ٣٧٩.

^{٣٩٠} (٣٧) نفسه ٢٩٤.

ص: ١٠٦

الذى يعرض السفير نفسه، عند ما يدعى معرفة المهدي و رؤية من تجد الحكومة فى طلبه، ليس فى الواقع أقل خطرا من ذكر اسم الإمام^{٣٩١}.

عشرون سنة بعد اختفاء الإمام الحادى عشر، أى سنة ٢٨٠ هـ، مات السفير الأول كما يتبين من توقيع، أرسله الإمام المختفى إلى ابن السفير الأول و إلى الطائفة الشيعية، و بعد التعبير فيه عن تعازيه بموت رجل صالح^{٣٩٢} يعين ابنه جعفرا^{٣٩٣} خليفة له. و قد تولى الابن، كما جاء فى الخبر، دفن الميت فى جانب الكرخ من بغداد بمسجد الدرب، و هذا المسجد يدعى هكذا لأنه يقع فى شارع درب جبلة، الذى يقع بتقاطع مع شارع الميدان.

ص: ١٠٧

الفصل الخامس السفير الثانى

فى سنة ٢٨٠ للهجرة وصل إلى الشيعة توقيع من الإمام المختفى، يعين أبا جعفر محمدا فى منصب أبيه المتوفى. و كان أبو جعفر قد ساعد أباه فى أداء وظيفته عند ما كان يشغل هذا المنصب. و كان الإمام الحادى عشر قد عين، كما سبق أن ذكرنا، أبا جعفر خلفا لأبيه. و مثلما حدث للسفير الأول لم يأت السفير الثانى إلى منصبه من غير صعوبة. فقد ذكر الطوسى شخصيات لها اعتبارها كانت تسعى إلى الوصول إلى منصب السفير، فكان من منافسيه أحمد بن هلال العبرتائى الكرخى، و أبو طاهر محمد بن على بن بلال، و محمد بن نصير النميرى^{٣٩٤}.

قيل إن أحمد بن بلال العبرتائى ولد سنة ١٨٠ هـ فى عبرتا، و هى قرية فى منطقة إسكاف^{٣٩٥} و توفى سنة ٢٦٧ هـ. فهو إذن لم يعيش سوى الفترة الأولى من تولى السفير الأول لمنصبه، إلا أن علينا أن نذكر أحمد هنا، لأن الطوسى يذكره بالاسم و يقول عنه إنه لم يؤمن شغل السفير الأول لمنصبه، إلا أن علينا أن نذكر أحمد هنا، لأن الطوسى يذكره بالاسم و يقول عنه إنه آمن بالسفير الأول، و لكنه لم يؤمن بابنه، أى

ص: ١٠٨

^{٣٩١} (٣٨) الغيبة ٢٣٠.

^{٣٩٢} (٣٩) نفسه ٢٣٥.

^{٣٩٣} (٤٠) نعرف أن له ابنا ثانيا يدعى أحمد، أنظر أعلاه ٢٦٩.

^{٣٩٤} (١) الغيبة ٢٥٩، المنهج ٣٢٧، و هناك يذكر نصير على أنه نصر، و أتباعه دائما النصيرية.

^{٣٩٥} (٢) نفسه.

السفير الثاني. و عند ما خاطبه الشيعة في ذلك، قال لهم إن الإمام هو الذي نصب بنفسه السفير الأول و أخبر بذلك جميع أتباعه. و لكنه لا يستطيع ادعاء شيء من ذلك بالنسبة إلى السفير الثاني، و لذلك فهو يرفض الاعتراف به. فطرد بسبب رأيه هذا من الطائفة الشيعية و لعنته، كما لا حظ الطوسي، و فيما بعد لعنه السفير الثالث أحمد من جديد^{٣٩٦}.

و لكن ما أورده الطوسي لا يتلاءم مع الأخبار الأخرى عن أحمد بن هلال العبرثاني الكرخي. و هذه الأخبار الأخرى لا تخلو بدورها من تناقض أيضا، و لذلك فإنه من الصعب معرفة الحقيقة. و جاء في مصدر آخر أن الإمام الحادي عشر كان قد لعن أحمد و تحدث عنه حديثا سيئا أكثر من مرة^{٣٩٧}. و حسب مصادر أخرى فإن أحمد كان متصوفا تقيا و عالما كبيرا، و كان كتاب التراجم يزينون صورة طبيعته بملاحظة محببة، و هي أنه كان قد حج إلى مكة ٥٤ مرة مشيا على قدميه^{٣٩٨}. و يقال إنه كان من علماء الكلام المعروفين، ألف كتبا عديدة، منها كتاب «يوم و ليلة» و «كتاب النوادر»^{٣٩٩}.

و من أقوى الأقوال ضد أحمد بن هلال العبرثاني، التي تعود إلى الإمام حديث القاسم بن العلاء. فقد سأله الشيعة عن هلال و موقفه من الإمام، فقدم القاسم المسألة إلى الإمام كتابيا، فأجاب الإمام: ابن هلال مذب و لن يغفر الله له ذنوبه. و ابن هلال، كما جاء في هذا التوقيع يتصرف تصرف إنسان مجنون مغرور، و يحتفظ لنفسه فوق ذلك بالمال الموجه إلى الإمام. و لذلك فمن واجب القاسم بن العلاء و الشيعة الآخرين الاعتراف بهذه الحقائق و توضيحها لجميع الشيعة حتى لا يتمكن أمثال هؤلاء الناس من القيام بأعمالهم المضرة. و يقال إن القاسم بن العلاء قد

ص: ١٠٩

أخبر الإمام بمن بقى من الشيعة عند ابن بلال و بمن انفصل عنه، و إن القاسم أدى واجبه، لأن بعض الشيعة قد شكوا في صحة التوقيع، و لم يفهموا كيف يتم طرد رجل عظيم تقى. و لكن التقوى لا تفيد عند ما يحول الله هذه الأعمال الخيرة إلى ذنوب. لقد كان الدهقان^{٤٠٠} أيضا رجلا تقيا في خدمة الإمام، و لكن الله حول إيمانه لغروره إلى كفر، و هذا ما وقع لابن هلال، كما يفهم ذلك من توقيع الإمام.

^{٣٩٦} (٣) فهرست الطوسي ٣٩، المنهج ٤٨ و ما بعدها.

^{٣٩٧} (٤) الغيبة ٢٦٠.

^{٣٩٨} (٥) المنهج ٤٨.

^{٣٩٩} (٦) نفسه.

^{٤٠٠} (٧) يدعى الدهقان عروة، و هو معروف باسم ابن يحيى (المنتهى ١٣٢ و ٢٠١، الكشي ٣٣٢، المنهج ٢٢٠ و ٣٩٨). و هناك إلى جانب عروة هذا رجال آخرون يلقبون بلقب الدهقان، و لكنهم يعتبرون بعيدين عنه من حيث القرابة. و اسم دهقاننا الكامل (حسب المنهج ٢٢٠) عروة بن يحيى النخاس البغدادي، كان وكيلا و أمين صندوق الإمام الحادي عشر، و لكنه طرد و لعن بسبب ما اختلسه من الأموال.

وكان الشخص الثاني، الذي كان، حسب الطوسي،^{٤٠١} يطمح في عهد السفير الثاني إلى منصب السفير، هو محمد بن نصير النميري الفهرى أبو شعيب، وأصله من البصرة. كان رجلا معروفا في أيام الإمام الحادي عشر، وعند ما أدرك هذا أجله، رفض الاعتراف بشرعية السفير الثاني.

لذلك لعنه أتباعه و طردوه من طائفتهم. و حاول بعد هذا الطرد تغيير رأى السفير الثاني، ولكنه لم يحظ حتى باستقباله، وهكذا أبعدته الشيعة عن طائفتهم^{٤٠٢}، و أتباعه هم النصيرية أو النميرية^{٤٠٣}، و حافظوا على أنفسهم حتى يومنا هذا في الجبال المسماة باسمهم بمنطقة اللاذقية، في طرابلس و في حماة بسورية. و كثير منهم يسكنون اليوم في حى الصالحية بدمشق و في منطقة الحولة^{٤٠٤}. و لكنهم مختلفون بالنسبة إلى قيادتهم، و معظمهم من أتباع الحسين بن حمدان الخصيبى^{٤٠٥}.

ص: ١١٠

و كان النميري حسب كتاب فرق الشيعة قد لعن منذ عهد الإمام العاشر على بن محمد العسكري، لأنه ادعى أن روح الله قد حلت في جسد الإمام، وأنه هو نفسه، أى النميري، رسوله. و كان أحد أفراد أسرة الفرات، و هو محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات، قد وفر له الحماية. و عند ما مرض النميري مرضا كبيرا، اجتمع أتباعه حوله، و سألوه عن سيقون خليفته، فأجاب: أحمد. على أنه كان هنا لا بد من أخذ ثلاثة أشخاص يحملون هذا الاسم بعين الاعتبار، أحمد ابن الفرات، و أحمد بن أبى الحسين، و أحمد بن محمد بن بشر بن زيد. و هكذا لم يعرف أتباع النميري من عناء الميت من بين حاملى اسم أحمد، و لما لم يتوصلوا إلى اتفاق فيما بينهم، انقسمت طائفتهم إلى ثلاثة مذاهب^{٤٠٦}.

النصيرية يؤمنون بالتناسخ، لا من إنسان إلى إنسان فحسب، و إنما أيضا من إنسان إلى حيوان^{٤٠٧}، و لذلك كثيرا ما نجد فى كتبهم كلمتى مسخ و نسخ^{٤٠٨}. و النصيرية يقدسون كثيرا الأئمة الاثنى عشر مثل الشيعة، و يحتفلون إلى ذلك بعيد ميلاد المسيح^{٤٠٩}. و الحسين بن على بن أبى طالب لم يقتل فى كربلاء، و إنما قتل رجل شبيه به كما صلب شخص آخر بدل المسيح. و شبيه الحسين هو حنظلة بن أسعد الشبانى، و يرى النصيرية أن الشيعة و السنة غير محقين فى دعواهم^{٤١٠}.

^{٤٠١} (٨) الكشى ٣١٢، و عن العبرتائى ينظر إكمال الدين ٢٦٩، الغيبة ٢٦٠، النجاشى ٦٠ و ما بعدها، فهرست الطوسى ٥٠، و الطبرسى ٢٤٥.

^{٤٠٢} (٩) الغيبة ٢٥٩، ٢٦٩.

^{٤٠٣} (١٠) خاندنى النوبختى ٢٦٦.

^{٤٠٤} (١١) كتاب تقسيم جبل لبنان ورقة ٣ ب.

^{٤٠٥} (١٢) نفسه.

^{٤٠٦} (١٣) فرق الشيعة ٧٨، الغيبة ٢٥٩.

^{٤٠٧} (١٤) تقسيم جبل لبنان ورقة ٥٧.

^{٤٠٨} (١٥) الخصيبى ورقة ٢٣ ا.

^{٤٠٩} (١٦) نفسه ورقة ٥٩ ا، و هناك أيضا ما يتصل باختيار هذا اليوم.

^{٤١٠} (١٧) نفسه ورقة ٣٥ ا.

كان النميري المحتضر قد عين، حسب ما جاء في «فرق الشيعة» خليفة له يدعى أحمد، لكننا نسمع من جانب آخر أن أغلب النصيرية لم يعترفوا بأى أحمد من أولئك الثلاثة، وإنما اعترفوا بمحمد بن جندب

ص: ١١١

بوصفه خليفة للنميري، و جاء بعده محمد الجنبلانى الجنان^{٤١١}. و قد قيل عن هذا إنه كان عالما كبيرا و متصوفا، قام بالعديد من الأسفار. أنشأ فى مصر طريقة سميت بالجنبلانية. و هناك تعرف على شخص يدعى الحسين بن أحمد الخصيبى، فتتلمذ عليه و رافقه فى أسفاره^{٤١٢}، و بعد موته أخذ مكانه، و سكن بغداد أولا، ثم انتقل بعد ذلك إلى حلب، حيث ألف كتبا كثيرة، خصوصا كتاب «الهداية»، الذى وضعه لحاكم سورية المعروف سيف الدولة^{٤١٣}. و المعروف من كتب الخصيبى هو ما يلى:

(١) الإخوان

(٢) كتاب المسائل

(٣) كتاب تاريخ الأئمة

(٤) كتاب أسماء النبى و الأئمة توفى الخصيبى سنة ٣٤٦ هـ و دفن فى القسم الشمالى من حلب، و الناس يسمون تمثال قبره: الشيخ بيراق^{٤١٤}. و قد تفرع أتباعه إلى طائفتين: طائفة توجهت إلى بغداد و اعترفت بالسيد على الجسرى بابا، بينما رأت الطائفة الأخرى فى محمد بن على الحلبي رئيسا لها.

و قد أبيت طائفة بغداد عند ما فتحها المغول، و اعترفت الطائفة الثانية بعد موت محمد بن على الحلبي بسعيد ميمون الطبراني خليفة له. و نقل الطبراني مقامه بسبب الحرب فى حلب إلى اللاذقية و توفى بعد ذلك بثلاث سنوات (٤٢٦ هـ). و قد سادت النزاعات بين أتباع هذه الطائفة حتى إن بعض القادة المفردين قد استولوا على منصب الباب بالقوة^{٤١٥}.

ص: ١١٢

يوجد فى القسم الشرقى بالمكتبة الوطنية ببرلين عدد كبير من مخطوطات النصيرية، منها تحت رقم ٤٢٩٢، ٤٧٧. Sign. Mq . قصيدة تنسب إلى الحسين بن حمدان الخصيبى، و تعرف باسم القصيدة القادرية، و يوصف على بن أبى طالب فى هذه القصيدة بصفات إلهية. و هناك قصيدة ثانية للمؤلف نفسه يرثى فيها الحسين بن على فى معركة كربلاء.

^{٤١١} (١٨) تقع جنبلة فى العراق العجمى، العلويون ١٩٦.

^{٤١٢} (١٩) ذكر فى المنهج بلقب الحضينى.

^{٤١٣} (٢٠) العلويون ١٩٧.

^{٤١٤} (٢١) نفسه ١٩٤ و ما بعدها.

^{٤١٥} (٢٢) نفسه ٢٠١.

و رغم أن القصيدتين لم تكتبتا بلغة عربية جيدة و تحتويان على أخطاء نحوية كثيرة، فهما مهمتان بالنسبة إلى من يريد معرفة موقف النصيرية من الأئمة. و تبدأ القصيدة الثانية:

و باكيا يبكي على ربه	لست بحمد الله من حزبه
يبكي على المقتول في كربلا	لا خفف الرحمن عن كربه
معتذر من سوء أفعاله	و عذره أعظم من ذنبه
قلت له لا تبك ذاك الذي	لم تطمح الأعداء في قتله
ظنوا ظنونا كلها باطلا	من قتله كان و من سلبه
و هكذا عيسى جرى أمره	و ما رواه القوم عن صلبه

(و في المخطوط: جراً أمره!)

و لذلك فإن تماثيل الأئمة ليست قبور الأئمة، و هو ما يدعيه السطحيون من الشيعة و السنة، فالأئمة في السماء، و روح الإمام تنتقل إلى روح إمام آخر. و بهذه الطريقة تفسر النصيرية الغيبة، و انتقال روح الإمام مرة أخرى إلى شخص آخر يسمى ظهوراً^{٤١٦}. و توجد في المخطوطة المذكورة بالمكتبة الوطنية ببرلين خطب لجميع الأعياد الدينية على شاكلة الخطب المنبرية، و قد جمعها أبو سعيد الطبراني، خليفة الخصيبى. و يجد

ص: ١١٣

المرء بقية الأفكار النصيرية مبعثرة في «خطب منبرية» بالمخطوطة البرلينية^{٤١٧}.

الوضع السياسى فى فترة الغيبة الصغرى

لم يكن وضع الشيعة فى العهد العباسى أفضل مما كان عليه فى السابق، أى فى أيام الأمويين. كان الشيعة و بنو العباس قد عملوا معا على إسقاط الدولة الأموية، و لذلك كان الحكام الجدد يعرفون جيذا الطرق، التى اتبعوها مع المتحالفين معهم و الأمويون فى غفلة عنهم. كان الخليفة العباسى الثانى، أبو جعفر المنصور، يراقب العلويين و أتباعهم مراقبة شديدة إذ كانوا عنده دائماً محل ريبة. فكان يرسل جواسيسه و يحملهم بالرسائل و الأموال إلى رؤساء العلويين و يكتب عليها «اسم أتباعهم» ليختبر اتجاههم^{٤١٨}.

^{٤١٦} (٢٣) قصيدة موت الحسين ص ٣٦ - ٣٨.

^{٤١٧} (٢٤) ينظر عن النصيرية: السمعاني، ورقة ٥٦٢ ب، الفصل، ١٨٨ / ٤، المنهج ٣٢٧، شرح نهج البلاغة، ٢ / ٣٠١، الكشى ٣٢٣، الأشعرى ١٥، تبصرة العوام ٤٢٠، الفرق ٢٣٩، الطبرسى ٢٤٤، خندنى النوبختى ١٤٤، ١٤٧، ٢٣٥، ٢٦٦، ماسنيون، دائرة المعارف الإسلامية، مادة النصيرية.

^{٤١٨} (٢٥) الكافى ٢٦٦.

صحيح أن العلويين كانوا يعتبرون أنفسهم الخلفاء الحقيقيين للنبي و كانوا يسعون بنشاط إلى إسقاط العباسيين، و لكن الوسائل، التي كان المنصور يستعملها لقمعهم و إخضاعهم، لم تكن بالسياسة الملائمة لهذه الحالة. ذلك أن اتباع سياسة القمع و سياسة توجيه التهم، التي لجأ إليها المنصور على هذا النحو، قد أبعدت عنه جميع من كانوا يتعاملون معه في السابق، و بذلك فتح بؤراً جديدة للشقاق و النزاع^{٤١٩}. و استمر اضطهاد العباسيين للعلويين و أتباعهم، إلى أن أصبح الضغط في النهاية أقوى مما كان عليه في أيام الأمويين^{٤٢٠}. و كما حركت آلام «الهاشميين» قلوب جميع الناس للوقوف إلى جانب العباسيين ضد الأمويين، كذلك

ص: ١١٤

اكتسب العلويون بصفتهم شهداء سياسيين تأييد الناس لهم في صراعاتهم مع العباسيين، و تحول السخط إلى ثورات عديدة، سالت فيها دماء من كلا الجانبين.

لقد أخذ العباسيون، من أجل تقوية دولتهم من الناحية المعنوية، يضعون أحاديث تنسب إلى العباس، عم النبي، جميع الفضائل، و تقييم الدليل على أن الدولة العباسية هي الدولة الشرعية الوحيدة. و كان الأمويون قد وضعوا مقابل فكرة المهدي، التي ادعاها الشيعة لأنفسهم وحدهم، فكرة سفيان، فكان بسبب ذلك من السهل على مطيع بن إياس أن يضع في مناسبة احتفالية حديثاً عن النبي يقول فيه إن ابن الخليفة المنصور هو المهدي. و المهدي (سبأتي و يدعى) محمد بن عبد الله، و أمه لن تكون منا. و «منا» تعني الجنس القادم، أي بنو هاشم كلهم^{٤٢١}.

و استغلال فكرة المهدي في الأغراض الحكومية و الأعمال الخاصة يظهر بعض الأحداث، التي تبرز المصلحة السياسية من هذه الفكرة بطريقة شيقة، تجعلنا نروى قصة من هذه القصص باختصار: جاء ذات يوم إلى المهدي، ابن المنصور، رومي (يوناني) ادعى أن أباه كان في السابق قيصر اليونان، و اعترف علناً أنه قرأ في كتب آباء الكنيسة عن المهدي و عظمتته و عدله و حكمه. ففرح الخليفة بشهادة الغريب أشد الفرح و بالغ في احترامه. و حين اكتشف الرومي (اليوناني) في المدينة منطقة غنية بالمياه، طلب من ولي نعمته أن يتنازل له عنها. و نصبت رحي فوق الأرض و أطلق عليها اسم «رحى البطريق». لقد كافأت الحكومة المالك الغريب بسخاء على حديثه «النفيس»، فكان يتلقى منها راتباً إلى أن وافته المنية^{٤٢٢}.

ص: ١١٥

^{٤١٩} (٢٦) المسعودي ٨ / ٢٩٦.

^{٤٢٠} (٢٧) الأغاني ١٠ / ١٠٥.

^{٤٢١} (٢٨) الأغاني ١٢ / ٨٥.

^{٤٢٢} (٢٩) الخطيب البغدادي (عند:

كان العباسيون يأملون أن يصلوا إلى تقوية حكمه عن طريق هذه «الأحاديث» و أمثالها الموضوعية حسب الطلب، و لكنها كان ينقصها على العموم الخط السياسي الموحد. فالمأمون، ابن لـخليفة الشهير هارون الرشيد، و العدو الأكبر للعلويين، كان هو نفسه على النقيض من أبيه.

كان المأمون يحترم فضائل علي النبيلة، التي فاق بها أبا بكر و عمر.

و هناك خليفة آخر، و هو المستنصر، كان على النقيض تماما من أبيه المتوكل. لقد منع هذا من زيارة قبل الحسين و أمر بهدمه. و كان يسمع في مجالس الشراب الأهاجي و الأغاني الساخرة من علي، و لكن ابنه ألغى المحرمات كلها بعد وفاته أبيه و أعاد بناء ما هدم من المزارات و سمح للعلويين بتقلد المناصب و نيل الرتب^{٤٢٣}. و لم يكتف الخليفة المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ / ٨٩٢ - ٩٠٢) في أيام الغيبة الصغرى بحماية العلويين، و إنما ألف هو نفسه كتابا يلعن فيه عدو العلويين معاوية و طلب من جميع رعاياه قراءته^{٤٢٤}، و من الممكن ذكر أمثلة مماثلة.

كان تنظيم الشيعة في وقت المحن بالذات أكثر تماسكا مما كان عليه في أوقات نيلهم حرية الحركة. ففي زمن المنصور، عند ما كان الاضطهاد على أشده، كان جعفر الصادق أول من أرسل الرسل و الوكلاء لنشر الشيعة في المناطق البعيدة من بلاد الخلافة^{٤٢٥}. و قام الشيعة، مناهضة لسياسة الجوسسة عند المنصور، ببناء نظامهم الآن على فكرة «التقية» حسب خطة حكيمة بثقة و أمان. و هناك روايات كثيرة عن التقية تعود إلى هذه الفترة و تنسب إلى جعفر الصادق^{٤٢٦}. و كان المنصور قد ترك مقر إقامته في الكوفة و انتقل إلى بغداد لئبتعد عن أرض الشيعة. و لكنه لم يستطع تصفية قصره، الذي كان يغلب عليه أهل الشيعة. كان يقطين،

ص: ١١٤

و هو رجل في خدمة الخليفة المنصور، يرسل المال سرا إلى جعفر الصادق، لأنه كان يعترف به بصفته الإمام الحقيقي^{٤٢٧}. و قد وضع عيسى بن روضة، و هو عبد و خادم أعتقه الخليفة، أول كتاب عن الإمامة^{٤٢٨}.

و كذلك كان قصر هارون الرشيد و جميع قصور الخلفاء، الذين كانوا يعادون الشيعة عداا كبيرا، مليئا بالشيعة المستترين. أوضح على بن يقطين للإمام أنه يشعر بالملل من عمله عند الخليفة، الذي هو فوق ذلك عدو للشيعة و ليس إماما حقيقيا، لكن الإمام طلب منه أن يصمد، فهذه هي الطريقة الوحيدة للتخفيف من حدة غضب الخليفة و مساعدة إخوانه الشيعيين في الطائفة. و لم يكن

^{٤٢٣} (٣٠) ابن الأثير ١٩ / ٧ و ما بعدها.

^{٤٢٤} (٣١) نفسه، ١٥٩ / ٧، أبو الفداء، ٢ / ٢٦٨.

^{٤٢٥} (٣٢) كاشف الغطاء، ٢٨ محرم ١٣٥٦.

^{٤٢٦} (٣٣) الكافي، ٢١٩، ٤١٨.

^{٤٢٧} (٣٤) فهرست الطوسي، ٢٣٤.

^{٤٢٨} (٣٥) النجاشي، ٢٩.

يخلو قصر من قصور الخلفاء و السلاطين حتى منصب الحاجب من الشيعة، و لذلك كانوا يستطيعون الدخول إلى الخليفة دون عائق و يحولون بينه و بين استعمال الشدة و القسوة^{٤٢٩}.

لم يكن الخلفاء مجرد أدوات في أيدي موظفي القصر. فقد كانت مراكز القوة و النفوذ موزعة على العدد الكبير من الخدم، و لذلك أصبحت سياسة العباسيين ضد العلويين صورة لما يحدث في القصر من دسائس و مؤامرات. كانت الثقة بين الخليفة و بين وزرائه منعدمة. فلم يكن هناك من وزير يشعر بالاطمئنان في منصبه، و من ثم كان يخشى على الدوام أن تذهب الوزارة عنه. و كان الخليفة نفسه عادة ضعيفا، و كان مستشاروه جميعهم لا يهتمون إلا بمصالحهم الخاصة. و كان الوزير مجبرا دائما على أن يكسب رضا رجال الحاشية عنه و على أن يكون له تأثيره في الرأي العام و في رجال الجيش. و كان المترشحون للوزارة يستغلون لأغراضهم الخاصة دعوى أن الوزير الحالي ينتمي إلى المذهب الشيعي، و ذلك ليخيفوا الخليفة و يدعوا إلى خلع الوزير من منصبه. كان للمنصور كاتب

ص: ١١٧

سري، و هو شيعي في دخليته، يتولى إخبار إخوانه في الدين بكل نوايا الخليفة و مقاصده^{٤٣٠}.

في سنة ٢٧٨ هـ نشبت في جنوب العراق ثورة كبيرة ضد الخليفة المعتمد، و قد عرفت هذه الثورة في التاريخ باسم «ثورة القرامطة».

فهاجموا كثيرا من الحجاج المتوجهين من بغداد إلى مكة في أثناء الطريق و قتلوهم، فاهتاج الرأي العام في بغداد لذلك إلى حد كبير. و المعروف أن القرامطة يدينون أيضا بالمذهب الشيعي. و وجد أعداء الشيعة في ذلك سلاحا عظيما لمحاربتهم و محاربة من يظهر الميل إليهم. و في النهاية لم يستغل الوزراء هذا السلاح ضد أهل الشيعة و حدهم، و إنما استغلوه أيضا ضد زملائهم من أهل السنة. فأطلق الأعداء الشخصيون على علي بن عيسى، و هو عدو لدود للشيعة، اسم قرمط، و لذلك فشلت سياسته و خلع من منصبه^{٤٣١}. و هناك وزير آخر، كان يناصر الشيعة العداء، و هو أبو قاسم الخاقاني، الذي تم خله و إسقاطه بنفس الطريقة. و لم يستغل رجال الدولة سلاح النميمة الخطير هذا و حدهم، و إنما استغلوه أيضا أشخاص غير رسميين للإطاحة بأعدائهم. فلم يكن من الممكن دفن المؤرخ و مفسر القرآن و الفقيه الشهير ابن جرير الطبري، الذي توفي سنة ٣١٠ هـ، أثناء النهار، لأن أعداءه كانوا قد اتهموه بالانتساب إلى المذهب الشيعي^{٤٣٢}.

كان الخليفة في مثل هذه الأزمات في حاجة إلى شخصيات قوية، تستحق الثقة للتغلب على هذه الصعوبات، و الواقع أنه حتى لو كان تحت تصرفه فعلا رجال من هذا النوع، يتسمون بالأمانة و الحذق و المهارة، فإنهم ما كانوا ليستطيعوا محاربة كل ما كان هنالك من اتجاهات سياسية متباينة. و موظفو القصر و الوزراء، الذين كان عليهم أن ينصحوا الخليفة،

^{٤٢٩} (٣٦) مجالس المؤمنين، الفصل ١٠.

^{٤٣٠} (٣٧) ابن الأثير، ج ٥، ٢٠٧.

^{٤٣١} (٣٨) عريب ٥٩.

^{٤٣٢} (٣٩) تجارب الأمم ١/ ٨٤.

و أن يديروا دفة الحكم فى الوقت نفسه، إما أنهم لم يكونوا يهتمون إلا بأنفسهم و إما أن عداؤهم جعلهم عميا عن كل ما تقتضيه السياسية الحكومية. لقد حاول وزير المعتضد، عبيد الله، عبنا أن يبطل عزم الخليفة على لعن معاوية علنا، فلجأ إلى القاضى، و هو سنى متعصب، و طلب منه أن يستعمل الحيلة لإبطال ما كان الخليفة قد عزم عليه. و لم يفعل عبيد الله هذا خوفا على سلامة الدولة، و إنما لأنه هو نفسه كان عدوا لدودا لعل^{٤٣٣}. و حاولت حاشية المتوكل أن توغر صدره على على، لأنها كانت تتكون من أناس كانوا فى الحقيقة عتقاء الأمويين^{٤٣٤}. - كان رجال حاشية خليفة آخر، و هو الراضى، قد تعودوا على إضحاك سيدهم عن طريق السخرية من شخصيات من الأسرة العلوية، و عند ما يضحك الخليفة و يتكلم عن العلويين، كانوا فى الغالب ينشرون كلماته و يذيعونها بين أفراد الشعب^{٤٣٥}. و كانت كل الوسائل ملائمة لرجال الحاشية من أجل التأثير على الخليفة: كان الراضى قد أقسم ألا يشرب الخمر، و لكن مستشاريه استطاعوا أن يحملوه على استصدار فتوى من الفقهاء تثبت الصحة الشككية لقسمه. فاعتبر القسم باطلا، فعاد الخليفة إلى الإدمان على الخمر^{٤٣٦} - لقد أراد الخليفة المكتفى (٢٨٩ / ٩٠٢ إلى ٢٩٥) مرة من وزيره أن يعيره بعض الكتب، فأمر الوزير أن توضع أولا جميع الكتب أمامه هو نفسه، حتى لا يقع بين يدى الخليفة كتاب تاريخى، يتعلم منه كيف يجب أن يسير الإنسان شئون دولته^{٤٣٧}.

كان هناك أيضا وزراء فى أوقات، تسودها الاضطرابات و يتجلى فيها الضعف السياسى، كان الرأى العام يعرفهم بأنهم أصحاب قناعة شيعية،

مثل أسرة الفرات، التى كان لها نسب عريق نبيل. لقد تولى لفترة طويلة أعضاء من أسرة الفرات القيادة عند الشيعة. لقد وصل معظم أبناء هذه الأسرة بفضل مهارتهم إلى المراتب المشرفة و الوظائف السامية. و كان لهم تأثير كبير أيضا على المتعاقبين على الخلافة. فعند ما تولى المعتضد الخلافة، أراد أن يعتقل الأسرة كلها، و لكنها استطاعت أن تكون فى مأمن منه فى الوقت المناسب^{٤٣٨}. و كان على رأس أسرة الفرات أبو الحسن على بن محمد بن الفرات، و هو صديق حميم و مستشار للمتوكل، كان سياسيا قديرا و حاكما ماهرا، و لاه الخليفة المقتدر (٢٩٥ / ٩٠٧ إلى ٩٣٢ / ٣٢٠) الوزارة (سنة ٢٩٦ / ٩٠٨). لقد تقلد أبو الحسن هذا المنصب ثلاث مرات فى أوقات خطيرة، تفاقم فيها الأزمات المالية و الاضطرابات السياسية^{٤٣٩}.

^{٤٣٣} (٤٠) ابن الأثير ١٧٣ / ٧.

^{٤٣٤} (٤١) نفسه ١٩ / ٧ و ما بعدها.

^{٤٣٥} (٤٢) الصولى ٥٠.

^{٤٣٦} (٤٣) نفسه ٤٠.

^{٤٣٧} (٤٤) الفخرى ٥.

^{٤٣٨} (٤٥) ابن الأثير ١٥٩ / ٧.

^{٤٣٩} (٤٦) آثار الشيعة ٣٤ / ٤.

و جند أعداء أسرة الفرات للإطاحة بها كل ما لدى أهل السنة من تعصب متطرف على الشيعة و كراهية لهم. فكان أبو الحسن على بن عيسى بن داود بن الجراح من ألد أعداء أبي الحسن على بن محمد بن الفرات. و هكذا أخذ يشير الناس ضده بأسوأ الطرق، و تزيًا بزي السني المتعصب، و اتهم الفرات بوصفه شيعيا بالزندقة^{٤٤٠}.

كانت سياسة أسرة الفرات تسعى إلى توحيد الشيعة، و جمع كلمتهم، و جعلهم متراسين خلف سياستها، و يعود السبب في ذلك إلى أن مناهضة الشيعة للأغلبية السنية في بغداد ما كان لها الأمل في النجاح، إذا أخذتها على عاتقها فرقة شيعية واحدة. و جلبوا عددا من شخصيات الاثنى عشرية إلى الوظائف و المناصب الإدارية ليضمنوا مكانتهم الخاصة مثل أبي سهل إسماعيل النوبختي و غيره^{٤٤١}. و لكننا لا نجد عند الفرات

ص: ١٢٠

تفضيلا لمذهب شيعي على مذهب آخر. و قد منح محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات حمايته لمحمد بن نصير النميري المذكور، ابن الوزير، المحسن، و ساعد الشلمغاني، بل إن الوزير و ابنه كانت لهما صلة حتى بالقرامطة.

كان حامد بن عباس أيضا عدوا من أعداء ابن الفرات الألداء، و كان ينافسه منافسة شديدة. و استعمل حامد إلى جانب وسائله الأخرى الحركة القرمطية ليثبت للخليفة أن هناك علاقة بين الشيعي ابن الفرات و بين القرامطة، الذين كانوا يعتبرون من الشيعة، ليصل بهذه الطريقة إلى إسقاط الوزير و الإطاحة به. كان المقتدر يخاف القرامطة إلى حد ما و يحرص كل الحرص على معرفة أخبار الحركة القرمطية. و كان بعض الناس يستغلون الفرصة استغلالا واسعا من أجل المتاجرة بالأخبار، و في النهاية مالت كفة التأثير لصالح الأعداء: فهو شيعي، و الشيعي دائما ضد الخليفة. و لذلك فمن الأفضل أن يبعد عن منصبه^{٤٤٢}. و قد اضطربت العامة في بغداد بقوة عن طريق الدعاية، و طالبت بسقوط و إعدام «القرمطي الصغير و الكبير» كما سمي الوزير و ابنه. و أسقط ابن الفرات و ابنه و تم قتلها سنة ٣١٢ هجرية^{٤٤٣}.

و في الوقت نفسه، الذي كان فيه للشيعة نفوذ في الحكومة، منذ سنة ٢٥٤ هجرية، ازدهرت في قسم آخر من الخلافة، بشمال العراق، السلالة الأميرية حمدان، أسرة سيف الدولة، التي امتدت قوتها من منطقة الموصل إلى حلب و سورية الشمالية. كانت هذه الأسرة تدين أيضا بالمذهب الشيعي، و لكن أفرادها لم يكونوا ينتمون مثلهم مثل ابن الفرات إلى الفرق الشيعية المتطرفة، لأن دعامة من هذا النوع لا بد أن تكون ضعيفة، و لذلك أرادوا أن يوحّدوا الشيعة خلفهم. و هكذا وجد

ص: ١٢١

^{٤٤٠} (٤٧) خندانى النوبختي ٩٧ - ٩٩.

^{٤٤١} (٤٨) نفسه ٩٧، النجاشي ٢٣.

^{٤٤٢} (٤٩) تحفة الأمراء ٣١٥.

^{٤٤٣} (٥٠) المنتظم ١٩٦ / ١ في حوادث سنة ٣١٢ هجرية.

الשלماغاني، الذي سنتحدث عنه في مكان آخر، و باب النصيرية المأوى و الحماية عند ناصر الدولة الحسن بن حمدان^{٤٤٤}.

يقال إن نصير الدولة قد درس على المفيد، ثم إنه أهدى إلى تلميذه الأميري كتابا عن الإمامة^{٤٤٥}، و نقرأ أخيرا أن نصير الدولة كان في بدايته يسخر من الباب، و لكنه أصبح بواسطة ما رواه له عمه عن قصة كرامة السفير الثاني، التي عاشها عمه ذاته، رجلا متدينا^{٤٤٦}. فإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن البويهيين في بلاد فارس كانوا قد أنشؤوا ملكهم و بدءوا يلعبون دورا قبل نهاية الغيبة الصغرى، فلا ينبغي لنا أن نرى في صعود أسر شيعية مفردة الكفاح المشترك لجميع أفراد الأسرة المقدسة، كما حدث ذلك في الأزمنة السابقة. فالحديث لا يدور هنا عن الشيعة و انتشار تعاليمهم، و إنما يدور بالدرجة الأولى حول مصالح الأمراء المفردين، و لذلك لم يعلن السفراء عن ميلهم إلى الاتصال المباشر بالأسر، و لم نعرف عنهم مشاريع من هذا النوع.

كانت بغداد ملتقى الشيعة و مركزهم. ففيها كان السفير يؤدي وظيفته، و فيها كانت إقامة الأسرة الشهيرة بسطام، التي تقلدت مناصب عالية شأنها شأن أسرة الفرات^{٤٤٧}. و في بغداد أيضا كانت تقيم أسرة النوبختي، التي تقلد أعضاؤها مناصب دينية و دنيوية سامية، و نالوا المراتب المحترمة. و من بغداد كان رجال الشيعة العاملون في السر يرسلون رسائلهم الكثيرة إلى إخوانهم في الدين و إلى الثوار^{٤٤٨}. كانت شبكة الاتصالات قوية و سريعة في عملها، حتى إن الشيعة كانوا كلهم يعرفون على القرب و البعد متى يقوم الخليفة أو وزيره بعمل ضدهم. فقبل أن ينفذ عبيد الله بن سليمان مشروعه في القبض على كل وكلاء الإمام،

ص: ١٢٢

كان الأمر قد صدر إلى جميع الوكلاء بعدم جمع الخراج، بحيث لم يتم جمع الخراج في هذه السنة^{٤٤٩}.

كان للقصر دائما تأثير على الخليفة، فلذلك يجب علينا أن نبحث هناك عن أصول أغلب المؤامرات و المشاريع السياسية لإسقاط الحكام.

و من أجل هذا كان من المهم أن يضمن المرء لنفسه تأييد رجال القصر، و كان المرء يستعمل لذلك أتقياء الناس و الخطباء من ذوى الشخصيات الكبيرة الجذابة. كان نصر الحاجب قد أوجد لهذا السبب وظيفة من الوظائف الخاصة و عين فيها المتصوف الشهير الحسين بن منصور الحلاج، و اتبع نفس الطريقة المحسن بن الفرات، الذي أسند هذا المنصب إلى الشلماغاني^{٤٥٠}.

^{٤٤٤} (٥١) العلويون ١٩٧.

^{٤٤٥} (٥٢) آثار الشيعة ٣ / ١٣٨.

^{٤٤٦} (٥٣) بحار ١٣ / ١١٩.

^{٤٤٧} (٥٤) خندانى النوبختي ٢٢٣.

^{٤٤٨} (٥٥) المنتظم ٢ / ٢٩ فى حوادث ٣١٢، تجارب الأمم ٢ / ٣٢.

^{٤٤٩} (٥٦) الكافي ٢٢٩.

^{٤٥٠} (٥٧) تجارب الأمم ٢ / ٧٧٦.

و لم يكن الصراع الآن قائما بين السنة و الشيعة، و إنما أصبح بين أهل السنة أنفسهم. فعند ما أسقط العباسيون الأمويين، أرادوا أن يمزجوا مصالحهم السياسية بالدين بطريقة جديدة: لقد رويت فجأة أحاديث كثيرة عن النبي تتحدث عن حق العباسيين في الخلافة^{٤٥١}.

كان العباسيون يبدؤون في عيد الفطر بالصلاة، و تتلوها مباشرة الخطبة، مع التخلي عن الأذان الثاني و الإعلان عن الإقامة، لأن الأمويين كانوا يبدؤون بالخطبة و الأذان و الإقامة و الصلاة في الوقت نفسه^{٤٥٢}.

و منذ تولى أبي يوسف منصب قاضى القضاة على يد الخليفة هارون الرشيد أصبح منصب القضاء، منظما، فقد أسند أبو يوسف مناصب القاضى إلى أتباع أستاذه أبى حنيفة و تلاميذه، و قد ساعدت الحكومة أبا

ص: ١٢٣

يوسف خلال ذلك قدر استطاعتها، و عن طريق هذا المساعدة انتشر مذهب أبى حنيفة و نال استحسان الحكومة. و فى النهاية صار هذا المنصب امتيازا للحنفية، بحيث إنه لم يكن فيما بعد يعين فى منصب قاضى القضاة على العموم غير الحنفية. و عند ما عين الخليفة القادر شافعيًا بوصفه قاضى القضاة، ثار سكان بغداد فى الحين، فكان على الخليفة أن يرضخ لرغبتهم و يترك المنصب للحنفية^{٤٥٣}.

و قد حاول المأمون، الذى كان يساند المعتزلة، أن ينشر رأيهم فى القرآن بين العامة بجميع الوسائل. و أقسم لخليفته، لأخيه، فى وصيته أن يواصل سياسته. فاستجاب الأخ لرغبة أخيه و طارد كل معارضى المعتزلة:

لقد عوقب الفقيه الشهير أحمد بن حنبل لاعتراضه على سياسة الخليفة^{٤٥٤}.

إن اتخاذ موقف حزبي كهذا، و إظهار الرغبة فى مساندة اتجاه فقهي ليتغلب على اتجاه آخر، لم يكونا يدلان على السياسة الرشيدة، التى يتبعها الحكام، فقد سببا للخلافة كثيرا من الاضطرابات و المصاعب. كان هناك حقا رجال يحذرون الخليفة و يشيرون عليه بالبقاء على الحياد، و لكن أصواتهم غطت عليها أصوات أولئك الذين كانوا يريدون أن يستغلوا الخليفة لأغراضهم الشخصية^{٤٥٥}. و عمت تاريخ بغداد فى ذلك الحين الانفجارات الدينية المتطرفة الحنبلية و الشافعية و الشيعية و غيرها. و كانت المساجد منطلقا لدعايات لا رادع لها ضد الحكومة و ضد من يخالفهم الرأى. و لذلك أمر الخليفة بتسوية مساجد كثيرة بالأرض «بوصفها بؤرا

^{٤٥١} (٥٨) ابن الأثير ٥ / ١٦٥.

^{٤٥٢} (٥٩) نفسه ٥ / ١٤٤، سطر ٥-٤ من أسفل.

^{٤٥٣} (٦٠) أحمد تيمور ٩.

^{٤٥٤} (٦١) ضحى الإسلام ١٦٣ و ما بعدها.

^{٤٥٥} (٦٢) نفسه ١٥٢.

للثورة». و حذر الخليفة الراضى الحنابلة لآخر مرة من التمدادى فى استعمال مثل هذه الوسائل الدعائية هذه، و لما لم يستجيبوا له أمر بهدم

ص: ١٢٤

مسجد اجتماعهم^{٤٥٦}. و قد هدم مسجد براثا عدة مرات، مرة فى زمن المقتدر، لأن الشيعة استعملوه مكانا لاجتماعهم و دعايتهم ضد الدولة^{٤٥٧}.

عمل السفراء

لقد جعل الوضع السياسى و انعدام الأمن عموما، الذى لم يتسبب فيه الشيعة فقط، من الصعب على رؤساء الشيعة أن يظهرُوا إلى الرأى العام لنشر دعايتهم و مبادئ تنظيمهم. فكان هناك، كما ذكرنا، موظفون شيعيون سامون فى جميع الأوقات، و لكن أوضاعهم هذه لم تكن تسمح لهم بمعاونة إخوانهم فى الدين علنا. ثم إن مصالح الموظفين الشيعيين السامين من أصحاب النفوذ لم تكن تتلاءم دائما مع سلطة السفراء المحدودة، التى كان يخضع لها الرفيع و المنحط بصفته نوابا للإمام.

يمكننا أن نفهم لما ذا كان من بين الأغراض السياسية السامية، التى كان الوزراء الشيعيون، من أمثال وزراء أسرة الفرات، أن يتوصلوا إلى توحيد جميع الشيعة تحت قيادتهم و أن يقضوا على المطامح الخاصة للشيعة الاثنى عشرية. و لذلك لا يكاد المرء يستطيع تكوين صورة واضحة عن علاقة السفير الثانى بازدهار أسرة الفرات فى أيامه.

كان السفير الثانى يودى مهمته بنشاط، و يرسل وكلاءه بجدة و اجتهاد، و يوجه إليهم توقيعات عن إسناد الإمام المنصب إليه بواسطة رسل من الشيعة^{٤٥٨}. و كان رسل الشيعة يأتون من بعيد إلى السفير فى

ص: ١٢٥

بغداد، يحملون إليه ما جمعه من خراج و يوجهون مطالبهم إلى الإمام.

^{٤٥٦} (٦٣) ابن الأثير ٨ / ١٠٧.

^{٤٥٧} (٦٤) المنتظم ٢ ورقة ٢٩ ب.

^{٤٥٨} (٦٥) الغيبة ٢٣٤؛ نود أن نسجل هنا أن من بين الوسائل العديدة، التى يستعملها الشيعة و غيرهم من المنظمات السرية، الحمام الزاجل، الذى يعود الفضل إليه فى معرفة رؤساء المنظمة بأحداث المناطق البعيدة. و كثيرا ما كان هؤلاء الرجال يقدمون علمهم على أساس أنه علم من الله. فهناك شىء من هذا يروى عن عبد الله بن ميمون القداح (ينظر الفهرست ١٨٧)، و أبى عبد الله الشباس و أبيه الحسن على بن الحسين بن محمد (توفى سنة ٤٤٠ هـ). و يروى عن هذين الأخيرين زيادة على ذلك أنهما كان لهما عمل سرى، يتمثل فى مراسلة من البصرة تنم عن طريق استعمال الحمام الزاجل، و اعتبرا أخبارهما معجزة إلهية (ينظر تلبيس إبليس، ٤١٣، ٤١٥).

و قد اكتسب السفير خالصا في الأقسام المختلفة من بغداد، فكانوا يترقبون رسل الشيعة و يرشدونهم إلى بيت السفير، و يأخذون منهم المال و يحملونها إليه. و كان من بين هؤلاء الخالصاء أبو جعفر محمد بن علي الأسود و عبد الله جعفر بن محمد المدائني^{٤٥٩}.

وضع السفير الثاني، ليكون بمنجاة من مطاردات الخليفة من قبضة شرطته، نظاما معقدا للوساطة بينه و بين نوابه في الأماكن الشيعية: كان الوكلاء يجمعون ما تتبرع به الطوائف من جميع الأشياء، التي يودون إرسالها إلى الإمام، و يرسلونها مع الرسل تحت اسم «مال الغريم»، أي تخلص المؤمن مما عليه من ديون!- و هو رقم سرى خاص بالإمام- إلى الإمام في بغداد. و كان خالصاء السفير يترقبون الرسل في أماكن معينة من المدينة. و للتعرف عليهم يذكرون للرسل الاسم و البضاعة المنقولة. أما إرسال الأخبار المهمة، خصوصا ما يتعلق منها بالخطر الداهم، فإن السفير كان يستعمل رسلا آخرين، قد لا يكونون على دراية بما تحتويه الرسائل. و يروى أن هؤلاء المخبرين يحولون بعض مراسلات الوكلاء عند وجود الخطر، من بغداد إلى مكان آخر^{٤٦٠}. و إدخال خراج الطوائف ليس جديدا في أيام السفراء، و إنما يعود إلى أيام الأئمة. فقد كان لهؤلاء نوابهم في جميع المراكز الشيعية من اليمن إلى بلاد فارس. ليس من الممكن تقدير المدخول السنوي للإمام بصورة مؤكدة، لأن كل شيء كان يتم في سرية تامة. على أن الأمثلة الكثيرة الواردة في الكتب عن هدايا

ص: ١٢٤

على بن يقطين و أبيه إلى الإمام تقدم لنا تصورا عن المبالغ الكبيرة^{٤٦١}.

و كذلك هدايا الإمام إلى أصدقائه تقدر بثروة هائلة: ٣٠٠٠٠ ألف دينار لا تعد على نحو ما أمرا نادرا^{٤٦٢}، و لا يقدر على مثل هذا الكرم إلا الخلفاء أو السادة الأغنياء.

يمكن أن نستخلص من هذه الأخبار أن الناس، من جميع الطبقات، من الأمراء إلى الناس البسطاء، كانوا يحملون إلى السفير قدر استطاعتهم:

كل الأشياء القيمة من الدنانير الذهب إلى قطع الثياب. مع اختلاف المانحين و الأشياء الممنوحة ليس من السهل تقدير القيمة الإجمالية لذلك.

كان الناس قد جمعوا سنة ٢٦١ / ٦٢ في ديناور ١٦٠٠٠، و وضعوها أمانة عند رجل معين اسمه أحمد، و يعرف باسم أستاره، و استلم في مكان آخر ملابس و أكثر من ١٠٠٠ دينار^{٤٦٣}. و في حالة أخرى توفي أمير و ترك حصانا و سيفاً، فلم يلبث أن ظهر رسول السفير عند ورثته في الوقت المناسب و معه رسالة إليهم، و قدر ثمن ما عندهم ب ١٠٠٠ دينار و طلب منهم أن يسلموا

^{٤٥٩} (٦٦) الغيبة ٢٣٩، ٢٤١، و انظر عن أبي جعفر الأسود في المنتهى ٢٨٣.

^{٤٦٠} (٦٧) الغيبة ١٩١ و ما بعدها.

^{٤٦١} (٦٨) المنهج ٢٤٨، مجالس المؤمنين ٧٨.

^{٤٦٢} (٦٩) الغيبة ٢٢٤، يذكر هناك مبلغ كبير و هو ١٠٠٠٠٠ دينار، الكشي ١٧٤ و ٣٤٤.

^{٤٦٣} (٧٠) بحار ٧٩ / ١٣.

إليه المبلغ ليقدم إلى السفير^{٤٦٤}. و جمع كاتب من مدينة مرو ١٠٠٠ دينار و بعث بها إلى السفير^{٤٦٥}. و أرسل الوكيل ١٠٠٠ دينار و مبلغ من الدراهم، التي تسلمها، إلى وكيله المقيم في سامراء^{٤٦٦}.

و جاءت امرأة من قرية آبه، كانت قد وفرت ٣٠٠ دينار، إلى بغداد لتري السفير و تقدم له المال بنفسها^{٤٦٧}.

ص: ١٢٧

و كان الذهب و الفضة يرسلان سبائك إلى الوكيل، فقد أرسل غنى من مدينة بلخ سبائك من هذا النوع، و حمل آخر معه من بخارى عشر سبائك^{٤٦٨}. و قدمت امرأة للسفير سوارا ذهباً، و خاتماً بحجر نقيس، و أقراطاً بالأحجار الكريمة و جواهر باهضة الثمن^{٤٦٩}. و كان النساء يرسلن أيضاً الألبسة إلى الإمام، و أهديت له بيوت، و كانت التبرعات تتكون من مثل هذه الأشياء الباهضة الثمن و من الأشياء التافهة على حد سواء.

من هذه الأمثلة و مما لم نذكره منها نستخلص أن الخراج كان يأتي السفير من المناطق المختلفة، بعضها بعيد جداً، من بلخ و بخارى و ديناور و آبه و العراق و قم و اليمن و غيرها.

و كان للسفراء إلى جانب نوابهم مسيرون معينون يهتمون بالأوقاف^{٤٧٠}. و يبدو أنهم كانوا، بفضل وسطائهم، على علم بسير الأمور و حالة الأوضاع في الدولة، و كانوا ملمين بالوضع الأمني في البلاد أكثر من إمام الخليفة به. عند ما تصل قافلة شيعية إلى بغداد، كان السفير هو الذي يحدد لها مدة إقامتها في المدينة و موعد سفرها منها. و يروى أن قافلة تجرأت على السفر قبل مواعده، فهاجمها البدو في الريف و نهبوها و سلبوها ما كانت تحمله معها، في حين أن قافلة أخرى، سافرت بعد أن أشار عليها السفير بذلك، لم يعترض طريقها أى منازع، و كان السفير يأمر أتباعه بالعناية حتى بدواب القافلة^{٤٧١}.

كان في بغداد أيام السفير الثاني رجال آخرون، يطلق كل واحد منهم على نفسه اسم السفير. و كانت لكل منهم دار تسمى «دار النيابة».

^{٤٦٤} (٧١) نفسه ٨٥.

^{٤٦٥} (٧٢) نفسه ٨٧.

^{٤٦٦} (٧٣) نفسه ٨٩.

^{٤٦٧} (٧٤) نفسه ٢٠٩.

^{٤٦٨} (٧٥) نفسه ٩٢.

^{٤٦٩} (٧٦) نفسه ٩٠، ثم ٩٧، ١٨٢ و ما بعدها.

^{٤٧٠} (٧٧) بحار ١٣ / ٩١.

^{٤٧١} (٧٨) نفسه ٨٨.

فاليقطيني و الأحمر - هكذا كان اسماهما - كان لهما حاشية من الخدم و الأتباع. و كان هذان السفيران يجلسان في ثياب أنيقة وسط أناس،

ص: ١٢٨

يتناقشون في المسائل الدينية. و لكن الشيعة يقومون بعرض المسألة من جانبهم كما لو أن منافسي «السفير الحقيقي» لم يستطيعوا الاحتفاظ بمناصبهم فترة طويلة^{٤٧٢}.

و يظهر أن سلطة السفير الثاني كانت أكبر من سلطة الأغنياء من ملاك الدور و الأراضي. كان إلى جانبه عشرة مستشارين شرفيين من قادة الشيعة^{٤٧٣}. و كان بقية أعيان الشيعة و علمائهم على اتصال دائم به مثل أبي سهل النوبختي، و أبي علي بن همام، و أبي عبد الله بن محمد الكاتب، و أبي عبد الله البقطنى، و أبي عبد الله بن الوجناء^{٤٧٤}، و عبد الله بن جعفر الحميري^{٤٧٥} و أحمد بن ميتال و ابنه جعفر^{٤٧٦}. كانوا يجتمعون عنده و يتناقشون معه في مسائل التوحيد و الفقه، و يتعلمون منه، فقد كان له اطلاع واسع على الفقه، لأنه كان قد جمع أحاديث كثيرة عن الإمام الحادى عشر و الثانى عشر و عن أبيه^{٤٧٧}.

و كان سؤال المتسائلين الأساسى يتصل بعلاقته بالإمام المختفى.

و إذا كان الإمام الحادى عشر و السفير الأول لم يذكر اسم مكان معين للمختفى و لم يكن لديهما سوى دعوى الالتقاء به، فإن السفير الثانى كان يذكر رواية جديدة: لقد رأى الإمام، فقد كان موجودا فى كل حجة إلى

ص: ١٢٩

مكة، ينظر فى الناس و يتعرف قلوبهم، و الناس ينظرون إليه و لا يتعرفون عليه. و مرة أخرى قال السفير الثانى إنه رآه أخيرا عند حجه إلى مكة، و لكنه تجنب الجواب عن سؤال يتصل باسم الإمام بدعوى أنه من الممنوع ذكر اسمه، و إلا فإن اسمه سيعرف بين العامة و يسمع الخليفة به فيحرص على إرسال من يبحث عن حامل الاسم. و على هذا فالسكوت هنا هو الجنة، و البحث عن الإمام و السؤال عن اسمه هو النار. و أضاف السفير الثانى إلى ذلك أنه رأى فى مكة كيف كان الإمام يتوسل إلى الله أن

^{٤٧٢} (٧٩) نفسه ٧٩. توفي الأحمر أبو يعقوب إسحاق بن محمد بن أحمد بن أبان الكوفي سنة ٢٨٦ هـ. كان مصابا بالجذام، و يروى عنه أنه غطى البقع البيضاء باللون الأحمر حتى لا تبرز من القطع الحمراء. و لذلك عرف بالأحمر، و قد أطلق على أتباعه الإسحاقية نسبة إليه. و قد بقى مذهبه حتى عصر البغدادى (توفى سنة ٤٦٣ هـ) بالمداين قرب بغداد. و يذكر البغدادى أن الإسحاقية قد ألهاوا عليا (ينظر خندانى النوبختى (١٣٥).

^{٤٧٣} (٨٠) الغيبة ٢٣٩ و ما بعدها.

^{٤٧٤} (٨١) نفسه ٢٤٢.

^{٤٧٥} (٨٢) نفسه ٢٣٧، ٢٣٤.

^{٤٧٦} (٨٣) نفسه ٢٤٤.

^{٤٧٧} (٨٤) الغيبة ٢٣٦ و ما بعدها.

يسمح له بالعودة إلى شيعته بأسرع ما يمكن ليتسنى له الانتقام من أعدائه و مضطهدى المؤمنين به^{٤٧٨}. و أصبحت الآن لفكرة الغيبة عظمتها و شهرتها، فقد كان الإمام يزور كل موسم من مواسم الحج من غير أن يعرف، فيرى الناس و يتعرف قلوبهم، ثم اتسع مدلول هذه الكلمة فيما بعد: إن الإمام يساعد من هم في محنة من غير أن يتعرف عليه أحد.

و أخبر الإمام المختفى السفير الثانى بأنه سيموت قريباً، و من أجل هذا يجب عليه أن يقوم بجميع الاستعدادات لذلك. و قد جاء فى الكتب أن السفير قد حفر قبره بنفسه، و أعد لوحة، توضع فوقها جثته فى القبر، و أمر بتزيينها بآيات من القرآن الكريم و بأسماء الأئمة، و أخبر بيوم و ساعة موته^{٤٧٩}. و لم يسم السفير خليفة له حتى ما قبل موته بقليل. فدارت شائعات كثيرة حول ذلك، فأشار بعض الناس بأحمد بن ميتال أو ابنه جعفر، ذلك أن السفير الثانى لم يكن يتناول طعامه منذ حادثه لم تعرف طبيعتها إلا فى منزل هؤلاء الخلاء^{٤٨٠}. على أنه طرح فى الوقت نفسه، حسب ما جاء فى الأخبار، اسم الحسين بن روح بن أبى بحر النوبختى،

ص: ١٣٠

لأن السفير كان سنتين أو ثلاث سنوات قبل موته قد كلف هذا الرجل باستلام الأموال نيابة عنه. و كانت هناك مراسيم، يجب إتمامها عند تسليم الأموال إلى السفير: يذكر الاسم و مبلغ المال، و يذكر فى النهاية أنه يتسلم المال باسم الإمام الثانى عشر. و يروى أن حاملى المال كانوا يخافون من تسليم المال إلى ابن روح، لأنه لم يكن سفيرا و لم يكن يقدم لهم وثيقة الاستلام. لذلك اشتكوا منه عند السفير، و لكن السفير طمأنهم. و عند ما كثرت الشكاوى تقدم هؤلاء الناس بأنفسهم إلى السفير، فشرح لهم، كما قالوا، سبب تصرفه: إن ابن روح نائبه و خليفته بعد موته، ففرح هؤلاء الناس بهذا الخبر، و اطمأنت قلوبهم.

لم تكن شهادات عدد قليل من الناس كافية بالنسبة إلى قادة شيعة هذا العصر لضمان الخليفة، فزاروا السفير فى مرضه الخطير و تلقوا منه الجواب الصحيح، و هو أن ابن روح خليفته. و قد روى جعفر بن أحمد بن ميتال، الذى كان فى مرتبة ابن روح أو ربما كان أقرب منه إلى السفير، أنه وقف إلى جانب القادة، بينما كان السفير المعين، ابن روح، عند قدم المحتضر، فنظر السفير إليه فى تلك اللحظة و عين ابن روح خليفة باسم الإمام، و عندئذ بدل جعفر مكانه الشرفى بمكان ابن روح.

و مات السفير بعد تعيين خلفائه، و دفن فى القبر الذى حفره بنفسه فى شارع باب الكوفة بالجانب الغربى من بغداد، الذى كان يقع فيه أيضا منزله و أراضيه^{٤٨١}.

^{٤٧٨} (٨٥) الغيبة ٢٣٧.

^{٤٧٩} (٨٦) نفسه ٢٣٨.

^{٤٨٠} (٨٧) نفسه ٢٤٠، و يذكر أبو الفداء ٣٣٠ / ٢ فى أحداث سنة ٣٠٥ هـ موت أبى جعفر محمد بن عثمان العسكرى السمان، رئيس الإمامية و سمي نفسه بابا الإمام المنتظر، و أنظر الغيبة ٢٣٨ - ٢٤٢ فيما يخص ما يلى.

^{٤٨١} (٨٨) هنا ينتهى ما نشره المؤلف بعنوان «السفيران الأولان للإمام الثانى عشر» فى مجلة الإسلام المشار إليها أعلاه، و أعترف أنى استفدت منه فى إعادة صفحة كاملة إلى مكانها فى النص، كانت غير موجودة فى النسخة المرقونة، و كذلك إزالة الاضطراب، الذى اعترى الصفحات الأربع السابقة قبله، و قراءة كلمات بخط اليد القديم بالألمانية تعذرت على قراءتها. و فيما عدا هذا فليس هناك اختلاف بين النصين، حتى من حيث المصادر فى نهاية المقال و الأطروحة - المترجم.

الفصل السادس السفير الثالث أبو القاسم الحسين بن روح

كانت للعرب حتى سنة ٣٠٤ أو ٣٠٥ هـ، سنة وفاة السفير الثاني، القيادة الرسمية للشيعة، فقد كان الأئمة الاثنا عشر و السفيران الأولان من العرب. وقد كسرت تلك القاعدة بتعيين ابن روح سفيراً: لأول مرة يقود الشيعة فارسي. كان هناك منذ فترة طويلة عدد كبير من الفرس بين الوكلاء والعلماء، الذين كانوا على صلة بالإمام، وكانوا قد عملوا على نشر نفوذهم. عند ما كان الأئمة لا يزالون يسعون في الأرض، كان الفرس خاضعين لهم مثل العرب تماماً، وكان الأمر كذلك حتى في أيام السفيرين الأولين. و بتنصيب الفرس بدأت مرحلة جديدة، تغلب فيها النفوذ الفارسي على النفوذ العربي.

من المؤكد أن أصل ابن روح من بلاد فارس، و هو ينتمي إلى الأسرة الشهيرة بنى نوبخت، التي لعبت دوراً في السياسة، و في العلوم بشكل خاص. كان الجد الأول نوبخت قد أسلم في أيام الخليفة المنصور و أصبح منجماً في قصر الحاكم. و يتساءل مؤلف خندانى النوبختى عما إذا كان السفير الثالث ينتمي إلى تلك الأسرة من أبويه معا أو من جهة واحدة فقط. و بما أن المؤلف لم يجد في أسرة نوبخت اسماً مثل روح بن أبى بحر، و لأن السفير يعرف دائماً باسم النوبختى و لأنه دفن في مقبرة الأسرة، فقد غلب على ظنه أنه ينتمي إلى الأسرة من جانب أمه، كما هو

الأمر بالنسبة إلى أبى محمد الحسن بن موسى النوبختى، الذى كان بدوره مرتبطاً بالأسرة عن طريق أمه^{٤٨٢}. و لكن شهادة مؤلف خندانى النوبختى ناقصة، لأن التاريخ لا يذكر لنا كل أسماء هذه الأسرة، و إنما يذكر لنا أسماء الشخصيات المعروفة فقط. فابن روح يلقب بالروحي مرة^{٤٨٣}، و بالقمى مرة أخرى^{٤٨٤}، و يذكره الذهبى بلقب القينى أو القيجى^{٤٨٥}.

و يحاول مؤلف خندانى النوبختى أن يستنتج عن أبيه: القينى أو القيجى خطأً في الكتابة بدل القمى. و قد سجل الذهبى نفسه أن المخطوطة، التي اتخذها مصدراً، لم تكن واضحة^{٤٨٦}. لذلك قال مؤلف خندانى النوبختى إن القمى قد يكون هو المقصود. و ليدعم زعمه هذا ساق خبراً، ورد فيه أن ابن روح كان يتكلم لهجة آبه، و هى قرية قرب قم. و يوجد هذا الخبر في فصل كرامات الأئمة الاثني عشر، مؤداه: أن امرأة من قرية آبه كانت تملك ٣٠٠ دينار و كانت تريد أن تسلم المال للسفير بنفسها. فأرسل الصديق

^{٤٨٢} (١) خندانى النوبختى، ص ٢١٤.

^{٤٨٣} (٢) الغيبة، ص ٢٠٩ و ٢٤١.

^{٤٨٤} (٣) الكاشى، ص ٣٤٥.

^{٤٨٥} (٤) الذهبى، تاريخ الإسلام، ص ١٣٢.

^{٤٨٦} (٥) تاريخ الإسلام، ص ١٣٢.

الحميم للسفير الثالث على بن محمد بن ميتال مع المرأة، التي جاءت إليه، كمترجم إلى السفير. و ما أن رأى السفير المرأة حتى أخذ يحدثها بطلاقة و بجد و اجتهد بلهجتها المحلية، كما لو أنه كان يعرف ضيفته منذ مدة طويلة^{٤٨٧}.

لا ينبغي لنا أن نستنتج من هذه الحادثة، التي توجد بين قصص الكرامات، أن أصل السفير الثالث من قم. فقد كان هناك في ذلك الوقت كثيرون من أهل قم يسكنون بغداد، و كانت لهم رابطة قوية بالسفير. فلو كان من أهل قم، لعرف هؤلاء الناس، خصوصا جعفر بن ميتال، أن

ص: ١٣٣

السفير يستطيع أن يتحدث مع الغرباء بلهجة قم، و عندئذ فإن هذه الحكاية ما كانت لترد بين قصص الكرامات. ثم إنه لا يصح أن نتخذ من شهادة الكشي دليلا، و هذا ما فعله مؤلف خندانى النوبختى، لأن الخطأ في كتابة الأسماء كثير الورود عند الكشي^{٤٨٨}.

إذن ما هو أصل ابن روح؟ كان نوبخت، الجد الأول للأسرة الشهيرة، قد تعرف على المنصور أثناء الأسر في الأهواز، و قد ورد ذكره لأول مرة في هذه المدينة^{٤٨٩}. إننا نعرف أيضا رجلا يدعى أحمد بن روح الأهوازي، إذن فأبوه روح و أصله من الأهواز^{٤٩٠}. أ لا يغلب على الظن أن هذا الرجل قد يكون أبا السفير الثالث، فهو يتحدث قبل كل شيء عن ميلاد الإمام الثاني عشر، و أن السفير من الأهواز أيضا؟ بما أنه قد ذكر أن نوبخت كان في الأول يسكن الأهواز، فإن هذا يفسر العلاقة بين ابن روح و بين تلك الأسرة.

كان ابن روح يسكن دارا صغيرة في بغداد^{٤٩١}، و قد أصبح بفضل علاقته بالسفير الثاني أمينه و المتصرف في أمواله. و كانت حظوته عند السفير الثاني تزداد بصورة مطردة إلى أن تمكن من الاطلاع على أسرار سيده و حياته الخاصة. كان يتلقى منه ٣٠ دينار شهريا نظير خدماته^{٤٩٢}.

و هذا الراتب الكبير لا يزال مقارنة بالقوة و الشهرة، اللتين حملهما له منصبه، مبلغا صغيرا، خصوصا إذا ما نحن نأخذ بعين الاعتبار الهدايا، التي كان يتلقاها من الشخصيات الشيعية و كبار الموظفين^{٤٩٣}. كان منصب الكاتب عند السفير مهما جدا، لأن من يتولاه كان يستطيع من خلاله أن

^{٤٨٧} (٦) الغيبة، ص ٢٠٩ و ٢١٠، و إكمال الدين، ص ٢٧٧.

^{٤٨٨} (٧) منهج المقال، ص ٣١٢.

^{٤٨٩} (٨) خندانى النوبختى، ص ٧.

^{٤٩٠} (٩) الغيبة، ص ١٥٣.

^{٤٩١} (١٠) الغيبة، ص ٢٤٠.

^{٤٩٢} (١١) نفسه، ص ٢٤٢.

^{٤٩٣} (١٢) نفسه.

يطلع على أسرار الشيعة و يتعرف على العديد من رجالهم.

و تقدم لنا الكتب الشيعية ابن روح على أنه رجل يتسم بموهبة عقلية كبيرة، فكان يتعامل مع الخليفة و الوزراء بطريقة سياسية ذكية. كان بعض العلماء ذات مرة يتناقشون عند الخليفة المقتدر نقاشا حادا حول أيهما أكثر عفة: أبو بكر أم علي، و كان ابن روح من بين المستمعين. و عند ما سئل عن رأيه أجاب: «لقد جعل الصحابة أبا بكر خليفة أولا، و بعده الفاروق عمر، و بعد هذا عثمان ذا النورين و بعده علي الوصي. هكذا أخبرنا المحدثون، و هذا صحيح في رأينا». فعمت الفرحة الكبرى صفوف السنيين و شتموا من وصفوه بالرافضي، و أرادوا في حماسهم حمله فوق أيديهم^{٤٩٤}. - ذات يوم لعن بواب ابن روح، و هو شيعي متعصب، معاوية، و ما أن سمع ابن روح بهذا حتى طرد البواب لكيلا يسمع أهل السنة شيئا مشينا عن معاوية في بيته^{٤٩٥}.

كان أناس، تجار أو شيء من هذا القبيل، كان لهم عمل مع ابن روح، قد طرحوا عليه عن سوء قصد أسئلة مربكة عن أبي بكر و عمر، و لكن ابن روح كان يعرف كيف يجيبهم إجابة ذكية، جعلتهم ينصرفون عنه و قد تغير رأيهم فيه و نسوا مقاصدهم المعتادة^{٤٩٦}.

نشاط ابن روح في وظيفته

في اليوم الذي تولى فيه ابن روح منصبه، جاء إليه قادة الشيعة لتهنئته احتفاء بتعيينه. و ظهر بين الحضور خادم السفير الثاني المتوفى ليقدم لهم إرادة سيده الأخيرة. كان السفير جالسا في المسكن و حوله قادة الشيعة.

فدخل الخادم ذكا و بيده عصا السفير و علبة، و تقدم من الشيعة و أخبرهم بأن سيده أمره أن يقدم هذا إلى أبي القاسم، أي إلى السفير الثالث، عند ما

يموت سيده و يأخذ ذلك مكانه. لقد تم حفظ خاتم الأئمة في العلبة، و كان هذا اليوم يوما مشهودا بالنسبة إلى ابن روح، إذ جاء لتهنئته الوزراء و الشخصيات القيادية، و من بينهم السنيون، و بعد نهاية الحفل ذهب السفير الجديد إلى بيت السلمغانى^{٤٩٧}.

و بدأ ابن روح نشاطه الوظيفي في الحين، فكتب التوقيعات إلى الوكلاء في الطوائف الشيعية، و وصل أول توقيع أرسله إلى مدينة الأهواز يوم الأحد في ٢٤ شوال سنة ٣٠٥ هـ^{٤٩٨}.

^{٤٩٢} (١٣) الغيبة، ص ٢٥٠ / ٢٥١.

^{٤٩٥} (١٤) نفسه، ص ٢٥١.

^{٤٩٦} (١٥) نفسه، ص ٢٥٢.

^{٤٩٧} (١٦) الذهبي، تاريخ الإسلام، ورقة ١٣٢ ب (العد العربي).

^{٤٩٨} (١٧) الغيبة، ص ٢٤٣.

تلقى ابن روح من الشيعة لقب باب و أصبح يخاطب دائما بهذه التسمية^{٤٩٩}. و رغم هذا اللقب المحترم، فقد كان هناك من الناس من ينكرون عليه منصب السفير و يتهمون به بالجشع الشخصى فى جمع المال.

و كان محمد بن الفضل الموصلى واحدا من هؤلاء الناس، الذين اتهموه باستعمال الأموال، التى أوّتمن عليها، لمصالحه الخاصة بدل تقديمها هبة للمعوزين و الفقراء. و حاول صديق هذا الرجل، الحسن بن على بن الوجناء الموصلى عبثا أن يخفف عن صديقه و يبعده عن مثل هذه الأفكار، و أخيرا سافرا إلى بغداد لكى يتخذا قرارهما الحاسم من طريق إحدى كرامات السفير. فكتبنا أسئلة صعبة متنوعة على الورق بقصبة بدون حبر، بحيث لا يستطيع الإنسان العادى معرفة الحروف، التى كتبت بها، ثم ختما اللفة، و أرسلناها إلى السفير، و جاء هما بعد الظهر الجواب الدقيق عن الأسئلة كلها، فحملت هذه الكرامة أبا الفضل على تغيير رأيه فيه^{٥٠٠}.

لكن عباس إقبال، مؤلف خندانى النوبختى يعكس الحكاية: يذكر

ص: ١٣٤

أن الحسن بن على بن الوجناء هو الذى أنكر على السفير سفارته، بينما يحاول محمد بن الفضل إقناعها بها. على أن عباس إقبال يطلق على الحسن اسما آخر: هو أبو عبد الله الحسين بن الوجناء النصيبى، و مصدره هو الطوسى، الذى يذكر الحسن و لا يعرف اسم النصيبى^{٥٠١}.

كان ابن روح ذكيا، متعدد الجوانب، ذا شخصية جذابة، و قد ساعده على ذلك أن أسرته كانت عريقة مرموقة فى الحياة العامة. و أصبحت الآن لديه آلاف الإمكانات للوصول إلى المال و النفوذ، ذلك أن القرى الكاملة كانت تحمل إليه زيادة على خراج الإمام الهدايا الكبيرة، و لم يكن أهلها يتبارون فى نيل الخطوة عنده لأسباب دينية فحسب، و إنما لربط العلاقة أيضا بأسرة بنى نوبخت، التى اتسع نفوذها فى ذلك الحين^{٥٠٢}. كان منصبه يتطلب منه العمل الكثير، و كان محمد بن على الشلمغانى يأخذ عنه نصيبا من عمله، و كان أحمد بن إبراهيم النوبختى يهتم بأمر مراسلاته، و قد أنجز توقيعات كثيرة أملاها عليه السفير^{٥٠٣}. كان محمد بن على الأسود يستقبل من يبحثون عن النصيحة و يقودهم إلى السفير أو يسوى مطالبهم عن طريق الكتابة^{٥٠٤}. و كان أبو جعفر محمد بن أحمد الزجاجى قد تقلد نفس المنصب تقريبا عند الأسود، فكانت الرسل تأتى إلى أبى جعفر حاملين رسائل إلى السفير، فيقدم أسئلة الغرباء إليه، و يسلم أجوبتها إلى الرسل، فكان يهتم بإنجاز الجانب المتصل بالشكل، بينما يهتم السفير أو محمد بن على بإنجاز الجانب المتصل بالمضمون^{٥٠٥}.

^{٤٩٩} (١٨) ابن الأثير، ٨ / ١٠٠.

^{٥٠٠} (١٩) الغيبة، ٢٠٥ - ٢٠٦.

^{٥٠١} (٢٠) الطوسى، الغيبة، ص ٢٠٥ / ٢٠٦، خندانى النوبختى، ص ٢١٧.

^{٥٠٢} (٢١) الغيبة، ص ١٩٩.

^{٥٠٣} (٢٢) نفسه، ص ٢٤٣.

^{٥٠٤} (٢٣) نفسه، ص ٢٠٩.

^{٥٠٥} (٢٤) نفسه، ١٩٨ و ١٩٩.

كان هناك رجل قد ظهر فى أيام السفير الثانى سنة ٢٩٦ هـ بوصفه

ص: ١٣٧

سفيراً، و كان لا يزال يثير النزاع، فكان على السفير الثالث عندئذ أن يسكت صوته، فهو رجل له موهبة الساحر الفتان و الخطيب المفوه، الذى يمكن أن يصبح خطراً على السفير: و هذا الرجل هو الحسين بن منصور الحلاج المتصوف و الزنديق. و هناك آراء حوله تختلف باختلاف المواقف، و قد سجلها لويس ماسينيون Louis Massignon فى دراسته الخاصة، و مهمتنا هنا لا تتعدى وصف الموقف الشيعى. إن صورته التاريخية تصبح عندهم خليطاً حياً مزركشاً من الألوان: كان يدعى أمام الشيعة أنه شيعى، و أمام السنة أنه سنى، و كانت طريقته تتغير بتغير الجمهور الملتف به. كان يظهر أمام بسطاء الناس بوصفه نائباً للمهدى، و عند ما يتقون به، يحدثهم عن زندقته المتصلة بتناسخ الأرواح^{٥٠٦}. كان يحضر للفقراء عن طريق السحر المال و الطعام و الشراب و كل ما تشتهيهم أنفسهم، فقد كانت «دراهم القدرة» جملة شائعة فى ذلك الحين^{٥٠٧}.

و لكن سحر الحلاج لم يدم طويلاً، فقد أوقع نفسه بنفسه. لم يكفه ما وجده عند الناس البسطاء من ضيق الأفق، فأراد أن يكسب العلماء، و من بينهم على وجه الخصوص أبو سهل إسماعيل بن على النوبختى.

لقد كان هذا النوع من الشعوذة أقل ملاءمة لرجل حازم رشيد مثل أبى سهل. لقد تجرأ الحلاج على كتابة رسالة إليه طالباً منه فيها أن يؤمن بوكالته إيماناً صادقاً، فقد كتبت هذه الرسالة باسم الإمام. و قد أجابه أبو سهل بأنه لا يشك فى ذلك و أنه قد سمع بكراماته الكثيرة، و لكنه يطلب منه طلباً يعد شيئاً قليلاً مقارنة بتلك الكرامات: عليه أن يصبغ كل يوم جمعة شعره الأبيض، لأن هذا مزعج جداً، و يرجوه أن يعيد إلى شعره لونه الطبيعى الأسود. و عند ما ينتهى من ذلك سيكون تابعه المتحمس له و المبشر بتعاليمه. و لكن الحلاج شعر أنه عاجز عن هذه الكرامة، و لم

ص: ١٣٨

يجب أباً سهل على الإطلاق، فنشر أبو سهل هذه الحكاية و قضى على الحلاج عن طريق السخرية منه، و التندر به فى المجالس العامة و الخاصة^{٥٠٨}.

^{٥٠٦} (٢٥) الغيبة، ص ٢٤٢، عن الحلاج أنظر ماسينيون

L. Massignon, Passion d'Hallag, undal- Hallag Martyr Mystique, Paris, ٢٢٩١

^{٥٠٧} (٢٤) خندانى النوبختى، ص ١١٦.

^{٥٠٨} (٢٧) الغيبة، ص ٢٤٢.

لم يعد السفير في حاجة إلى اتخاذ أى إجراء ضد الحلاج، فقد تولى أبو سهل العمل كله. فلم يترك أية محاولة لإظهار الحلاج بمظهر الزنديق و محاولة القضاء عليه تماما. و قد نجح أبو سهل عند ابن داود، معلم الفقه السنى. ففى سنة ٢٩٧ هـ قدم ابن داود فتواه الشهيرة بتكفير الحلاج و حرمانه من حماية القانون^{٥٠٩}.

كانت مدينة قم، و سكانها تقريبا مائة بالمائة من الشيعة، تعيش فى انتظار المهدي، فتصور الحلاج أنها تربة مناسبة لنشاطه، و لعله كان يتصور أيضا أنها سترحب به بوصفه وكيل المهدي. و ظهر فى هذه المدينة بصفته وكىلا و نشر تعاليمه الملحدة، فوجد هناك كذلك أستاذه على بن الحسين بن موسى بن بابويه. و كتب إلى أقربائه، لكن ابن بابويه أحدث ثقباً فى الرسالة، و أعادها إلى الحلاج، و أبعدته عن المدينة^{٥١٠}.

و لم يبق للحلاج مكان يقيم فيه خارج بغداد، فعاد إليها، و لكن قضاء أبى سهل كان ينتظره فيها. و اشتهرت فى بغداد من جديد حادثة مضحكة بين أبى سهل و بين الحلاج: كان الحلاج جالسا فى إحدى الساحات العامة بالمدينة يقدم كراماته، و يفتح ذراعيه، فيمطر المال فى يديه، فيعجب الناس و يجمعون المال كله. و عندها تقدم إليه أبو سهل بسؤال محرج: لقد رجاء أن يحضر مالا مكتوبا عليه اسمه و اسم أبيه:

بذلك أوقعه فى ورطة: إذا ما هو جاء بكرامة، ظهرت خيائته، و إن هو لم يأت بها، اتضح خداعه. فأعلن الحلاج أنه لا يمكن فعل شيء من لا

ص: ١٣٩

شيء، حينئذ مسكه أبو سهل من كلمته و قال ما معناه: ما دام الحلاج يدعى عمل المال من لا شيء، فعليه فى هذه الحالة أن يعمل كذلك كل أنواع المال، الذى يريد الحصول عليه^{٥١١}.

و بقى الحلاج فى بغداد رغم هزيمته. كان قد تعرف على موظف سام، هو نصر الحاجب، و تسلل إلى منصب بين موظفى القصر بوصفه رجل دعاية^{٥١٢}. و أخيرا وقع ما كان مقدورا له. ازداد عدد أعدائه بصورة مطردة، و كان عليه أن يقضى فى السجن ثمانى سنوات. و لم يتخل عن أعماله السحرية حتى و هو مقيم فى السجن، و استطاع أن ينال إعجاب رجال السجن و رجال القصر، و فاز بحماية نصر. و بعد سبعة أشهر من وضع الحلاج فى السجن قدم أخيرا سنة ٣٠٩ هجرية إلى المحكمة. فنفى عن نفسه جميع نقاط الاتهام، و ادعى أنه مسلم صحيح الدين. لكنه وجد فى الوزير حامد بن العباس، و هو خصم لنصر، عدوا قويا، كان له تأثيره فى القضاة^{٥١٣}. فحكم على الحلاج و أعدم سنة ٣٠٩ هـ. و قد ادعى أتباع الحجاج، و غالبا ما يكون مثل هذا الادعاء مألوفا فى

^{٥٠٩} (٢٨) خندانى النوبختى، ص ١١٣.

^{٥١٠} (٢٩) الغيبة، ص ٢٦٢ / ٢٦٣.

^{٥١١} (٣٠) صلة عريب، ص ٩٢ و ما بعدها.

^{٥١٢} (٣١) تجارب الأمم، ج ١، ص ٧٦.

^{٥١٣} (٣٢) خندانى النوبختى، ص ١١٤، و تجارب الأمم، ج ١، ص ٧٦.

التاريخ الإسلامى، أنه لم يعدم هو و إنما أعدم شبيهه له^{٥١٤}، و كان أبو سهل النوبختى من أولئك الذين سعوا بجد و نشاط إلى إصدار الحكم عليه^{٥١٥}.

و يوجد فى كتابى «مجالس المؤمنين»^{٥١٦} و «محبوب القلوب» ثناء على الحلاج و تنويه به بوصفه قديسا و شهيدا، و كان على هذين الكتابين أن يتهماه و يذكرأ خروجه عن دينه، كما فعلت ذلك كتب الشيعة القديمة^{٥١٧}.

ص: ١٤٠

مصير السفير الثالث

حكم الخليفة المقتدر من ٢٩٥ - ٣٢٠ هـ (٩٠٢ - ٩٣٢ م)، و كان ضعيف الإرادة، متقلبا، فوض أمور الدولة إلى نساءه، و رجال قصره، و الشخصيات العسكرية السامية و العتقاء من العبيد. و لم يكن هناك مشروع و لا قوة أمرة موحدة تحدد سياسته، و كثيرا ما كان الوزراء يتغيرون.

و انتشرت، الاضطرابات، حتى فى بغداد، و عمت المجاعة. و كان الفاطميون قد بدءوا نشاطهم فى إفريقيا منذ سنة ٢٩٦ هـ، و شبت ثورات القرامطة بحمية غير عادية، و كان هناك فى بغداد نفسها من يتآمر مع القرامطة^{٥١٨}. و بدأ الشيعى يحيى بن المهدي فى منطقة القطيف نشاطه بصفته رسولا مزعوما من قبل الإمام المختفى و راح يبشر ابن المهدي بأن الإمام قد رجع فى السنة نفسها، أى سنة ٢٨١ هـ، من غيبته إلى الأرض، و لكنه لا يزال مختفيا و سيظهر وشيكا للعامة، و لذلك ينبغي له هو، يحيى بن المهدي، أن يجمع الخراج و الخمس للإمام. و سرعان ما أخذ يحيى بن المهدي يتعاون مع القرامطة^{٥١٩}، و انتشر الخوف بين جميع حجاج مكة بسبب ما كان يقوم به القرامطة من إبادة للناس، و يشكون من انعدام الأمن بشكل عام، و عجز الأجهزة الحكومية عن اتخاذ الإجراءات الضرورية، و ازدادت مطالبة الناس بتحريرهم من المتاعب و المحن و النكبات. و كان الخليفة نفسه يتلهف على معرفة أخبار حركة القرامطة و عن قائدهم أبى طاهر القرمطى. و كان الناس، الذين يجمعون المال و يحاولون كسب رضا الخليفة، قد جعلوا من هذه الأخبار تجارة رابحة^{٥٢٠}. و تطور الوضع من سيئ إلى أسوأ، فسقط الكثير من الوزراء

ص: ١٤١

^{٥١٤} (٣٣) تجارب الأمم، ج ١، ص ٨٢.

^{٥١٥} (٣٤) L. Passiond، p. ١٤٨. al -Hallag.

^{٥١٦} (٣٥) يدعى المؤلف القاضى نور الله بن شريف الحسينى.

^{٥١٧} (٣٦) منتهى المقال، ص ١١٤.

^{٥١٨} (٣٧) خندانى النوبختى، ص ٩٧ و ما بعدها(توفى سنة ١٠١٩ هـ، ينظر الكتورى، ص ٤٨٧).

^{٥١٩} (٣٨) ابن الأثير، ج ٧، ص ١٧٥.

^{٥٢٠} (٣٩) تاريخ الوزراء، ص ٣١٥.

عن مناصبهم، مع أنهم كانوا من أهل السنة، و ذلك لمجرد اتهامهم بأن لهم علاقة بالقرامطة. و كان سقوط الوزير الشيعي ابن الفرات أكثر و أعظم محنة، فقد طارد حامد بن العباس، الذي تقلد الآن منصب الوزارة (٣٠٦ - ٣١١) كل أتباع أسرة الفرات. و أخذ يطارد كذلك ابن روح، السفير الثالث، لأنه كان قد اختلف معه، فكان على السفير أن يمتنع عن الظهور أمام الناس من أتباعه و أشياءه و غيرهم^{٥٢١}، و لم يعد في وسعه حتى ممارسة وظيفته دون خطر، لذلك كان عليه أن يعين من ينوب عنه، و أسند هذه المهمة إلى محمد بن علي الشلمغاني^{٥٢٢}.

و أخذ أبو جعفر محمد بن علي الشلمغاني يتوسط، باتفاق مع السفير، بين السفير و بين من كانوا يريدون الذهاب إليه. كان السفير قد ذهب يوم تقلده لمنصبه إلى مسكن الشلمغاني. و كانت هذه الزيارة تدل على مكانة الشلمغاني الكبيرة في الطائفة و على منزلته الرفيعة عند السفير.

و سير الشلمغاني أمور الطائفة الشيعية بصورة مرضية لرئيسه، فأثنى عليه السفير و منحه ثقته الكاملة، و من ثم كانت للشلمغاني مكانة كبيرة في نفوس الشيعة و قادتهم^{٥٢٣}.

و لكن الفساد الفكري، الذي ساد هذا الفترة، أدرك الشلمغاني أيضا.

فقد كافأ ثقة سيده بالخيانة. كان أمرا مغريا بالنسبة إلى الشلمغاني أن يستغل القوة لنفسه، فوجد عند بعض الأسر آذانا صاغية له، فذكر أشياء و نسبها إلى السفير، و السفير لم يفعلها أبدا^{٥٢٤}.

كان السر و الغموض من علامات المذهب، الذي دعا إليه الشلمغاني: لا يجوز الحديث عنه، فلا يقدر على حمل قوة سره سوى

ص: ١٤٢

ملاك قريب من السيد أو نبي مرسل من الله^{٥٢٥}، على أن سره لم يحفظ:

فقد أصبح أوائل أتباع الشلمغاني بشكل غير مقصود من أوائل المخبرين به. فكانوا بذلك سببا فيما صار إليه أمره: لقد فقد منصبه. زارت أم كلثوم، ابنة السفير الثاني، ذات مرة أم أبي جعفر بن بسطام، فاستقبلتها أم جعفر بحفاوة كبيرة و احترام غير عاديين: لقد قبلت يديها و رجليها.

^{٥٢١} (٤٠) الذهبي، تاريخ الإسلام، ص ١٣٣، و خندانى التوبختي، ص ٢١٧.

^{٥٢٢} (٤١) الغيبة، ص ٢١٨.

^{٥٢٣} (٤٢) نفسه، ص ٢٦٣.

^{٥٢٤} (٤٣) نفسه.

^{٥٢٥} (٤٤) الغيبة، ص ٢٦٣.

و عند ما سألت أم كلثوم السيدة العجوز عن السبب فى ذلك، صاحت العجوز و هى تذرف دموعا غزيرة، أم كلثوم هى «سيدتها فاطمة»، و هى جديرة بمثل هذا الاستقبال. هزت أم كلثوم رأسها مندهشة و أجابت إن اسمها ليس فاطمة، و أنه لم الذنب النطق بمثل هذا الكلام. غير أن أم بسطام شرحت لها الأمر قائلة، إن هذا سر و أنها تريد أن تبوح لها به شريطة ألا تحدث شخصا آخر عنه. فأقسمت لها أم كلثوم على ما أرادت، لكنها تحفظت فى دخيلة نفسها لصالح السفير الثالث. و عند ما قالت لها أم أبى جعفر بن بسطام إن أبا جعفر محمد بن على قد أوحى للأسرة أن روح النبى قد حلت فى السفير الثانى، والد أم كلثوم، و أن روح أمير المؤمنين على بن أبى طالب قد حلت فى جسد السفير الثالث، أما روح فاطمة، فقد حلت فى جسد أم كلثوم. فتركت أم كلثوم هذه المرأة غاضبة لما سمعته منها من كفر بالله، و مضت مباشرة إلى السفير الثالث، و روت له ما حدث، فمنعها من الاتصال بهذه الأسرة فيما بعد بأية طريقة كانت^{٥٢٦}.

لقد بدأ الشلمغانى، مثل الحلاج و غيره، يصف نفسه بأنه وكيل الإمام، و تنقل مثل الآخرين بين المراتب إلى أن وصل إلى تناسخ الأرواح و التأليه الذاتى^{٥٢٧}. و يبدو أن الطموح و الحسد كانا الباعثين على مثل هذا النوع من التفكير و العمل. لم يكن ابن روح، الذى حاول بجميع الطرق

ص: ١٤٣

و الوسائل المحافظة على وحدة الشيعة، يعرف سوى مخرج واحد، و هو أن يمنع الاتصال بالزنديق و أن يلعبه. كان هذا قد حدث فى أيام وزارة حامد بن العباس الأولى^{٥٢٨}.

فى سنة ٣١٣ هجرية كان أبو القاسم الخاقانى وزيرا، و لم يختلف مصيره عن مصير سابقه، الذين سقطوا بسبب الوشايات و الافتراءات الكاذبة. أشيع فى بغداد أن هذا الوزير ينتمى إلى القرامطة، و لمعرفة أصل هذه الإشاعة و مدى صحتها أرسل الخاقانى عيونهم إلى أماكن مختلفة، فتوصلوا إلى أن هناك رجلا يعيث فسادا بجانب الكرخ يدعى الكعكى، و هو رجل دعاية و مبعوث للنائر قرمط. و عند ما علم الوزير بكل ذلك، أرسل حاجبه و رئيس شرطته للقيام بتفتيش منزل الكعكى و القبض عليه.

فتم القبض على نائبه و «شبانة»، أما هو نفسه فقد هرب من فوق سور منزله. و جلد المعتقلون ٣٠٠ جلدة لكل واحد منهم، و وضع الأعوان الوكيل فوق جمل و طافوا به فى المدينة و الشتائم تنهال على رأسه: هذا عقاب كل من يلعن أبا بكر و عمر^{٥٢٩}.

كان مسجد برائا مكانا لاجتماع الشيعة، فكانوا يضعون فيه مشاريعهم ضد الخليفة، و يعبرون عن معارضتهم له، و يلعنون أبا بكر و عمر، صاحبى النبى. و لما سمع الخليفة بذلك، عزم على توجيه ضربة قوية إلى الشيعة بواسطة نازوك. فدخل رجاله المسجد فجأة فى يوم جمعة، و لكنهم لم يجدوا فيه سوى حوالى ٣٠ شخصا، ففتشوهم بحثا عن السلاح أو عما يمكن أن يدانوا به، فوجدوا

^{٥٢٦} (٤٥) نفسه، ص ٢٦٣ و ما بعدها.

^{٥٢٧} (٤٦) نفسه، ص ٢٥٨ و ٢٦٥.

^{٥٢٨} (٤٧) ابن الأثير، ج ٨، ص ١٠٠، حوادث سنة ٣٢٥، و الغيبة، ص ٢٦٥.

^{٥٢٩} (٤٨) المنتظم، ج ٢، ص ٢٩ ب.

عندهم قطعاً طينية بيضاء، كتب فوقها: «محمد بن إسماعيل الإمام المهدي ولي الله». فألقى بالمعتقلين في السجن، و طلب الخاقاني من قضاة بغداد أن يقدموا له فتوى بأن هذا الفساد قد دنس حرمة مسجد برائنا، و لذلك يجب هدمه.

ص: ١٤٤

فتم تهديم المسجد، و لم يعد بناؤه إلا في سنة ٣٢٨ هجرية في أيام الخليفة الراضي^{٥٣٠}.

سألت أوضاع الشيعة في كل مكان، لأن الحكومة أخذت تحارب بوسائل بالغة الشدة كل الثورات، التي كانت تشب في جميع المناطق.

و وضع السفير، الذي كان قد تخلى عن نشاطه، في السجن ببغداد بسبب الوسائل المالية المثيرة للشبهات، زيادة على الاتهامات العادية المتمثلة في التآمر مع القرامطة، و مع أنه دافع عن نفسه و قدم حججا دامغة على براءته، فقد ظل في السجن خمس سنوات^{٥٣١}، لكنه لم يقطع علاقته بطائفته حتى و هو في سجنه بقصر المقتدر. فكانت أخبار السلمغاني تصله فيه بصورة منتظمة، و قد أصدر سنة ٣١٢ هـ توقيعا تبرأ فيه من الزنديق^{٥٣٢}.

و بعد خمس سنوات تغير المقدور لصالح ابن روح. لقد كانت أحزاب القصر و ضعف سياسة الخليفة سببا في اضطرابات كثيرة حدثت في بغداد، حيث هاجم مؤنس المظفر^{٥٣٣}، و هو من العبيد العتقاء، كان له نفوذ كبير في القصر - هاجم القصر بقوة عسكرية و خلع الحاكم، و أطلق سراح جميع من اعتقلهم الخليفة، و من بينهم الحسين بن روح. فعاد هذا إلى بيته و أخذ من جديد يمارس عمله القديم^{٥٣٤}.

و حتى الآن لم يهدأ حساد السفير، فعند ما أعيد المقتدر إلى الخلافة من جديد، حرضوه على ابن روح متهمين إياه بأنه شارك في الثورة عليه.

و لكن الخليفة أمر أن يترك ابن روح و شأنه، فقد كانت الثورة نتيجة لما

ص: ١٤٥

^{٥٣٠} (٤٩) نفسه و كذلك ٦٢ . p. L'Introduction Topographique deBagdad.

^{٥٣١} (٥٠) الذهبي، تاريخ الإسلام، ١٣٣، وصلة عريب، ص ١٤١.

^{٥٣٢} (٥١) عن مؤنس، أنظر دائرة المعارف الإسلامية، مادة مؤنس المظفر.

^{٥٣٣} (٥٢) الغيبة، ص ٢٤٨.

^{٥٣٤} (٥٣) صلة عريب، ص ١٤١.

كان قد ارتكبه هو نفسه من أخطاء^{٥٣٥}. فاحتفظ ابن روح بحريته و نال في الوقت الموالى تقديرا غير عادى^{٥٣٦}. و فى أيام الراضى حاول الحساد أن يسعوا بابن روح مرة أخرى عند الخليفة، و أخافوا الحاكم بالحقيقة المعروفة، و هى أن الشيعة قد جمعوا مالا كثيرا و حملوه إلى السفير. أما من كانوا يتعاطفون مع ابن روح، فكانوا يحاولون أن يبعدوا الخليفة عن هذه الظنون. و لكن جواب الخليفة يكشف لنا عن مدى عجز سياسته كلها، فقد أعلن أنه سيكون راضيا لو وجد ألف من مثل هؤلاء الرجال، يحمل أتباع الإمامية أموالهم إليهم ليصبحوا بذلك فقراء^{٥٣٧}.

و لم تبق لحساد السفير بعد إمكانية لتوجيه ضرباتهم إليه، فقد حظى آتذ بأعظم تقدير يمكن تصوره، و ذلك عند ما تولى ابن مقلة الوزارة.

كانت أملاك ابن مقلة قد تمت مصادرتها على يد أمير بن رائق، و كان على ابن مقلة أن يفر. و فى محنته توجه إلى ابن روح و طلب منه مساعدته.

فتكلم ابن روح مع ابن قبيلته الحسين بن على النوبختى، كاتب ابن رائق، فرفعت عنه مصادرة أملاكه عن طريق هذا الرجل، و لذلك أظهر ابن مقلة حينها للسفير اعترافه بما له عليه من جميل^{٥٣٨}.

و هكذا كان السفير الثالث محترما محبوبا إلى أن وافته منيته سنة ٣٢٦ هـ، و دفن فى مقبرة النوبختى.

ص: ١٤٧

الفصل السابع محمد بن على الشلمغانى

نشأ الرجل، الذى لعب دورا مهما فى أيام السفير الثالث، فى شلمغان بمنطقة واسط^{٥٣٩}، و كان ذلك فى وقت، نشط فيه حركة المطالب الدينية الجديدة فى العالم الإسلامى: الحلاج، و بايزيد، و البسطامى (توفى سنة ٢٦١ - ٢٦٤ هـ)، و المحاسبى (توفى سنة ٢٤٣ هـ)، و الحاكم الترمذى (توفى سنة ٢٨٥ هـ / ٨٩٨ م) و غيرهم، و كذا المذاهب الدينية الجديدة الأخرى، التى كانت تتكون من عناصر أجنبية، و لكنها كانت ترتدى ثوبا إسلاميا. كان الرجال مختلفين، و كانت أغراضهم مختلفة: غير أنهم اشتركوا جميعا فى فكرة معرفة الله. و مثلما يحدث فى التاريخ عادة: فإن الاتحاد المحض بالله يصبح عند بعض الدعاة ربوبية ذاتية مادية مغرضة.

^{٥٣٥} (٥٤) الذهبى، تاريخ الإسلام، س ١٣٣.

^{٥٣٦} (٥٥) نفسه.

^{٥٣٧} (٥٦) الصولى، كتاب الأوراق، ورقة ١٤٧ أ (العد العربى) و ص ١٠٤ فى النسخة المطبوعة.

^{٥٣٨} (٥٧) خندانى النوبختى، ص ٢٢٠، و الصولى، الأوراق، ورقة ١٢٢ أ.

^{٥٣٩} (١) ابن الأثير، ج ٨، ص ...، و ياقوت، إرشاد الأريب، ج ١، ص ٢٩٦.

لقد تأثر الشلمغانى بهذه المذاهب، التى ازدادت بشكل مطرد فى القرنين الثالث و الرابع للهجرة. فاستغل الأفكار الصوفية السائدة فى عصره لتحقيق أغراضه الخاصة، فلم يكتف، بدافع طموحه و غروره، لا بمكانته الرفيعة و مركزه الكبير عند الشيعة، و لا بمكانته عند وزيره و سيده، و إنما أراد أن يلعب الدور الكبير، الذى تتطلبه روح عصره. لقد عادت الموهبة

ص: ١٤٨

الخطابية، و البلاغة الأدبية، و الاطلاع الواسع على جميع الميادين العلمية فى عصره- عادت كل هذه الصفات بالفائدة على طموحات الشلمغانى و كان يبدو أنها ستضمن له تحقيق مطامحه. كان مضمون كتبه و أسلوبه ممتازين، و كانت قوة براهين دفاعه تمتلك القدرة حتى إقناع أعدائه.

و لذلك انتشرت كتبه فى كل البيوت الشيعية على التقريب، و حرص الشيعة على استعمالها فى أغلب الأحيان^{٥٤٠}.

لقد تمكن الشلمغانى من استغلال ما كان من نزاع بين السفير و بين الوزير حامد بن العباس لصالحه. و كان الوزير، كما سبق ذكره، قد منع السفير من الظهور أمام الناس. و عندئذ رأى نائب السفير و كاتبه، الشلمغانى، أن وقته أن وقته قد جاء. فأصبح يوجه البلاغات و الأوامر و الأجوبة و الأحاديث إلى الطائفة الشيعية^{٥٤١}، و كان الكاتب يخلط أشياء كثيرة لصالحه، لم يقل بها السفير على الإطلاق^{٥٤٢}.

كانت حركة القرامطة فى جنوب العراق و ما صاحبها من بشاعة متنامية، يضاف إليها تأمر رجال القصر على الوزير ابن الفرات لعنائهم له، قد حملت ابنه المحسن بن الفرات على نفس الفكرة، التى اتبعها نصر الحاجب فى ذلك الحين مع دعوة الحلاج إليه. لم يكن ليستطيع تغيير رأى رجال القصر إلا رجل ذو شخصية واحدة قوية النفوذ، قوية الكلمة فى الخطابة. و كان الشلمغانى، الذى كان ظاهريا و فكريا يشبه الحلاج، هو الشخص الوحيد الملائم لهذا المنصب^{٥٤٣}. كانت سياسة المحسن تتطلب أن يولى الشلمغانى على هذا المنصب، مع أن السفير كان فى أيام وزارة حامد بن العباس قد أعلن فى الناس أن الشلمغانى

ص: ١٤٩

كافر^{٥٤٤}. لقد نصب المحسن الشلمغانى و أخذ يؤيده بجميع الطرق، رغم أن منعه كان شيعيا أو كان من الممكن أن يعد سنداً للشيعة^{٥٤٥}.

^{٥٤٠} (٢) الغيبة، ص ٢٥٤.

^{٥٤١} (٣) الغيبة، ص ٢٦٢.

^{٥٤٢} (٤) الغيبة، ص ٢٦٣.

^{٥٤٣} (٥) ياقوت، إرشاد الأريب، ج ١، ص ٢٩٦.

^{٥٤٤} (٦) ابن الأثير، ج ٨، ص ١٠٠.

^{٥٤٥} (٧) خندانى النوبختى، ص ...

لم تكن هناك فى ذلك الوقت وزارة دائمة، و بسقوط الوزير ابن الفرات سقط أيضا السلمغانى. فأعدم الوزير و ابنه المحسن، و تم الإعلان الآن عن كفر ربيهم، و لكنه هرب إلى الموصل قبل أن يتم القبض عليه.

و جاء وقت غير مناسب بالنسبة إلى السلمغانى، فقد كانت الحكومة تبحث عنه فى كل مكان. و أراد أبو القاسم الخاقانى، الذى توصل إلى القوة بتقلده الوزارة الآن، القبض عليه كيما كان الأمر^{٥٤٦}. و لما كان حامى السلمغانى قد قتل عندئذ، فقد استطاع السفير ابن روح أن يصدر من سجنه أمرا بلعن السلمغانى دون خوف من العقاب و من غير أن يأخذ سجنه بعين الاعتبار. لقد أمر ابن روح أبا على محمد بن همام البغدادى^{٥٤٧} أن ينشر التوقيع، الذى أصدره الإمام فى شهر ذى الحجة ٣١٢ هـ، و يذيعه بين الشيعة دون أن يخشى الحكومة، و دون أن يخاف من المطاردة^{٥٤٨}.

يوجد التوقيع المذكور عند الطوسى، ص ٢٦٨ و ما بعدها، و قد نقل لنا هذا التوقيع ثلاثة رجال هم: محمد بن الحسن بن جعفر بن صالح الصيمرى - لم أستطع الحصول على معلومات دقيقة عن حياته -، و محمد بن أحمد بن داود بن على، رئيس علماء قم، توفى فيما بعد فى

ص: ١٥٠

بغداد سنة ٣٦٨ هـ، و هارون بن موسى بن أحمد بن سعيد الشيبانى (توفى سنة ٣٨٥ هـ)، و هو رجل متبحر فى عالم العلماء، قرأ على العديد من العلماء، و لذلك قدم لنا معلومات مهمة فى تحديد زمن بعضهم، و قد ذكر الطوسى جميع اختلافاتها و صيغها. على أن التوقيع، إذا نحن أهملنا الروايات العديدة القيمة، يوجد فى شكل مشابه تماما فى كتاب الطبرسى «الاحتجاج»، ص ٢٤٥، و عند المجلسى، «بحار»، ج ١٣، ١٠٢ و ما بعدها. و قد أخذ عباس إقبال التوقيع فى كتابه «خندانى النوبختى»، ص ٢٣٤، و لكنه غير الصيغة اللفظية حسب تخميناته، دون أن يشير فى الهوامش إلى الصيغة الأصلية.

و فحوى التوقيع هو ما يلى:

^{٥٤٦} (٨) ابن الأثير، ج ٨، ص ١٠٠ و ما بعدها، و خاندانى النوبختى، ص ٢٢٤.

^{٥٤٧} (٩) هو أبو على بن محمد بن همام الإسكافى (٢٥٨ - ٣٣٢ هجرية)، يقال عن أبيه أنه كتب، عند ما لم يكن له ولد، لهذا السبب إلى الإمام الحادى عشر و تلقى جوابا منه بأن الله قد سمع دعوته. - هذه الحكاية تذكر بحكاية ابن بابويه، التى ذكرناها فى أطروحتنا حسب أخبار التراجم، ينظر منهج المقال، ص ٣٢٨!

^{٥٤٨} (١٠) الغيبة، ٢٦٨ - ٢٦٩، و الطبرسى، الاحتجاج، ص ٢٤٥.

(ص ١٤٠) اعرف عرفك الله^{٥٤٩}، أطل الله بقاءك^{٥٥٠}، و عرفك الخير^{٥٥١} كله و ختم به عملك من تثق بدينه و تسكن إلى نيته^{٥٥٢} من إخواننا أسعدكم الله^{٥٥٣} بأن محمد بن علي المعروف بالشلمغاني و هو^{٥٥٤} ممن عجل الله له النعمة و لا أمهله قد ارتد عن الإسلام الإسلام و فارقه و ألحد في دين الله و ادعى ما كفر معه فيه بالخالق جل و تعالى و افترى كذبا و زورا و قال بهتاناً و إثماً عظيماً^{٥٥٥} كذب العادلون بالله و ضلوا ضلالاً بعيداً^{٥٥٦} و خسروا خسراناً مبيناً و إننا^{٥٥٧} قد برئنا إلى الله تعالى و إلى رسوله

ص: ١٥١

و آله^{٥٥٨} صلوات الله و سلامه و رحمته و بركاته عليهم منه^{٥٥٩}. و لعناه عليه لعائن الله^{٥٦٠} تترى في الظاهر منا و الباطن في السر و الجهر و في كل وقت و على كل حال. و على من شايعه و تابعه أو بلغه هذا القول منا و أقام على توليه^{٥٦١} بعده و اعلمهم تولاكم الله^{٥٦٢} أننا في التوقي و المحاذرة^{٥٦٣} منه على مثل ما كنا عليه ممن تقدمه من نظرائه^{٥٦٤}. من الشريعي^{٥٦٥} و النميري^{٥٦٦} و الهلالي^{٥٦٧}

^{٥٤٩} (١١) عند الصيمري: الخير أطل الله، اعرف عرفك الله.

^{٥٥٠} (١٢) بحار: بقاءك؛ خندانى النوبختى: بقاءك.

^{٥٥١} (١٣) بحار و خندانى النوبختى: عرفك الله الخير.

^{٥٥٢} (١٤) ابن داود: من تسكن إلى دينه و تثق بنيته جميعاً.

^{٥٥٣} (١٥) الصيمري: أسعدكم الله؛ و لكن ابن داود يذكر: دام الله سعادتك؛ فى خندانى النوبختى صيغة خاصة، الغائب: أدام الله سعادتهم.

^{٥٥٤} (١٦) ابن داود: و هو ممن عجل الله له النعمة؛ غير موجدة عند خندانى النوبختى.

^{٥٥٥} (١٧) هارون من: فيه بالخالق جل و تعالى، إلى: و إثماً عظيماً، صيغة خاصة.

^{٥٥٦} (١٨) الطوسى: ضلالاً بعيداً.

^{٥٥٧} (١٩) خندانى النوبختى صيغة خاصة: و أنا.

^{٥٥٨} (٢٠) هكذا فى الطوسى و بحار؛ لا توجد كلمة و آله فى خندانى النوبختى.

^{٥٥٩} (٢١) وردت صيغة الجمع عند الطوسى و فى بحار، و المقصود هو النبى و آل البيت، كما هو الأمر عند الشيعة؛ و توج عند خندانى النوبختى عليه بدل عليهم، لأن نعمة الله لا تطبق إلا على النبى، و لكن هذه الصيغة لا تتفق مع ما يرد عند الشيعة فى معظم الأحيان.

^{٥٦٠} (٢٢) هكذا عند الطوسى و فى بحار و عند عباس إقبال.

^{٥٦١} (٢٣) هكذا عند ابن داود. عند خندانى النوبختى بطريقة تحطم المعنى.

^{٥٦٢} (٢٤) هكذا عند الصيمري؛ لا توجد فى خندانى النوبختى؛ و اعلمهم؛ ابن ذكاء:

أعزكم الله.

^{٥٦٣} (٢٥) هكذا فى هارون؛ فى ابن ذكاء: أنا من التوقي؛ ابن داود: أنا من المتوقى له.

^{٥٦٤} (٢٦) هكذا عند الصيمري؛ عند ابن داود و هارون: على مثل ما كنا عليه ممن تقدمه من نظرائه؛ ابن ذكاء: على ما كان عليه من نقدنا لنظرائه.

^{٥٦٥} (٢٧) عن أبى محمد الحسن الأشعري ينظر الغيبة، ص ٢٥٨؛ مقالات الأشعري، ص ١٤ و ما بعدها؛ الفرق بين الفرق، ٢٣٩؛ تبصرة العوام، ص ٤١٩؛ الاحتجاج، ص ٢٤٤؛ خندانى النوبختى، ص ٢٣٥ و مؤلفات أخرى.

^{٥٦٦} (٢٨) محمد بن نصير النميري (أنظر الفصل السادس من هذا الكتاب).

^{٥٦٧} (٢٩) أحمد بن هلال العبرتائى الكرخى (الطوسى، ص ٢٦٠؛ الكشى، ص ٣٣٢-٣٣٣؛ رجال النجاشى، ص ٦٠ و ما بعدها؛ الطوسى، الفهرست، ص ٥٠؛ الطبرسى، الاحتجاج، ص ٢٤٥).

و البلالى^{٥٦٨} و غيرهم. و عادة الله جل ثناؤه قبله و بعده عندنا جميلة و به ثق و إياه نستعين و هو حسبنا فى كل أمورنا و نعم الوكيل^{٥٦٩}.

ص: ١٥٢

(ص ١٤١) أقام الشلمغانى بضع سنوات فى الموصل عند الأمير ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان، و سكن المعثانية، و هى قرية قرب جزيرة ابن عمر، و اشتغل هناك بالتدريس، و كان من بينهم بعض الشيعة مثل أبو المفضل محمد بن عبد الله بن المطلب، أحد أساتذة كاتب التراجم المعروف النجاشى^{٥٧٠}. و احتمل الشلمغانى إقامته فى الغربية فى ألم و شوق، بعيدا عن الحياة المدنية فى بغداد، و بعد بضع سنوات أعاده ذلك الشوق إليها، فاخفى فيها عن أنظار الحكومة^{٥٧١}.

و فى سنة ٣١٩ هـ أصبح الحسين بن القاسم وزيرا، و هو رجل كان يسعى إلى الوزارة بكل الوسائل. فكان يظهر نفسه لرجال القصر من المسيحيين، الذين كان يريد أن يقدم لهم الحماية عند الخليفة حتى يساعده، على أنه مسيحى. و يقال إن جده كان رئيسا عند المسيحيين و عرض عليهم مساعدتهم و الشفاعة لهم عند الخليفة. و هكذا كانت كل وسيلة مناسبة له، حتى النفاق الدنىء، من أجل الوصول إلى غرضه^{٥٧٢}.

لم تدم وزارة الحسين طويلا (من رمضان ٣١٩ إلى الربيع الأخير ٣٢٠ هـ). فقد عاجله المقدور بعد حين بسبب ضعف سياسته، فكان عليه أن يختفى، و قد كان صديقا و تابعا متحمسا للشلمغانى^{٥٧٣}، فكانت علاقته بذلك الرجل سببا فى هلاكه.

لقد أصبح أخو الحسين وزيرا، فظن الحسين أن أخاه سيساعده، و عمل الأخ على تغذية هذا الأمل فى نفسه. و لكن ما أن تجرأ الحسين على طلب وظيفة من أخيه، حتى قبض أخوه عليه و نفاه إلى الرقة. و نطق

ص: ١٥٣

بكلمات كبيرة أمام الخليفة: ففحواها أنه لم يقدم هذه التضحية و يقوم بنفى أخيه، الذى هو من أتباع الشلمغانى، إلا لحماية الخلافة من الخطر الشلمغانى، فتار الحليفة بسبب هذا الحديث، و أمر بمراقبة أسرة بسطام، التى تعتبر من أتباع الشلمغانى^{٥٧٤}.

^{٥٦٨} (٣٠) محمد بن بلال (الطوسى، ٢٦٠ و ما بعدها؛ الطبرسى، الاحتجاج، ص ٢٤٥؛ خندانى النوبختى، ص ٢٣٥).

^{٥٦٩} (٣١) الغيبة، ص ٢٦٨ و ما بعدها؛ بحار، ج ١٣، ص ١٠٢ و ما بعدها؛ الاحتجاج، ص ٢٤٥.

^{٥٧٠} (٣٢) خندانى النوبختى، ص ٢٢٤.

^{٥٧١} (٣٣) ابن الأثير، ج ٨، ص ١٠٠ و ما بعدها.

^{٥٧٢} (٣٤) عريب، صلة، ص ٣١٤.

^{٥٧٣} (٣٥) ابن الأثير، ج ٨، ص ١٠٠، و أبو الفداء، ج ٢، ص ٣٨٢ و تجارب الأمم، ج ١، ص ٢٦٦.

^{٥٧٤} (٣٦) تجارب الأمم، ج ١، ص ٢٦٦ و خندانى النوبختى، ص ٢٣٢.

كانت أسرة بسطام، و قد تبعت الشلمغاني منذ البداية، تحظى باحترام شيعة بغداد و تقديرهم. و قد تقلد العديد من أفرادها مناصب سامية، و كانت لهم صلة متينة بأسرة الفرات. و كان من بينهم على الخصوص أبو جعفر و أبو علي، ابنا بسطام، اللذان أصبحا من خلصاء الشلمغاني تماما. و رغم عقيدتهم الشيعية أو على الأقل ميلهم إلى الشيعة، فإنهم لم يقبلوا السفير و لا توقيعه، و إنما بقوا دائما بجانب الشلمغاني. و لذلك أمر الخليفة القاهر سنة ٣٢١ هـ بمراقبة مسكنهم و مراقبة جميع اتصالاتهم بالشلمغاني و أتباعه^{٥٧٥}.

تزايد اضطراب الشلمغاني و خوفه منذ سقوط صاحب نعمته و خضوعه للرقابة المشددة المفروضة عليه و على أتباعه و خلصائه، فأصبح الخوف على حياته يلازمه بصورة مطردة. فحتى متى يجب عليه أن يبقى صامتا و يعيش متخفيا، و الحال أن طبيعته كلها تجنح به إلى النشاط و التأثير في الرأي العام؟ في سنة ٣٢٢ هـ خطر بباله أن يظهر من جديد أمام الناس، و بذلك هيا بنفسه الهلاك لنفسه^{٥٧٦}.

بعد ظهور الشلمغاني أمام الناس من جديد، أخذت الحكومة تطارده مطاردة رسمية، انتهت بإلقاء القبض عليه و على بعض أتباعه من أمثال إبراهيم بن محمد بن أبي عون، و ابن شبيب الزيات، و أحمد بن محمد بن عبدوس، و هم رجال، كانت لهم في بغداد مكانة متميزة بوصفهم أدباء.

ص: ١٥٤

و عثر عند تفتيش بيت الشلمغاني على مواد الإدانة، فحولت إلى المحكمة^{٥٧٧}.

حدث هذا في عهد الوزير بن مقله. فقد أمر الوزير نفسه باعتقال الشلمغاني بعد تفتيش بيته، و أمر بنقل مواد الإدانة إلى محكمة خاصة.

و اجتمع عدد كبير من الشخصيات الشيعية في بيت الوزير ليستمعوا إلى كلمات الشلمغاني و أقواله أمام الوزير. و عند ما وصل الحديث إلى مسألة لعنة الشلمغاني، طلب الشلمغاني، حسب ما رواه الطوسي، أن يحضروا له السفير ليمس يده، فإذا لم تسقط النار من السماء على السفير، فإن ما قاله السفير فيه سيكون عندئذ صحيحا.

و قدم الشلمغاني مع أتباعه ابن أبي عون و ابن عبدوس إلى المحكمة، و عند ما وضعت أمامه الوثائق، التي عثر عليها عنده، أكد أنها رسائل وجهها إليه أناس معينون، أما مضمون الرسائل فيؤكد أنه مسلم و أنه لا علاقة له بمضمون هذه الرسائل بأي حال من الأحوال. و فيما عدا القضاة كان الخليفة نفسه موجودا، و تدخل في مجرى المحاكمة، و هذه الواقعة تدل على مدى أهمية هذه المحاكمة. و كانت الرسالتان، اللتان كانتا أكثر إدانة للشلمغاني، هما الأولى رسالة من الحسين بن القاسم، الوزير السابق المذكور، و الأخرى رسالة ابن شبيب الزيات، و كان الوسيط ابن عون. و مؤدى رسالة الحسين هو:

^{٥٧٥} (٣٧) نفسه، الغيبة، ص ٢٤٥.

^{٥٧٦} (٣٨) ابن الأثير، ج ٨، ص ١٠٠، و أبو الفداء، ج ٢، ص ٣٨٢.

^{٥٧٧} (٣٩) ابن الأثير، ج ٨، ص ١٠٠، المنتظم، ج ٢، ص ٥٣، تاريخ الياقعي، ص ٤٩، حوادث سنة ٣٢١، أبو الفداء، ج ٢، ص ٣٨٢.

إلى سيدى بشرى من خادمه مرزوق التلاج، الفقير البئيس، الذى سيلقاه بفضل الله الرحيم فى صحة و عافية ... و قد أنعم على سيدى و رحم ضعفى، و آمل ألا يتأخر كثيرا فى إظهار نعمته على، بل يستجيب لما كان قد بشرنى به!

كانت هذه الرسائل و غيرها شهادات حاسمة ضد الشلمغانى. و عند ما

ص: ١٥٥

سأل الخليفة كيف تتطابق هذه الأحاديث مع إنكارات الشلمغانى، أجاب ابن عبدوس: «لم يقل الشلمغانى إنه إله على الإطلاق، و إنما قال إنه باب إلى الإمام المختفى عوض ابن روح. أما أنا فقلت إن هذا من حيث الظاهر لا غير.»

و بعدئذ طلب الخليفة من ابن عبدوس و ابن عون أن يصفعا معلمهما. ففعل ابن عبدوس ذلك، و لكن ابن عون كان خائفا نوعا ما، و كانت يده ترتجف. و عوض أن يضرب الشلمغانى قبل لحيته و رأسه و صاح: «إلهى و سيدى و رازقى» فاندesh الخليفة و سأل الشلمغانى رأيه فى سلوك ابن عون. فأجاب الشلمغانى: «و ما على من قول هذا الرجل؟

الله يعلم أنى ما قلت أننى إله»^{٥٧٨}.

بعد ذلك انسحبت المحكمة و الخليفة للمشاورة، فوصل الخليفة و القاضى إلى نتيجة أن الشلمغانى مذب، فأعدم الشلمغانى و ابن أبى عون، و أحرقت جثتهما بالنار و ذر رمادهما فى نهر دجلة. و لكن ابن عبدوس برئت ساحتها.

وقع هذا فى ٢٢ ذى القعدة سنة ٣٢٢ هـ^{٥٧٩}. و فى نهاية الشهر نفسه أعدم الحسين بن القاسم فى مدينة الرقة، التى كان قد طرده إليها أخوه، و حمل رأسه إلى بغداد^{٥٨٠}.

و نهض البصرى خلفا للشلمغانى، و قال إن روحه قد حلت فيه^{٥٨١}، و جمع مالا كثيرا. و قد قدم لنا على أنه جبار متعطش للدماء، و قد تولى

ص: ١٥٦

^{٥٧٨} (٤٠) ابن الأثير، ج ٨، ص ١٠٠ و ما بعدها.

^{٥٧٩} (٤١) نفسه و ياقوت، ج ١، ص ٢٩٦، و الفرق بين الفرق، ٢٤٩؛ و جاء فى خندانى النوبختى، ص ٢٣٧: فى ذى القعدة ٣٢٢. و لكن هذا يقوم على سوء الفهم، و ذلك بسبب كلمة «خلت»، التى تعنى فى العربية «مضت» و لا تعنى «بقيت» كما فهم عباس إقبال.

^{٥٨٠} (٤٢) ابن الأثير ج ٨، ص ١٠٠ و ما بعدها.

^{٥٨١} (٤٣) ابن الأثير، ج ٨، ص ١٠٠ و ما بعدها، أحداث ٣٤٠ هجرية.

بنفسه قتل أغلب أعداء محسن بن الفرات بأمر من الشلمغاني. و كان الخصوم قد أرسلوا إلى البصرى بسبب ما لهم المزعوم، الذى كان عليهم أن يكشفوا له عن المكان المخبأ فيه، و لكنهم لم يعودوا، فقد قتلهم فى صمت و سرية تامة^{٥٨٢}.

و توفى البصرى الغنى الجبار، الذى كان يسكن فى بغداد، سنة ٣٤٠ هـ. و كان الوزير المهلبى، كما تمت الإشارة إلى ذلك سابقا، قد سمع بالأموال، إذ قيل إن البصرى قد خلف مبالغ كبيرة من تلك الأموال، التى كان يأخذها جباية من طائفته، فأمر المهلبى بالختم على تركة البصرى.

على أنه لم يجد فى الحقيقة إلا مالا يسيرا، و صودرت مع الأموال دفاتر فيها أشياء تتعلق بمذهب هذه الطائفة. و قد عثر هناك أيضا على أناس، ادعوا أن روح هذا القديس أو ذاك قد حلت فيهم، و اعتقد أحد الشبان أن روح على بن أبى طالب قد حلت فيه، و ادعت امرأة يقال لها فاطمة أن روح فاطمة ابنة النبى قد حلت فيها. و كان هناك خادم لبنى بسطام ادعى أنه الملك ميكائيل، فأمر بهم المهلبى فضربوا جميعا بسبب هذه الأحاديث، و نالهم مكروه كبير، و لكنهم أرسلوا إلى معز الدولة، الذى كان الشيعة كلهم تحت حمايته، من أخبره بأنهم كلهم من الشيعة. فأمر معز الدولة عقب ذلك بإطلاق سراحهم، فخاف المهلبى أن يعتبره معز الدولة معاديا للشيعة، و أطلق سراحهم^{٥٨٣}.

مذهب الشلمغاني

من المستحيل الآن تقديم عرض لمذهب الشلمغاني بناء على كتب أتباعه العزاقية، لأننا لا نملك كتبنا من هذا النوع. ثم إن أتباع الشلمغاني قد تشتتوا بعد موته مباشرة فى كل مكان. و كانت الأخبار التى وصلتنا،

ص: ١٥٧

سواء كانت شيعية أم سنية، معادية لهم. و لهذا فإن علينا أن نفترض أن هذه الأخبار محرقة، و أن هذا الفرض يجب أن يظل نصب أعيننا.

لقد تدرج الشلمغاني فى تطوير نظامه، فكما بدأ الحلاج، و النميرى، و ابن بلال و غيرهم اعتمادا على سابقهم، بدأ الشلمغاني كذلك بالادعاء بأنه سفير^{٥٨٤}، ثم ادعى أنه يشعر روح الإمام فيه، فى النهاية انتقل إلى تناسخ الأرواح و أعلن أنه إله الآلهة^{٥٨٥}. هكذا تقدم لنا المصادر الثانوية الشلمغاني.

^{٥٨٢} (٤٤) تجارب الأمم، ج ١، ص ١٢٣.

^{٥٨٣} (٤٥) ابن الأثير، ج ٨، تحت أحداث سنة ٣٤٠ هجرية، يذكر المؤلف هنا العزاقية باسم القراقية، و الشلمغاني بلقب ابن أبى القراق.

^{٥٨٤} (٤٦) الغيبة، ص ٢٥٨، و ابن الأثير، ج ٨، ص ١٠٠.

^{٥٨٥} (٤٧) الغيبة، ص ٢٦٥ و ما بعدها و المصادر المعروفة.

كان الشلمغاني يقول فيما نقل عنه إن الله مجرد فكرة، فكما يختلف الناس و تختلف مواهبهم الإدراكية، كذلك يختلفون من حيث فكرة الله فيهم: كل إنسان يحمل مفهوم الله في قلبه كما لو أنه يشاهده حقيقة.

والله اسم لفكرة عن كائن قادر من هذا النوع، و تبعا لذلك فكل إنسان، يحتاج إلى مساعدة قادر أو هو يتوقف على مساعدته، فلذلك يعد هذا الإنسان المتفوق عليه إلها بالنسبة إليه^{٥٨٦}.

و حقيقة قدرة الله تتمثل في خلقه، فالله في ذاته هو الحقيقة، و لكن أشكال الحقيقة متنوعة و مختلفة، فمرة تظهر مثلا في اللون الأحمر، و مرة أخرى في اللون الأبيض، و مرة ثالثة في اللون الأزرق، و مع ذلك فليس هناك سوى حقيقة واحدة. عند ما يحل الله في جسد أرضي، فإن الإنسان يعرف قوة الله و عظمته في آثار هذه القوى في جسمه و تأثيراتها.

الله يسكن في جميع الأشياء، و لكن بما أن الأشياء مختلفة، فإن مقياس ألوهيتها يتغير. و لذلك يشترك البشر في الله بمقياس مختلف،

ص: ١٥٨

و يقفون فوق درجات متفاوتة، من البسيط إلى الكامل فالأكمل، و قد احتفظ الشلمغاني بالدرجة الأخيرة لنفسه.

و مقياس قيمة الدرجة المفردة هو الفضيلة، أى مقياس روح الله، التي حلت في الإنسان. و كل درجة عالية، هي دائما أكمل من الدرجة السابقة، ثم إن الدرجة العليا ضرورية مطلقة بالنسبة إلى الدرجة السفلى، ذلك أن هذه تدين بوجودها لها و هي متوقفة عليها، إذ هي تعنى الله بالنسبة إليها. و لكن بما أن الدرجة العليا تتكون من أناس كثيرين، فإن السفلى يمكن أن تكون لها آلهة كثيرة في الوقت نفسه. و هذه بدورها ليست إلها بالنسبة إلى الدرجة التابعة لها إلى آخره. و الهرم كله يتجه إلى قمة، هي الشلمغاني نفسه، «إله الآلهة». عند ما خلق الله العالم، حلت روحه بجسد آدم، و كذلك في «شيطان» آدم^{٥٨٧}.

عند ما توفي آدم، قسمت روحه الإلهية إلى خمسة أقسام، توزعت مفردة على خمسة أجساد أرضية؛ و كذلك قسم شيطان آدم إلى خمسة أقسام، انضم كل منها إلى الجسد الأرضي المناسب. و اجتمعت أجزاء روح الله الخمسة من جديد في الجسد الأرضي للنبي إدريس و اجتمعت الشياطين الخمسة كذلك في شيطان النبي. و حدث الأمر نفسه بعد موت كل نبي كما كان بعد نهاية آدم. و نجدها قد اجتمعت بعد إدريس في نوح و شيطانه، و في هود و شيطانه، و بعده في صالح و شيطانه، الذي عقر ناقته، ثم في إبراهيم و شيطانه نمرود، و بعده في هارون و شيطانه فرعون، و بعده في المسيح و شيطانه، و بعده في محمد^{٥٨٨} و شيطانه، و بعده

^{٥٨٦} (٤٨) هذا المذهب عن نعم الله و ظهوره في الإنسان له شبه معين بمذهب الروحيات في الفلسفة اليونانية، ينظر أسفل

Unten W. Windelband, Lehrbuch der Philosophie, S. ٩٨١.

^{٥٨٧} (٤٩) أنظر تفاصيل عن مفهوم الشيطان فيما يتبع تحت.

^{٥٨٨} (٥٠) الغيبة، ص ٢٤٤.

فى على بن أبى طالب و شيطانه. و بعد هذا الأخير تنقلت روح الله المتحدة من جديد فى عقبه حتى الحسن بن على العسكرى، و بعد موته حلت بجسم الشلمغانى^{٥٨٩}، و بعده فى البصرى.

ص: ١٥٩

و لكل نبى حسب الشلمغانى عدوه، أى شيطانه. و فى القرآن نفسه توجد فكرة أن لكل نبى شيطانا^{٥٩٠}. و لكن الشلمغانى يمضى أبعد من ذلك بكثير: العالم كله يتكون من أضداد، و هذه الأضداد تستلزمها بعضها بعضا على التناوب؛ فكما لا يعرف الإنسان النور بدون ظلام و لا يميزه، فليس هناك كذلك فضيلة بدون شيطان. فالشيطان خلقه الله لتكشف به الفضيلة للقديسين و الأنبياء. و الشر طريق إلى معرفة الخير. و الطريق إلى الخير بواسطة الشر أكثر قيمة من الهدف، من الخير نفسه. فالضد، و ليس القاربة، هو الذى يجعلنا نعرف القيمة الحقيقية للشيء: كل القيم تحدد بناء على علاقتها بالضد. و الأضداد أقرب إلى الأشياء من أشباهها^{٥٩١}.
توجد فى الطوسى أبيات تعالج فكرة المضادة فى مثال عمر و على:

يا لا عنا للضد من عدى	ما الضد إلا ظاهر الولى
و الحمد للمهمين الوفى	لست على جال كحماى
و لا حجامى و لا جعدى	قد فقت من قولى على الفهدى
نعم و جاوزت مدى العيدى	فوق عظيم ليس بالمجوسى
لأنه الفرد بلا كيفى	متحد بكل أوحدى
مخالط النورى و الظلمى	و طالبا من بيت هاشمى
و جاحدا من بيت كسروى	قد غاب فى نسبة أعجمى
فى الفارسى الحسب الرضى	كما التوى فى العرب من لوى

ص: ١٦٠

وردت هذه الأبيات الواضحة، التى لا يتطرق إليها الشك، فى الغيبة، ص ٢٦٦، و يبدو أنها تعود إلى جو كانت فيه بعض المهن الوضيعة كما ذكرت فى الأبيات محتقرة مثل الحجام، كما يجد المرء ذلك فى نهاية العصر الوسيط بألمانيا على سبيل المثال، أو

^{٥٨٩} (٥١) ياقوت، ج ١، ص ٢٩٧، و ابن الأثير، ج ٨، ص ٥١ و ما بعدها.

^{٥٩٠} (٥٢) القرآن، سورة ٢٥، آية ٣١ (فى النسخة المصرية قران)

^{٥٩١} (٥٣) ابن الأثير، ج ٨، ص ١٠٠، إرشاد الأريب، ج ١، ص ٢٩٦ و ما بعدها، أبو الفداء، ج ٢، ص ٣٨٢، الذهبى، تاريخ الإسلام، ص ١٠٥ و ١١٩، المنتظم، ج ٢، ص ٥، و تاريخ الياقعى، ص ٤٩، روض المناظر، ص ١١١، ٣٢٨ و غيرها.

المريض أو الحمّامى أو غير ذلك. و فى الحالات المفردة هناك كلمات غامضة، و لكن معنى الكل يتكشف بسهولة: فهو يتصل، كما تمت الإشارة إلى ذلك، بمذهب الأضداد، و يمكن أن يوصف كما يلي على التقريب: «أنت يا من تلعن الضد من عدى، و ما الضد سوى المظهر الخارجى للولى».

و المقصود بال ضد من عدى هو عمر، و الولى هو على.

فى مسألة الأضداد هناك بين أتباع الشلمغانى رأيان، فبعض الناس يقولون إن الأضداد أو الصور المضادة قد قدرها الله منذ الأزل، و لكن أصحاب الظاهر ينكرون هذه الرأى و يدعون أن القديس نفسه هو الذى حدد شيطانه لهذه الغاية، لتتضح عن طريقه قداسته و فضيلته أمام الناس.

فقد قلد على بن أبى طالب مثلاً أبا بكر، منافسه، منصب الخلافة حتى تكون فضيلته أكثر إشعاعاً^{٥٩٢}.

و يرى ابن الأثير أن الشلمغانى و أتباعه لا ينسبون الحسن و الحسين إلى على، لأن علياً إله، و الإله لا ولد له. و لذلك طالب العزاقرية، أتباع الشلمغانى، بتنحية الطالبين و العباسيين^{٥٩٣}.

و يعتبر محمد و موسى عند العزاقرية محتالين، ذلك أن هارون أرسل موسى و علياً أرسل محمداً، و لكن الحواريين أساءوا استغلال ثقة من كلفهم بالأمر، و جعلوا محمداً عند ما ارتمى على مكان على ليكون نبياً.

فقد أمهل على محمداً و أعطاه لدينه ٣٥٠ عدة سنّى نوم أصحاب الكهف تماماً، و بعد هذا الوقت كان ينبغي أن يتغير دينه. و المكان الزمانى بين

ص: ١٦١

النبى و الشلمغانى يبلغ على التقريب ٣٥٠ سنة، و قد أراد بذلك الإشارة إلى أن وقت دينه هو قد جاء^{٥٩٤}. و يبدو أن المؤلف، الذى ندين له بهذه الرواية، قد أخطأ. و ما أكثر مؤرخى الديانات، الذين لا تخلو كتبهم من أخطاء، مثل ابن الأثير، مع أنه من الممكن أن يكون ابن الأثير قد غاب عن ذهنه أن يفرق بين الغلاة (المؤلهين لعلى) و بين العزاقرية (أتباع الشلمغانى).

و للملاك، و الجنة، و النار، عند الشلمغانى معان أخرى تماماً غير معانيها عند بقية المسلمين. فالملاك ما هو إلا إنسان يملك القدرة على معرفة الجيد و رفض الردىء. من كان على صلة بمثل هؤلاء «الملائكة»، فهو فى الجنة، أما من يعيش على العكس من ذلك بعيداً فى ظلام الكفر، فهو فى الحقيقة فى النار الحامية^{٥٩٥}.

^{٥٩٢} (٥٤) الغيبة، ص ٢٦٦.

^{٥٩٣} (٥٥) ابن الأثير الكامل، ج ٨، ١٠١ و ١٠٢ و أبو الفداء، نفسه، ج ٢، ص ٣٨٦.

^{٥٩٤} (٥٦) خندانى النوبختى، ص ٢٢٦.

^{٥٩٥} (٥٧) ابن الأثير، ج ٨، ص ١٠١، و أبو الفداء، ج ٢، ص ٤٨٦، ثم روض المناظر، ص ١١١ فى هامش الجزء الثامن لابن الأثير.

لا يكاد يوجد في الكتب التاريخية الدينية خبر واحد يتهم الشلمغاني و أتباعه فحسب، وإنما يتهم جميع العقائد الأخرى أيضا، بأن هذه الطوائف، التي تعلن الحرب عليها، لا تعترف لا بالصلاة و لا بالصوم و لا بالوضوء^{٥٩٦}. و قد بررت الطوائف سلوكها بأن النبي كان قد عمل في زمن كانت تسوده ظروف أخرى، لذلك يجب أن تتغير الآن الأشكال العقائدية^{٥٩٧}.

و يبدو أن الفلسفة و الدين قد امتزجا في مذهب الشلمغاني، و يلاحظ المرء فوق ذلك أن المؤرخين قدموا أفكار فرق أجنبية عن قصد أو عن غير قصد بوصفها آراء العزاقرية، حتى إنها تتوافق أحيانا مع آراء

ص: ١٦٢

الشلمغاني، على أنها تتناقض معها في بعض الأحيان أيضا، و من الواضح أن المقارنة بين آراء معتقدات المختلفة يمكن أن تصبح موضوعا لدراسة علمية مثمرة.

يقول الطوسي إن أتباع الشلمغاني يمثلون رأى القائم، الذي لا يعدو أن يكون عند الأثنى عشرية وصفا إلى جانب أوصاف أخرى تتصل بالإمام الثاني عشر، و ما هو إلا رمز إلى ثورة الشيطان، كما قدم لنا في القرآن بعد أن عرضت الملائكة عبادة الله، و لكنه رفض السجود، فحقت عليه لعنة الله و إجابته، و وضعه على طريق المؤمنين الضالين ليكون غاويا لهم، و ذلك ما تم الإعلان عنه بالنسبة إلى زمن قادم^{٥٩٨}.

مؤلفات الشلمغاني

كان الشلمغاني ذا مواهب فكرية عظيمة، حتى إن كتبه، التي كتبت بأسلوب رائع، انتشرت في كل البيوت الشيعية و اشتهرت بعد انفصاله عن الشيعة و بعد اللعنة الكبرى التي حلت به. و كانت تجد طريقها إلى كل مكان، حتى إن السفير رأى أيام أزمة الشلمغاني أن منعها لا فائدة منه و اكتفى بأن طلب من طائفته اختيار ما يتناسب من آراء الشلمغاني مع عقيدة الشيعة^{٥٩٩}، فأصبح الشيعة في وقت متأخر يرجعون أيضا إلى نصوص من كتبه لاستعمالاتهم الخاصة. و من المؤسف أن كتبه لم تصلنا، و قد عاشت بعده أكثر من قرن، فقد قرأها المفيد و الطوسي حسب شهادتهم و استفادوا منها^{٦٠٠}، و بعد الطوسي لم نعد نسمع شيئا عن كتبه و لا عن أتباعه.

ص: ١٦٣

و الكتب التالية هي، حسب ما تشهد به التراجم، كتب الشلمغاني:

^{٥٩٦} (٥٨) الغيبة، ص ٢٦٦.

^{٥٩٧} (٥٩) ابن الأثير، ج ٨، ص ١٠٠ و ما بعدها.

^{٥٩٨} (٦٠) الطوسي، الغيبة، ص ٢٦٦؛ عن تاريخ عناد إبليس تنظر سورة (ص)، أى سورة ٣٨، آية ٧١ إلى نهايتها.

^{٥٩٩} (٦١) الغيبة، ص ٢٥٤.

^{٦٠٠} (٦٢) منهج المقال، ص ٣٠٨، و خلاصة المقال في معرفة الرجال، مادة محمد بن علي الشلمغاني.

(١) كتاب الأوصياء؛ و الكتاب كما يفهم من عنوانه يعالج الأئمة؛ و يبدو أنه كتب قبل أن يتم الفراق بين الشلمغانى و السفير. و يقتبس الطوسى من الكتاب فقرتين، إحداهما تتحدث عن موت الإمام الحادى عشر^{٦٠١}، و الثانية عن ميلاد الإمام الثانى عشر^{٦٠٢}.

(٢) كتاب الغيبة، و العنوان يدل على أن موضوع الكتاب هو غيبة الإمام الثانى عشر، و قد بقى حتى زمن الطوسى، الذى استعمله. و يبدو أن الكتاب قد كتب فى الزمن الأول بعد سقوط الشلمغانى، فنحن نجد فى الغيبة للطوسى اقتباسا من كتاب الشلمغانى، يقول فيه: «إن الذى تسبب فى الخلاف بينى و بين الرجل المذكور - كثر الله من سعاداته - هو ذنبى أنا حقا، و لكنه أغوانى»^{٦٠٣}. نستخلص من هذه الجملة أن الشلمغانى قد حاول مرة أخرى أن يخفف من حدة كلامه.

(٣) كتاب التكليف؛ و الكتاب يعالج الشريعة فى الإسلام. و قد قرأ الكتاب المفيد و ابن بابويه أو عبد الله الحسين بن على و قالوا إنه لا تظهر فيه سوى فقرة واحدة، يقول فيها الشلمغانى ما لم يقله الإمام: إذا كان لأخيك فى الدين حق ضد شخص ثالث و رفض هذا الشخص أن يعطيه حقه، و لكن أخاك فى الدين كان له شاهد، فإنك تستطيع، إذا كان للشاهد سمعة طيبة، أن تذهب إليه ليقدم لك شهادته و تقف بها أمام القاضى حتى لا يضيع حق أخيك فى الدين^{٦٠٤}. و يقال إن هذا الكتاب ألف عند ما لم يكن هناك نزاع بين الشلمغانى و بين السفير الثالث. و قد

ص: ١٦٤

تعود الشلمغانى أن يقرأ على السفير كل فصل، و بعد أن يصححه إلى نهايته يقرأ الكتاب على المستمعين ليكتبوه، و بذلك يكون التأليف للسفير نفسه^{٦٠٥}.

على أنه يبدو لى أن هذا العرض الذى قدمه الطوسى ليس صحيحا:

لقد ألف الكتاب بعد انفصال الشلمغانى عن السفير، و ليس قبل ذلك، فالطوسى يقول فى موضع آخر إن السفير الحسين بن روح قد طلب كتاب الشلمغانى عند ما سمع به، لينظر فيه، فقرأه كله و حكم عليه بأنه على ما يرام، «باستثناء فقرتين اثنتين أو ثلاث فقرات، يكذب فيها الشلمغانى على الأئمة - عليه لعنة الله لهذا»^{٦٠٦}. و من هنا فإن الكتاب قد كتب بعد سقوط الشلمغانى، و يصبح دليلنا أكثر وضوحا عند ما نعلم أن هذا الخبر المذكور كان قد رواه روح بن أبى القاسم، أى إلى ولد السفير^{٦٠٧}.

^{٦٠١} (٦٣) الغيبة، ص ٢٢١.

^{٦٠٢} (٦٤) نفسه، ص ١٥٨، بحار، ج ١٣، ص ١٥٢.

^{٦٠٣} (٦٥) نفسه، ص ٢٥٥، و بحار ج ١٣، ص ١٥٢.

^{٦٠٤} (٦٦) الغيبة، ص ٢٦٧، و بحار، ج ١٣، ص ١٥٢، و خلاصة الحلى تحت مادة محمد بن على الشلمغانى، ثم منهج المقال، ص ٣٠٨.

^{٦٠٥} (٦٧) الغيبة، ص ٢٥٤، بحار، ج ١٣، ص ١٥٢.

^{٦٠٦} (٦٨) الغيبة، ص ٢٦٧، بحار، ج ١٣، ص ١٥٢.

^{٦٠٧} (٦٩) الغيبة، ص ٢٦٧، بحار، ج ١٣، ص ١٥٢.

و يؤيد ظننا أكثر شهادة الرجلين المذكورين، و هما المفيد و ابن بابويه. فلو كان الكتاب قد كتب قبل إحداهما الشلمغاني، فإن الرجلين ما كانا ليتحدثا عن الكذب، لأن السفير كان قد صحح الكتاب و قام بتسجيله في الوقت نفسه عدد من رجاله.

(٤) كتاب الحاسة السادسة. و قد وضع الكتاب، فيما يراه المؤرخون، لشرح مذهبه الديني الجديد، و كان بالنسبة لأتباعه إنجيلا على نحو ما، لكننا - للأسف - لا نعرف منه سوى العنوان، و لا نجد في المؤلفات الأخرى أى اقتباس منه^{٦٠٨}.

زيادة على هذه الكتب الأربعة الأساسية نعرف له ١٤ عنوانا آخر، و لكن العناوين لا تتم عن شىء من مضامين هذه الكتب، و في وسع المرء

ص: ١٦٥

قراءة عناوينها في ترجمة الشلمغاني^{٦٠٩}. و تتضمن الكتب التالية أخبارا عن الشلمغاني: منتهى المقال، ص ٢٨٣، منهج المقال، ص ٣٠٨، خلاصة المقال في معرفة الرجال، مادة محمد بن علي الشلمغاني، ثم الفرق بين الفرق، ص ٢١٥، ٢٤١، ٢٤٩ (و سيكثر المرء في كثير من الحالات على أخطاء تاريخية)، الآثار الباقية، ص ٢١٤، تجارب الأمم، ج ٥، ص ١٢٣، فهرست الطوسي، ص ٣٠٦، تاريخ الياقعي، ص ٤٩، تاريخ الإسلام للذهبي، ص ١٠٥، و كتاب المنتظم لابن الجوزي، ص ٥٣، أحداث سنة ٣٢٢ هـ و ص ١١٩ في خلاصة، يذكر فيها الشلمغاني بوصفه مؤسسا لمذهب شيعي جديد. و هناك دراسة بالروسية، ذكرها في Islamica، كتبه J. Goldziher، A. Fischer، ed. Brunlich، Lipsiae MCMXXII، و كذلك محاضرات ي. غولدتسيهر J. Goldziher، عن الإسلام، ٢٨٣، ٧٥٣، ٥٧١، s، Heidelberg.

ص: ١٦٧

الفصل الثامن تطور علم التوحيد عند الشيعة بشكل عام قبل الغيبة الصغرى و خلالها

وضع في عصر الغيبة الصغرى أولا الأساس لعلم التوحيد الشيعي الموحد. صحيح أنه كان هناك قبل هذا الوقت عدد كبير من الكتب و الآلاف من طلاب العلم، الذين درسوا على الأئمة^{٦١٠}. فقد روى أن أربعمئة كتاب من الأحاديث الشفوية كانت جمعت من الإمام السادس وحده أو من الإمام الأول إلى الإمام الحادى عشر، و عرفت المجموعة باسم الأصول الأربعمئة^{٦١١}. و قد أجرى العلماء و طلاب العلم مجادلات كثيرة مع طوائف أخرى. و نحن نعرف أسماء كثير من الكتب، التي عالجت في ذلك الحين

^{٦٠٨} (٧٠) أنظر الآثار الباقية، ص ٢١٤، و خانداني النوبختي، ص ٢٢٨.

^{٦٠٩} (٧١) النجاشي، الرجال، ص ٢٦٨، و خانداني النوبختي، ص ٢٣١.

^{٦١٠} (١) الشيعة و فنون الإسلام، ص ٣٢، ٤٣، و انظر فهرست الطوسي و رجال النجاشي و كذلك كتب التراجم الشيعية، التي توضح كل هذه الوفرة من الكتب، خصوصا عن الإمامة.

^{٦١١} (٢) الشيعة و فنون الإسلام، ص ٣٢، ٤٣، و خانداني النوبختي، ص ٧١، و كتاب أعيان الشيعة، ج ١، ص ١٦٩؛ و كلمة الأصل تعني «النص»، الذي يعود إلى الإمام، أى دون تدخل أجنبي أو حتى بشكل مباشر، ينظر عن ذلك رجال أبي علي، ص ١١.

مشاكل توحيدية حيوية مثل الإمامة، والاختيار و صفات الله و غير ذلك. و لكن أساسا إجماليا ثابتا للمذهب الشيعي، يقوم على مبادئ علمائهم المشتركة مثل مسلّمات المعتزلة لم يكن موجودا

ص: ١٤٨

فى ذلك الحين. و لم تظهر عند العلماء ضرورة صياغة إقامة مبادئ لعلم التوحيد مصاغة بشكل واضح إلا فى عصر الغيبة الصغرى، و لذلك تستحق هذه الفترة اهتماما خاصا.

يختلف الشيعة السنة أساسا فى الحديث: فالشيعة يقولون إن ما نطق به الإمام له نفس القيمة التى لأحاديث الرسول. و الإمامة يحددها الله، و لذلك يجب على الشيعة أن يطلبوا لفعلمهم و تركهم الإذن من الإمام.

و يتواصل صف الأئمة حتى الغيبة الصغرى، و هكذا كان تطور علم التوحيد مرتبطا بذلك النسق أيضا. و كانت للحديث عند الشيعة حدود زمنية أخرى على خلاف ما هو عليه الأمر عند السنة. يجب عند أهل السنة أن ينسب كل حديث إلى النبى نفسه، بينما ينسب عند الشيعة إلى واحد من الأئمة فقط، و لم يمت الإمام الحادى عشر إلا فى سنة ٢٤٠ هـ.

عند ما نتأمل التطور الذى حدث فى العلم الشيعي، فإننا نجد أن الإمامين الخامس و السادس، محمد الباقر و جعفر الصادق، قد تدخلوا فى أيامهما بنفسيهما فى الجدل مع طوائف أخرى. و معظم الأحاديث، التى نملكها، تنسب إلى هذين الاثنين، خصوصا الأخير منهما. كان جدلها نموذجيا بالنسبة إلى الشيعة، حتى إنهم قلدوها^{٦١٢}، و قد وصلتنا أمثلة من هذا الجدل^{٦١٣}.

لم يكن فى استطاعة الإمام أن يقوم بهذا الجدل الكلامي بنفسه، فقد كان العالم الإسلامى كبيرا، و كانت الطوائف الشيعية موزعة على مسافات بعيدة. كان لا بد أن يتصدى شخص ما للدفاع عن المصالح الشيعية أمام الأعداء و أن يناقشهم و يجيبهم جوابا مفحما عند ظهور أى أمر من الأمور غير المتوقعة. فكما أخذ المعتزلة على عاتقهم الكشف عن الملحدين و المنافقين و أعداء الإسلام، كذلك نشأ رجال نشيطون شجعان متحمسون

ص: ١٤٩

من بين صفوف طلاب العلم و أخذوا على عاتقهم الدفاع عن نقاوة المذهب الشيعي، و أخذوا يناضلون ضد أعدائه من غير الشيعة.

كان لا بد فى هذا الكفاح من وجود أساس عقائدى مشترك. كان الأساس الوحيد فى الأصل آئذ هو فكرة الإمامة، و كانت نظرية الإمامة باعنا أساسيا على الجدل بين الشيعة و الشيعة و بين الشيعة و غير الشيعة.

^{٦١٢} (٣) خندانى النوبختى، ص ٦٩.

^{٦١٣} (٤) ينظر الشهرستانى، ص ١١٦، ١١٧، ١٢١، و خندانى نوبختى، ص ٧٠ و ما بعدها.

حدث ذلك بين الشيعة و الشيعة، لأنهم لم يكونوا في أغلب الأحيان متفقيين في الداخل على شخصية الإمام، و في الخارج على عقيدة الأئمة على الإطلاق. و لم يكن يصلح للدفاع عن هذا المذهب سوى رجل يعرف كيف يستخدم السلاح نفسه مثل أعدائه، و يستطيع أن يستعمل أنواعا مختلفة من وسائل الكفاح: كانت أحاديث الأئمة كافية عند الجدل بالنسبة إلى الشيعة أنفسهم، لكن الكفاح ضد الطوائف الأجنبية كان يتطلب براهين و أدلة أخرى. لم يكن في يد المعتزلة غير سلاحهم الجديد، و هو علم الكلام. على أن ذلك لم يكن ممكنا بالنسبة إلى جميع المدافعين عن مذهبهم أن يراجعوا الإمام في كل مرة باعتباره رئيس الطائفة و العالم بكل أمر من أمور الناس. كانوا يسكنون بعيدا عن الإمام، و كانت المجادلات تنشب في بعض الأحيان فجأة، فكان عليهم أن يعينوا من يمثلهم فيها، و أن يعملوا كل ما في وسعهم. فكما يصحح المعلم لتلاميذه، كان الإمام ينتقد دفاع العلماء، الذين يقدمونه له بعد الجدل شفويا أو كتابيا. و لكن تصحيح الإمام كان في بعض الأحوال يصل متأخرا بسبب البعد و سوء المواصلات، فتنفى بذلك إمكانية الاستفادة منه.

كانت الآراء و الدرجات العلمية، زيادة على اختلاف الناس و عجزهم، مختلفة جدا عند من كانوا يتصدون للدفاع عن المذهب الشيعي. كان المنافقون يتصرفون تصرف الشيعة، و يصوغون أفكارهم في أثواب شيعية لينشروا إلحادهم محتمين باسم الشيعة^{٦١٤}. و كان المولعون

ص: ١٧٠

بالتجارة يبحثون عن الاستفادة من أحاديث الإمام الصحيحة و غير الصحيحة، و إنه لمن الممكن إلى حد ما تفسير كثرة الأحاديث على أساس ما كان لدى هذه العناصر من رغبة في الربح^{٦١٥}. فكان العلماء يقومون بكثير من الغيرة و الطموح على حراسة هذه الأحاديث، التي كانوا يحصلون عليها، ليظهروا لجميع الناس مكانتهم عند الإمام^{٦١٦}. و نتج عن هذه الغيرة الشخصية أن الرجل نفسه كان كثيرا ما يشيع أقوالا من المدح و الذم منسوبة إلى الأئمة، فتسبب هذا التمزق في وضع أحاديث كثيرة حتى إن الطوائف الصغيرة نالت من ذلك الشيء الوفير^{٦١٧}. و لما كانت هذه الأحاديث لا تنقل إلا عن طريق الرواية الشفوية و كان التزوير سهلا ميسورا، فقد لعنت أهل السنة بخيرهم و شرهم^{٦١٨}. لذلك كان الإمام يريد أن تأخذ الأحاديث عن شخصه بحذر و لعن كل من يشيعون الكذب عنه^{٦١٩}. و أمر علماءه ألا يبعدوا عند المجادلات عن أمرهم و عن علمهم، و ألا يرضوا غرورهم حتى لا يساء استعمال اسم الشيعة^{٦٢٠}.

^{٦١٤} (٥) خندانى النوبختى، ص ٦١ و ما بعدها، و فهرست الطوسى، ص ٣.

^{٦١٥} (٦) بحار، ج ١، ص ١٩٥، و الكافى، ص ...

^{٦١٦} (٧) خندانى نوبخت، ص ٧٢.

^{٦١٧} (٨) خندانى النوبختى، ص ٧١ / ٧٢.

^{٦١٨} (٩) خندانى النوبختى، ص ٧٢، و كتاب الانتصار، ص ١٣٤، و تبليس إبليس، ص ١٠١.

^{٦١٩} (١٠) خندانى النوبختى، ص ٧٢.

^{٦٢٠} (١١) كشى، ص ١٢٦.

كان الإمام الصادق، الذي عاش في زمنه معظم العلماء، قد طلب من كل واحد منهم أن يتخصص في ميدان معين، فأوكل علم الفقه إلى زرارة بن أعين^{٦٢١}، و علم الكلام إلى مؤمن الطاق، و مسألة الاختيار إلى الطيار، و مسألة التوحيد إلى هشام بن سالم الجواليقي، الجواليقي، و مسألة الإمامة إلى هشام بن الحكم^{٦٢٢}. و لم يكن لهذا التقسيم معنى طبعاً إلا في حالة

ص: ١٧١

واحدة، عند ما يأتي شخص إلى الإمام للمناظرة. و عندئذ كان الإمام يرسله إلى واحد من نوابه، أما في الخارج و بعيداً عن الإمام فكان على العالم أن يكون قادراً على الدفاع في جميع الميادين.

ليست الإمامة وحدها، و إنما كانت هناك أيضاً مسائل أخرى تشغل الألباب، و تخالج النفوس، خصوصاً مسألة التوحيد، و الاختيار، و التشبيه و صفات الله. و هذه الأسئلة المجردة الصعبة تتصل بعلم التوحيد مثلما تتصل بالفلسفة، و لم يكونا في ذلك الحين منفصلين، و إنما كان ينظر إليهما على أنهما معا «العقيدة». لم يكن في وسع العلماء أن يسافروا إلى الإمام كلما أخذ الجدل اتجاهاً آخر، فكان على كل واحد منهم أن يحاول تلقائياً قدر استطاعته التغلب على هذه المصاعب بشكل مستقل دون مساعدة زملائه، لأن عزة نفوسهم لم تكن بها حاجة إلى البحث عن النصيحة عند أولئك الزملاء.

لم تكن هناك في مثل هذا المشاكل حلول مقنعة بطبيعة الحال، فقد كان لكل واحد منهم رأيه الخاص، و دامت هذه الحالة من البلبلة حتى الغيبة الصغرى. كان كل واحد منهم يتهم الآخر و يلعنه، فواحد يؤمن بالاختيار، و الآخر يؤمن بالجبر. لكن الإمام أوضح لهم مرة أن هذه الاختلافات في الرأي ليست جوهرية، فالمسألة الرئيسية هي أنهم كلهم يؤمنون بالإمام و يتوجهون إليه بالسؤال^{٦٢٣}. و هكذا فإن الشيعة كانوا أحراراً في أفكارهم جميعها، على أنه لا يحق لآرائهم هذه أن تكون مناهضة للإمامة، التي تعد المقوم المكمل للمذهب الشيعي.

الواقع أننا نجد الحديث، الذي يمكن الاعتماد عليه فيما يتصل برأى الشيعة في طبيعة الإرادة الإنسانية و جوهر الله، في كتاب الكافي و كتب الحديث الأخرى. و لكن أحاديث الشيعة اختلفت كما اختلفت أحاديث غير الشيعة، و كان ذلك حدث بشكل مفاجئ بحيث كثيراً ما تكون كذلك

ص: ١٧٢

مع الاختيار و ضده^{٦٢٤}. على أن هذا الاتجاه قد ظل فيما يبدو قائماً حتى زمن الإمام الثاني عشر: ليس الاختيار و لا هو الجبر، و إنما هو منزلة بين المنزلتين. كان هذا رأى الأئمة، خصوصاً جعفر الصادق فيما يتصل بهذه المسألة^{٦٢٥}. على أن آراء الشيعة

^{٦٢١} (١٢) ينظر Der Islam, XIX, ص ٢٢١

^{٦٢٢} (١٣) منهج المقال، ص ٣٦٥، و انظر Der Islam, Strothmann.

^{٦٢٣} (١٤) الكافي، ص ٢١٠ و ٢٣٩.

^{٦٢٤} (١٥) عن اختلافات الشيعة في مثل هذه لمساائل ينظر الشافعي، ص ٧٦، ٢١٠، ٢٣٩ و في عدد كبير من الفقر.

^{٦٢٥} (١٦) الكافي، ص ٧٦، و ٥٥، و الشهرستاني، ص ١٢٥، ثم مجمع البحرين، ص ٣٧٢.

مختلفة هنا أيضا، و لا يمكن العثور على خط موحد. و دام هذا الجدل حتى ما بعد زمن جعفر الصادق، فقال بعضهم بالاختيار و بعضهم الآخر بالجبر^{٦٢٦}. و الواقع أن الشيعة لم يختلفوا في هذه المسألة فقط، و إنما اختلفوا أيضا في كثير من المشاكل الفقهية و الكلامية. كان الانقسام سمة علم التوحيد الشيعي في ذلك الحين و استمر حتى الغيبة الصغرى، التي اقتضت الظروف فيها إيجاد أساس مشترك من العقائد.

كما لم نجد بعد موت النبي مباشرة اتجاهها سائدا في علم التوحيد، فإننا لم نجد كذلك في عصر الأئمة حتى بداية الغيبة الكبرى صورة من الوضوح العقائدي. فصحابة النبي و العلماء المسلمون الأوائل في أيام النبي و بعده بقليل لم يتفقوا على كل مسائل التوحيد: كان لكل واحد منهم رأيه الخاص، و إن هم اتفقوا على أساس الإسلام، و كان الشيعة في الوضع نفسه. فلا يكاد يكون من الممكن كتابة علم توحيد شيعي، لأن الأمر لا يتعلق بنظام متطور بشكل منطقي، و إنما كان يتعلق بأنظمة العلماء المختلفين في الرأي. و كتاب التراجم وحدهم هم الذين كانوا يظهرون آراء العلماء، و لكننا لا نستطيع أن نوضح أنظمتهم على أساس عصرهم أو نستنبطه منه. فدراسة العلماء و مذاهبهم على انفراد هي التي سمحت لنا بمعرفة الوضع العلمي في ذلك الحين. و لكن ميزة عصرهم لا توضح لنا،

ص: ١٧٣

على النقيض من ذلك، اتجاهاتهم العلمية. و الرجال الموالون يظهرون لنا الحركات العلمية قبل الغيبة الصغرى.

زرارة بن أعين

(توفي سنة ١٥٠ هـ)

كان زرارة بن أعين عتيقا من أصل يوناني، و أتقن اللغة العربية حتى إنه أصبح فيما بعد شاعرا و فقيها في الوقت نفسه و من الأتباع الكبار لجعفر الصادق. و يقال إنه تلقى الثناء الكثير من الإمام، و لكنه ذكره بسوء أيضا، و يبدو أن هذا القول يركز على وشاية. فالماخذ تنسب إلى محمد بن عيسى العبيدي، الذي لم تبرأ ساحته هو الآخر^{٦٢٧}. كان لزرارة أعداء، روى للإمام عنه أشياء غير صحيحة، فانخدع الإمام، و وجه اللوم، فيما يقال، إلى زرارة^{٦٢٨}، و قد زعم البعض أنه قال إن الله جسم صلب^{٦٢٩}.

يقدم ه. ريتزر H. Ritter في كتابه «التعاليم العقائدية لأتباع الإسلام»

Die dogmatischen Lehren der Anhänger des Islams, ٢٢ s

^{٦٢٦} (١٧) الكافي، ص ٧٦.

^{٦٢٧} (١٨) منهج المقال، ص ١٤٢، ١٤٨.

^{٦٢٨} (١٩) الكشي، ص ٩٧.

^{٦٢٩} (٢٠) تبصرة العوام، ص ٤٢٢.

المصادر التالية عن زرارة بن أعين: الفهرست، ص ٢٠٢، أصول الدين، ص ٩٣، ٩٥، السمعاني، الأنساب، ص ٢٧٢، فهرست الطوسي، ص ١٤١، خلاصة الأقوال، ص ٣٨، منهج المقال، ص ١٤٢، منتهى المقال، ص ١٣٥، مجالس المؤمنين، ص ١٤٣، نام-ي- دانشوران شروان، ٦، ص ٧٧-٨٤، ميزان الاعتدال، ص ١٩، ٣٠٩، Der Islam، ٢٢٤-٦.

و ينبغي إضافة المصادر التالية: الكشي، ص ٨٨-١٠٧، تبصرة العوام، ص ٤٢٢، الخلاصة، ص ١٠٩، و انظر أيضا شتروتمان، الإسلام، ٥٢٢ ff، s، XIX، Der Islam.

ص: ١٧٤

أبو جعفر مؤمن الطاق

(توفي في منتصف القرن الثاني للهجرة) نشأ أبو جعفر مؤمن الطاق في مدينة الكوفة، و هي المركز القديم للشيعة، و كان يعمل في مكتب صرافة في طاق المحاميل^{٦٣٠}. و كان يكرس أوقات فراغه للدفاع عن المذهب الشيعي، فصار غير الشيعة يطلقون عليه اسم شيطان الطاق^{٦٣١}، و كذلك فعل أعداؤه داخل المذهب الشيعي حسب شتروتمان، الإسلام، ص ٢٢٣. لقد اشترك أبو جعفر في كثير من المجادلات مع غير الشيعة، منها مثلاً مجادلته مع أبي حنيفة.

و يجد المرء بين مناهجه في النضال فن قلب معاني الكلمات و الميل إلى النكتة، التي يسخر بها من خصومه بشكل مضحك، و بذلك ينحاز الضاحكون إلى جانبه.

و لما لم يكن هناك أساس مشترك للشيعة في ذلك الحين، و كانت ضرورة الدفاع عن مذهبهم تظهر فجأة، فإن بعض الكلمات كانت لذلك تخرج من فم مؤمن الطاق، يرفض قبولها الشيعة، و لكنه لم يكن قد تعود على سحب كلمة قالها^{٦٣٢}. و لذلك كانت لخصومه فرص عديدة لمؤاخذته على هذه الكلمة أو تلك و لإطلاق اسم شيطان الطاق عليه.

بعد موت جعفر الصادق نشأ نزاع كبير بين الشيعة حول من يخلفه.

فقد أيد مؤمن الطاق ابن جعفر الصادق، موسى، بوصفه الإمام الشرعي، و دعا له و أرسل الشيعة إليه. و لما كان عبد الله، أخو موسى^{٦٣٣}، يطالب بالخلافة لنفسه، فقد ألّب خصومه أيضا الناس على معارضة أبي جعفر

ص: ١٧٥

^{٦٣٠} (٢١) منهج المقال، ص ٣١٠، الشيعة و فنون الإسلام، ص ١٢، و خانداني النوبختي، ص ٧٧؛ جاء في ضحى الإسلام خطأ أن الطاق حي من أحياء بغداد(ينظر ضحى الإسلام، ج ٣، ص ٢٧٠).

^{٦٣١} (٢٢) منهج المقال، ص ٢١٠، شتروتمان، نفسه، ص ٢٢٣.

^{٦٣٢} (٢٣) نفسه، ص ١١١.

^{٦٣٣} (٢٤) منهج المقال، ص ٣٦٦ (خبر تام عن كل الأشياء المذكورة).

مؤمن الطاق و الافتراء عليه. فاتهموه بتشبيه الله أو حملوه القول بأن الله نور، ولكنه في صورة الإنسان. على أنه لم يكن هناك في ذلك الحين مذهب مجمل ثابت عن صفات الله، ولذلك اتخذ خصوم أبي جعفر من هذا نقطة للهجوم عليه^{٦٣٤}.

و الظاهر أنه لم تكن بينه وبين الفقيه الكبير هشام بن الحكم صداقة متينة، لذلك كتب هشام في الرد عليه مثل الآخرين. وقد كتب أبو جعفر مؤمن الطاق نفسه كتباً كثيرة، معظمها عن الإمامة.

عن مؤمن الطاق، ينظر ريتير، المرجع المذكور: فرق الشيعة، ص ٦٦، الفهرست، ص ١٧٦، رجال الكشي، ص ١٢٢-١٢٦، نضد الإيضاح، ص ٣٠٨، منهج المقال، ص ٣١٠، منتهى المقال، ص ٢٨٤، مجالس المؤمنين، ص ١٤٧، بحار، ج ١١، ص ٣٠٨، ٢٢٤-٢٢٥ و ٢٢٨، الوافي للصفدي، عيون الأخبار، ج ٢، ص ٢٠٣، أخبار الظراف و المتماجنين لابن الجوزي، ص ٣٤-٣٥.

و يذكر خندانى نوبختى المصادر التالية: رجال النجاشي، ص ٢٢٨، فهرست الطوسي، ص ٣٢٣، ابن أبي الحديد، ج ١، ص ٢٩٤، و كثيرا ما يذكر اسم مؤمن الطاق في المصادر التالية: الشهرستاني، الفرق بين الفرق، مقالات الأشعرى، الانتصار، و ابن حزم الفصل. لا يذكر كل من ريتير و عباس إقبال: ضحى الإسلام، ص ٢٦٩-٧١، معالم العلماء، ص ١٢، خندانى النوبختى، ص ٧٧، ٢٥٨، و أنساب السمعاني، ورقة ٣٤٦ أ.

هشام بن سالم الجواليقي

(توفي في منتصف القرن الثاني للهجرة)

كان هشام بن سالم الجواليقي صديقا و معاصرا لمؤمن الطاق،

ص: ١٧٦

و كانت له علاقة متينة بالإمام موسى بن جعفر. و قد أقام مع مؤمن الطاق فترة طويلة في المدينة و بحثا عن الإمام الجديد. و لما لم يقدم له عبد الله بن جعفر علامة معجزة برهانا على إمامته، ذهب إلى موسى بن جعفر، فنجع هناك، و لذلك اعترف به بوصفه إماما شرعيا^{٦٣٥}. فنشر عبد الله بن جعفر افتراءات كاذبة عن هشام بن سالم الجواليقي مثلما فعل مع مؤمن الطاق، و كان هذا من الأسباب، التي جعلت بعض الناس يوجهون التهم إلى هشام بن سالم دون التأكد من صحة ما قيل عنه^{٦٣٦}. و قد اختلف هشام بن الحكم (أنظر تحت) مع هشام بن سالم حول مسألة التوحيد و مشكل الصفات الإلهية^{٦٣٧}. و قد نشر هشام بن الحكم أيضا كتباً رد فيها على مؤمن الطاق و هشام بن سالم.

^{٦٣٤} (٢٥) خندانى النوبختى، ص ٧٨، الانتصار، ص ٥٨؛ يذكر الطوسي، الفهرست، ص ١٧٦، أن هشام بن الحكم قد وضع كتاباً في الرد عليه.

^{٦٣٥} (٢٦) مجالس المؤمنين، ص ٧٣.

^{٦٣٦} (٢٧) نفسه.

^{٦٣٧} (٢٨) منهج المقال، ص ٣٦٦.

تحدثنا الكتب التاريخية الدينية أن هشام بن سالم كان يقول بالتنبيه و له رأى خاص فى إرادة الله و إرادة الإنسان. على أنه لم يعبر عن هذا رأى عند ما تقدمت به السن و تجنب الحديث عن ذلك حتى يوم وفاته^{٦٣٨}. عن الجواليقي نقراً عند ريتز، ص ٥٢، المصادر المذكورة على النحو الآتى: الوافى للصفدى و الإسلام ١٩، ص ٢٢٢-٢٢٣.

يضاف إلى ذلك حسب خندانى نوبختى، ٧٨: رجال الكشى، ص ١٨١-١٨٤، رجال النجاشى، ص ٣٠٥، فهرست الطوسى، ٣٥٦، فرق الشيعة، ص ٦٦، أصول الكافى، ٣٧، ابن أبى الحديد، ج ١، ص ٢٩٤، بحار، ج ٢، ص ١٤٣-١٤٥، الانتصار، ص ٦ و ٥٧، ثم مواضع متفرقة فى الشهرستانى، ابن حزم، و فى الفرق بين الفرق.

و لم يذكر فى الاثنين منهج المقال، ص ٣٦٦، و مجالس المؤمنين،

ص: ١٧٧

ص ٧٣. الفهرست، ص ١٧٦، الخلاصة، مقالة هشام بن سالم، و تبصرة العوام، ص ٤٢٢.

هشام بن الحكم

(توفى سنة ١٧٩، ١٩٩ هـ أو بعد سنوات قليلة)

ولد فى الكوفة أيضاً و نشأ فى واسط، و مارس أعماله التجارية بجانب الكرخ فى بغداد، و استقر فى النهاية فى بغداد. انتمى فى بداية أمره إلى الجهمية، أى أتباع جهم بن صفوان^{٦٣٩}. و لكنه انتقل على يد ابن أخيه إلى المذهب الشيعى و أصبح من أوائل المناضلين من أجل الإمامة. و كان لهشام بن الحكم تجارة مع عبد الله بن يزيد الكوفى، و هو رجل من الخوارج. و كان الرجلان معروفين و محترمين جدا عند أخوان كل منهما فى الدين، و كان الاثنان دائماً متلازمين رغم اختلافهما الكبير فى المذهب، لم يحدث نزاع بينهما أبداً إلى أن جاء عبد الله بن زيد ذات يوم إلى زميله يخطب ابنته. فعندئذ قال له هشام بن الحكم، إن ابنته مؤمنة، و منذ ذلك اليوم انقطعت الصلة بين الرجلين^{٦٤٠}.

بعد موت جعفر الصادق اعترف هشام بموسى بن جعفر إماماً، و تولى منصبا سامياً لديه. و كانت له علاقة أيضاً بأسرة البرامكة و عن طريق هذه الحماية أصبح معروفاً عند هارون الرشيد أيضاً. على أننا نقراً من جهة أخرى أن يحيى بن خالد البرمكى قد حاول

^{٦٣٨} (٢٩) الشهرستانى، ج ٢، ص ٣٤.

^{٦٣٩} (٣٠) خندانى النوبختى، ص ٧٩، منهج المقال، ص ٣٦٠؛ و جهم بن صفوان إباحى من خراسان، أنكر اختيار الإنسان تماماً، و قد أطلق على أتباعه اسم الجهمية نسبة إليه، و قد قتل بسبب آرائه سنة ١٢٨ هـ، ينظر ريتز، المرجع السابق، ص ١٤.

^{٦٤٠} (٣١) مروج الذهب، ج ٢، ص ١٣٧ (الطبعة المصرية)، و خندانى النوبختى، ص ٧٩.

أن يبعد ربيبه السابق هشاما خوفا من أن يقصيه عن منصبه عند الخليفة، و لكن هشاما هرب من بغداد إلى الكوفة و مات بعد فترة قصيرة (لم تذكر سنة وفاته)^{٦٤١}. و هناك

ص: ١٧٨

أخبار تقول إنه لم يمت إلا في سنة ١٩٩ هـ أو بعدها^{٦٤٢}. و يعد هشام شخصية معروفة بين الكتاب و العلماء، الذين عاجوا مسائل العقيدة. و مع ذلك لا توجد حتى اليوم دراسة علمية تزيل الظلام، الذي يخيم على حياته و عمله. و الكتاب، الذين كتبوا عن هشام، يناقضون أنفسهم بأنفسهم بين الحين و الآخر^{٦٤٣}. و يصعب علينا استخلاص الحقيقة، لأن كتاب سيرته ينقسمون إلى قسمين: قسم السنة، و هم أعداؤه الألداء، و قسم الشيعة، و هم من أصدقائه الذين لا يقلون عن أولئك نشاطا، و من بين الأخيرين الشريف المرتضى و من جاء بعده من العلماء^{٦٤٤}.

و لهشام مساجلات مختلفة مع غير الشيعة، و كانت له خصوصا مع المعتزلة مناظرات حادة. فقد تساجل مع أبي الهذيل العلاف حول حكمة الله. كان أبو الهذيل العلاف^{٦٤٥} يقول مثل بقية المعتزلة، الله يعلم كل الأشياء، و لكن علمه ليس كجميع العلماء الآخرين، و الله شيء، و لكنه ليس شيئا كالأشياء المعتادة. فرد عليه هشام، إذا كان المعتزلة يتكلمون هكذا، فيجب عليهم أن يعترفوا بأن الله جسد، و لكنه ليس كبقية الأجساد. و قد أوضح الشريف المرتضى أن هشاما لم يسع إلى الوصول إلى هذه النتيجة، لأنه يؤمن بها، و إنما لأن منطق خصومه يتطلب ذلك، أى يرغمه على الجواب حتى يقودهم إلى المستحيل. لكن الخصوم اعتبروا هذا رأى هشام فعلا، ليكون لهم مغمز فيه^{٦٤٦}.

ص: ١٧٩

^{٦٤١} (٣٢) منهج المقال، ص ٣٤١ و ما بعدها.

^{٦٤٢} (٣٣) نفسه، ص ٣٤٠.

^{٦٤٣} (٣٤) الشهرستاني، ج ٢، ص ٢٢.

^{٦٤٤} (٣٥) الفرق بين الفرق، ص ٣٤

^{٦٤٥} (٣٦) كان أبو الهذيل محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول العلاف، الذي توفي سنة ٢٣٥ أو ٢٢٧ هـ. يقال إنه ولد سنة ١٣١ أو ١٣٤ هـ، معتزليا عظيما، انظر عنه

الخطا في الانتصار، ص ١٧٩، و ه. ريتز، (المرجع السابق) ص ٥٠.

^{٦٤٦} (٣٧) منهج المقال، ص ٣٢٢ و ٢٢٣، و الصافي، ص ١٣

يرد المرتضى بن الداعي الحسيني^{٦٤٧} بشكل قاطع على أولئك الذين يتهمون هشاما اتهامات زائفة، و يدافع عنه بحدة: كل الافتراءات الموجهة إلى هشام إنما بثها أعداؤه قصد التشهير به. و الغاية من هجمات النواصب (أهل السنة) عليه هي تقديم الدليل على أن لعلماء الشيعة كلهم هذه الآراء غير الإسلامية، و هذا للإساءة إلى الشيعة بهذه الطريقة^{٦٤٨}.

غير أنه كان هناك أيضا عند قدماء الشيعة قبل عصر المرتضى أناس مثل أبي محمد الحسن بن موسى النوبختي، الذين رويوا أن هشاما كانت له فعلا آراء من هذا القبيل^{٦٤٩}.

و كان هناك في الطوائف الشيعية رجال افتروا أيضا شيئا من هذا النوع على هشام بدافع الحسد، فتلقف الأعداء هذه الافتراءات بطبيعة الحال من أوساط إخوان هشام في الدين و استغلوها استغلالا كبيرا في تأليب الناس عليه^{٦٥٠}. و أتباع هشام بن الحكم معروفون باسم «الهشامية»^{٦٥١}، و يجب التفريق بينها و بين الهشامية الأخرى، التي سميت باسم هشام الجواليقي.

يقدم ه. ريتز، ص ٥١، عن هشام المصادر التالية: فهرست فرق الشيعة، مروج الذهب، ج ٢، ص ٢٧٠، مختلف الحديث، ص ٩٩،

ص: ١٨٠

الشهرستاني، بحار، ج ١٥، ص ٣ و ١٣، الانتصار، ص ١٧٧، ٢٤٧، الإسلام، ١٩، ص ٢٢١-٢؛ و يذكر خندانى النوبختي، ص ٨٠، المصادر التالية: رجال الكشي، ص ١٦٥-١٨٧، رجال النجاشي، ص ٣٠٥/٣٠٦، فهرست الطوسي، ص ٣٥٥-٦، الفهرست، ص ١٧٥-١٧٦، منتهى المقال، ص ٣٢٢/٣٢٣، أصول الكافي، ص ٣٧، كمال الدين، ص ٢٠٦-٢٠٩، تبصرة العوام، ص ٤٢٠-٤٢١، (يوجد في خندانى النوبختي خطأ مطبعي، ص ٤١٩-٤٢٠)، ابن أبي الحديد، ج ١، ص ٢٩٤-٢٩٥، مروج الذهب، ج ٢، ص ١٣٧ (الطبعة المصرية)، بحار، ج ٢ ص ١٤٣-١٤٥؛ يعاد ذكره في الكتب التالية:

الفرق بين الفرق، الفصل لابن حزم، مقالات الأشعرى، و فرق الشيعة.

و لم يذكر في الفهرسين: منهج المقال، ص ٣٦٤، منتهى المقال، ص ٣٢٢-٣٢٣، مجالس المؤمنين، مقال هشام بن الحكم، الشافعي، ص ١٣، الخلاصة، مقالة هشام، روضات الجنات، مقالة هشام، ضحى الإسلام، ج ٣، ص ٢٦٨/٢٦٩، دائرة المعارف

^{٦٤٧} (٣٨) كان المرتضى بن الداعي الحسيني معاصرا للشيخ منتج الدين و عاش في القرن السادس الهجري، و هو مؤلف كتاب تبصرة العوام بالفارسية. د. م. دونالدسن، مذهب الشيعة^{٣٧٧} p. D. M. Donaldson, The Shhit Relegion, يخلط بينه و بين الشريف المرتضى، الذي توفي سنة ٤٣٦ هـ. و لا يلاحظ دونالدسن أن هناك أسماء كثيرة ذكرت في تبصرة العوام مثل الشهرستاني، و الغزالي (توفي ١١١١ م)، عاشوا متأخرين كثيرا بعد المرتضى بن الداعي الحسيني، ينظر، روضة الجنات، ج ٣، ص ٥٦٥.

^{٦٤٨} (٣٩) تبصرة العوام، ص ٤٢١.

^{٦٤٩} (٤٠) خندانى النوبختي، ص ٨٠، و ابن أبي الحديد، ج ١، ص ٢٩٥.

^{٦٥٠} (٤١) منهج المقال، ص ٣٦٣.

^{٦٥١} (٤٢) خندانى النوبختي، ص ٨٠ و ص ٢٦٧، و الأنساب، ص ٥٩٠، ثم الخطط، ج ٤، ص ١٦٩.

الإسلامية مقال هشام، قاموس الأعلام، مقال هشام، هورتن، الأنظمة الفلسفية Horten ,Die philosophischen Systeme ,S .٠٧١ وكذلك

Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes, IV- ٦٢٢

، كذلك الآلوسي، مختصر التحفة، ص ٤٧ و غيرها، منهج السنة النبوية في أماكن مختلفة، خطط، ج ٤، ص ١٦٩.

أبو الحسن علي بن ميتال التمار

(توفي في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة)

ينتمي أبو الحسن إلى عتقاء الكوفة، كانت له مناظرات مع المعتزلة و علماء عصره، و مساجلات في مدينة البصرة، التي كان يقيم فيها، مع أبي الهذيل العلاف (توفي بين سنتي ٢٢١ و ٢٣١) و أبي إسحاق إبراهيم النظام. و يعتبر التمار العالم الشيعي الأول، الذي دافع عن الإمامة ببراهين

ص: ١٨١

عقلية فقهية، و كتب أيضا كتبا مختلفة، منها «كتاب الكامل في الأئمة» و «مجالس هشام بن الحكم»^{٦٥٢}. كانت مشكلة الرئيسة تتمثل في إرادة الله و العقيدة^{٦٥٣}، و يعتبر التمار أيضا أول من استعمل منهج علم الكلام في كتبه^{٦٥٤}.

و يقدم ه. ريتير عن التمار في مقالات الأشعرى المصادر التالية:

فهرست فرق الشيعة، خلاصة الأقوال، ص ٤٥؛ و يذكر خندانى النوبختى، ص ٨١، المؤلفين و المؤلفات الموالية: الفهرست، ص ١٧٥، رجال النجاشي، ص ١٧٦، فهرست الطوسي، ص ٢١٢، الانتصار، ص ٦، ٩٩، ١٤٢، ١٧٧، فصول المرتضى (مخطوط) ابن أبي الحديد، ج ١، ص ٢٩٤. و لم يذكر: منهج المقال، ص ٢٢٦، الشيعة و فنون الإسلام، ص ٤٤، منتهى المقال، ص ٢٠٧ و الخلاصة، مقال عن ابن ميتال التمار.

أبو جعفر السكاك

(توفي في النصف الأول من القرن الثالث) كان محمد بن خليل، و يعرف بالسكاك، كما يعرف أحيانا من باب الخطأ بالشكال أو السكال، تلميذا لهشام بن الحكم، و أصبح هو نفسه فقيها له شهرة كبيرة. و رغم أن هشام بن الحكم كان أستاذه و أخذ عنه عدته

^{٦٥٢} (٤٣) خندانى النوبختى، ص ٨١، منهج المقال، ص ٢٢٦، منتهى المقال، ٢٠٧.

^{٦٥٣} (٤٤) ه. ريتير، ص ٣٥.

^{٦٥٤} (٤٥) الشيعة و فنون الإسلام، ص ٤٤، منتهى المقال، ص ٢٠٧.

الفقهية للكفاح، فإنه لم يترك فيما بعد اعتباراً لأي رأى من آراء أستاذه باستثناء رأيه فى الإمامة^{٦٥٥}. و كتب السكاك نفسه كتاباً مختلفة، تظهر لنا عناوينها المشاكل الرئيسة لعلم التوحيد:

كتاب فى باب الاستطاعة، كتاب المعرفة، كتاب فى الإمامة، كتاب

ص: ١٨٢

التوحيد (و به هنا حديث عن تشبيه الله ببناء على ما ورد فى مصادر أخرى)^{٦٥٦}.

و كان من بين معاصريه الجاحظ (١٦٠ - ٢٥٥ هـ)، أبو جعفر محمد بن عبد الله الإسكافي (توفى سنة ٢٤٠ هـ)، و أبو الفضل جعفر بن حرب (توفى سنة ٢٣٦ هـ)، و كانت له مساجلات مع هذين الأخيرين.

يذكر المصادر كل من هـ. ريتير و خاندانى النوبختى. ريتير، ص ٢٤:

الفهرست، ص ١٧٦، فهرست الطوسى، ٢٩٢، منهج المقال، ص ٢٩٥، منتهى المقال، ٢٧٢ - خندانى النوبختى، ص ٨١ / ٨٢:

مروج الذهب، ص، ج ٦، ص ٣٦٤ (الطبعة الأوربية)، ثم فى أماكن مختلفة من كتاب الانتصار، و ابن أبى الحديد، شرح نهج البلاغة.

يونس بن عبد الرحمن القمى

(توفى سنة ٢٠٢ هـ)

رجل اشتهر فى ميدان الفقه و علم الكلام على السواء، و كان له بوصفه عالماً دور فى حاشية على بن موسى الرضا (توفى سنة ١٤٨ - ٢٠٣ هـ). و ينتمى يونس إلى تلك الشخصيات و أولئك العلماء المذكورين، الذين اختلفوا من الثناء و اللوم نفس المقدار. فنحن نجد ثناء غامراً من جهة، حتى إنهم ساووه بسلمان الفارسي، ثم نجدهم ينهالون عليه بالشتائم من جهة أخرى.

كان يونس يسكن البصرة، و كان فيها وكيلاً للإمام الرضا. و كان شيعة البصرة يناوون يونس، لأنه كان يقسو عليهم حتى إنهم شكوا أمره إلى الإمام، و هذا هو مصدر تلك الأخبار، التى تنكر على يونس بعض أفعاله.

لقد عاش يونس فى الوقت، الذى كان فيه الانقسام بين الشيعة حول

ص: ١٨٣

^{٦٥٥} (٤٦) منتهى المقال، ص ٢٧٢، و منهج المقال، ص ٢٩٥.

^{٦٥٦} (٤٧) نفسه.

مسألة خلافة الإمام موسى بن جعفر يثير العواطف، و يوغر الأمزجة. كان يونس قد اعترف بابن الإمام الراحل بصفته خليفة و ناضل إلى جانبه.

و عرض عليه الواقفون، خصوم على بن موسى، مبالغ ضخمة لينضم إليهم، و لكنه رفض الرشوة، و بقي و فيا لعل بن موسى، لذلك أكد له هذا ثلاث مرات على شيء من الأبهة أنه سيذهب إلى الجنة^{٦٥٧}.

قام يونس بخمس و خمسين حجة إلى مكة^{٦٥٨}، و يقال إنه ألف ثلاثين كتابا، و معظم هذه الكتب، التي لا نعرف منها غير عناوينها، تتخذ من الأحكام الشرعية موضوعا لها. و من كتبه المعروفة، التي يكثر ذكرها في كتب التراجم، «كتاب يوم و ليلة»، و هناك آراء كثيرة عن الكتاب تنسب إلى الأئمة، يتعادل فيها الثناء و اللوم إلى حد ما.

عند ما نتأمل أحاديث الأئمة، التي تؤاخذ يونس، نجد أنها جاءت كلها على لسان أحمد بن محمد بن عيسى و على بن حديد. و كان أحمد بن محمد بن عيسى عدوا ليونس، وصف حديثه هو نفسه بأنه ضعيف. و كان على بن حديد صديقا لأحمد، و لذلك شارك في هذا الجدل، فنسب كلاهما أقوالا إلى يونس و إلى الإمام. و من أجل ذلك يجب أن تعتبر جميع الأقوال، التي نسبها هذان الرجلان إلى يونس، عديمة القيمة^{٦٥٩}.

المصادر: ريتز، مقالات الأشعرى، ص ٣٥، ٥٤: فهرست فرق الشيعة، رجال الكشي، ص ١٨٤، رجال النجاشي، ص ٣١١- خندانى النوبختي: رجال الكشي، ص ٣٠١-٣١١، فهرست الطوسي، ص ٣٦٦-٣٦٧، الفرق بين الفرق، ص ٥٢-٥٣، ابن أبي الحديد، ج ١، ص ٢٩٥؛ لم يذكر: منهج المقال، ص ٣٧٦ و ما بعدها، و منتهى المقال، ص ٣٣٦.

ص: ١٨٤

على بن منصور

(توفي في النصف الأول من القرن الثالث الهجري) كان على بن منصور، و هو من تلاميذ هشام بن الحكم، متكلم مشهورا، لخص آراء أستاذه في الإمامة في كتاب جعل عنوانه كتاب التدبير.

المصادر: ه. ريتز، مقالات الأشعرى، ص ٣٥: مروج الذهب، ج ٦، ص ٣٧٣، منهج المقال، ص ٢٣٩، منتهى المقال، ص ٢٢٥- خندانى النوبختي، ص ٥٣: رجال النجاشي، ص ١٧٦، ثم في مواضع مختلفة من ابن أبي الحديد، و الشهرستاني، و الانتصار.

أبو الأحوص البصري

^{٦٥٧} (٤٨) منهج المقال، ص ٣٧٧-٣٧٨.

^{٦٥٨} (٤٩) نفسه، ص ٣٧٨: غالبا ما نلاحظ في كتب التراجم عدد ٥٤ حجة!

^{٦٥٩} (٥٠) منهج المقال، ص ٣٧٨.

(توفي في منتصف القرن الثالث للهجرة)

يذكر أبو الأحوص مع الرجال الذين درسوا أصول الشريعة، وكتب كذلك عن الإمامة، وكان أبو الحسن بن موسى النوبختي قد التقى بالأحوص.

المصادر: كتب هـ. ريتز في مقالات الأشعرى، ص ٢٠-:

النجاشي ص ١١٣، فهرس الطوسي، ص ٣٦٩، ضد الإيضاح، ص ١٢٧، نقد الرجال للتفريشي، ص ١٢٧، منهج المقال، ص ١٣٤، و ٣٨١، منتهى المقال، ص ١٢٨ و ٣٣٨- خندانى النوبختي، ص ٨٤:

الشافى، ص ١٤، مقالات الإسلاميين، ص ٦٣.

أبو عيسى الوراق

(توفي سنة ٢٤٧ هـ)

تقدم لنا المصادر الوضع كما لو أن أبا موسى بن عيسى كان قد وقع تحت تأثير الأفكار اليونانية و الكتب المانوية، التي كانت قد بدأت تنتشر بين المسلمين و حكموا عليها بأنها إلحادية. و يروى عن أبي عيسى أنه لم

ص: ١٨٥

يبقى في طائفة واحدة، و إنما كان ينتقل من طائفة إلى أخرى. أما في أعماقه، فكان فيما يروى عنه يدين بالمانوية و كتب عدة كتب عن الثنوية المانوية^{٦٦٠}.

و لكن أبا عيسى ألف كتباً للشيعة أيضاً، دافع فيها عن الأفكار الشيعية حول الإمامة. و هاجم في بعض كتبه الجاحظ المذكور و المعتزلة، و يعود السبب في ذلك إن أن المعتزلة كانوا قد ردوا عليه و على الشيعة بصورة حادة، و وصفوه فيها بالزنديق و المنافق، الذى يتظاهر بأنه شيعى، و لكنه فى أعماقه يكره عليها، و قد أرادوا بذلك إبعاده عن الشيعة.

لقد دافع المرتضى عن أبي عيسى فى كتابه الشافى، و أوضح أن الاتهامات الموجه إليه لا مبرر لها و أنها كتبت بدافع البغض و الحسد نكاية بالشيعة. و الكتابان، كتاب الأشراف و النوح على البهائم، اللذان كتباً حسب الفكر الثنوى المانوى، لم يكتبهما هو، و إنما كتبها الناس الذين يدينون هم أنفسهم بالمانوية و يستغلون اسمه بدافع العداوة له^{٦٦١}. و قد قدر المرتضى محتوى كتب أبي

^{٦٦٠} (٥١) خندانى النوبختي، ص ٨٤ و ما بعدها.

^{٦٦١} (٥٢) كتاب الشافى، ص ١٣، و خندانى النوبختي، ص ٨٥.

عيسى تقديرا كبيرا واقتبس الكثير منها لنفسه^{٦٦٢}. كانت مقدرة أبى عيسى الأدبية و طريقته فى الكتابة جيدتين جدا، و قد ساعدتا على انتشار مؤلفاته. و أشهر كتبه هى:

(١) كتاب السقيفة؛

(٢) كتاب الإمامة؛

و هذان الكتابان يعالجان مسألة الإمامة من وجهة نظر الشيعة، و لذلك يهاجم المعتزلة و أهل السنة هجوما لا شىء فيه من الرفق و اللين.

و يقول إن إمامة على بن أبى طالب قد قامت فعلا بالنص الجلى، و لذلك قال أهل السنة إن مسألة النص الجلى إنما طرحها هشام بن الحكم

ص: ١٨٦

و أبو عيسى الوراق، و الراوندى، تلميذ الأخير. و قد استفاد المفيد و علماء شيعيون آخرون من كتب أبى عيسى^{٦٦٣}.

(٣) كتاب اختلاف الشيعة: يتضح من العنوان أن الكتاب يعالج آراء و معتقدات مختلفة للشيعة.

(٤) كتاب الحكم على سورة لم يكن، و هو شرع للسورة رقم ٩٨ فى القرآن، و تسمى أيضا سورة البينة.

(٥) كتاب المجالس^{٦٦٤}.

(٦) كتاب المقالات: و هو كتاب تاريخى دينى، تحدث فيه أبو عيسى عن الثنوية المانوية، و قد اتخذها أعداؤه وسيلة للهجوم عليه؛ و لم ينكر المرتضى تأييده لأبى عيسى عند ما كتب الكثير عن هذا المذهب^{٦٦٥}.

(٧) كتاب فى الرد على الفرق الثلاثة من النصارى: كتاب فى الرد على الفيلسوف المسيحى يحيى بن عدى (٢٨٣-٣٦٤ بعد الهجرة) و ضد المسيحيين على العموم^{٦٦٦}.

(٨) كتاب المشرقى.

^{٦٦٢} (٥٣) منتهى المقال، ص ٢٩٦.

^{٦٦٣} (٥٤) خندانى النوبختى، ص ٨٦.

^{٦٦٤} (٥٥) نفسه، و مروج الذهب، ج ٧، ص ٢٣٦ (الطبعة الأوربية).

^{٦٦٥} (٥٦) خندانى النوبختى، ص ٨٦.

^{٦٦٦} (٥٧) خندانى النوبختى، ص ٨٧، ماسينيون، نفسه، ص ١٨٢-١٨٣.

٩) كتاب النوح على البهائم: هذان الكتابان، اللذان ذكرنا أعلاه أنهما منسوبان إليه زورا، يعالجان موضوع الثنوية المانوية.

المصادر عن الأشعري يذكر ريتير، ٣٧: الإسلام ١٥، ص ٣٥، ١٩، ص ١٠، منهج المقال، ص ٣٢٨، منتهى المقال، ص ٢٩٦، و ٣٤٩، رجال النجاشي، ص ٢٦٣، مجالس المؤمنين، ص ١٧٧. - خندانى النوبختى، ص ٨٤ و ما بعدها: الفهرست، ص ٣٣٨، الشافى،

ص: ١٨٧

ص ١٣، مروج الذهب، ج ١، ص ١٥٧ - ١٥٨ (الطبعة المصرية)، ابن أبى الحديد، ج ٤، ص ١٥٩، مروج الذهب، ج ٧، ص ٢٣٦ (الطبعة الأوربية)، فهرست الطوسى، ص ٩٩، ١٨٣ - ١٨٢، p. Louis Massignon, Recueil des textes.

(ص ١٨١) كل هؤلاء الرجال، الذين تحدثنا عنهم و عاشوا قبل الغيبة الصغرى، لم يأمن أى واحد منهم من الوشاية. فكانت الرواية تتم حسب الموقف الشخصى من رأى، الذى كان للأئمة من كل شخص من الشخصيات المذكورة، أو ما قالوه من ذلك عنهم. ليس من واجبى هنا فحص مضمون الحقيقة فى هذه الأحكام، و على أن أترك هذا الميدان الخاص، الذى لم يدرس حتى الآن بما فيه الكفاية، على ما له من أهمية و خصوصية، لدراسة أخرى يقوم بها غيرى. و مما يجعل دراسة هذا الموضوع صعبة، هو فقدان مؤلفات أولئك الرجال، فلنكتف هنا بالإشارة إلى هذا المشكل لتطور علم التوحيد كله.

فى أيام الأئمة لم يكن هذا النوع من الانقسام ذا خطورة كبيرة، لأن الناس كانوا يسألون الإمام مباشرة. غير أن هذا الوضع أصبح بعد موت الإمام الحادى عشر، أى فى وقت السفير، دقيقا دقة بالغة بالنسبة إلى الشيعة، لأن أهم الشهود على علم الشيعة أنفسهم لم يكونوا يمثلون اتجاهها موحد. فكان من الضروري العثور على مخرج من هذه الفوضى و إقامة نظام واضح لعلم الكلام، لأن الأحاديث ذات الأصول المبهمة كانت قد أصبحت كثيرة جدا.

يعتبر زمن الغيبة الصغرى، من وجهة نظرى، بداية للتطور المنطقى لعلم الكلام الشيعى، ليصبح نظاما متكاملا متميزا، يجمع فيه من كل النظم الشيعية القديمة المنعزلة تلك الخصائص المتميزة لعلم الكلام الشيعى الموحد. و بدأ المفهوم القديم للمذهب الشيعى يتضاءل بشكل مطرد فى المبدأ السياسى الدينى، و انتقلت بدل ذلك السمة الدينية مركز الصدارة. لقد جاهدوا فى إقامة صرح تعليمى متكامل و تأسيس علم

ص: ١٨٨

الكلام، الذى يرتبط ارتباطا وثيقا بحديث النبى و حديث آل البيت.

و لا ينبغي لنا أن ندعى عموما، لانعدام ما يكفى من الشهادات، أن السفراء قد قاموا هم أنفسهم بإنشاء نظام ملزم، رغم أنه وصلنا عن السفير الثانى أنه وضع كتابا بهذا المعنى^{٦٦٧} و رغم وجود عدد كبير من توقيعات السفير الثالث^{٦٦٨}. و لعل السفراء قد تجنبوا وضع الكتب^{٦٦٩}، سيرا على نهج الإمام لأسباب معينة، لأنهم، فيما أفترض، قد شعروا بالترفع عن ضرورة تأليف الكتب بصفتهم معلمين و أساتذة مهمتهم تحديد الاتجاه.

و الأكثر من ذلك أن علماء الغيبة الصغرى من الشيعة هم الذين بدءوا بوضع قانون، يجب على كل شخص أن يخضع له فى ميدانه، فأصبح بذلك مقوما جوهريا من مقومات علم الكلام عند الشيعة.

قبل أن أتحدث عن هذا التطور، أحب أن أذكر الصعوبات الخارجية، التى أعاقت علماء الشيعة عن نشر أفكارهم. لما كان من الممكن ألا تصل كتبهم إلى أيدي حسادهم فقط، وإنما كان من الممكن أن تقع أيضا تحت نظر الحكومة، التى تجد كل الجد فى مراقبة العلماء و البحث عن إلصاق التهم بهم، فقد قرر هؤلاء الاقتصار على نشر آرائهم و نتائجهم عن طريقة الرواية الشفوية. فنحن نشاهد أن نشر كتب الشيعة

ص: ١٨٩

يزداد، كلما كان لهم نفوذ فى الحكومة، و لكنه ينعدم فى حالة عجزهم عن ذلك، و من ثم لا نسمع عنها عن كتبهم شيئا^{٦٧٠}.

إن كثرة عدد الرجال و المؤلفات يجعل من الحديث عنها حديثا شاملا مستفيضا غير ممكن. لذلك لم نختر غير الشخصيات المتميزة، التى تعد أعمالها من مقومات صرح علم التوحيد الشيعى و تمثل اتجاهاته.

و كان علينا كذلك أن نقتصر على المؤلفات الكلامية المحضة، التى تتصل بموضوع الغيبة الصغرى.

علم الكلام

يتضح من كتب التراجم الشيعية أن هناك بصورة دائمة إشارة إلى على بن إسماعيل بن ميتال التمار بوصفه الأول، الذى تكلم عن مذهب الإمامية الشيعية^{٦٧١}. و لكن الكتاب الأول عن الإمامة ألفه فيما يقال عيسى بن روضة، الذى كان يعيش فى بلاط الخليفة

^{٦٦٧} (٥٨) الغيبة، ص ٢٣٦.

^{٦٦٨} (٥٩) نفسه، ص ٢٤٢.

^{٦٦٩} (٦٠) حقا إنه ليذكر أن الإمام الخامس محمد الباقر قد كتب تفسيرا للقرآن (أنظر فهرست ابن النديم، ص ٣٣)، كذلك يذكر أن الإمام الحادى عشر الحسن العسكرى قد كتب تفسيرا للقرآن، يعرف اليوم بتفسير العسكرى (أنظر شتروتمان، مصادر الشيعة، ص ١٢، رقم ١٢ أ). على أنه ينبغي لنا أن نتذكر هنا أنه لا وجود إطلاقا لأخبار، تقول إن الإمامين قد وضعوا كتابيهما للرأى العام الشيعى. ثم إنه لا يوجد الكتاب المذكور أولا، و الثانى لم يصدر إلا بـ «اسم الإمام». الكافى، ص ١١٨، يروى عن قناعة عن ورقة «جامعة»، بمعنى موجز، طولها سبعون ذراعا للنبي، كتب عليها طبيعة و نوع العالم كله من البداية إلى النهاية.

^{٦٧٠} (٦١) الدرجات الرفيعة، ص ٣.

^{٦٧١} (٦٢) عن على بن إسماعيل بن ميتال ينظر كتابنا هذا ص ١٢٠.

المنصور (توفي سنة ١٥٨ هـ) ^{٦٧٢}. وعلى العموم فإن علم الكلام لم يجد لا عند الشيعة ولا عند السنة ^{٦٧٣} قبولا واحدا، بل إن بعض علماء الشيعة رفضوه. فقد كانوا يخشون أن ينزلقوا من الدين إلى بحر الفلسفة، الذي لا ساحل له. ^{٦٧٤}.

أما أولئك الذين كانوا يميلون إلى علم الكلام، فكانوا يدافعون عنه بقولهم بأن تحذير الأئمة من هذه الدراسة يخص الضعفاء، الذين يمكن أن تزل

ص: ١٩٠

بهم القدم، ولا يشمل العلماء ممن لهم تجربة في هذا الميدان. فكان أن نشأ هذا العلم في الغيبة الصغرى رغم ما كان هناك من مناهضة له.

و تكون عن التناقض بين الموقفين معسكران: معسكر الأخباريين ومعسكر الأصوليين. وكان لهذا التناقض أثر حاد في الميادين الثلاثة الحديث والفقه وعلم الكلام.

عرف علم الكلام في الإسلام عن طريق المعتزلة، فتحديده ومنهجه من اختراعهم، وكان بعض المعتزلة قريبيين جدا من الشيعة: كانوا يحترمون عليا احتراماً كبيراً، حتى إنه ليصعب أحيانا التفريق بين هؤلاء الناس وبين الشيعة ^{٦٧٥}. ولما كانت هناك في الأوساط الشيعية آراء مشابهة لآراء المعتزلة وبدءوا يتبعون نفس الاتجاهات والميول، فقد كانت آراء الشيعة في ميدان علم الكلام تزداد اقتراباً بصورة مستمرة من آراء المعتزلة إلى أن أصبحت معظم تعاليم الشيعة المتصلة بعلم الكلام في عصر النوبختي والمفيد والمرتضى مشابهة تماماً لآراء المعتزلة. لذلك يمكننا القول بأن المذهب المعتزلي كان يعيش في المذهب الشيعي ^{٦٧٦}. على أنه من المهم أن نلاحظ أن التناقضات الحادة قد ظهرت رغم التشابه بين آراء الشيعة وآراء المعتزلة منذ البداية، كما نرى في المساجلات الموجودة ^{٦٧٧}.

التشابه في الآراء المتصلة بعلم الكلام جعلت الشقة تضيق بين علم الكلام عند الشيعة وعلم الكلام عند المعتزلة. ويرى مؤلف منهج السنة أن الشيعة قد أدرجوا في نهاية القرن الثالث للهجرة عن طريق ابن

^{٦٧٢} (٦٣) منهج المقال، ص ٢٥٥، الشيعة وفنون الإسلام، ص ٤٤، وخانداني النوبختي، ص ٧٥.

^{٦٧٣} (٦٤) تلبيس إبليس، ص ٨٧ و ٤٠١، كان هارون الرشيد قد منع الجدل في الكلام فترة معينة، لأنه كان يخشى أن يكون انتشار هذا العلم سببا في الخروج عن الدين (طبقات المعتزلة، ص ٣١).

^{٦٧٤} (٦٥) الكشي، ص ١٧٢، الاحتجاج، ص ١، الانتصار، ص ٤، خانداني النوبختي، ص ٧٢.

^{٦٧٥} (٦٦) خانداني النوبختي، ص ٧٤؛ أبو الهذيل العلاف و بشر بن المعتمد، و كلاهما معتزلي، كانا يريان أن عليا أفضل من الخلفاء الثلاثة الآخرين، و لذلك سجنوا فترة من الزمن باعتبارهم شيعة (ينظر طبقات المعتزلة، ص ٣٠ و ٣٨).

^{٦٧٦} (٦٧) منهاج السنة، ص ١٦.

^{٦٧٧} (٦٨) كتاب الانتصار لا بن الخياط، الذي يجد المرء عنده في كل صفحة تقريبا براهين تتصل بملاحظتنا هذه.

النوبختي و عن طريق المفيد فيما بعد تعاليم المعتزلة في المذهب الشيعي، و لكن رأيه هذا لا يطابق الحقيقة، فقد لا حظنا أن الشيعة قد عرفوا بعض التقاليد الفكرية في نفس الوقت مع المعتزلة، و لكن بصورة مستقلة عنهم، تمثلت في بعض النقاط، منها مثلاً مسألة الاختيار أو جوهر الله هل شيء يمكن إدراكه أو هو مجرد اسم و خلود الله و غير ذلك،^{٦٧٨}.

و إذا زعم البعض أن الشيعة قد توحيدوا عن طريق انتصار اتجاه داخل اتجاههم، و أن الشيعة الاثني عشرية قد أقر أغلبهم منذ عصر ابن النوبختي بالاختيار و أنهم بذلك الجدل القائم حول هذه المشكلة أو تلك و جعلوا تعاليمهم مشابهة لتعاليم المعتزلة، فإن هذه الادعاءات في رأيي صحيحة.

و لهذا لا يحق لنا أن ننسب الفضل في تطور علم الكلام الشيعي لا إلى لمعتزلة و لا إلى الشيعة بصورة أحادية. و لا ينبغي أن ننسى أن ابن النوبختي و غيره من العلماء قد عملوا في ميدان الفلسفة و انهم تلقوا آراء نقلت إليهم، تتطابق مع آراء المعتزلة تماماً. و لكن نشاط رجال الشيعة و مجادلاتهم المستمرة مع المعتزلة في المناظرات العامة قد أفرزت توضيحات للآراء الشيعية. ذلك أنهم تعرفوا على مناهج الخصم، فتحتم عليهم صياغة نظريات معينة لتكوين نظامهم، و هكذا نشأ نظام علم الكلام الشيعي.

و المشكلة الرئيسية، التي اهتم بها علم الكلام الشيعي، هي الإمامة.

فقدت لها العدة الكاملة من المفاهيم و المناهج و فن الجدل مشافهة و كتابة. كل الرجال، الذين تكلمنا عنهم هنا، يكرسون مؤلفاتهم الرئيسة للإمامة و يحاولون عن طريق الحديث و المنطق مساندة مواقفهم.

و الحديث بوصفه شهادة يشكل قضية حساسة، ذلك أن كل ما يحتاج إليه الخصوم هو إنكارها، و حينئذ يعتبر كل دليل لاغياً. إذا ما تخلى

الشيعة عن مآثوراتهم و أخذوا بحديث أهل السنة عن علي و آل البيت، فإن السؤال الذي يطرح هو: هل هذا الحديث صحيح أو مزيف^{٦٧٩}.

و الآن جاء رجل يذلل كل هذه الصعوبات: أبو سهل إسماعيل بن علي النوبختي (٢٥٥-٣١١ هـ). لقد اكتسب معرفة واسعة بأعمال الشيعة السابقين و آرائهم، و استخلص من خلال مجادلاته حول مسألتى النبوة و الإمامة، أن الاثنتين تنتميان إلى بعضهما البعض

^{٦٧٨} (٦٩) منهاج السنة، ص ١٦؛ عن آراء الشيعة أنظر الكافي، ص، ١٤، ٤٢، ٥١، ٥٢، ٧٣، ٧٥، ٧٦، ٢١٠، ٢٣٩ و أماكن أخرى!

^{٦٧٩} (٧٠) و لتذكر هنا المواضع المختلفة عند السني كنجي (توفي سنة ٦٥٨ هـ) و عند نور الدين بن الصباغ المالكي (توفي ٨٥٥ / ١٤٥١ م) بروكلمان، (رقم ١١، ص

١٧٦ و التكملة، ص ٢٩٤ رقم ١١).

وأن الإمامة نتيجة للنبوّة. وقد تبنى هذا الموقف من جاءوا بعد أبى سهل و عالجوا دائما النبوّة و الإمامة إحداهما بعد الأخرى^{٦٨٠}،
و منذ ذلك الحين أصبحت الإمامة مقوما مندمجا فى العقيدة الشيعية.

يرى الشيعة أن النبى محمد قد عين عليا خليفة له بوحي من الله و أنه قد أعلن هذا «النص الجلى» فى الناس. و اعتمادا على هذا
«النص الجلى» بدا للشيعة أن مطالبتهم بالإمامة أمر مؤكد. لكن مسألة «النص الجلى» بالذات كانت سببا فى النزاع بين الشيعة و
غيرهم^{٦٨١}.

يقول غير الشيعة إن تعيين على إنما هو من اختراع هشام بن الحكم، و أبى عيسى الوراق، و ابن الراوندى. فالشيعة الذين سبقوا
أولئك الرجال لم يعرفوا شيئا عن هذا التعيين و لكن الشيعة أرادوا أن يجعلوا هذا «النص الجلى» من أركان علم الكلام الشيعى
القديم. إن غير الشيعة لم يسمعو بذلك من قبل قط و لم يقرأوا عنه إلا فى كتب الرجال الثلاثة، و لهذا ادعوا خطأ أن الثلاثة هم
الذين ابتدعوه^{٦٨٢}.

على أننا نسمع من غير الشيعة أيضا أن بعضهم قد توصل إلى فكرة

ص: ١٩٣

النص، أى تعيين خليفة من قبل النبى نفسه^{٦٨٣}، فقال إن النبى قد عين أبا بكر خليفة له.

لقد ساهم فى تطوير تعاليم الإمام عند الشيعة، إلى جانب النص، مفهوم آخران، و لعبا فيه دورا مهما، هما التقية و البداء. قيل إن
عمر بن رباح جاء مرة إلى الإمام محمد الباقر و سأله، فأجابه الإمام. بعدها ذهب الرجل إلى بيته و عاد بعد سنة إلى الإمام ثانية،
و طرح عليه السؤال نفسه.

و لكن الجواب كان فى هذه المرة مغايرا فاندعش السائل و اعترف له بأنه لا يستطيع أن يوفق بين هذا الجواب و جواب السنة
الماضية، فأوضح له الإمام أن الجواب الأول قد صدر عن التقية، و منذ تلك اللحظة بدأ الرجل يرتاب فى الإمام. و عند رجوعه
التقى فى طريقه برجل يدعى محمد بن قيس، فروى له الحادثة، فوقع فى ظن الرجل أن الأمر يتعلق بالتقية.

^{٦٨٠} (٧١) خندانى النوبختى، ص ٧٧.

^{٦٨١} (٧٢) خندانى النوبختى، ص ٧٧.

^{٦٨٢} (٧٣) نفسه، ص ٧٦، و الشافى، ص ٩٨.

^{٦٨٣} (٧٤) الشهرستانى (الطبعة المصرية) ج ٢، ص ٤٥٥، و الأشعرى، مقالات ص، ٤٨، و منهاج السنة، ج ١، ص ١٣٤.

و لكن عمر رد عليه بأنه كان قد ذهب إلى الإمام في المرة الأولى بوصفه شيعيا متدينا، و لم يكن بينهما أحد، فلا هو ارتاب في أمر الإمام و لا الإمام ارتاب في أمره. إنه لم يعد الآن يؤمن بالإمام، فالإمام الذي يتكلم هكذا و يظهر الخوف في بيته ليس إماما. الإمام عليه أن يتكلم بشجاعة و من غير خوف^{٦٨٤}.

كان جعفر الصادق قد أعلن في حياته أن ابنه إسماعيل سيكون خليفته، و لكن الابن مات قبل أبيه. فأوضح الإمام أن البداء (مراجعة الله مشيئته لفائدة البشر) هو السبب في عدم تحقق النبوءة. على أن البداء لم يعترف به الشيعة كلهم^{٦٨٥}.

لقد أصبح المفهومان التقية و البداء، اللذان أوضحناهما من خلال

ص: ١٩٤

الأمثلة، من المشاكل العويصة في علم الكلام الشيعي، و مسألتى نزاع دائم بين الشيعة و غيرهم.

و التقية و البداء، فيما يقول الشيعة، ليسا شيئا خاصا، و لا هما علامة مميزة عندهم، و إنما هما موجودان في الطبيعة العامة للإنسان. فغريزة المحافظة على الحياة تدفع الناس في أوقات الخطر و حالات الخوف إلى التصرف تصرفا آخر يختلف عن تصرفهم في حالاتهم العادية. و في إمكاننا العثور على أمثلة كثيرة لذلك في الإسلام عند بدايته. و السبب الوحيد في التقية هو خوف الأتباع من بطش الحكومة في ذلك الحين، و الذنب في مثل هذا التستر لم يكن في الحقيقة ذنب الشيعة، و إنما ذنب من كان يرغمهم عليه^{٦٨٦}.

و توجد التقية، فيما نقرؤه عنها، عند أهل السنة أيضا. فعند ما تكون حياة السني في خطر، يتحتم عليه أن يلجأ إلى التقية أيضا. الفرق الوحيد إذن هو أن التقية تلعب عند الشيعة دورا أكبر^{٦٨٧}، أما من حيث الجوهر فليس هناك من فرق أساسي بينهما.

و معظم الأحاديث المتصلة بالتقية تعود إلى الإمام السادس، جعفر الصادق، في عهد الخليفة المنصور، الذي اضطهد الشيعة و طاردهم.

^{٦٨٢} (٧٥) فرق الشيعة، ص ٥٢.

^{٦٨٥} (٧٦) نفسه، ص ٥٥.

^{٦٨٦} (٧٧) أصل الشيعة: في هذا الكتاب فصل متميز عن التقية في المذهب الشيعي، يقدم الدليل على أن التقية ليست مقوما من مقومات المذهب الشيعي، و إنما هي نوع من السلوك الإنساني عند الخطر، ينظر أصل الشيعة، ص ١٨٩ و ما بعدها.

^{٦٨٧} (٧٨) الآلوسى، مختار التنحفة، ص ١٨٨.

فأجبر ذلك الإمام على التقية حتى لا يعرض أتباعه للخطر. و لم تصلنا من هذه الفترة أحاديث كثيرة عن التقية. و كان الشيعة و آل البيت قد قاموا فى أيام الإمام الخامس، محمد الباقر، بثورات ضد الخلفاء و ماتوا شهداء، إذ أنهم لم يكونوا يذهبون إلى بيوتهم من باب التقية^{٦٨٨}. لكنهم لجؤوا إليها

ص: ١٩٥

بعد محمد الباقر، كما تظهر لنا ذلك قصة زيد بن على مع أخيه الإمام^{٦٨٩}.

فهل التقية جائزة عند الشيعة فى أيامنا هذه أم لا؟ إن التقية تعنى، كما رأينا، التستر عن العدو و هى مطلوبة منهم على الدوام. لكنها تتغير بتغير الوقت طبعاً. فى الماضى كانت التقية تتمثل فى ألا يظهر الشيعة أمام الناس عند أداء الصلاة و ألا يظهرُوا أبداً أنهم شيعة. أما فى أيامنا هذه، التى تسود فيها الحرية فى المسائل الدينية، فإن الإنسان ليس فى حاجة إلى التمسك بالمفهوم القديم للتقية، فمن حقه أن ينتمى إلى المذهب الشيعى بكل حرية. التقية لا تتطلب من الشيعى اليوم سوى أن يصادق و يقيم علاقة مع غير الشيعة و أن يحترم مشاعر الآخرين الدينية^{٦٩٠}.

و على هذا فالتقية عند الشيعة موضوع تربوى أخلاقى سياسى أكثر مما هو موضوع دينى محض. و من الغريب أن للكتاب المحدثين فى أوروبا و فى الشرق مزاعم عن التقية و نشأتها، فبعضهم يزعم أنها عقيدة فى المذهب الشيعى^{٦٩١} و آخرون يحاولون عبثاً الربط بينها و بين الأفكار الدينية و الفلسفية الغربية^{٦٩٢}.

ص: ١٩٦

و تسير قصة البدء بموازاة التقية أو ترتبط بها، فيقال إن أئمة الشيعة يقدمون أنفسهم إلى طوائفهم على أساس أنهم أنبياء، و من عادتهم، إذا ما تحققت نبوءتهم، أن يسيروا إلى النبوءة، أما إذا لم يتحقق منها شيء، فإن المسؤولية لا تقع عليهم، بل تقع على بدء الله^{٦٩٣}.

^{٦٨٨} (٧٩) أصل الشيعة، ص ١٩٣ / ٩٤.

^{٦٨٩} (٨٠) ابن خلدون (الطبعة الفرنسية ١٨٥٨، باريس) ج ١، ص ٣٥٧، و انظر عن التقية الكافي، ص ٢١٩، ٢٢٤، ٤١٧ و ٤١٨.

^{٦٩٠} (٨١) كاشف الغطاء، رسالة خاصة بتاريخ ٢٢ رمضان ١٣٥٥ بعد الهجرة.

^{٦٩١} (٨٢) ضحى الإسلام، ج ٣، ص ٢٤٧.

^{٦٩٢} (٨٣) غولدتسيهر، محاضرات عن الإسلام.

Goldziher, Vorl. uberd. Islam, p. ٣٠٢، ٩٣٢، ١٨٢، ٥٥٣

، يعود غولدتسيهر فى مسألة علاقة الشيعة بغيرهم من المؤمنين (القسوة، عدم مساعدة أصحاب الأديان الأخرى) ص ٢٣٩ الموازاة بمذهب أتباع زرادشت، هذا الرأى، الذى جاء فى الفصل نفسه، و هو فصل «مبدأ الطائف»، و يقدمه جولدتسيهر مع آراء عن الشيعة و الأحاديث القديمة تنسب إلى هذا العصر أو إلى القرن الماضى، مثل مسألة النجاسة، و يستخلص نتائج مثل السابقة، لا أستطيع أن أوافق عليها. عن التقية، أنظر أيضاً جولدتسيهر فى المجلة الألمانية للدراسات الشرقية. ZDMG, LX

ff ٣١٢، . و كذلك، ٧٦-٣٦، p، ٢١٩١، III, Der Islam, Josef Horovitz، ثم السبكي، ١ / ٢٠٧، ١٢.

^{٦٩٣} (٨٤) فرق الشيعة، ص ٥٥.

و يروى أن المختار هو أول من عبر عن هذه الفكرة من بين الشيعة، فلكى يقنع أتباعه بنفسه و بوحيه، كان يلجأ إلى البداء لتبرير سياسته عند فشل مشروع من مشاريعه^{٦٩٤}.

لقد اتجه الشيعة، جوابا على اعتراضات غيرهم ممن لا يريدون الاعتراف بالبداء، إلى وضع هذا المبدأ فى نفس الدرجة و جعلوا مفهومه بالطريقة نفسها فى حديث فى «النسخ»، فما قيل عن «النسخ» فى القرآن، يجب أن يقال أيضا عن «البداء»، لأن الاثنين يقومان على أساس واحد.

إن البداء، الذى كرهه أعداء الشيعة و حاربوه، ليس شيئا آخر غير النسخ، الذى يعترف به جميع المسلمين. ذلك أن النسخ إنما هو تعويض الله آيات قرآنية بآيات أخرى، و الفكرة نفسها تكمن فى البداء، الذى لا يتعدى أن يكون تمديد النسخ إلى الأئمة. فالفرق إذن ظاهرى و لا يتصل إلا بالإمام^{٦٩٥}. و قد قدم المختار الدليل بشكل منطقي: إذا كان النسخ مسموحا به فى الأحكام فينبغى أن يكون البداء فى الأخبار جائزا أيضا^{٦٩٦}.

لقد انتشر البداء كما انتشرت التقية انتشارا كبيرا فى علم الكلام الشيعى، لكن الشيعة، عند ما اتصلوا بالمعتزلة، أهملوا البداء نوعا ما كما يذكر المعتزلى ابن الخياط فى كتاب الانتصار^{٦٩٧}. على أنه لا يجوز لنا

ص: ١٩٧

أن ننسى أن فكرة البداء قد اختفت بموت الأئمة، لأنه كان مرتبطا ارتباطا لا انفصام له بشخصية الأئمة، الذين جعلهم الله لإظهار كلمته.

البداء إذن غير موجود من الناحية العملية و لا يوجد إلا فى الكتب الكلامية بوصفه حقيقة تاريخية و نظرية تتصل بمرحلة قديمة.

و كما ارتبطت فكرتا التقية و البداء بالأئمة ارتباطا وثيقا، ارتبطت بهم كذلك فكرتا الرجعة و الغيبة، و يغلب على الظن أنهما أقدم منهما. و قد ذكرنا أن عمر خطب بعد موت النبى فى المسجد و قال إن محمدا لم يميت ميتة أبدية، و إنما ستكون له رجعة^{٦٩٨}. و قد ذكرنا كذلك أن عبد الله بن سبأ قال إن عليا لم يميت، و إنما قتل فى مكانه شبيه له^{٦٩٩}. و شاع بين أتباع محمد بن الحنفية أن

^{٦٩٤} (٨٥) الشهرستاني (الطبعة المصرية) ج ١، ص ١٩٧.

^{٦٩٥} (٨٦) أصل الشيعة، ص ١٨٩، و كتاب الانتصار، ص ١٢٧.

^{٦٩٦} (٨٧) الشهرستاني (الطبعة المصرية)، ج ١، ص ١٩٧.

^{٦٩٧} (٨٨) كتاب الانتصار، ص ١٢٧.

^{٦٩٨} (٨٩) ينظر مقدمة الكتاب.

^{٦٩٩} (٩٠) نفسه.

سيدهم لم يمت، وإنما هو مقيم بجبل رضوى و عنده غسل و ماء، و سيظهر فى يوم آخر^{٧٠٠}، و هكذا تتكاثر الأمثلة. إذن فعودة شخص معين كانت تفهم فى الأصل من اسم «الرجعة»، و مع مضى الزمن، تطور مفهوم كلمة «الرجعة» و ابتعد عن معناها الأصلي.

و عليه فإن الرجعة لا تعنى عند معظم الشيعة رجعة شخص واحد بعد موته، و إنما تعنى رجعة الأئمة الاثنى عشر و النبى و معهم أعداؤهم ليثأروا منهم. و يمثل هذا رأى قسم من الشيعة، و منهم العلامة الشريف المرتضى، الذى عاش فى عصر البويهيين، أى فى الوقت، الذى تطورت فيه سلطة المذهب الشيعى و ظهرت أمام الناس جميعا، فلم يعد الشيعة يتسترون فى إظهار تقاليدهم و احتفالاتهم الدينية أمام أى إنسان، و كان العلماء يظهرون كراهيتهم للخليفة دون خوف من مطاردته لهم، و كانوا يتوقعون أن محاسبتهم لأعداء المذهب الشيعى لم تعد بعيدة.^{٧٠١}

ص: ١٩٨

و كانت فكرة الرجعة عند القسم الآخر من الشيعة قد جردت عن الشخصية تماما و أصبحت فكرة تتصل بإقامة دولة شيعية دون التفكير فى عودة شخص معين لحما و دما. و قد اعترض الشريف المرتضى على هذا رأى بحدته^{٧٠٢}. و تطورت الرجعة فى اتجاه آخر إلى الغيبة، و هو تعبير اتخذ موضوعا لدراسات كثيرة استمرت حتى أيامنا هذه، و يعنى هذا التعبير أن الإمام الثانى عشر اختفى و أنه سيرجع. و قد حرص المتكلمون على تناول هذه «الفرضية» منذ سنة ٢٦٠ هـ شفويا أولا ثم كتابيا أيضا منذ نهاية الغيبة الصغرى. و تراجعت فكرة الرجعة، و أصبحت منذ ذلك الحين موضوعا ثانويا، حتى إن معظم شيعة اليوم يعرفون الغيبة، و لكنهم لا يعرفون شيئا عن الرجعة، لأن الباعث المحرك لها، و هو أخذ الثأر، قد سقط اليوم.

و مع أن الرجعة كانت فى القديم عقيدة و عالجها العلماء على هذا الأساس، فلا يمكن اعتبارها عقيدة، خصوصا عند الشيعة فى أيامنا هذه.

فهى مجرد تأمل نظرى، يستطيع المؤمن أن يؤمن به أولا يؤمن^{٧٠٣}.

كثيرا ما يلاحظ المرء انصهار المفهومين معا الرجعة و الغيبة، حتى إن المرء ليتحدث عن الرجعة عند ما يتناول موضوع الغيبة، فأصبحت الرجعة ملحقه بالغيبة. و الرجعة و الغيبة مرتبطتان زمنيا^{٧٠٤} و قد سبق أن لاحظنا عند حديثنا عن المصادر أن الكثير من الكتب، التى تحمل عنوان الرجعة تعنى الغيبة.

نتناول الآن الممثلين الرئيسيين للفقه الشيعى، الذى تطور أيام الغيبة الصغرى.

^{٧٠٠} (٩١) نفسه.

^{٧٠١} (٩٢) بحار، ج ١٣، ص ٢٣٥.

^{٧٠٢} (٩٣) نفسه.

^{٧٠٣} (٩٤) أصل الشيعة، ص ٦٦.

^{٧٠٤} (٩٥) ينظر بحار، ج ١٣، ص ٢١٥ - ٢٣٦، حيث تقدم نظرة شاملة متميزة عن جميع آراء العلماء حتى عصر المؤلف.

(توفى حوالى سنة ٢٤٥ أو ٢٩٨ هـ)^{٧٠٥} ينتمى أحمد بن يحيى بن أبى الحسين إلى الشخصيات، التى لا يعرف المرء عنها على وجه اليقين هل هى ملحدة أو مؤمنة، وإذا كانت مؤمنة هل هى من الشيعة أو من غير الشيعة، وهو من مدينة مروالروذ فى مقاطعة خراسان، و يعرف بابن الراوندى. و الشئ الوحيد، الذى يمكن قوله عنه بكل تأكيد، أنه كان كاتباً ممتازاً^{٧٠٦} و أن كتبه كانت لها مكانة متميزة فى عصره.

ذهب ابن الراوندى إلى بغداد، التى كانت قبلة الطموحين و المتطلعين إلى المناصب المغرية، و وجد له مكاناً بين المعتزلة، و كان أخوه و أقرباؤه ينتمون إلى الطائفة أيضاً. و ما كان رجل طموح ذى طبيعة مضطربة مثل ابن الراوندى ليستطيع طبعاً البقاء فترة طويلة فى أوساط المعتزلة. لقد انفصل فى النهاية عن المعتزلة و انتقل إلى الشيعة، و وضع عن مذهبهم كتباً و ردوداً على المعتزلة، و قد أدت كتبه إلى حدوث انشقاق كبير بين المعتزلة، حتى إنهم هاجموا بكلمات لاذعة. و لم يكفهم أنهم سخروا منه بصفته ملحداً و منافقاً، فاتهموه بأنه كتب كتباً لليهود للتهجم على المسلمين، و قالوا عنه إنه مات فى بيت يهودى يلقب بأبى عيسى، إن أمكن وجود هذا الاسم على الإطلاق^{٧٠٧}. و اختلفت آراء الشيعة فى ابن الراوندى أيضاً. فكان العلامة الشيعى الكبير المرتضى علم الهدى كثير الثناء عليه، فهو يرى أن ابن الراوندى لا يعرض آراءه الخاصة فى كتبه، و إنما أن يظهر أنه من الصعب على المعتزلة أن يتصدوا لمعارضته^{٧٠٨}.

و قد استطاع بكتبه تأليف عمل فى شبيه بكتب المعتزلى الجاحظ (توفى سنة ٢٥٥ / ٨٦٩)، الذى تجرأ فيها على كتابة رسالة هجائية ضد المعتقدات الإسلامية المختلفة حتى يظهر بذلك علمه و نضاجة أسلوبه، و لكن تنوع معارف ابن الراوندى و تبحره فى العلم قد عادت عليه بالضرر الكبير، لأن أتباع ماني و أعداءه قد وضعوا كتباً إلحادية باسمه حتى إنه انتهى فى الأخير بوصفه زنديقاً^{٧٠٩}، على أن أبا سهل النوبختى ينفى ذلك عن كتبه تماماً. و من عناوين كتبه يمكننا أن نعرف رأيه^{٧١٠} فى ابن الراوندى، فى مسألة الاجتهاد مثلاً.

^{٧٠٥} (٩٦) خندانى النوبختى، ص ٨٧.

^{٧٠٦} (٩٧) ابن خلكان، ج ١، ص ٣٣؛ مروج الذهب، ج ٧، ص ٢٣٧ (الطبعة الأوربية)؛ نخبة المقال، ص ١٥٧، و شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ٢٩٩.

^{٧٠٧} (٩٨) الانتصار، ص ٢٥ و ٣٠.

^{٧٠٨} (٩٩) راجع ص ١٨٥.

^{٧٠٩} (١٠٠) الشافى، ص ١٣، و منتهى المقال، ص ٣٥٧.

^{٧١٠} (١٠١) خندانى النوبختى، ص ٨٩ / ٩٠ و ١٢٠.

و أخيرا قطع أعداء ابن الراوندى شوطا بعيدا، حتى إنهم ادعوا أن أباه، و هو يهودى فيما يزعمون، أفسد الديانة اليهودية فى الكتب المقدسة و زورها، كما أراد ابنه أن يفعل فى الإسلام فى وقت متأخر. و الابن ينتمى إلى الزنادقة الثلاثة فى الإسلام، الذين تستروا بالدين الإسلامى^{٧١١}.

نذكر من عناوين كتبه الضائعة ما يلى:

(١) الأسماء و الأحكام،

(٢) الابتداء و الإعادة،

(٣) خلق القرآن،

(٤) البقاء و الفناء،

(٥) لا شىء إلا الموجود،

(٦) الطبائع،

(٧) اللؤلؤة فى تنهاى البركات.

ص: ٢٠١

و قد وضع ابن الراوندى الكتب التالية حسب التعاليم الشيعية:

(٨) كتاب الإمامة. - كان قد ألف هذا الكتاب للشيعية بعد انفصاله عن فرقة المعتزلة بفترة قصيرة، و استلم على ذلك فيما يقوله المعتزلة ٣٠ دينارا هى «مكافأة الخونة»^{٧١٢}.

(٩) كتاب العروس. - وضع هذا الكتاب أيضا حسب تعالم الشيعة، و عالج فيه موضوع الإمامة أيضا، و يعتبره الشيعة من بين كتبه «الجيدة»^{٧١٣}.

^{٧١١} (١٠٢) خندانى النوبختى، ص ٨٩ / ٩٠.

^{٧١٢} (١٠٣) المجموع و الأوضاع يمكن مقارنتها بقصة يهوذا فى العهد الجديد.

^{٧١٣} (١٠٤) روضة الجنات، ج ١، ص ٥٤، و نخبة المقال، ص ١٥٧.

١٠) كتاب فضيحة المعتزلة: هذا الكتاب في الرد على المعتزلة، وكان قد كتبه بعد انفصاله عنهم و انتقاله إلى الشيعة. يدافع فيه عن الأئمة و تعاليمهم بأسلوب فصيح رائق. و الكتاب لم يعد اليوم موجودا، إلا أن الخياط المعتزلى يقتبس، لحسن الحظ، في كتابه الانتصار حرفيا من كتاب ابن الراوندى.

و تحتوى الكتب التالية على مضامين إلحادية، رفضها السنة و الشيعة على السواء؛ و يرى المرتضى أن هذه الكتب قد تكون من وضع أعداء ابن الراوندى أو أنها لا تحتوى فى كل مكان على قناعة مؤلفها^{٧١٤}.

١١) كتاب التاج فى صدام العالم و الأجسام: أراد المؤلف هنا أن يؤكد فلسفيا خلود العالم و المادة^{٧١٥}.

١٢) الدماغ فى الرد على القرآن: ورد فى الأثر أنه كتبه لليهود ضد القرآن، و لذلك هاجم بعض العلماء المؤلف، و ورد فى الأثر كذلك أنه لعن كتابه فيما بعد^{٧١٦}.

ص: ٢٠٢

١٣) كتاب التوحيد: يقال إنه كتبه خوفا من المسلمين، و فيه يعترف بالدين الإسلامى.

١٤) كتاب الفرند على الطعن على ما بالإسلام.

١٥) كتب الزمرد فى إبطال الرسالات ورد معجزات الأنبياء: ضد الوحي و ضد الأنبياء^{٧١٧}. ينكر المؤلف معجزة أسلوب القرآن، و يعترف أن الشعراء العرب القدماء قد كتبوا بصورة أحسن أو هى لا تقل جودة عنه^{٧١٨}، و يذكر المعتزلة هذا الكتاب ليبرهنوا على أنهم كانوا قد طردوه هم أنفسهم^{٧١٩}.

١٦) كتاب القضيبي فى إثبات حدوث علم الله؛

١٧) كتاب المرجان: عن تاريخ الفرق الإسلامية.

١٨) كتاب فى إثبات اجتهاد الرأى: الكتاب يتطلب أن يكون للعالم - على العكس من معظم شيعة عصره - رأيه الخاص فى الفقه، و قد رد عليه فيما بعد أبو سهل النوبختى.

^{٧١٤} (١٠٥) الشافى، ص ١٣.

^{٧١٥} (١٠٦) الانتصار، ص ١٧٢ / ١٧٣ و شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ٢٩٩.

^{٧١٦} (١٠٧) خندانى النوبختى، ص ٩٣.

^{٧١٧} (١٠٩) ابن الجوزى، المنتظم، ص ١٨٢، و أبو الفداء، ص ٢٩٤، ٢٩٨ (مخطوط برلين).

^{٧١٨} (١١٠) أبو الفداء، ص ٢٩٤، ٢٩٨ (مخطوط برلين).

^{٧١٩} (١١١) خندانى النوبختى، ص ٩٣، و الانتصار، ص ١٧٣.

عن ابن الراوندى ينظر المصادر التالية: يذكره ريتز في مقالات الأشعرى، ص ٢١: الانتصار، ٥٥٣، p. ٢٠٩١ JRAS والإسلام، عدد ١٨، ص ٣٧؛ ١٩، ص ٢٠٠، ٢٨١؛

Comptes- Rendes de L, Academie des Sciences de I, URSS ٦٢٩١، ١٧

فرق الشيعة، ص ...، تاريخ العيني (من مكتبة ولى الدين، رقم ٢٣٨٥، ص ٢٠٧)، مجالس المؤمنين. - و يذكر النوبختى، ص ٩٤، المصادر التالية:

الاختصار فى أماكن متفرقة، الفهرست (الطبعة المصرية)، ص ٤-٥، مروج الذهب، ج ٧، ص ٢٣٧، ابن خلكان، ج ١، ص ٢٨ (الطبعة المصرية)، البداية و النهاية (مخطوط)، المنتظم لابن الجوزى (مخطوط

ص: ٢٠٣

برلين)، لا يذكر خندانى النوبختى الصفحات، ص ١٨٢، تلبس إبليس، ص ٧٢، و ١١٨، تبصرة العوام، ص ٣٩٨ و ٤٤٠، الشافى، ص ١٣، روضات الجنات، ص ٥٤، رسالة ابن القارح (مجمع رسائل البلغاء (الطبعة المصرية)، كنز الفوائد، ص ٥١، و فى أماكن مختلفة من كتاب ابن أبى الحديد شرح نهج البلاغة، الفرق بين الفرق للشهرستانى، و ابن حزم.

أبو سهل النوبختى^{٧٢٠}

(٢٣٧-٣١١ هـ)

أبو سهل إسماعيل بن على النوبختى سليل أسرة النوبخت العريقة، التى تردد اسمها كثيرا، و التى قدمت للدولة و للعلم رجالا عظماء، و هو شاعر و كاتب و عالم و رجل دولة. كان متكلماً و كانت له مدرسة خاصة، يؤمها طلاب العلم من الناس و يستمعون إلى دروسه^{٧٢١}. و لم يكن أقل مهارة فى أداء الوظائف الحكومية، فقد كان من العادة، عند ما يسقط وزير من الوزراء، أن يرسل إلى المكان المحدد ليحصى إلى أى مدى وصل الضرر، الذى ألحقه الوزير بخزانة الدولة. فقربه الوزير ابن الفرات منه، و حين اختلس الوزير المعزول حامد ابن العباس أموال الدولة و صودرت أمواله، كان على النوبختى فى ذلك الحين أن يذهب إلى واسط، حيث يقيم حامد ابن العباس^{٧٢٢}.

بدأ أبو سهل، مثل بقية أفراد الأسرة، مساره العلمى بدراسة علم الفلك، و حقق فيه أيضا إنجازات كبيرة^{٧٢٣}. و تولى وظائف حكومية مثل

^{٧٢٠} (١١٢) خندانى النوبختى، ص ٩٤.

^{٧٢١} (١١٣) ابن التديم الفهرست، ص ١٧٦.

^{٧٢٢} (١١٤) تاريخ الوزراء، ص ٣٤-٣٥، و خندانى النوبختى، ص ١٠٠.

^{٧٢٣} (١١٥) ديوان بن الرومى، ج ١، ص ١٢٢/١٢٣ (الطبعة المصرية)، و خندانى النوبختى، ص ١٠٤.

معظم زملائه فى التخصص، و ها نحن نسمع أنه كان يعمل فى مجال المالية بمنطقة الأهواز. و لقد وقف، رغم مركزه الحكومى، إلى جانب الشيعة و تصدى لأعدائهم، فكانت له مناظرات مع أبى على الجبائى (٢٣٥ - ٣٠٣)، الذى لم يكن شيعيا، و قد ذكرنا سابقا سلوكه مع الحلاج^{٧٢٤}.

و بعد أن انتقل إلى بغداد أصبح رئيسا لعشيرته و الممثل الرئيس للشيعة. و سرعان ما علت مكانته، حتى إن الناس أصبحوا ينظرون إليه نظرتهم إلى وزير، مع أنه لم يتول الوزارة أبدا^{٧٢٥}. و أصبح منزله مركزا للحياة الفكرية، فكان شعراء من طبقة البحترى (٢٠٦ - ٢٨٣) و الشاعر الشيعى ابن الرومى (٢٢١ - ٢٨٣) يترددون إلى بيته و يتحدثون معه فى القضايا الأدبية، و كان المتكلمون و الفلاسفة يتواعدون على اللقاء فى منزله.

جعل أبو سهل من نفسه محاميا للشيعة، و طلب من أعدائهم مناظرته، و أخذ على عاتقه هذه المهمة الصعبة من تلقاء نفسه و كان فخورا بذلك. أما السؤال الصعب المتعلق بالإمام المختفى، الذى شغف غير الشيعة بالحديث عنه، فقد أجاب عنه كما يلي: لقد مات الإمام الحادى عشر، و لكنه ترك ولدا هو خليفته، و بعده تواصل نسل الأئمة دون انقطاع إلى أن يرسل الله ذات يوم النسل المختفى الأخير إلى الأرض^{٧٢٦}.

على أننا نسمع من جهة أخرى أن أبا سهل قد رأى بنفسه الإمام المختفى و وقف عند فراش مرض الإمام الحادى عشر، فأراه المريض ابنه و تنبأ له بأنه سيكون الإمام الحق و أنه سيختفى من العالم^{٧٢٧}، فتعجب الناس من أبى سهل، لأنه لم يكن سفيرا، إذ كان أحد أقربائه يتقلد أعلى

منصب عند الشيعة. و قال عن علاقته بأبى القاسم الحسين بن روح بأنه هو نفسه ليس سوى مناضل من أجل قضية الشيعة؛ و لكنه لو كان سفيرا و كان يعرف أين يختفى الإمام، فلربما كان ييبح بالسر، فى حين أن ابن روح ما كان ليفعل ذلك حتى لو هم عذبه بالمقاص فى ذلك الحين^{٧٢٨}.

^{٧٢٤} (١١٦) خندانى النوبختى، ٩٧ و ١٠٤.

^{٧٢٥} (١١٧) منهج المقال، ص ٥٨.

^{٧٢٦} (١١٨) الفهرست، ص ١٧٦.

^{٧٢٧} (١١٩) الغيبة، ص ١٧٥.

^{٧٢٨} (١٢٠) الطوسى، الغيبة، ص ٢٥٥.

كان أبو سهل قد بدأ أيضا بتنظيم علم التوحيد الشيعي و الحد من تعسف علماء الشيعة. و قد كان هو نفسه متكلمًا و فيلسوفًا. و كان بصفته هذه قريبا من المعتزلة، فقد أخذ العناصر الجديدة لعلم الكلام من العالم الفكري للمعتزلة. و منذ ذلك الحين دخل علم الكلام مجرى هذا النوع من التفكير^{٧٢٩}.

لقد ألف ما طلبه منه الشيعة عن الإمامة، خصوصا ما يتصل من ذلك بالأدلة العقلية، التي تناولها ابن الوراق و الراوندي، و كان أول من أضاف مشكلة الإمامة إلى النبوة في الميدان الكلامي من خلال عرضه للنظام العقائدي^{٧٣٠}.

و عمل أبو سهل في ميادين كثيرة من علم الكلام و نظمته بإزالة النظريات القديمة منه. و في وسعنا أن نعرف من عناوين كتبه، التي وصلتنا، على وجه اليقين ما هي المشاكل، التي عالجها و من هم الأشخاص، الذي اتجه إلى معارضتهم و الرد عليهم. و لتكن العناوين الموالية مؤكدة لما قلناه:

(١) كتاب الاستيفاء،

(٢) كتاب التنبيه، و لا يعرف منه سوى العنوان الآن، و كان قد استفاد منه ابن بابويه و المفيد و الطوسي^{٧٣١}.

ص: ٢٠٦

(٣) كتاب الجمل

(٤) كتاب الأنوار في تاريخ الأئمة؛

و هذه الكتب كلها تعالج ميدان الإمامة، و قد قرأها علماء الشيعة و استفادوا منه في مؤلفاتهم^{٧٣٢}. و كتب الردود هي:

(٥) كتاب الرد على الواقعة: لقد توقف الواقعة عند الإمام السابع موسى بن جعفر (١٢٨-١٨٣ هـ) - لذلك سموا بالواقفة- و قالوا إنه لم يمت. و يقال أن أصل هذا الانشقاق ينسب إلى الوكيل حيان السراج في الكوفة: جمع الأشعثيون، فيما يقال، ٣٠. ٠٠٠ دينار و قدموها للوكيل.

^{٧٢٩} (١٢١) منهاج السنة، ج ١، ص ١٦.

^{٧٣٠} (١٢٢) خندانى النوبختى، ص ١-٣، و نخبه المقال، ص ١٣٢.

^{٧٣١} (١٢٣) خندانى النوبختى، ص ٢٨، ١١١ و ١١٦.

^{٧٣٢} (١٢٤) خندانى النوبختى، ص ١١٦.

فاستولى حيان السراج على المال و اشترى دورا و عبيدا. و ليهرب من المسؤولية عند موت الإمام السابع، ادعى أن الإمام لم يموت. و يسمى أتباع حيان أحيانا «الممطورة»، و اسم الواقعة بالمناسبة يطلق أحيانا أيضا على شيعة آخرين، توقفوا عند إمام آخر^{٧٣٣}.

(٦) الرد على الطاطرى: و الطاطرى هو أبو الحسن على بن الحسن الطائى^{٧٣٤}، عرف بالطاطرى لأنه كان يتاجر فى أقمشة، يطلق عليها اسم الثياب الطاطرية، تستعمل فى صناعة القمصان. كان رئيس الواقعة المذكورين معترفا به فى علم القوانين الشرعية. كان معاصرا لموسى بن جعفر و صديقا له. و كان الطاطرى يدافع عن دينه و يتعصب له.

و انظر عن الطاطرى منهج المقال، ص ٢٢٩ - ٢٣٠، الفهرست، ص ١٧٧، فهرست الطوسى، ص ٢١٦ - ٢١٧، نجاشى، ص ١٧٩.

(٧) كتاب الصفات فى الرد على أبى العتاهية فى التوحيد فى شعره:

كان أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم أبو إسحاق، الشاعر المعروف (١٣٠ - ٢١١ أو ٢١٣ هـ) ينتمى إلى أولئك الذين يغيرون فى حياتهم

ص: ٢٠٧

مواقفهم الدينية بشكل مطرد. و أخيرا وجد أساسه الصحيح فى التصوف الإسلامى^{٧٣٥}. و كان هذا الشاعر قريبا فى بعض آرائه من الشيعة، بينما كان يشيد بوجهات نظر أخرى متناقضة، فكان مثلا يشاطر الجبرية رأيهم فى مسألة الجبر، و استغل أعداؤه ميله إلى الشيعة لإلصاق آرائه بالتشيع.

فأجاب الشيعة على هذه الاتهامات بأنه لا يصح أن يصدر المرء أحكامه على أساس شاعر من هذا النوع، ثم إنه يوجد فى كل دين أتباع أخيار و أشرار على حد سواء^{٧٣٦}. و لعل أبا سهل قد وضع كتابه ضد أبى العتاهية ليحذر الشيعة من هذا النوع من «أصدقاء» الشيعة.

عن أبى العتاهية ينظر المصادر التالية: ابن خلكان، ج ١، ص ٨٩، الأعلام، ج ١، ص ١١٠، الأغاني، ج ٣، ص ١٢٦، ج ٦، ص ١٨٦، ج ٨، ص ٢٤، طبقات الشعراء، ص ٤٩٧، الفهرست، ١٦٠، تاريخ آداب اللغة العربية، ج ٢، ٦٧، و ديوانه المطبوع فى بيروت سنة ١٨٨٧.

^{٧٣٣} (١٢٥) تعليقات على منهج المقال، ص ٩.

^{٧٣٤} (١٢٦) يذكر فى خندانى النوبختى باسم جده أكثر مما يذكر باسم أبيه، أنظر ص ١١٧.

^{٧٣٥} (١٢٧) تاريخ آداب اللغة العربية، ج ٢، ص ٦٧.

^{٧٣٦} (١٢٨) خندانى النوبختى، ص ١٢١، و تبصرة العوام، ص ٤٢٢: فى خندانى النوبختى ذكرت صفحة ٤٢٢: صفحة ٤٢١.

٨) كتاب الرد على محمد بن الأزهر في الإمامة: لا نعرف من المقصود بمحمد بن الأزهر. يظن مؤلف خندانى النوبختى أن المقصود هو أبو جعفر محمد بن الأزهر الكاتب (٢٠٠ - ٢٧٩ هـ) ^{٧٣٧}.

٩) كتاب نقد مسألة عيسى بن أبان في الاجتهاد، يعالج اجتهاد الرأى فى الفقه، و هو ضد عيسى بن أبان (توفى سنة ٢٢١ هـ)، الذى يعد من أتباع أبى حنيفة و كان قاضيا. و كان قد وضع كتابين: إثابة القياس، و اجتهاد الرأى. ورد فيه أبو سهل على الكتابين معا، و يرد على القياس فى:

ص: ٢٠٨

١٠) كتاب فى إبطال القياس.

١١) كتاب نقد اجتهاد الرأى على ابن الراوندى:

قد يزعم البعض على العموم أن الشيعة لم يكونوا حتى الغيبة الصغرى يرضون عن اجتهاد الرأى، على انه يجب علينا أن نتذكر أن الأئمة كانوا هم الذين يحكمون فى ذلك الحين، و كان عليه أن يسألهم.

و لكن ابن الراوندى كان يرى أن على المرء أن تكون له آراؤه الخاصة فيما يتصل بالفقه أيضا، و كان هو الأول الذى سمعنا منه مثل هذه الآراء.

و تابعه فى ذلك الحسن بن عقيل العماني، كما سأحدث عنه بتفصيل عند ما أتناول الشرع القانون فيما بعد. و يبدو أبو سهل هنا ضد اجتهاد الرأى، و لذلك لم يرض عن الكتابين المذكورين آنفا.

١٢) كتاب فى استحالة رجعة القادم: يعالج الكتاب الرأى الشيعى القائل بأن الله لا يرى أبدا لا فى هذه الدنيا و لا فى يوم الحساب؛ و هو نفس ما يعتقد المعترلة. و هذا الرأى يتوجه ضد أولئك المؤمنين، الذى يعتقدون أنه سيرون الله فى يوم الحساب ^{٧٣٨}.

١٣) كتاب مجالس أبى سهل مع ثابت بن أبى قرّة أو كتاب مجالس ثابت بن أبى قرّة. كان ثابت بن أبى قرّة فيلسوفا، و أصله من مدينة حران، عاش من ٢٢١ إلى ٢٨٨ هـ. و كان له اعتباره بوصفه فيلسوفا و منطقيا و رياضيا و طبيا. و من خلال ما حققه فى علم الفلك انتبه إليه الخليفة المعتضد (من ٢٧٩ - ٢٨٩)، فولاه منصبا كبيرا فى قصره، و كان يدخل عليه و يخرج بحرية تامة. و

^{٧٣٧} (١٢٩) خندانى النوبختى، ص ١١٧؛ هناك فى كتاب ميزان الاعتدال رجلان بهذا الاسم، و كلاهما محدثان، و لكن حديثهما لا يلقى كثيرا من التقدير (ينظر ميزان الاعتدال، ج ٣، ص ٢١).

^{٧٣٨} (١٣٠) عن رؤية الله ينظر أصول الدين، ج ١، ص ٩٧ - ١٠٢، ابن حزم، ج ٢، ص ٢ - ٤، تبصرة العوام، ص ٤٢٢، مقالات الأشعرى، ص ٢١٣ - ٢١٧، خندانى نوبخت، ص ١٢٣، ١٣١.

استعمل مركزه لمساعدة إخوانه في الدين، الصابئة، و كانت له حوارات فكرية نشيطة مع أبي سهل، و لذلك فهي موجودة في كل كتاب من كتابي الرجلين^{٧٣٩}.

ص: ٢٠٩

(١٤) كتاب الرد على أصحاب الصفات؛

(١٥) كتاب الصفات: و هذان الكتابان يعالجان أيضا صفات الله، التي كانت موضوع منازعات كبيرة بين الأشعرية و الفرق الأخرى و نالت الاهتمام في كل كتب المتكلمين تقريبا. ينظر تفاصيل ذلك في الشهرستاني، ٦٤ / ٦٥، مقالات الأشعرى، ص ٥٨٢.

(١٦) كتاب الرد على المجبرة في المخلوق و الاستطاعة: لقد شغل علم الكلام أيضا مشكل هل الإنسان يعمل و يترك بإرادته أو بأمر من الله.

و هنا يتجه أبو سهل ضد أتباع تعاليم الجبر^{٧٤٠}.

هناك ٢١ عنوانا لأبي سهل معروفة لدينا، لا تقدم جديدا و تتردد باستمرار في كتب الشيعة، و هي عند خندانى النوبختى على أتم ما تكون و لها شروح كثيرة.

تلاميذ أبي سهل النوبختى

توسع عمل أبي سهل النوبختى عن طريق تلاميذه، فقد بقى صرح علم الكلام بعناصره الأساسية، كما أقامه الأستاذ، و لم يتم تزيينه من قبل تلاميذه إلا هنا و هناك. و أهم ممثلى مدرسته هم:

الناشئ الأصغر

(٢٧١ - ٣٦٥ هـ) ^{٧٤١}

كان أبو الحسن عبد الله بن واصف الناشئ الأصغر من أعظم تلاميذ أبي سهل النوبختى. لبس بصفته متكلماً و فقيها فقط، و إنما نال شهرة في ميدان الشعر أيضا. ولد في منطقة باب الطاق ببغداد و نشأ بها، و في سنة ٣٢٥ هـ انتقل إلى الكوفة و أملى أشعاره في المسجد على مجموعة كبيرة

^{٧٣٩} (١٣١) أخبار الحكماء، ص ٨٠، و خاندانى النوبختى، ص ١٢٠.

^{٧٤٠} (١٣٣) ينظر خندانى النوبختى، ص ١١٩.

^{٧٤١} (١٣٣) معجم الأدباء، ج ٥، ص ٢٣٥، الشيعة و الفنون، ص ١٠٨.

من الناس. و كان بين مستمعيه الشاب و الشاعر فيما بعد المتنبي (توفى سنة ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م) ٧٤٢.

كان الناشئ فى خطبه بليغا معجبا، و كذا كان فى شعره، و لذلك أثنى عليه الشيعة و السنة على السواء. أما فى الفقه، فكان من الذين لا يعترفون بالاجتهاد. بناء على هذا فقد كان يفكر إذن تفكير داود الظاهري، الفقيه السنى ٧٤٣. و لعل الناشئ قد استمد هذا الرأى من أستاذه أبى سهل، الذى وضع، كما رأينا، تلك الكتب فى رفض الاجتهاد. على أنه لا ينبغى لنا أن ننسى أن الشيعة كانوا فى ذلك الحين على العموم ضد الاجتهاد ٧٤٤.

و لم يهتم الناشئ كثيرا بالخطر، الذى كان وقتئذ يهدد عقيدته من قبل رجال السلطة السياسية، و إنما كان يتغنى بعقيدته دون ما خوف. و كان ذكيا، حتى إنه كان ينجح دائما فى تجنب الشباك، التى كان أعداؤه ينصبونها له. لقد قدم مرة إلى الخليفة الراضى، فعرف الناشئ كيف يكسب إلى جانبه قلب الخليفة و يحول الحديث عن الأشياء الدينية ٧٤٥.

و أدخل الناشئ النكتة و الحنكة فى نزاعه مع الأشعرى عن أفعال الإنسان، عند ما زعم الأشعرى أن الله يتسبب فى الأفعال كلها. و حين تعذر الوصول فى الجدل إلى نتيجة، لجأ الناشئ إلى برهان، كان فى «متناول اليد»: لقد صفع خصمه و خيره بين أن يقبل الصفعة و يظل على رأيه فى أن الله هو الذى حمل الناشئ على صفعه، أو يرد له الصفعة حتى لا يخرج عن قناعته ٧٤٦، و هكذا كسب الناشئ الضاحكين إلى جانبه.

عن ترجمة الناشئ ينظر فهرست الطوسى، ص ٢٣٣، النجاشى، ص ١٩٣، تذكرة المتبحرين، ص ٤٩١ (فى ملحق منهج المقال، و خاندانى النوبختى، ص ١٠٥).

أبو الجيش البلخى

(توفى ٣٦٤ أو ٣٦٧ هـ) ٧٤٧

٧٤٢ (١٣٤) ابن خلكان، ج ١، ص ٤٤٧.

٧٤٣ (١٣٥) منتهى المقال، ص ٢٧٧.

٧٤٤ (١٣٦) الانتصار، ص ...

٧٤٥ (١٣٧) معجم الأدباء، ج ٥، ص ٢٣٥.

٧٤٦ (١٣٨) نفسه.

٧٤٧ (١٣٩) منتهى المقال، ص ٣٠٢.

تلميذ آخر من تلاميذ أبي سهل هو مساعده أبو الجيش مظفر بن محمد البلخي الخراساني، و كان متخصصا في علم الكلام و الحديث.

و كتب مثل أستاذه كتباً ضد من ليسوا شيعة ليدافع عن طائفته. فكتب ضد كتاب الجاحظ عن المسألة العثمانية، الذي يدافع فيه عن المروانية أو العثمانية، رداً تحت عنوان نقد العثمانية. و كتبه الأخرى تعالج موضوع الإمامة و تبرير الشيعة مثل:

(١) مجالسة مع المخالفين في معان مختلفة،

(٢) كتاب فذك: و فيه يعالج النزاع حول فذك، الأرض، التي كانت للنبي و طالبت بها فاطمة. لكن أبا بكر منعها من أخذ ميراثها، فصار هذا الحدث مع مسائل أخرى محل جدال جدير بين السنة و الشيعة.

(٣) كتاب الرد على من جَوَّز على القديم البطلان؛

(٤) كتاب النكت و الأعراض في الإمامة.

و كان من بين من درسوا على البلخي المفيد، الذي استطاع فيما بعد أن جمع في نفسه كل علوم عصره.

ينظر عن البلخي: منهج المقال، ص ٣٣٥، منتهى المقال، ص ٣٠٢، النجاشي، ص ٢٩٩، فهرست الطوسي، ص ١٧٨، روضات الجنات، ص ٣١، خندانى النوبختى، ص ١٠٦.

ص: ٢١٢

محمد بن بشر السَّوسنجردى

(توفى سنة ٢٦٦ هـ) ٧٤٨

دافع أيضاً بوصفه تلميذ النوبختى عن تعاليم الشيعة، و يروى عنه أنه حج إلى مكة خمسين مرة مشياً على الأقدام، و هو من أولئك الذين يعترفون بالوعيدية^{٧٤٩}، و لم يعرف من كتبه سوى عنوانين، يتناولان موضوع الإمامة:

(١) المقنع في الإمامة.

^{٧٤٨} (١٤٠) هكذا ورد في منهج المقال، ص ٢٨٦؛ و يبدو لى أن هذا خطأ؛

^{٧٤٩} (١٤١) الوعيدية ليسوا طائفة، و إنما هم ممثلوا وجهة نظر فقهية: عند ما يكون هناك وعد أو وعيد من الله ضد آثم كبير، فإن الله ينفذ ما قاله دائماً بدون نقصان أو بدون رحمة. و سيخلد الآثمون في النار أبداً. ينظر خندانى النوبختى، ص ٣٦، ١٣١، و ١٧٥، و كان الطوسى قد أثنى الطوسى (توفى سنة ٤٦٠ هـ) في مرحلته الأولى على هذه الصرامة؛ ينظر روضات الجنات، ج ٣، ص ٥٨٠.

(٢) كتاب المنقذ أو الإنقاذ (الإنقاذ) في الإمامة.

المصادر: منهج المقال، ص ٢٨٦، منتهى المقال، ص ٢٦٥، النجاشي، ص ٢٦٦، الفهرست، ص ١٧٧، خندانى النوبختى، ص ١ - ٦.

كان هناك إضافة إلى أبى سهل، الذى جمع مدرسة حوله، علماء

آخرون فى ميدان علم الكلام:

أبو جعفر محمد بن قبة الرازى

(توفى فى بداية القرن الرابع للهجرة)

مثلما كان الأمر مع أبى عيسى الوراق و ابن الراوندى، اللذين كانت لهما مكانة مرموقة عند المعتزلة، ثم أدارا ظهريهما لهم، كذلك كان الأمر مع ابن قبة، الذى بدل معتقده، و دافع عن عقيدته الجديدة شفاها و كتابة بحماسة رجل اهتمدى إلى دينه الصحيح، و قد قيل عنه

ص: ٢١٣

أيضا أنه حج خمسين حجة مشيا على الأقدام.

تتمثل العناوين الرئيسة، التى وصلتنا من كتبه فى:

(١) كتاب الرد على الزيدية: الزيدية يعترفون بزيد بن على بن الحسين بوصفه إماما بدل أخيه محمد الباقر. فالزيدية يرون أنه من الممكن أن يكون الأئمة من عقب الأخوين الحسن و الحسين و ليس فقط من عقب الحسين، و ذلك من الأب مباشرة الابن الأكبر إلى الإمام الثانى عشر. و لا يجوز عند الاثنى عشرية أن يكون الأخوان إمامين أحدهما بعد الآخر^{٧٥٠}. و لم يتهم الزيدية الخلفاء الثلاثة الأوائل قبل على مثلما فعل الشيعة، فقد زعموا أن خلافة هؤلاء الخلفاء الثلاثة صحيحة، و لو أن عليا كان أفضل منهم^{٧٥١}.

(٢) كتاب الرد على أبى على الجبائى،

(٣) المسألة المفردة فى الإمامة،

^{٧٥٠} (١٤٢) ما عدا الحسن و الحسين!

^{٧٥١} (١٤٣) عن الزيدية ينظر دائرة المعارف الإسلامية، مقالة الزيدية بقلم ر. شتروتمان، يضاف إلى ذلك ر. شتروتمان القانون العام عند الزيدية R. Strothmann.

Staatsrecht der Zaiditen, و يتصل هذا بالتربية عند الزيدية.

٤) كتاب الإنصاف: يتناول هذا الكتاب الأخير موضوع الإمامة، و قد ألفه في مدينة الري، التي كان يقيم فيها، فأخذ أحد معارفه الكتاب و حمله إلى أبي القاسم الكعبي البلخي، الذي كان شيعيا. فوضع هذا كتابا فيما قرأناه عن ذلك، و مضى به إلى ابن قبة، فألف ابن قبة أيضا كتابا في الدفاع عن نفسه و الرد عليه، و هو كتاب المستثبت، و مات بعد ذلك بقليل.

المصادر: منهج المقال، ص ٣٠٢، النجاشي، ص ٢٦٦، خندانى النوبختي، ص ٩٤ / ٩٥.

ص: ٢١٤

الحسن بن موسى النوبختي

(توفي سنة ٣٠٠ أو ٣١٠ هـ) ٧٥٢

يعرف الحسن على وجه خاص بأنه فيلسوف، و عمل في ميدان علم الكلام. و كان منزله ملتقى الكثير من المهتمين و المترجمين، الذين كان لهم جدال كثير مع الحسن، و كانوا قد نقلوا كتباً فلسفية من لغات أجنبية إلى العربية: كان أبو عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقي^{٧٥٣}، و أبو يعقوب إسحاق بن حنين (توفي سنة ٢٩٣ هـ)^{٧٥٤}، و أبو الحسن بن ثابت بن أبي قرة (٢٢١ - ٢٨٨ هـ) يترددون على بيته^{٧٥٥}.

نقل الحسن بن موسى بخط يده كتباً فلسفية من كتب أجنبية و وسع بذلك معلوماته الخاصة. و كان يميل مثل عمه (خاله) أبي سهل إلى قضية المعتزلة، و لذلك وقع نزاع بين المعتزلة و الشيعة عن انتماء هذا العالم المبجل، على أننا لا نشك في أنه كان شيعيا^{٧٥٦}. وصلنا ما يزيد عن الأربعين من عناوين كتبه، جمعت في كتب التراجم، خصوصا في كتاب خندانى النوبختي. و معظم كتبه يتناول، كما نرى من العناوين، الميتافيزيقا و الفيزياء. أما عن علم الكلام، فهناك ثلاثة كتب معروفة على وجه الخصوص. و قد نشر ريتر «كتاب فرق الشيعة»، و الآخرا «الرد على الغلاة» و «كتاب الآراء و الديانات» نعرفهما مما نقله عنهما كتاب آخرون.

ذكر الخطيب البغدادي أنه قرأ كتاب «الرد على الغلاة»، و نقل عنه بعض

ص: ٢١٥

^{٧٥٢} (١٤٤) خندانى النوبختي، ص ١٢٥.

^{٧٥٣} (١٤٥) نفسه، ص ١٢٧، ١٢٩؛ الفهرست، ص ١٧٧، و ضد الإيضاح (طبع على الصفحة نفسها مع فهرست الطوسي).

^{٧٥٤} (١٤٦) كان طبيبا مسيحيا و مترجما من اليونانية و السريالية إلى العربية. توفي سنة ٢٩٨ هـ.

ينظر عنه أخبار الحكماء، ص ٥٧ (الطبعة المصرية)

^{٧٥٥} (١٤٧) الفهرست، ص ١٧٧.

^{٧٥٦} (١٤٨) الفهرست، ص ١٧٧.

الجميل. واستعمل ابن الجوزي وابن أبي الحديد الكتاب الآخر «كتاب الآراء والديانات»^{٧٥٧}.

و يشك خندانى النوبختى فى صحة نسبة كتاب «فرق الشيعة» المنسوب إلى الحسن، و يذكر عددا من الأسباب التى جعلته يرى هذا رأى^{٧٥٨}.

أبو إسحاق إبراهيم

(توفى فى النصف الأول من القرن الرابع للهجرة) أبو اسحاق سليل أسرة النوبختى أيضا، و رغم أن له إسهامات مهمة فى علم الكلام، فإن المصادر الشيعية و السنية على السواء لا تذكر الشىء الكثير عنه. و المعروف من كتبه كتابان «كتاب الياقوت» و «كتاب الابتهاج». و لا يزال الكتاب الأول موجودا إلى اليوم، و وضع العلامة الحلى شرحا له: «أنوار الملكوت فى شرح الياقوت»^{٧٥٩}.

الإسكافى محمد بن أبى بكر بن همام بن سهل

(٢٥٨-٣٣٦ هـ)

كان الإسكافى متكلمًا و محدثًا متعدد الجوانب، و كان أبوه من أتباع المذهب المانوى، لكن الابن تشيع و بلغ مركزا علميا مرموقا^{٧٦٠}.

ص: ٢١٦

علم الحديث

ساد ميدان الحديث، كما سبق أن ذكرنا، اضطراب كبير إلى حد ما بعد موت الأئمة. كان هناك حديث فى مقابل حديث، و كانت التزييفات رائجة. كان لا بد من جمع المعلومات عن المحدثين، و عن عصرهم، و عن علاقتهم بالأئمة، و عن الثقة بهم و غير ذلك. فوضع أبو جعفر أحمد بن محمد بن خالد البرقى^{٧٦١} كتبا عن حملة الحديث، و كان هو نفسه محدثا، نقل الحديث دون تمحيص. و كتب رجال آخرون مثل هذا الكتب أيضا، و لكن بما أن هذه الكتب لم تصلنا، فإننا لا نستطيع أن نقول شيئا عن مناهجهم فيها.

^{٧٥٧} (١٤٩) خندانى النوبختى، ص ١٣٥ - ١٤٠

^{٧٥٨} (١٥٠) خندانى النوبختى، ص ١٤٠ و ما بعدها.

^{٧٥٩} (١٥١) خندانى النوبختى، ص ١٦٦ و ما بعدها، و ضحى الإسلام، ج ٣، ص ٢٦٧. عن أبى إسحاق ينظر أيضا: الشيعة و فنون الإسلام، ص ٤٨، ابن أبى الحديد، ج ٤، ص ٥٧٥، روضات الجنات، ص ٤٢٣.

^{٧٦٠} (١٥٢) الشيعة و فنون الإسلام، ص ٩٣، منتهى المقال، ص ٢٩٦، منهج المقال، ص ٢٧٤.

^{٧٦١} (١٥٣) توفى سنة ٢٧٤. ينظر عنه الشيعة و فنون الإسلام، ص ٦٩، منتهى المقال، ص ٤٢، منهج المقال، ص ٤٣.

و أقدم كتاب وصلنا عن المحدثين يعود إلى أيام الغيبة الصغرى، و قد وضعه أبو عمر عبد العزيز، الذى عاش فى القرن الخامس. يحاول فى كتابه أن يفرق بين المحدثين «الأقوياء» و المحدثين «الضعفاء»، و لكنه لم يبلغ، كما نرى من كتابه، هدفه، و لم يستطع التوفيق بين الأحاديث المتناقضة بعضها مع بعض. و بعده واصل الفضائرى عمله، و لكنه لم يتناول سوى المحدثين «الضعفاء». و اهتم النجاشى و الطوسى كذلك بهذه المهمة العلمية. و أخيرا جاء العلامة الحلى و نظم الأعمال، التى قام بها سابقوه، و كان النجاشى مصدره الأساسى^{٧٦٢}.

كانت مسألة الأخبار الآحاد، أى الشكل الذى صيغت فيه جميع الأحاديث فى ذلك الحين، تتطلب الحل، لأن الحديث الذى يرويه شخص واحد أو شخصان يتضمن درجة عالية من قلة اليقين. و كان ابن قبة، الذى سبق أن تحدثنا عنه، يعمل فى هذا المجال^{٧٦٣}. و قد أوضح

ص: ٢١٧

الحسن بن موسى النوبختى المسألة نفسها فى كتابه^{٧٦٤}. لكن المشكلة ظلت فى أيام الغيبة الصغرى بدون حل، إلى أن توصل الشريف المرتضى إلى اتخاذ قرار حاسم، تمثل فى إلغاء الأخبار الآحاد تماما^{٧٦٥}. و لكن قدوة المرتضى من حيث السطوة قد تفوق عليها محمد بن أحمد بن إدريس الحلى (توفى سنة ٥٧٨ أو ٥٩٨ هـ)، الذى تخوف أن يكون الإسلام كله قد شوه عن طريق أخبار آحاد، و لذلك وصل إلى نتيجة، هى أن كل أحاديث الأئمة إنما هى «أخبار آحاد»، و من ثم يجب إلغاؤها^{٧٦٦}.

و فى الوقت، الذى كان فيه الشيعة ينتقدون الأخبار الآحاد و يضعون الكتب عن المحدثين، بدأ جامع الأحاديث المعروف محمد بن يعقوب الكلينى^{٧٦٧}، المدعو ثقة الإسلام الرازى، عمله.

^{٧٦٢} (١٥٤) مختصر التحفة، ص ٣٧.

^{٧٦٣} (١٥٥) روضات الجنات، ج ٣، ص ٥٩٨.

^{٧٦٤} (١٥٦) خندانى النوبختى، ١٣٣.

^{٧٦٥} (١٥٧) روضات الجنات، ج ٣، ص ٣٨٥ و ٥٩٨.

^{٧٦٦} (١٥٨) نفسه

^{٧٦٧} (١٥٩) نفسه. ذكر بروكلمان كلمان، تاريخ الأدب العربى، ج ١، ١٨٧، ٣، الكلينى (لكن ر.

شترتمان، فى مصادر الشيعة، السجل رقم ٤٠٥ عند أ. هراسوفيتس al-Kulaini - ٤١ - ٣١، p. Harassowitz. O، الكلينى، و قد صلت عند شترتمان، الشيعة الاثنا عشرية، و كذلك الأمر فى دائرة المعارف الإسلامية، مقالة الشيعة، دون الإشارة إلى ذلك. و لكن بروكلمان، تكملة، ١ / ٣٢٠ / ٧ أعاد نفس الرسم للكلمة مخالفا لشترتمان، و ذلك اعتمادا على أنساب، ف ٤٨٦ للسماعى؛ على أن المقصود هناك عالم آخر، بغض النظر عن أن التعريف فى الصيغة الحاضرة غير مفهوم. المكان يقع بالرى، فى حين أن هامشا فى الصفحة ينقله إلى العراق. و ياقوت، ٤، ص ٣٠٣، ٨ لا يضع علامات الشكل فوق الحروف؛ الطبعة تضع الضمة) منهج المقال، ص ٣١، و ٣٢٩ و الكتورى، ص ٤١٩، يقرآن الكلينى (بفتح اللام). و فى قصص العلماء، ص ٣٠٦، مؤلف القاموس كتب الكلينى (بكسر اللام)، و نجد رسم الكلمة نفسه فى مجالس المؤمنين (ينظر مقالة الكلينى). و لكن قصص العلماء يضيف إلى ذلك أن الكتابة، التى جاءت فى القاموس خاطئة. و قد يكون الحاسم فى الأمر أن الاسم ينطق الكلينى (بفتح اللام) بين الإخوة فى الدين منذ القديم. و يذكر بروكلمان، المصدر السابق، بوصفه مجددا لفقه الإمامية، غير أنه مجدد للحديث، و لعل الغلط قد نشأ إلى حد ما أن بروكلمان لا يعد فى الحديث إلا أهل السنة. و لا أنه لا يصح أن يستمر وقوع الدراسات الشرقية فى هذا الخطأ. يجب أولا التفريق

و مسقط رأسه هو كلين قرب الري، و ذهب فيما بعد إلى بغداد، حيث جمع المصادر لمجموعته الكبرى «الكافي في علم الدين». و قد احتاج حتى إتمام كتابه مع نهاية الغيبة الصغرى ٢٠ سنة، و توفي سنة ٣٢٩ أو ٣٢٨ هـ و دفن في حى باب الكوفة ببغداد^{٧٦٨}. و فى وقت متأخر ظهرت قصة عجيبة عن الكلينى: أراد حاكم بغداد المبعض للشيعة حفر قبر الإمام موسى بن جعفر للقضاء على حماس الشيعة، الذين كانوا يأتون من بعيد لزيارة ذلك القبر، و على اعتقادهم بعدم تعفن الأئمة. و عند ما أراد الحاكم الأمر بفتح القبر، قال له الشيعة إنهم آمنوا أيضا بعدم تعفن موتاهم، و قدموا له قبر الكلينى لاختبار ذلك. و لما استخرجوا الجثة، ظهر أن الجثة لم تفسد و كأنها جسم إنسان نائم. فتشيع الحاكم و أمر بإقامة تمثال على قبر الميت.

روى أحمد بن عبدون أنه كثيرا ما زار قبر الكلينى فى صراط الطائى، لكنه اختفى فى عصره، و منذ ذلك الوقت لم يعد يجد له أثرا.

و يظهر الناس اليوم قبرا قرب تكية المولوية فى القسم الشرقى من بغداد، يزعمون أنه للكلينى، يزوره السنة و الشيعة على السواء و هذا رأى خاطئ طبعاً، فهو لا يتفق فى أى شىء مع شهادات كتاب التراجم. و من

كتب الكلينى الشهيرة، التى حفظت اسمه حيا إلى يومنا هذا، و التى يجب إبرازها بشكل خاص، كتاب الحديث «كتاب الكافي فى علم الدين».

و لعله أشهر كتب الحديث الشيعية الأربعة الكبرى. فهو يحتوى على ١٦١٩٩ حديثاً، و مقسم إلى جزئين «أصول الكافي» و «فروع الكافي».

و قد قسم هذان الجزآن بدورهما إلى فصول، و تظهر الأحاديث عادة فى بداية الفصل أفضل منها فى نهايته^{٧٦٩}.

بين الحديث و الفقه، و ثانيا يجب علينا ألا نخلع صفة الحقيقة إلا ما تقدمه لنا المصادر عن عقيدة الشخصيات، التى نحن بصدددها، و ليس آراءنا الشخصية. ففى رأى الشيعة أن أحاديث الأئمة تنتمى أيضا إلى الحديث مثل حديث الرسول!

^{٧٦٨} (١٦٠) منهج المقال، ص ٣٢٩، روضات الجنات، ج ٣، ص ٥٥٠ و قصص العلماء، ص ٣٠٦. و قد ذكر أحمد أمين فى كتابه ضحى الإسلام، ج ٣، ص ٢٦٧ أن الكلينى قد توفي فى بغداد و نقل فيما بعد إلى الكوفة. و هذا من الأخطاء الجغرافية و التاريخية، التى يرتكبها أحمد أمين.

^{٧٦٩} (١٦١) روضات الجنات، ج ٣، ص ٥٥٠.

و بين الأخباريين المتبعين للحديث ضرورة، الذين سنتحدث عنهم فيما بعد، و بين الأصوليين، ممثلى الاجتهاد، يوجد اختلاف فى تقويم مضمون الكافى. فالأخباريون يعترفون بالمضمون من غير قيد و لا شرط، أما الأصوليون فقد ظهر لهم أن يخضعوا ثلثين للفحص^{٧٧٠}.

كان الكلينى يرى أن مهمته تنحصر فى جمع الأحاديث المتفرقة، و كان هدف علماء علم الحديث أن يحكموا على شخصيات المحدثين و منزلة أحاديثهم. و هكذا قسم السيد جمال الدين أحمد بن طاوس (توفى سنة ٦٧٣ هـ / ٦٧٢ م) أحاديث الشيعة كلها، سواء من الكافى أو من المجموعات الثلاث الأخرى، إلى أربع طبقات: صحيح، موثق، قوى، ضعيف^{٧٧١}.

و بعد ابن طاوس أخذ العلامة الحلى هذا التقسيم الرباعى، و منذ ذلك الحين أصبحت تلك التعابير مصطلحات خاصة فى علم الحديث.

و بناء على هذا الترتيب تم إحصاء كل ١٦١٩٩ حديثا فى ٥٠٧٢ من المجموعة الأولى، ١١١٨ من المجموعة الثانية، ٣٠٢ من المجموعة الثالثة، و ٩٤٨٥ من المجموعة الأخيرة^{٧٧٢}.

ص: ٢٢٠

و الكتب الثلاثة الأخرى النمطية هى «كتاب من لا يحضره الفقيه» لابن بابويه القمى، و يحتوى على ٣٩١٣ حديثا، و «كتاب التهذيب» و «كتاب الاستبصار»، و كلاهما من تأليف الشيخ الطوسى. يحتوى الاستبصار على ٥٥١١ حديثا، لكن الطوسى يلاحظ عليه فى كتبه عدم الاحتراس، خصوصا فى «كتاب التهذيب»، فيما يتعلق بالأشخاص و الأحاديث، فكان على العلماء أن يعيدوا القيام ببحوثه^{٧٧٣}. على أن هناك لابن بابويه كتابا آخر، اعتبره الشيعة كتابا خامسا من كتب الحديث:

مدينة العلم. و كان موجودا حتى زمن الشهيدين^{٧٧٤}، و لكنه ضاع منذ ذلك الحين و لم يظهر له أثر رغم بحث الشيعة عنه.

الفقه

^{٧٧٠} (١٦٢) نفسه، ص ٣٧ و هبة الدين، رسالة خاصة.

^{٧٧١} (١٦٣) الشيعة و الفنون، ص ٣٧.

^{٧٧٢} (١٦٤) روضات الجنات، ج ٣، ص ٥٥٠؛ يقول أحمد أمين ضحى الإسلام، ج ٣، ص ٢٦٧ بوضوح أن الكلينى صاحب التقسيم الرباعى أسوة بأهل السنة، و لكن أحمد أمين لا يذكر مصدر زعمه هذا!

^{٧٧٣} (١٦٥) ر. شتروتمان، مصادر الشيعة، ص ١٤ رقم ١٨.

^{٧٧٤} (١٦٦) الشهيدان هما عالمان قتلها أهل السنة، و هما محمد بن المكى العاملى، و زين الدين بن على بن أحمد، و قد درس الأول على الشيعة و السنة، و درس الأخير على السنة.

كان العاملى متأثرا بأهل السنة و كذلك زين الدين فى مصطلحاته فى ميدان دراية الحديث. ينظر عن الاتنين «أمل العامل»، ص ٤٥٥ أو ٤٣٦، و. شتروتمان، مصادر الشيعة، ص ١٧ رقم ٣٥ و ص ١٩ رقم ٤٠-٤٢، و. شتروتمان، مصادر...، ص ١٨ رقم ١٤٨، روضات الجنات، ج ١، ص ٤٤.

كان الحديث و الفقه شيئا واحدا عند الشيعة الاثنى عشرية. كانوا من أتباع الأخبار دون أن يتعرضوا لها بالنقد. و هكذا كان الأمر بالنسبة إلى ميدان الفقه حتى عصر الكليني. و كان العماني و ابن الجنيد، و هما معاصران للكليني، يناديان بمذهب جديد مستقل فى الفقه مع الاستعانة بجميع الوسائل فيما يتصل باجتهاد الرأى و تصفية الأحاديث. و قد لاقى العالمان فى البداية مقاومة شديدة، و لكن مذهبهما تم له النفوذ شيئا

ص: ٢٢١

فشيئا، و ازداد قوة باعتراف المفيد به. و فى النهاية أصبح المذهب الجديد أساسا لتطور الفقه الشيعى^{٧٧٥}.

لم تكن هناك اختلافات فى الفقه تستحق الذكر داخل الشيعة الاثنى عشرية؛ على أن فجوة الفروق بين الشيعة و غير الشيعة قد أصبحت بذلك أكثر اتساعا. مع ذلك فإن مقاس الاختلاف بين الفقه عند السنة و الشيعة كان يتأرجح، إذا نحن أخذنا بعين الاعتبار تطور الاختلافات القديمة نسبيا، حسب الوضع السياسى^{٧٧٦}.

الواقع أن ابن الراوندى، الذى تحدثنا عنه سابقا، كان دعا إلى الاجتهاد قبل العالمين المذكورين، و لكن الشيعة الاثنى عشرية اعتبروا ابن الراوندى غير مأمون الجانب متهما، و من هنا يتضح لما ذا لم يحض مذهب بالتقدم و الانتشار، و قد حظى فيما بعد بمناقشة رجال عظام له مثل أبى سهل النوبختى^{٧٧٧}.

و أصل العماني من عمان فى الجنوب الشرقى من الجزيرة العربية، و كان أبوه قد توفى فى المدينة سنة ١٦٧ هـ^{٧٧٨}، أما هو نفسه فكان معاصرا للكليني^{٧٧٩}. منذ هذا الوقت تقريبا تأصل الاجتهاد فى المذهب الشيعى. و قد انحرف العماني فى بعض النقط عن أهل السنة، مثلا فى مسألة نظافة الماء و نجاسته، التى أثارها مالك بن أنس^{٧٨٠}. و نعد من

ص: ٢٢٢

المسائل، التى كان للعماني رأى خاص فيها، مسألة الأذان و إقامة الصلاة فى صلوات الصبح و المغرب.

^{٧٧٥} (١٦٧) روضات الجنات، ج ١، ص ٣٣، و ج ٣، ص ٥٩٠: فى هذا المكان يتحدث المؤلف أيضا عن تطور الفقه الشرعى.

^{٧٧٦} (١٦٨) منهاج السنة، ج ١، ص ١٤٦: توجد هنا اختلافات فقهية كثيرة بين السنة و الشيعة، و من المهم أن يراقب الإنسان كيف أن للسنة بعض التقاليد الشرعية، التى يشتركون فيها مع الشيعة، لا شىء إلا لأنها كانت للشيعة أيضا؛ ينظر تلبس إبليس، ص ١٠٥.

^{٧٧٧} (١٦٩) خندانى النوبختى، ص ٩٤ و ١٢٠.

^{٧٧٨} (١٧٠) روضات الجنات، ج ٢، ص ١٦٨.

^{٧٧٩} (١٧١) قصص العلماء، ص ٣٣١، روضات الجنات، ج ٣، ص ٥٢٠.

^{٧٨٠} (١٧٢) نفسه.

كان هناك فى هذا الوقت علماء عظام من أمثال جعفر بن محمد بن موسى بن قولويه (توفى سنة ٣٦٩ هـ)^{٧٨١} و محمد بن أحمد بن الجنيد (توفى سنة ٣٨٨ هـ) و على بن موسى بن بابويه القمى. و قد اشتهر القمى من هؤلاء الثلاثة فى ميدان الفقه و الحديث، و قيل عنه إنه كان يتراسل مع الإمام المختفى، و كان هناك تبادل المعلومات بينه وبين العماني^{٧٨٢}.

و كانت كتب العماني أكثر انتشارا فى خراسان: كان حجاج خراسان قد تعودوا، عند ما يعودون من مكة عن طريق بغداد، على شراء كتب العماني و أخذها معهم إلى بيوتهم^{٧٨٣}.

و كان الرجل، الذى واصل عمل العماني مدى الحياة، هو محمد بن أحمد بن الجنيد البغدادي، و يلقب أحيانا بالكاتب أو الإسكافي. و لم يبق ابن الجنيد عند الاجتهاد، كما طبقه سابقه، و إنما تجاوز ما وجده العماني: لقد استعمل منهج القياس كما استعمله الحنفية^{٧٨٤}. و قد يكون من الغريب أن نعرف هنا أن القياس كان ممنوعا عند الشيعة منعاً باتاً، لأنه يفتح الباب للتعسفات الشخصية، ثم إنه لا يجوز أن يكون هناك رأى خاص فيما يتصل بالأمر الديني^{٧٨٥}. و يطلعنا الكافي و كتب أخرى على مجموعة من الأقوال، تنسب فيما يقال إلى الأئمة أنفسهم، جاء فيها أن القياس يضر بالعقيدة و «يسىء» إليها^{٧٨٦}.

ص: ٢٢٣

لقد عرض الجنيد نفسه بسبب رأيه فى القياس لعداوة خصومه من الشيعة، فقالوا عنه إنه سمي نفسه سفيرا^{٧٨٧}. و حاول بعض الناس أن يجدوا له مبرراً، و دافعوا عنه بأن تهمة القياس مبنية على سوء الفهم. فلم يرد ابن الجنيد سوى مقارنة رأى السنة برأى الشيعة، لكنه هو نفسه ابتعد عن القياس. على أن تأمل عناوين كتب الجنيد يرينا أن هذا الدفاع ضعيف جداً، ذلك أن ابن الجنيد قد انتقد بوضوح أولئك الذين أصدروا حكمهم على القياس^{٧٨٨}، ثم إن شهادة الطوسى، الذى لا يبعد عنه زمناً، لها وزنها: لقد اعترف الطوسى أنه وضع كتب ابن الجنيد جانباً بسبب موقفه من القياس^{٧٨٩}.

^{٧٨١} (١٧٣) تذكرة المتبحرين، ص ٤٦٦.

^{٧٨٢} (١٧٤) قصص العلماء، ص ٣٣١.

^{٧٨٣} (١٧٥) منهج المقال، ص ٩٦.

^{٧٨٤} (١٧٦) روضات الجنات، ج ٣، ص ٥٨١، ضد الإيضاح، ص ٢٦٧، منهج المقال، ص ٩٦.

^{٧٨٥} (١٧٧) أصل الشيعة، ص ١١٥، الكافي، ص ٢١.

^{٧٨٦} (١٧٨) الكشي، ص ١٢٥، الكافي، ص ٢١، ضحى الإسلام، ج ٣، ص ٢٦٤.

^{٧٨٧} (١٧٩) قصص العلماء، ص ٣٣١.

^{٧٨٨} (١٨٠) وضع كتابين فى الدفاع عن وجهة نظره، نعرف عنوانهما:

(١) كتاب كشف التمويه و الالتباس على أغمار الشيعة فى أمر القياس،

(٢) إظهار ما بتره أهل العناد من الرواية عن الأئمة العترة فى أمر الاجتهاد.

ينظر عن ذلك منهج المقال، ص ٢٧٨.

^{٧٨٩} (١٨١) فهرس الطوسى، ص ٢٦٧.

و قد وقعت محاولات أخرى لإتقاذ ابن الجنيد للمذهب الشيعي:

قيل إن ابن الجنيد قد عدل رأيه في القياس فيما بعد، و تنسب هذه المحاولات بطبيعة الحال إلى فترة متأخرة. يوضح كتاب روضات الجنات مسألة القياس و غيره بشكل جيد جدا على النحو التالي: هناك اليوم مسائل كثيرة، كانت في الأزمنة الماضية قد أجيب عنها بشكل واضح، أصبحت اليوم غير واضحة، و لربما تكون منها أيضا مسألة القياس. لقد أكد المرتضى في معالجته لمسألة الأخبار الآحاد أن هناك بين المحدثين من استعملوا القياس مثل الفضل بن شاذان^{٧٩٠} و يونس بن عبد الرحمن

ص: ٢٢٤

و غيرهما. و كذلك قصة الصدوق في الفقيه^{٧٩١} في فصل «هل يرث الأحفاد الجدين عند ما يموت الأب؟» يبدو أن القياس كان معروفا فيها.

و يعتبر دليلا على زعم المرتضى ما شهد به علماء الشيعة كلهم عن ابن الجنيد من أنه قد بقي رغم أخذه بالقياس في طائفة الشيعة و كان له احترامه بوصفه عادلا قوى العقيدة ثم إنه عاش في عهد معز الدولة البويهى، وزير الخليفة الطائع (٣٦٣-٣٨١ هـ). و كان معز الدولة نفسه عالما شيعيا، يمثل قضية الشيعة أمام الناس حتى إن سكان بغداد كان يكون يوم عاشوراء و يظهرون الحزن في الشوارع، بينما يظهرون في يوم غدیر خمّ الفرح و السرور و يخرجون إلى الصحراء لأداء صلاة العيد هناك^{٧٩٢}.

و يتساءل المدافعون عن ابن الجنيد كيف كان يمكنه أن يكتب عن القياس في مثل هذا الوقت، الذى كان الشيعة قد أعلنوا فيه أن إنكار القياس من الإيمان. و لم يكن لابن الجنيد أن يتخطى هذا الأمر الملزم فقط، و إنما كان عليه أيضا أن يتصدى لأعدائه و يسجل مأخذه عليهم. و مهما يكن فقد حظى ابن الجنيد بحماية الوزير الفاضل الصالح معز الدولة، الذى كان يعامله باحترام كبير و يتبادل الرسائل معه.

^{٧٩٠} (١٨٢) الفضل بن شاذان أبو محمد الأزدي النيشابوري، كان أبوه من أتباع يونس بن عبد الرحمن القمي. و كان الفضل كثير الاطلاع على علم الكلام و التشريع أيضا، يروى أنه ألف ١٨٠ كتابا. كما رأينا عند رجال الشيعة، هناك لبعض الناس ما يؤخذون به الفضل أيضا. يقال إنه توفي سنة ٢٦٠، ينظر عنه منهج المقال، ص ٢٦٠.

^{٧٩١} (١٨٣) العنوان الكامل هو: من لا يحضره الفقيه، و المؤلف هو الصدوق القمي أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين. ينظر منهج المقال، ص ٣٠٨، و كذلك ر. شتروتمان مصادر الشيعة، ص ١٣ رقم ١٧؛ بروكلمان ١، ١٨٧، ٤، ٤، و براون، ص ٤٠٥.

^{٧٩٢} (١٨٤)

ذكر الياféى فى كتابه أن معز الدولة أحمد بن بويه قد توفى سنة ٣٥٦ هـ، أى بعد ٢٧ سنة من موت السفير (توفى سنة ٣٢٩ هـ) أبى الحسن على بن محمد السمرى. و نستطيع أن نستخلص من ذلك أن ابن الجنيد كان من رجال الغيبة الصغرى و كان معاصراً للسفير. و نلاحظ من ذكر النجاشى^{٧٩٣} و العلامة^{٧٩٤} للسيف و المال أن ابن الجنيد كان

ص: ٢٢٥

وكيلاً، و لم يقل عنه فى الناحية المقدسة، أى باسم الإمام المختفى، أى شىء مضر به أو وجه إليه مأخذ من المآخذ، و لم يناقشه السفراء الحساب أيضاً. و هذا يجعلنا نظن أن أخطاء ابن الجنيد فى «القياس» و أشياء أخرى قد وقعت فى أشياء ثانوية، و لذلك تم العفو عنه. و على هذا يمكن أن يكون لأقوال الجنيد ما لأقوال العلماء و الفقهاء الآخرين من اعتبار، سواء اتفق معهم أم لم يتفق. لا يعد «القياس» سبباً فى رفض كتب ابن الجنيد، خلافاً لما يراه الطوسى (لم يكن هناك اتفاق بين الفقهاء حتى على أسس الفقه، و لهذا لا يصح أن يرفض المرء أحكام بعضهم و يقبل أحكام البعض الآخر). ذلك أن وجود اختلاف بين الفقهاء فى أحكامهم لا يدعو إلى الحط من قيمة هذه الأحكام، لأن الفقهاء منذ القديم و إلى اليوم لم يتفقوا على الأساس، الذى يبنى عليه الحكم، كما هو الأمر مثلاً فى «الخبر الوحيد» و «الاستصحاب» و «المفاهيم» و غير ذلك من مصطلحات الشريعة.

نحن لا نجد حتى فقيهين يتفقان فى مسائل الحكم الشرعى، و مع ذلك فإن العلماء لم يهملوا الآراء المختلفة، و إنما كانوا يذكرونها فى كتبهم إلى جانب آرائهم، و لو أنهم لعنوها و تم التبرؤ منها لما يبدو فيها من اختلاف، لما بقى هناك كتاب واحد. و يبدو أن الشيخ الطوسى و من وافقوه على رأيه كانوا قد بذلوا جهدهم حتى لا ينحرف الشيعة عن الطريق فى ميدان الشرع^{٧٩٥}.

ليس من السهل الوصول إلى موقف ثابت من القياس و ما أشبهه من المسائل. كنت قد أوضحت فى الفصل السابق كم هى كثيرة الأشياء، التى يتميز بها الشيعة اليوم، و التى كانت فى العصور الماضية غير معروفة و كم هى كثيرة الأشياء، التى لا تستعمل اليوم، و قد كانت آنذ مستعملة استعمالاً واسعاً. فالشيعة يستعملون بدل القياس الدليل العقلى، و لكن

ص: ٢٢٦

القياس جزء من الدليل العقلى فقط، عند ما يكون القياس مقنعاً واضحاً، فمن حق المرء أن يستعمله دون حرج. فإذا جاء فى القرآن الكريم أن كلمة «أف» لا يجوز استعمالها مع الوالدين، فإنه لا يجوز للمرء أن يرفضها بناء على القياس. و القياس من هذا القبيل جائز عند الشيعة^{٧٩٦}.

^{٧٩٣} (١٨٥) النجاشى، مادة ابن الجنيد.

^{٧٩٤} (١٨٦) الطوسى، ٢٤٧.

^{٧٩٥} (١٨٧) روضات الجنات، ج ٣، ص ٥٢١ و ما بعدها.

^{٧٩٦} (١٨٨) كاشف الغطاء، رسالة خاصة بتاريخ ٢٢ رمضان ١٣٥٥.

و لكنى لا أستطيع، عند ما أتفحص الأمر، أن أكتشف فرقا بين القياس و الدليل العقلى، فالأمر لا يتعلق إلا باختلاف فى الاسم، لأن كلا منهما يقوم على رأى الذاتى الخاص. لذلك يرفض الأخباريون الدليل العقلى و معه القياس أيضا.

الأخباريون و الأصوليون

من بذرة قام بها العماني و ابن الجنيد، اللذان بشرا بمذهبهما فى نهاية الغيبة الصغرى، من عمل فى حياتهما، نشأ فى وقت متأخر شقاق بين الشيعة الأخباريين، الذين لا يوجهون عقيدتهم كلها إلا بناء على أخبار الأئمة المنقولة إليهم، و بين الناس الأصوليين، الذين لا يرفضون أن يقبلوا كل شىء دون نقد و تمحيص. كنا قد رأينا كيف كان الناس ينظرون إلى علم الكلام نظرة شزراء، و استقبال المذاهب الجديدة بارتياح.

و كانت هناك أيضا حركة نقدية فى الميادين العلمية الأخرى. كل هذه الأوضاع و الحركات، التى ظهرت فى الغيبة الصغرى، و ازدادت قوة فى نهايتها، قد أدت إلى تكوين فرقة الأصوليين، الذين رفضوا أن يأخذوا الأحاديث دون نقد، و إنما حاولوا أن يطبقوا عليها كل الوسائل العلمية المستعملة فى البحث.

و وقفت قبالتهم فرقة الأخباريين، الذين بحثوا عن هدوئهم الروحى فى أخبار الأئمة المنقولة، التى لا يجوز أن تمس. و كانت هناك منافسة قوية بين الخصمين من أجل السيادة على الشيعة.

ص: ٢٢٧

كان الحسن بن عقيل العاملى و ابن الجنيد قد أقاما مذهبهما اعتمادا على مناهج المتكلمين، الذين يستعملون الأفكار أكثر من استعمالهم للأخبار و أخذوا مصطلحاتهم من علم الكلام و الشريعة عند أهل السنة.

و عن طريق مساندة المفيد، و خصوصا مساندة الشريف المرتضى، انتشرت تعاليم الأصوليين خلال العصور الموالية و امتدت إلى زمن الحلى، الذى أخذ معظم أسس تعاليمه من أهل السنة^{٧٩٧}. بعد هذا يجب على أن أذكر الشهيد الأول و الثانى و الشيخ على^{٧٩٨}.

و يتعاقب الأخباريون و الأصوليون على قيادة العلم: كان معظم علماء العراق حوالى سنة ١٢٠٠ للهجرة من الأخباريين، رغم أن الأصوليين كانوا يشكلون الأغلبية قبل ذلك بقليل^{٧٩٩}. و كما كان نفوذ الشيعة يزدد بوزن كلما كان له مساعدون فى القصر، كانت كذلك القيادة العلمية لتلك الفرقة، التى تكون لها مصادفة صلة ببيت الحاكم. و الفرق الوحيد بين الأخباريين و الأصوليين، حسب

^{٧٩٧} (١٨٩) روضات الجنات، ج ٣، ص ٥٩٠: الإمام الحلى هو جمال الدين أبو منصور الحسين بن سديد الدين بن يوسف بن على بن المطهر (٤٨٤ / ١٢٥٠ - ٧٢٦ / ١٣٢٥).

^{٧٩٨} (١٩٠) أمل الآمل، ص ٤٤٣، و روضات الجنات، ج ١، ص ٣٣.

^{٧٩٩} (١٩١) روضات الجنات، ص ١٣٣.

ما يوحى به الاسمان، هو فى اختلاف آرائهم فى قيمة الأخبار. فالأخباريون يرون أن إقامة الشريعة على «الأخبار» المنقولة عن أفواه الأئمة أبعث على الاطمئنان أكثر من إقامة شريعة جديدة على العقل^{٨٠٠}.

بعد ما أغلق السنيون «منفذ» الاجتهاد و وثقوا من غير روية بمدارسهم الأربع، فتح الشيعة فى نهاية الغيبة الصغرى أبوابهم للاجتهاد، و نمت الفرقة الصغيرة من أتباع الاجتهاد على مهل إلى أن تحولت إلى عظمة، انتصرت فى النهاية على الأخباريين و جلبت الأغلبية إلى جانبها.

ص: ٢٢٨

و النقاط الأساسية فى الفرق بين الأخباريين و الأصوليين هى:

(١) يمنع الأخباريون الاجتهاد و لا يقيمون اعتبارا إلا لأخبار الأئمة بوصفها القاعدة؛ و يعمل الأصوليون بمبدأ الاجتهاد، و يعطون للمجتهد الحق فى إصدار حكمه على الأخبار.

(٢) المصادر الشرعية عند الأصوليين هى الكتب الأربعة و أحيانا الخمسة: الكتاب؛ السنة^{٨٠١}، أى أحاديث و أفعال الرسول و الأئمة؛ و الإجماع، و الدليل العقلى؛ و الكتاب الخامس أحيانا الاستصحاب، بمعنى البحث عن الاتصال. أما الأخباريون فلا يقبلون سوى المصدرين الأولين كأساس حقيقى للشرع، و الغلاة منهم يهتمون بالسنة أكثر من اهتمامهم بالقرآن.

(٣) العلم الواضح عند الأصوليين يساوى القناعة الشخصية و هى أمر مسموح به. و ليس مهما فى النهاية أن يكون المجتهد على حق أو على باطل عندهم. فالله على أية حال هو الذى سيثيبه على بذله قصارى جهده من أجل الوصول إلى الحقيقة. و لكن الأخباريين يرون أنه لا مجال للظن فى الدين، ففيه العلم الواضح. و سيعاقب المجتهد فى رأيهم إذا لم يقم حكمه على أخبار الأئمة بناء على علمه الواضح.

(٤) و الأحاديث المأثورة تقسم، كما سبق أن رأينا، إلى أربعة أقسام:

صحيح و ضعيف، و يمثل الصحيح الأخبار، التى يستطيع المرء أن يبرهن على أنها صادرة عن الأئمة. ثم إن هناك عند الأصوليين طائفتين من المؤمنين: المجتهدون، أى الفقهاء المتكلمون، و مجموع العوام. أما الأخباريون فلا يوجد عندهم هذا النوع من التقسيم، لأن الأخبار عندهم كلها منقولة عن الأئمة و عليهم أن يتقيدوا بها بصرامة كبيرة. على أن هذا لا يعنى أن علماء الأخباريين أقل منزلة من علماء الأصوليين، فهم

ص: ٢٢٩

^{٨٠٠} (١٩٢) نفسه، ج ٣، ص ٥٩٠.

^{٨٠١} (١٩٣) يختلف السنة و الشيعة فى مفهوم السنة، فهذه الكلمة تتصل عند السنة بأقوال الرسول و أفعاله، و لكنها تتصل عند الشيعة بالأئمة.

متساوون تماما، كل ما فى الأمر أنهم لا يحق لهم التعبير عن آرائهم.

و إنه لمن الصعب فى بعض الأحيان التفريق بين عالم الأخباريين و مجتهد الأصوليين.

(٥) يسمح الأصوليون للمجتهد أن ينوب عن الإمام فى الغيبة الصغرى و يبشر بآرائه، ما عدا الحالة، التى يكون فيها الإمام لا يزال يقيم بين البشر، فلا بد عندها أن يؤخذ عنه أساس الشريعة مباشرة. و على العكس من ذلك يرى الأخباريون أن على المرء أن يعود إلى أقوال الأئمة بشكل مباشر أو غير مباشر، سواء أكان بين الأحياء أم لا.

(٦) من حق المجتهد وحده أن يصدر فتوى، لكن الأخباريين يرون أن لجميع الرواة الحق فى ذلك.

(٧) المجتهد عند الأصوليين خبير فى أمور الشرع، غير أن الأخباريين لا يعترفون بهذا الصفة إلا للإمام. فالراوية لا يمكن أن يكون مجتهدا إذا هو لم يكن متمكنا من أصول الفقه و يسيطر على علم الكلام سيطرة تامة. و العالم عند الأخباريين رجل، يعرف الحديث جيدا و يستطيع أن يختار الأحسن بين حديثين أو خبرين متناقضين. و تعد أصول الفقه و جميع المصطلحات، التى أخذها الأصوليون من السنة، غير مهمة بالنسبة إلى العالم. من حق المجتهد أن يختار واحدا من الخبرين المتناقضين بناء على ظنه الشخصى، و لكن العالم ليس تحت تصرفه مثل هذه السلطة، و إنما يجب عليه أن يجد أولا أسبابا مقنعة تبرر القرار الذى اتخذه.

(٨) الأصوليون يفضلون آية من القرآن على خبر أو حديث للأئمة، لكن الأخباريين يطالبون بأن لا يتم تأويل آية إلا إذا كان هناك توضيح من الأئمة. و على هذا لا يجوز للمرء أن يستعمل آية فى وضع الشريعة إذا لم يساندها شرح ما للأئمة.

(٩) عند ما يموت مجتهد تغوص معه فى قبره كل أعماله العلمية

ص: ٢٣٠

المتصلة بالشريعة، إذا لم يكن زميل له قد تبنى فتواه الشرعية، لكن الأخباريين يرون أن عمل العالم تبقى له قيمته الدائمة.

(١٠) كما يجب على كل شيعى أن يبايع إمامه، كذلك يجب على الأصولى أن يظهر احترامه و تقديره للمجتهد، أما الأخباريون، فلا يبايعون إلا الإمام وحده.

(١١) يترك الأصوليون مجالا واسعا للآراء فى الفتوى الشرعية، بحيث إنه من الممكن أن تكون آراء المجتهدين متناقضة دون حرج و من غير أن يحاسب المجتهد المفرد عليها، لكنه لا يجوز له أن يسىء إلى الدين. أما الأخباريون فيرفضون أى انحراف عن الأخبار، سواء أمثل المجتهد رأيه أم لا، فهو فى رأيهم دائما على باطل.

(١٢) يرى الأخباريون أنه ليس من المهم أن يكون راوية حديث الأئمة شيعيا أو غير شيعى، لكن الأصوليين يطالبون بأن يكون شيعيا.

على راوية الحديث عند الأخباريين أن يكون مستحقا للثقة، بينما يزيد الأصوليون على ذلك أن يكون شيعيا.

(١٣) وإذا افترضنا أن حديثنا ما يكون معروفا بشكل عام، ولكن شخصية الراوية غامضة أو مجهولة تماما: في هذه الحالة لا يعير الأصوليون و زنا للخبر، لكن الأخباريين لا يسألون عن الشخصية وإنما يسألون عن الحديث.

(١٤) كل ما لم يمنع بصفة قاطعة و ما لم يوصف عن طريق حديث بأنه ممنوع، فهو جائز عند الأصوليين، أما الأخباريون، فيتصرفون فيه بحذر.

(١٥) الأصوليون يجعلون من الإجماع مقياسا للأمانة في نقل الخبر، حتى و لو تم الإجماع في وقت متأخر، و لكن الأخباريين يرفضونه رفضا باتا.

(١٦) لا ينظر الأصوليون إلى المضمون الكامل لكتب الحديث

ص: ٢٣١

الشيعة الأربعة على أنه حقيقة ثابتة، لكن الأخباريين يؤمنون بالمضمون كله دون استثناء^{٨٠٢}.

في هذه النقاط الست عشرة يفترق الأصوليون و الأخباريون عن بعضهم البعض. و لا تقوم هذه الفروق، كما نستنتج من ذلك، على مفهوم آخر مختلف أساسا في المذهب الشيعي، وإنما تتصل بمناهج البحث و وضع القوانين في ميدان الشريعة. و لا يصح بأية حال أن نعتبر اختلافهما المنهجي المحض بمثابة «طائفة»^{٨٠٣}.

أما المدن، التي ازدهر فيها العلم الشيعي، فيجب أن نذكر إلى جانب بغداد، التي لعبت بوصفها مقر السفراء و مركز التنظيم الشيعي دورا متميزا، مدينة قم، مركز الشيعة الفرس و المدينة الفارسية الأولى التي تشيعت، بحيث لم يكن بها سني واحد^{٨٠٤}. كانت أول بذرة للشيعة قد غرست في قم على الأراضي الفارسية، و من هنا انتشر الزرع في بلاد فارس كلها و حملت الغرائس إلى مدن فارسية أخرى. فعبد الله بن سعد بن مالك بن عامر، الذي كان من بقايا عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث^{٨٠٥} كان مسكنه قم و نشأ في الكوفة، و تعرف فيها على التعاليم الشيعية. و عند ما عاد إلى أبيه في قم، نشر الشيعة فيها، فكانت لعقبه

ص: ٢٣٢

^{٨٠٢} (١٩٤) وصفت كل هذه المسائل من ١- ١٢ في روضات الجنات، ج ١، ص ٣٦؛ و تبدو لي تلك الفروق في ضوء البحوث الحديثة غير ذات أهمية كبيرة. و لا أستطيع أن أجد بين الأخباريين و الأصوليين فرقا آخر سوى أن الأولين أكثر ارتباطا بالأحاديث المنقولة و الآخرين أحرار في آرائهم. و لم أذكر الاختلافات المفردة إلا لأوضح اختلاف الاتجاهات العامة و لجعل الحياة العلمية أكثر وضوحا. فالأمر يتعلق في تلك النقاط إلى حد كبير بالآراء، التي يمثلها مؤلف روضات الجنات.

^{٨٠٣} (١٩٥) تحدث ماكس هورتون في كتابه عن فلسفة الإسلام ١٩٣٠، s. MaxHorten, Die Philosophie des Islams «طائفة الإخباريين».

^{٨٠٤} (١٩٦) ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ١٧٦، و ميتس، الحضارة الإسلامية، ص ٥٧.

^{٨٠٥} (١٩٧) تاريخ قم (طبع في طهران سنة ١٣٥٣ للهجرة)، ص ٢٣، ٣٧، ٢٤٠، ٢٤٤ و غيرها، ثم معجم البلدان، ج ٤، ص ١٧٦.

القيادة الدنيوية و الروحية فى المدينة الشيعية^{٨٠٦}. و تطورت قم لتكون مركزا فكريا من الدرجة الأولى، و أجلها الشيعة إجلالا كبيرا. فما من عالم إلا و له سمعة طيبة منذ البداية، لأن أصله من قم. و كانت و الأحكام، التى كان يصدرها علماء قم على علماء آخرين، أحكاما حاسمة. و ما أكثر ما نجد فى كتب التراجم ملاحظة، تفيد أن أهل قم قد حكموا بكذا و كذا على شخص ما^{٨٠٧}. كانت لقم القيادة فى ميدان الحديث، و كانت أسرة الأشعرى من المتحدثين المتميزين.

كانت ابنة موسى الكاظم قد ماتت أثناء سفرها إلى بلاد فارس فى قم، فدفنت فيها. و ازداد المركز الشيعى الأول فى فارس عن طريق هذه الشخصية السامية ارتفاعا، فكان آلاف الحجيج يحجون سنويا إلى القبر المقدس، الذى أصبح يأتى اليوم من حيث اعتباره عند الشيعة الإيرانيين بعد مشهد، ضريح الإمام الرضى، فى المركز الثانى^{٨٠٨}.

كانت بلاد فارس مقسمة داخل التنظيم الشيعى أيام الغيبة الصغرى إلى مناطق بلدية، يترأس كل واحدة منها وكيل، و هى: قم (١)، الأهواز (٢)، همدان (٣)، الرى (٤)، أذربيجان (٥)، و نيشابور (٦). كان يشرف على منطقة بلدية قم الوكيل أحمد بن إسحاق، و هو ينتمى إلى أسرة الأشعرى المذكورة^{٨٠٩}.

و هناك شخصيات قيادية من الأسرة نفسها قادت طائفة قم. و كان احمد بن محمد بن عيسى فترة طويلة، من الإمام الرضا إلى الإمام

ص: ٢٣٣

الأخير، رأس طائفة الشيعة فى قم. كان السلطان^{٨١٠} قد عهد إليه بالمدينة، فكان يقوم على تسيير شئونها. و كان يعامل الشيعة و غير الشيعة، العلماء و بسطاء الناس على النحو الذى يحلو له و يرضاه ضميره.

فقد طرد المحدث المعروف أبا جعفر محمد بن خالد البرقى (توفى سنة ٢٧٤ هـ) من قم رغم علم هذا الرجل و صدق إيمانه. و مع ذلك أنعم عليه ابن عيسى بشفاعه ما، فعاد المطرود إلى قم. و يقال إن ابن عيسى سار حافى القدمين وراء نعش البرقى يوم تشييع جنازته علامة على حزنه و ندمه على ما ألحقه به من ظلم^{٨١١}. و كذلك جلب يونس بن عبد الرحمن، الذى كان أصله من قم أيضا و كان ينعم بصفته وكيلا بتقدير إمامه الرضا، على نفسه سخط ابن عيسى القوى. فقد استعمل قوته للقيام بحملة حقيقية ضد

^{٨٠٦} (١٩٨) ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ١٧٦.

^{٨٠٧} (١٩٩) تعليقات على منهج المقال، ص ٨ و ١٢.

^{٨٠٨} (٢٠٠)

Le Strange, Lands of the Eastern Caliphate, p. ٩٠٢

، و عيون الأخبار، فصل ٦٨، ص ٣٧١، و دونالدسن، المرجع السابقة، ص ٢٥٩.

^{٨٠٩} (٢٠١) ينظر بحار، ج ١٣، ص ١١٢. كنا قد تحدثنا عن أحمد بن إسحاق فى الفصل، الذى خصصناه للسفراء.

^{٨١٠} (٢٠٢) لم يذكر اسم السلطان!

^{٨١١} (٢٠٣) منهج المقال، ص ٤٣، و الشيعة و الفنون ٣٨، و منتهى المقال، ص ٤٢.

ابن يونس بتزييف أحاديث الإمام، و سأنده فى ذلك على بن حديد^{٨١٢}، كما نعلم، لتكون له حظوة عنده. و لم يزيّف الاثنان الأحاديث ضد يونس نفسه فقط^{٨١٣}، و إنما زيفوها أيضا ضد معلمين آخرين حتى تكون إصابته أشد وقعا عليه.

من بين الأشخاص العظماء فى أسرة الأشعري، الذين ذاع صيتهم، أحمد بن إدريس الأشعري، و هو رجل أمين فى ميدانى الحديث و الفقه، و أحمد بن إسحاق الأشعري، و سعيد بن عبد الله بن أبى خلف الأشعري.

و قد جمع الأخير فى شخصه بين الحديث و الفقه، و سافر عبر بلدان مختلفة لجمع الأحاديث، و أخذ بعضها من غير الشيعة. و كتب مثل بقية أعضاء أسرته و سكان قم، ضد هشام بن الحكم و المتعاطف معه

ص: ٢٣٤

يونس^{٨١٤}. كتب بروكلمان، التكملة ١، ص ٣١٩ رقم ٣: «كان المؤسس الحقيقى لفقه الإمامية فى بلاد فارس محمد بن الحسن بن الفروخ الصفار الأعرج جعفر القمى (توفى سنة ٢٩٠ هـ / ٩٨٣ ميلادية)». لم يتضح لى لما ذا يصف بروكلمان هذا الرجل بأنه «المؤسس الحقيقى» لفقه الإمامية، فنحن نجد فى كتب التراجم روادا، ذكروا على أنهم «فقهاء عظماء» فى مدينة قم و وضعوا كتباً كثيرة تزيد عن كتب الأعرج؛ ثم إن كتب التراجم، التى اعتمد عليها بروكلمان، لا تذكر كلمة «المؤسس» على الإطلاق^{٨١٥}.

إذن كان لمدينة قم، على ما نرى من مصائر هؤلاء الرجال، قصب السبق فى ميدان الحديث و الشريعة. على أن هناك كلمات و مفاهيم كثيرة تتردد فى الحديث، يجب أن يكون المرء حذرا عند تأويلها. فعلماء قم يبعدون الأحاديث و الآيات القرآنية الصورية عن كل تأمل تأويلى، و يقتصرون على وجود نص من هذا النوع. و لذلك اتهموا بأنهم من أتباع جبرية و تشبيهية صارمة فى تصورهم لله، لأنهم يخافون فى مثل هذه الحالات البحث عن توضيح ما يتفق مع العقل البشرى^{٨١٦}.

ص: ٢٣٥

^{٨١٢} (٢٠٤) كان يعيش فى الكوفة، و كان قد ولد و نشأ فى المدائن، و يرى كتاب التراجم أنه غير موثوق به، فكل ما رواه بمفرده، يجب أن يهمل. ينظر عنه منهج المقال، ص ٢٢٨.

^{٨١٣} (٢٠٥) منهج المقال، ص ٣٧٩ و ٣٨٠.

^{٨١٤} (٢٠٦) منهج المقال، ص ١٥٦.

^{٨١٥} (٢٠٧) منهج المقال، ص ٢٩٣؛ يوجد بين الرواد المذكورين أحمد بن عيسى الأشعري (توفى فى النصف الأول من القرن الثالث للهجرة، ينظر منهج المقال، ص ٤٦) و كذلك أحمد بن محمد بن خالد البرقي (توفى سنة ٢٧٤ أو ٢٧٠ أو حتى - و هذا أقل احتمالا - ٢٠٨ هـ؛ ينظر فهرس الطوسى، ص ١٦، منهج المقال، ص ٢٦، روضات الجنات، ج ١، ص ٢؛ و عن بقية رواد الأعرج ينظر الكشى، النجاشى، و غيرهما من التراجم المذكورة). و من معاصري الأعرج أحمد بن إدريس الأشعري (توفى ٣٠٦، ينظر منهج المقال، ص ٣١) أحمد بن إسحاق الأشعري (توفى فى وقت الغيبة الصغرى، منهج المقال، ص ٣٢، و فهرس الطوسى، ص ٢٣) و سعد بن عبد الله (توفى سنة ٣٠٠ هـ، منهج المقال، ص ١٥٩).

^{٨١٦} (٢٠٨) منهج المقال، ص ٢٨٨.

ينظر القميون بنفس الاحتراس إلى الحكايات العجيبة عن الأئمة، فهم يرتابون في رواة الحكايات العجيبة، فقد كان بين هؤلاء الرواة كثير من المنافقين، الذين كانوا يريدون أن يسيثوا إلى المذهب الشيعي من خلال تأليه الأئمة بما يرونه من عجائب عنهم. كان القميون يرون أن إجلال الأئمة يجب أن تكون له حدود مرسومة، لا يجوز لأحد أن يتجاوزها^{٨١٧}.

كان الصدوق أبو جعفر محمد بن بابويه، الذي عاش في وقت متأخر قليلا في هذه المدينة، قد بالغ في زعمه بأن الذين طالبوا بعدم جواز نسيان الأئمة والأنبياء إنما أرادوا أن يحملوا المؤمنين واجبات مبالغا فيها، فهذا الأمر هو الدرجة الأولى من التطرف^{٨١٨}. ولا يتناسب مع ذلك رأى أولئك الذين يرون أن الشيعة وإجلال الأئمة قد جاء من بلاد فارس، مثلما هو الأمر عند

Kremer, Dozy, A. Muller, Blochet(Le Messianisme dans l'herodoxie musulmane, Paris ٣٠٩١)

٨١٩.

كان رئيس مدرسة قم في أيام الغيبة الصغرى هو أبو جعفر الصدوق، على بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي. كان معاصرا للإمام الحادي عشر وكان الفقه ميدان اختصاصه، وشغل في الوقت نفسه منصبا عاليا في مدينة قم مسقط رأسه. وكان نفوذه هو الذي حال بين العلاج وبين العثور على مكان يأوي إليه. كانت للقمي علاقة شخصية بالسفير الثاني، فكان يرأسله ويقوم بزيارته. وفي سنة ٣٢٨ هـ سافر ابن بابويه إلى بغداد، وهناك حضر دروسه بعض طلاب العلم، كان من بينهم التلعكبري المعروف^{٨٢٠}، و نالوا عنده الإجازة. كان ابن بابويه متزوجا من ابنة عمه

ص: ٢٣٦

^{٨١٧} (٢٠٩) تعليقات منهج المقال، ٨.

^{٨١٨} (٢١٠) روضات الجنات، ص ٥٥٧.

^{٨١٩} (٢١١) نفسه، ج ٣، ص ٣٧٧ - ٣٧٨.

^{٨٢٠} (٢١٢) يدعى التلعكبري هارون بن موسى بن أحمد الشيباني أبو محمد. كان جامع حديث مشهور وحاول الحصول على الإجازة من عدة علماء، وكان عدد كبير من الشيعة قد أخذوا منه أيضا إجازاتهم. توفي سنة ٣٨٥ هـ.

(خاله)، ولكن الزواج ظل عقيماً. وبناء على دعوة توجه بها إلى الإمام المختفى عن طريق علي بن جعفر بن الأسود^{٨٢١} و عن طريق السفير الثالث، فقد كان له أولاد من زواجه الثاني، حملوا فيما بعد اسم أبي جعفر محمد و أبي عبد الله الحسين بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه و نالوا حظهم من الشهرة في العلم، و تروى عنه هذه الحكاية^{٨٢٢}.

يروى أن ابن بابويه القمي قد تناقش مع رجل غير شيعي يدعى محمد بن مقاتل الرازي^{٨٢٣}، و عند ما انتصر عليه اعتنق المذهب الشيعي^{٨٢٤}.

و يروى عنه أيضاً أنه استلم رسالة من الإمام الحادي عشر، خاطبه

ص: ٢٣٧

فيها بهذا اللقب السامي «شيخى و أمين سرى»، على أن هناك من الكتاب من يشكون في هذه الرسالة، و توجد كاملة في «مجالس المؤمنين»^{٨٢٥}.

إلى جانب الفقهاء و المشرعين، الذين حولوا تدعيم المذهب الشيعي، كان الشعراء و المؤرخون في ذلك الحين يدافعون عن الهدف نفسه، خصوصاً الشعراء، الذين وضعوا كل فنهم و قناعتهم و أشعارهم الثورية الحماسية و ما يصاحبها من حرارة الإيمان في خدمة مذهبهم. و نشأ في أسرة النوبختي شعراء موهوبون، وضعوا موهبتهم في خدمة القضية الشيعية، و أقاموا عنها دواوين أشعارهم إلى جانب أعمالهم الثرية^{٨٢٦}.

^{٨٢١} (٢١٣) لا نعرف من علي بن جعفر الأسود سوى اسمه، رغم أنه يتضح من أماكن متفرقة أنه لعب، بوصفه وسيطاً بين السفير الثالث و الشيعة، دوراً كبيراً. أنظر عنه منتهى المقال، ص ٢٠٨.

^{٨٢٢} (٢١٤) أبو عبد الله عند كثير من الشخصيات المختلفة بأحاديثه الكثيرة؛ فقد روى عن أبيه و عن أخيه. و نحن نعرف بعض كتبه في علم الكلام عن طريق عناوينها: (١) مثل كتاب التوحيد و نفى التشبيه، (٢) كتاب الرد على الرافضة، (و قد وضع هذا الكتاب للوزير صاحب بن عباد أبي القاسم إسماعيل بن الحسن) (٣٢٦ ٣٨٥ هـ)، ينظر الكنتوري، ص ٣٤٠، و منهج المقال، ص ١١٥، تذكرة المتبحرين، ص ٤٧٣، فهرس الشيخ منتجب الدين في بحار، ج ٢٥، ص ٤. يعتبر صاحب بن عباد من الشيعة، فقد قال عنه الصدوق في كتابه «عيون أخبار الرضا»، بوضوح أن صاحب بن عباد شيعي، كتب أشعاراً في مدح الإمام الرضا. و تذكر لنا مصادر أخرى أنه كتب أيضاً في علم الكلام على أساس مذهب الشيعة، و نشر كتابين عن الإمامة. ينظر عنه ابن خلكان، ج ١، ص ٧٥، ياقوت، معجم الأدباء، ج ٢، ٢٧٣، يتيمة الدهر، ج ٣، ص ٣١ و ج ٤، ص ١٥٧، ابن النديم، الفهرست، ص ١٣٥، طبقات الأدباء، ص ٣٩٧، ابن شهر شوب، مناقب، ج ٢، ص ٤٣، تاريخ التمدن الإسلامي، ج ١، ص ١٤٦، آداب اللغة العربية، ج ٢، ص ٢٣٠ و ٣٠٩. معظم هذه المصادر مذكور في آثار الشيعة، ج ٤، ص ٨٤ و ما بعدها.

^{٨٢٣} (٢١٥) عن محمد بن مقاتل ينظر ميزان الاعتدال، ج ٣، ص ١٣٩.

^{٨٢٤} (٢١٦) روضات الجنات، ج ٣، ص ٣٧٧ - ٣٧٨.

^{٨٢٥} (٢١٧) مجالس المؤمنين، مقالة على بن موسى.

^{٨٢٦} (٢١٨) ينظر خندانى النوبختي في أماكن متفرقة.

كان النجاشي الأصغر، الذي تحدثنا عنه سابقا، شاعرا مشهورا في عصره، فكرس أعماله الشعرية و النثرية في حياته كلها لمساندة الحركة الشيعية.

و كان أبو القاسم علي بن إسحاق بن خلف البغدادي، و مهنته التجارة في الصوف، شاعرا محترما في العاصمة بغداد، دون خوف من الحكومة، و دون طمع، كتب مديحه للإمام بدافع قناعتته و تحمسه لمذهبه. و كانت أسمى أمنياته الأخيرة أن يدفن إلى جانب الإمام، و مات أبو القاسم في عز سنوات عمره و توفي سنة ٣٥٢ هـ^{٨٢٧}. و في الوقت نفسه كان يعمل المفجع أبو عبد الله محمد بن عبد الله (أو أحمد) الكاتب البصري (توفي سنة ٣٢٠ أو ٣٢٧ هـ). و كان لأشعاره تأثير كبير في النفوس المقهورة فاستطاعت أن تكسبهم بنغمتها الحزينة، التي نبعت من أعماق قلب الشاعر الحزين^{٨٢٨}. و كان نصر بن أحمد أبو القاسم الخربوزي يقرأ شعره على زبائنه في مخبزه بالبصرة، و هم يأكلون الكعك عنده، و قد توفي سنة ٣١٧ هـ^{٨٢٩}. و قد أثر خباز آخر في العامة بنفس الطريقة و بنفس المعنى،

ص: ٢٣٨

و هو الخباز البلدي أبو بكر محمد بن أحمد بن حمدان^{٨٣٠}.

إلى جانب هؤلاء الشعراء، الذين كان لهم تأثير عميق في الشعب، لأنهم لم ينظموا الشعر طمعا في المال و الجاه، عمل الكتاب و الأدباء على نشر المذهب الشيعي أيضا، مثل أحمد بن عبدون بن الحاشر (توفي ٣٢٣ هـ)، و الكتاب المعروف^{٨٣١} محمد بن أبي بكر بن همام بن سهل الكاتب (توفي سنة ٢٥٨ - ٣٣٦ هـ)^{٨٣٢}، و أبو بكر الصولي الكاتب، الذي لم يكن يستطيع مغادرة منزله في البصرة بسبب مدحه لعلی و توفي هناك سنة ٣٣٦ هـ^{٨٣٣} - يقال إنه كان شيعيا أيضا - و أسماء أخرى لو ذكرناها كلها لا تسع بنا مجال القول و قد تحدثنا في أماكن مختلفة من هذا العمل.

أما من جهة المؤرخين، فكان هناك في ذلك الحين ابن واضح بن أبي يعقوب (توفي سنة ٢٧٨ هـ)^{٨٣٤} و أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (توفي سنة ٣٤٦ هـ)^{٨٣٥}، و هما من المدافعين عن المذهب الشيعي، كما يستخلص موقفهما منه من كتبهما المنشورة بكل وضوح.

^{٨٢٧} (٢١٩) ابن خلكان، ج ١، ص ٣٣، الشيعة و الفنون، ص ١٠٨.

^{٨٢٨} (٢٢٠) ياقوت، إرشاد الأريب، ج ٦، ص ٣١٤ - ٣٢٤، الشيعة و الفنون، ص ٩٢.

^{٨٢٩} (٢٢١) الشيعة و الفنون، ص ١٠٩، ياقوت، إرشاد الأريب، ج ٧، ص ٢٠٦.

^{٨٣٠} (٢٢٢) الشيعة و الفنون، ص ١٠٩.

^{٨٣١} (٢٢٣) الشيعة و الفنون، ص ١٣٤، منهج المقال، ص ٣٨.

^{٨٣٢} (٢٢٤) الشيعة و الفنون، ص ٩٣، منهج المقال ص ٣٧.

^{٨٣٣} (٢٢٥) الشيعة و الفنون، ص ٩٣، و ابن خلكان، ج ١، ص ٦٤٣.

^{٨٣٤} (٢٢٦) الشيعة و الفنون، ص ٧٤، و منتهى المقال، ص ٢٧٣.

^{٨٣٥} (٢٢٧) الشيعة و الفنون، ص ٥٨.

الفصل التاسع نهاية الغيبة الصغرى

السفير الأخير على بن محمد السمرى^{٨٣٦}

فى سنة ٣٢٦ هـ، عند ما كان السفير الثالث يحتضر، عين و هو على فراش موته عليا بن محمد السمرى خلفا له، و اعترفت الطائفة بالسفير الجديد. و لكن سفارة هذا الرجل لم تدم سوى ثلاث سنوات، و بموته انتهت الغيبة الصغرى. و من كراماته التى نقلت إلينا، هذه القصة: ذات مرة اجتمع رؤساء الشيعة عند سفيرهم لمناقشة شئون مختلفة. و عند ما أخذ الحديث يدور حول على بن الحسين بن بابويه، صاح السفير:

«لطف الله به! لقد توفى فى هذه اللحظة»، فاعترت الدهشة الحضور كلهم، و سجل اليوم و الساعة، و بعد سبعة عشر أو ثمانية عشر يوما وصل خبر موته فى بغداد، فلاحظ خالصاؤه بإعجاب أن ذلك يتفق تماما مع الوقت، الذى تحدث عنه السفير^{٨٣٧}. و قدم على بن محمد السمرى دليلا آخر على سفارته قبل موته بفترة قصيرة: لقد وجه رسالة إلى طائفته، ذكر فيها أنه سيذهب إلى دار الخلود بعد ستة أيام. و بعد ستة أيام وجده الشيعة فعلا فى حالة احتضار. و لما سألوه عن خليفته، أشار لهم بأن الله نفسه قد أخذ الأمور بيده، و توفى فى اليوم ذاته^{٨٣٨}، و دفن فى الجانب

الغربى من بغداد^{٨٣٩}. و إعلانه هذا، الذى لا يتنبأ بنهاية حياته هو فقط، و إنما يتنبأ أيضا بنهاية فترة الغيبة الصغرى و زمن عمل السفراء، وثيقة حاسمة، نقلتها إلينا بنصها الكتابات المتأخرة. كان الإمام المختفى قد قدم له هذا التوقيع، حتى لا يعترف الشيعة من الآن فصاعدا بأى سفير و ألا يصدقوا أولئك الذين يدعون ذلك. و هذا نصها:

«يا على بن محمد السمرى أعظم الله أجر إخوانك فيك فإنك ميت ما بينك و بين (الموت) ستة أيام فاجمع أمرك و لا توصى إلى أحد فيقوم مقامك بعد وفاتك فقد وقعت الغيبة التامة فلا ظهور إلا بعد إذن الله تعالى ذكره و ذلك بعد طول الأمد و قسوة القلوب و امتلاء الأرض جورا و سيأتى لشيعتى من يدعى المشاهدة قبل خروج السفينانى^{٨٤٠}

^{٨٣٦} (١) أو السمرى (الغيبة، ص ٢٥٦).

^{٨٣٧} (٢) الغيبة، ص ٢٥٨.

^{٨٣٨} (٣) الغيبة، ص ٢٥٧.

^{٨٣٩} (٤) نفسه، ص ٢٥٨.

^{٨٤٠} (٥) الصورة الأصلية للسفيناى تحمل نفس الملامح عند الأمويين مثل المهدي عند الشيعة. و يقال إن خالد بين يزيد بن معاوية، ابن الخليفة الشهير يزيد بن معاوية، هو الذى وضع هذه الفكرة و هذا الاسم. كان خالد شاعرا و كيميائيا.

و الصيحة^{٨٤١} و هو كذاب مفتر و لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم^{٨٤٢}».

تدعى سنة ٣٢٩ سنة تناثر النجوم (سقوط الشهب)، و يعتقد الكتاب المسلمون أن السبب في ظهور المذنبات يعود إلى وفاة عدد كبير من الشخصيات و العلماء^{٨٤٣}. و نجد في دائرة المعارف الإسلامية أن السمرى قد توفي سنة ٣٤٤ هـ أو ٩٣٩ م، و لكن التاريخين لا يتلاءمان معا و لا مع الخير الذى أوردناه آنفا. فسنة الوفاة ٣٢٨ أو ٣٢٩ تطابقان ٩٣٩ أو ٩٤١ م^{٨٤٤}. و قد ذكر دوايت م. دونالدسون فى كتابه، كلمات و أرقاما على حد سواء، أن موت السمرى و انتهاء الغيبة الصغرى قد وقعا فى سنة ٣٣٩ هـ^{٨٤٥} ثم يقول هو نفسه فى فصل السفراء الأربعة إن السفير الرابع قد توفي سنة ٣٢٩ هـ^{٨٤٦}.

لم يهتم محمد بن المظفر أبو دلف الكاتب^{٨٤٧}، و الشيعة يسمونه المجنون، بتوقيع السفير الرابع، و إنما راح يدق طبول الدعاية لأبى بكر البغدادي. فقد كان أبو أبى بكر أحمد أخا السفير الثانى، و من هنا كان أبو بكر يدعى سرا فى حياة السفير الرابع أنه سفير، و لكنه كان ينكر ذلك عند ما يسأله الشيعة عن دعواه. عند موت السفير الرابع جاء أبو بكر إلى

بغداد، فأتضحت فيها دعواه، حتى إن الشيعة لم يعودوا يقبلون إنكاره، بل أصبحوا يلعنونه و يتبرءون منه^{٨٤٨}.

و لكى يعزز قضيته عند أتباعه و يكتسب آخرين و ينال ما يريد عند المستبد الظالم مروان بن الحكم، ابتدع خالد قدوة بالمهدى شخصية السفينانى، و هو من عقب جده الأكبر أبى سفينان، الذى سيستعيد الحكم إلى الأسرة كلها. عن أصل السفينانى ينظر الأغانى ج ١٦، ص ٨٨، النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٢٢١، و ضحى الإسلام، ج ٣، ص ٢٣٥ و ما بعدها. و عند ما رأى العباسيون أن للأُمويين سفينانيا و للشيعة مهديا كأمل المستقبل، وضعوا ما ابتدعوه فيهم مقابل المهدى. فقد أتاحت لهم وسائلهم المتوفرة الحصول على «أخبار» لمساندة شخصية دعواهم السياسية عن طريق المادة الأصيلية. ينظر الأغانى، ج ١٢، ص ٨٥، و ضحى الإسلام ج ٣، ص ٢٣٩. و ما يميز تلفيق مثل هذه الأفكار هو توافق ظهور المهدى بعد السفينانى، صورته المناقضة، للقضاء عليه و على شيعته. عن الانتصار الأسطورى لمهدى العباسيين على السفينانى ينظر مختصر تذكرة القرطبي، ص ١٥٩، طبرى، ج ٩، ص ١٣٨، و ضحى الإسلام، ج ٣، ص ٢٣٩. و عن انتصار المهدى الشيعى على السفينانى من الأفضل أن ينظر بحار، ج ١٣، ص ١٥٠. و فى هذا الكتاب الأخير خلاصة لأفكار الشيعة عن المهدى و فكرة السفينانى فى مرآة التطور و الأمل عند الشيعة. و عن السفينانى ينظر شترومان، OLZ ١٩٢٤-٢٨.

^{٨٤١} (٦) الصيحة هى نهاية العالم القديم و مجيء كوارث طبيعية جديدة طاعون و غيره عقابا للقساة من البشر. ينظر بحار، ج ١٣، ص ١٥٠ و ما بعدها.

^{٨٤٢} (٧) ينظر الغيبة، ص ٢٥٧، و بحار، ج ١٣، ص ٩٨، كمال الدين، ص ٢٨٤، منهج المقال، ص ٤٠٥، مجالس المؤمنين، مادة وكلائي ناحيتي مقدسة. و ليس هناك اختلاف بين نسختي الغيبة و بحارا!

^{٨٤٣} (٨) روضات الجنات ج ٣، ص ٣٧٨

^{٨٤٤} (٩) دائرة المعارف الإسلامى، مادة شيعة.

^{٨٤٥} (١٠) S. The Shi'te Religion, ص ٢٨٥.

^{٨٤٦} (١١) نفسه، ص ٢٥٧.

^{٨٤٧} (١٢) منهج المقال، ص ٣٨٧، الغيبة، ٢٦٩ و ٢٧١، بحار، ج ١٣، ص ١٥٣.

^{٨٤٨} (١٣) الغيبة، ص ٢٩٠، بحار، ج ١٣، ص ١٥٣.

و لم يصلنا شيء حسن عن علاقة أبي بكر مع عمه، السفير الثاني في ماضى الأيام. أراد ذات مرة أن يزور عمه، عند ما كان السفير في اجتماع مع رؤساء الطائفة الشيعية. و عند ظهور أبي بكر قطع السفير الجلسة و قال للحضور: «توقفوا! إن القادم هناك ليس منا» و انتقل الشيعة بأمر السفير إلى الحديث في موضوع آخر^{٨٤٩}.

و يعود تحمس أبي دلف لأبي بكر إلى أن أبا دلف كان مخمسا مثل الكرخيين و اهتمدى إلى الدين الصحيح من طريق أبي بكر^{٨٥٠}. و قد تسبب تحمس أبي دلف لهاديه في نزاع حاد مع الاثنى عشرية، ذلك أن أبا دلف ادعى أن أبا بكر هو السفير الثالث الصحيح، فهو أفضل من هذا الذى تولى المنصب^{٨٥١}. و رغم دعاية خلاصاء أبي بكر فإنه لم يجد له أتباعا، و فى النهاية تولى وظيفة عند اليزيدى^{٨٥٢} فى البصرة بوصفه متصرفا فى

ص: ٢٤٣

ثروته. و اختلس فى منصبه هذا أموالا كثيرة، و عند ما سمع بذلك صاحب العمل، ضربه على رأسه، فأصابه العمى من جراء ذلك، و مات أعمى^{٨٥٣}.

مدافن السفراء الأربعة

نجد فى الكتب، التى تتحدث عن الغيبة، أوصافا لأضرحة السفراء.

و يعود مصدر هذه الأخبار إلى هبة الله، الذى لم يبعد كثيرا زمينا عن الغيبة الصغرى و كان من جهة أمه من عقب السفير الثانى. و قد ذكر الطوسى فى الغيبة أيضا أنه زار الأضرحة، منذ أن جاء إلى بغداد سنة ٤٠٨ هـ، و يؤكد الطوسى معلومات أبي نصر هبة الله، التى تتحدث عن ضريح السفير الأول، الذى يوجد فى الجانب الغربى من بغداد، أى بجانب الكرخ فى شارع الميدان، أى بجانب قبلة ما يسمى بمسجد الدرب. و يقول الطوسى إنه وجد الضريح فى غرفة صغيرة مظلمة، لها مدخل عند باب القبلة؛ و بعد سنة ٤٣٠ هـ أزال الرئيس أبو منصور محمد بن الفرّج حجر الضريح القديم و بنى فوقه ضريحا جديدا؛ و يضيف الطوسى قوله إن الناس

^{٨٤٩} (١٤) الغيبة، ص ٢٧١، و بحار، ج ١٣، ص ١٥٣.

^{٨٥٠} (١٥) الغيبة، ص ٢٧١، و بحار، ج ١٣، ص ١٥٣؛ يؤمن الخمسة بظهور خمسة أشباح لله فوق الأرض: سلمان، و أبو ذر الغفارى، و المقداد، و عمار، و عمر بن أمية، الذين وضعهم الله لتسيير شئون الأرض، ينظر الغيبة، ص ٢٧١. و فى أخبار أخرى أن الكرخيين كانوا كلهم الشيعة الخمسة، أى على، و فاطمة، و الحسن، و لحسين، و محمد، هو ظواهر الله الخمسة فوق الأرض. و ليس من الضرورى أن يكون المقصود بالكرخ هو كرخ بغداد، فقد كان هناك كرخ فى البصرة أيضا، و كان سكان كرخ البصرة معروفين بالتطرف. ينظر معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٥٣. و عن الخمسة، ينظر أيضا الكشى، ص ٢٥٣، منهج المقال، ص ٢٢٥، فى ترجمة على بن أحمد أبي القاسم الكوفى، الذى ينتمى إلى هذا المذهب المتطرف؛ ينظر خندانى النوبختى، ٢٤٣.

^{٨٥١} (١٦) الغيبة، ص ٢٧١.

^{٨٥٢} (١٧) نفسه؛ اسم اليزيدى أبو عبد الله، جد جده يزيد بن منصور الحميرى، و لذلك دعى باسم جده اليزيدى (ينظر ابن الأثير، ج ٨، ص ٧٤ و ١٠٦)، على أنه يعرف عادة باسمه الخاص البريدى، لأنه كان فى السابق صاحب البريد، ثم عين فى وقت متأخر وزيرا. ذهب فى سنة ٣٢٣ هـ إلى البصرة و حكم فى جنوب العراق و الأهواز بوصفه طاغية (ينظر الفخرى، ص ٢٥٦ و ما بعدها، و ابن الأثير، ج ٨، ص ١٠٦، ١٠٩، ١١٥ و غيرها).

^{٨٥٣} (١٨) الغيبة، ص ٢٧١، و بحار، ج ١٣، ص ١٥٣.

يقومون، إلى هذا اليوم الذى أكتب فيه، أى إلى سنة ٤٢٧ هـ، بزيارة الضريح فى شكله الجديد، من غير أن يعرفوا من القديس الذى يرقد فيه. و لعل بعضهم كانوا يظنون أن المدفون فيه هو ابن مرضعة الحسين بن على بن أبى طالب^{٨٥٤}.

على أن هذه الأوصاف الدقيقة للمكان و الشارع، التى تعود إلى ذلك

ص: ٢٤٤

الزمان لم تستطع أن تحمل شيعة بغداد اليوم على تغيير رأيهم فى أن جميع السفراء يثوون فى الجانب الشرقى من بغداد و يبدو أن هذا الخطأ قد ظهر فى وقت متأخر، ذلك أن أخبار الغيبة الصغرى لم تشر حتى ما بعد الزمن المغولى بشىء إلى الجانب الشرقى على الإطلاق. لعل السبب فى هذه الأخطاء و ما شابهها يعود إلى الخلط بين أسماء الأشخاص و الأماكن، فهناك الكثير ممن يحملون الأسماء المعروفة نفسها. شىء واحد يمكن التأكد منه، و هو أن المزاعم المتصلة بموقع القبور لا تتلاءم مع منزلة السفراء و مع المعلومات المتصلة بالمناطق، التى كان الشيعة يعيشون فيها فى ذلك الحين.

فى يومنا هذا يوجد أيضا فى الجانب الشرقى شارع الميدان؛ و مسجد هذا الشارع الموجود خلف بناية البريد الحالية من جهة و على الحد الفاصل بينه و بين سوق الهرج من جهة أخرى، يحتوى فيما يقال على قبر السفير الأول^{٨٥٥}. و لا يطالعا فى طوبوغرافيا بغداد القديمة سوى شارع واحد يدعى شارع الميدان. و يقع هذا الشارع على الجانب الشرقى من بغداد، لأنه يربط منطقة الشماسية بسوق الثلاثاء^{٨٥٦}. نحن لا نسمع إذن شيئا عن شارع الميدان فى الجانب الغربى و درب جباليا و المسجد، حيث تقول المصادر إن السفير قد دفن به. على أن علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أن الطوبوغرافيات لا تعد جميع شوارع بغداد، و إنما تعد المعروفة منها. و هكذا نجد عند ياقوت بعض الشوارع، التى لا نجد لها ذكرا عند الآخرين، و العكس صحيح. من الممكن إذن أن يكون قد وجد فى الجانب الغربى من المدينة شارع صغير يدعى شارع الميدان، و ذلك فى المنطقة، التى كان الشيعة يعيشون فيها، دون أن يرد لها ذكر فى أى مكان. و لعله وقع الخلط بين الشارع، الذى لم تكن له أهمية و لم يعد له وجود فى الجانب الغربى من بغداد، و بين سميهِ الشارع الموجود فى

ص: ٢٤٥

الجانب الشرقى. نحن نرى أنه من المرجح أن تكون معلوماتنا الحالية المتصلة بقبر السفير الأول قائمة على أساس من الخلط بين الشوارع، التى تتطابق أسماؤها. و لذلك فإنه ليس من السهل تماما الوصول فى حالة السفير الثانى إلى توضيح هذا الأمر، لأن الأخبار كلها تذكر بوضوح أنه دفن فى باب الكوفة، حيث كانت أملاكه، و لأن الطوبوغرافيات كلها تذكر أن باب الكوفة هذا يوجد فى الجانب الغربى من بغداد. و لا يمكن التوفيق بين ثوابت من هذا النوع و بين المزاعم الحالية، التى ترى أن القبر يوجد فى

^{٨٥٤} (١٩) الغيبة، ص ٢٣٢، و بحار، ج ١٣، ص ٩٤.

^{٨٥٥} (٢٠) هبة الدين، رسالة خاصة

^{٨٥٦} (٢١) ياقوت، ج ٣، ص ٢٣١؛ المشترك، ص ١٩٧: ٢٤٥، S. LeStrange

منطقة رأس الساقية في الجانب الشرقي من المدينة بالقرب من شارع الكيلاني جنوب منطقة باب الشيخ في مسجد كبير يدعى جامع الشيخ الخلاني^{٨٥٧}.

و قد ذكر مصطفى جواد في دراسة خاصة عن أخطاء تاريخية من هذا القبيل، أن ذلك القبر الشرقي ليس قبر السفير الثاني، وإنما هو قبر متصوف يدعى عبد العزيز بن جعفر غلام الخلّال^{٨٥٨}. إذن فجامع الخلاني يحمل لقب رجل، لا بد أنه كان يشبه لقب المتصوف. و الكتب، التي تتحدث عن الغيبة الصغرى بعد هذه الفترة و حتى بعد الزمن المغولي، لا يوجد فيها لقب مثل الخلاني و ما أشبه ذلك عند السفير الثاني. و على هذا لا بد أن يكون لقب الخلاني بالنسبة إلى السفير الثاني، الذي انتشر بين الشيعة في وقت متأخر، قد ظهر بعد الفترة المغولية.

ذكر أحد شراح الطوسي، علي بن موسى، الذي شرح مع شارح آخر، هو فضيل علي، كتب الطوسي و نشرها ١٣٢٤ هـ في أحد الهوامش أن السفير الثاني كان معروفًا عند الشيعة بلقب الخلاني، و لكن معلومات علي بن موسى تقوم على مجرد السماع لا غير^{٨٥٩}.

و كان للسفير الثالث، الحسين بن روح النوبختي، قبره أيضا مثل

ص: ٢٤٦

السفراء الآخرين في الجانب الشرقي من المدينة، أي في المنطقة الحالية المعروفة بسوق الغزل بين الدكاكين و المكاتب التجارية في الشورجة^{٨٦٠}. و يروى أبو نصر العالم المذكور و الواصف الدقيق لقبور السفراء، - معظم الأخبار المعروفة عن السفراء تنسب إليه!- أن السفير الثالث مدفون في مقبرة أسرة النوبختي المورثة. و كانت هذه المقبرة تقع في نفس الشارع، الذي كان به منزل علي بن أحمد النوبختي. و ذلك الشارع يؤدي إلى قنطرة الشوك المعروفة^{٨٦١}. و تمتد القنطرة فوق نهر موسى، و هو قناة تتفرع عن دجلة في الجانب الغربي من بغداد، و كانت توجد في منطقة قنطرة الشوك أسواق كبيرة، خاصة دكاكين بائعي القماش^{٨٦٢}. و وصف قنطرة الشوك المذكور أعلاه ينطبق على الجانب الغربي من المدينة أكثر مما ينطبق على الجانب الشرقي، فقد كان الكرخ و براتنا، و هما الميدانان الرئيسان لشيعة ذلك الحين، يقعان فيه. يجب أن نفترض لأسباب عقلية أن أسرة النوبختي كانت في جانب الكرخ أكثر منها في الجانب الشرقي. من الجائز أن يكون شخص ما يدعى النوبختي قد دفن، بعد اختفاء الأضرحة من جانب الكرخ، في الجانب الشرقي من المدينة و كان ذلك مصدر الخلط.

^{٨٥٧} (٢٢) هبة، رسالة خاصة.

^{٨٥٨} (٢٣) لغة العرب، مجلد، السنة ٨، ص ٤٨٩

^{٨٥٩} (٢٤) الغيبة، ص ٢٣٨.

^{٨٦٠} (٢٥) خندانى النوبختي، ص ٢٢١، و أحسن الوديعه، ج ٢، ص ٢٣٢، و هبة الدين، رسالة خاصة.

^{٨٦١} (٢٤) الغيبة، ص ٢٥٢.

^{٨٦٢} (٢٧) ٩٧ und ٤٧، S. ٣٥، LeStrange, Bagdad, S. ٣٥، و ياقوت، ج ٤، ص ١٩١.

من المؤسف أن عدم التناسب هذا قد انتقل دون ذكر المصادر من الكتب الشيعة في العصور الوسطى إلى الكتب الأحدث منها، لأن مؤلفي الكتب الأخيرة قد نقلوا ذلك لا على أساس من المعرفة بخرائط بغداد القديمة وأخذ المصادر السابقة بعين الاعتبار وإنما نقلوها كما حلا لهم ذلك حسب ما قرءوه أو سمعوه في مكان ما، وعند ما يستعمل الأجانب مصادر هم هذه باعتبارها مصادر، فإنهم يقعون في الأخطاء نفسها. وإننا

ص: ٢٤٧

لنجد في كتاب خندانى النوبختى ملاحظة، تدل على أن السفير الثالث قد دفن بسوق العطارين في الجانب الشرقى من المدينة، و مصدر ذلك هو «أحسن الوديعه»، الذى احتوى على هذا الخطأ^{٨٦٣}، فعلى المرء أن يأخذ حذره من مثل هذا المصادر، فمجيئها على الأغلب من أولئك المؤرخين، الذين كتبوا بناء على ما سمعوه أو قرءوه عند معاصريهم، يستوجب ذلك.

كان قبر السفير الرابع يقوم، حسب ما ذكره الطوسى، فى شارع يدعى شارع الخليجى، و هذا الشارع يقع فيما قبل فى منطقة باب المحول قرب نهر أبى العتّاب^{٨٦٤}. و يجب البحث عن منطقة باب المحول و نهر أبى العتّاب، و لم يعد لهما وجود اليوم، بناء على البحوث الطبوغرافية فى الجانب الغربى من المدينة. و حى باب المحول الكبير يحد منطقة الكرخ من جانبها الغربى^{٨٦٥} شمال براثا. و كان نهر أبى العتّاب يجرى عبر الكرخ غير بعيد من باب المحول^{٨٦٦}، و كان الكرخ و براثا مركزين رئيسيين للشيعة، و من ثم فلا بد أن يكون القبر موجودا فى المنطقة، التى كان الشيعة يتخذون فيها مساكن لهم^{٨٦٧}.

يقع القبر، الذى يحمل اليوم اسم السفير الرابع مثل قبور سابقه فى الجانب الشرقى من المدينة غير بعيد من المدرسة المستنصرية، و يوجد

ص: ٢٤٨

فى غرب القبر متجر خان الرماح، و على مقربة منه خان إيجغان. عند ما يأتى المرء من سوق الهرج، يرى قضبان نوافذ الضريح و الكتابة فوقه. أما مدخله فمن جامع القفلانية^{٨٦٨}، الذى يوجد به القبر. و يغلب على ظنى أن هذا القبر لأستاذ من مدرسة

^{٨٦٣} (٢٨) خندانى النوبختى، ص ٢٢١، و ينظر أيضا أحسن الوديعه، ج ٢، ص ٢٣٢.

^{٨٦٤} (٢٩) الغيبة، ص ٢٥٨.

^{٨٦٥} (٣٠) ياقوت، ج ١، ص ٤٥١، مناقب بغداد، ص ٢٢٨، و LeStrange ص ٦٤، ١٤٩، ٣١٨، و كذلك خريطة بغداد فى ص ٤٦.

^{٨٦٦} (٣١) LeStrange، ص ٥٢، ٦١، ٦٢، ٩١.

^{٨٦٧} (٣٢) ياقوت، ج ١، ص ٥٣٢. كان يقوم فى براثا مسجد كبير، يجتمع فيه الشيعة و يلحنون الخلفاء الثلاثة الأوائل. و عند ما سمع الخليفة الراضى بذلك، أصدر أمره إلى الشرطة بتحرق الأمر، فهاجمت المسجد، و اعتقلت المذنبين و هدمت المسجد، و لم يعد بناؤه إلا بعد فترة ليست بالطويلة، و أصبحت الصلاة تقام فيه حتى سنة ٤٥٠هـ.

^{٨٦٨} (٣٣) هبة الدين، رسالة خاصة؛ و يسمع كذلك اسم القبلانية.

المستنصرية أو لرجل ما، إذ من الواضح أنه كان على علاقة بالمدرسة. و ليس من المستبعد أن يكون لأخذ الأساتذة أو أحد الخيرين في المدرسة اسم مشابه لاسم سفيرنا، و هو ما أدى إلى هذا الخلط.

الوكلاء

كان التنظيم الشيعي في أيام الغيبة الصغرى كما يلي: كان السفير يتربع القمة في بغداد، و كان له في الأماكن، التي توجد بها طوائف شيعية، نواب، يطلق عليهم اسم الوكلاء. و من الصعب في بعض الأحيان الحكم على ما إذا كان النواب أو الوكلاء قد تم تعيينهم من قبل الإمام الحادى عشر أو أن ذلك لم يتم إلا على يد السفير الأول و ما إذا كان هؤلاء مستقلين غير مرتبطين في عملهم بالقيادة في بغداد تماما أو لا.

نستطيع في حالة من الحالات أن نتيقن أنهم كانوا تحت سلطة السفير في بغداد، و في حالة أخرى نميل إلى الاعتقاد بأنهم كانوا يعملون بصفة مستقلة و يتقلدون نفس المنصب الذى تقلده السفير. و ابن طائوس بشكل خاص لا يسهل لنا إصدار حكم حاسم في هذا الأمر، ذلك أنه يصف بعضا من هؤلاء الأشخاص بالسفير و الباب، و من ثم لم يكن الشيعة ليشتكوا في أمرهم^{٨٦٩}، و لكن ابن طائوس كاتب متأخر. و لذلك لا أعتد عليه، و إنما أفضل المصادر الأقدم مثل كمال الدين و غيره، الذين يخلعون على هؤلاء الأشخاص لقب الوكيل^{٨٧٠}. و لكثرة عددهم لم تصلنا

ص: ٢٤٩

أسماءهم كلهم، فلا نسمع إلا باسم بعضهم في المناسبات الخاصة عن طريق توقيع عند الاحتفال بمولد الإمام الثانى عشر، حيث رأوه مع والده شهادة على أنه قد وجد الإمام الثانى عشر فعلا، و في مناسبات أخرى.

و لكننا نسمع أكثر عن الوكلاء في المدن الكبيرة أو المعروفة. فابن بابويه يذكر الوكلاء الآتين بأسماء أمكنة عملهم: البيلى و العطاردى في بغداد، و العاصمى في الكوفة، و محمد بن إبراهيم بن صالح في الأهواز، و الشامى و الأسدى في الرى، و القاسم بن العلاء في أذربيجان، و محمد بن شاذان النعمى في نيسابور^{٨٧١}. و توجد عند الطوسى من الكتاب أسماء و أمكنة أخرى.

و كانت مهمة هؤلاء الوكلاء، مثل الحكام في الحياة السياسية، كحاكم يعمل سرا للعناية بأمور الطائفة، و جمع الخراج للإمام، و كتابة التواقيع.

كان إبراهيم بن مهزيار واحدا من الوكلاء، يدير منطقة الأهواز، و يسميه ابن طائوس حسب مصطلحاته سفيرا^{٨٧٢}. أمر إبراهيم قبل موته أن يحمل المال الذى جمعه من الشيعة إلى بغداد. و قدم لآبنه كلمة سر في طريقه، ليسلم المال في بغداد لمن يذكر له كلمة

^{٨٦٩} (٣٤) توفي رضى الدين على بن موسى بن طائوس سنة ٦٤٤ هـ.

^{٨٧٠} (٣٥) كمال الدين، ص ٢٤٦.

^{٨٧١} (٣٦) نفسه.

^{٨٧٢} (٣٧) منتهى المقال، ص ٢٧، منهج المقال، ص ٢٨.

السّر. فانظر الابن الرجل، الذى ينطق بكلمة السّر. و ذات يوم دق باب البيت، الذى كان يقيم فيه، و ذكر اسمه عند ما سئل عنه، و وصف كذلك علامة التعرف، التى قدمها الوالد لابنه. و بعد ذلك سلم الابن المال للغريب، على أنه ندم على ذلك فيما بعد. و عقب ذلك بقليل تلقى توقيعا، عينه الإمام فيه وكيلا على الأهواز خلفا لأبيه. و قد بعثت هذه البشرى بالهجة فى نفس الابن^{٨٧٣}.

ص: ٢٥٠

و لا يذكر الطوسى اسم الغريب المجهول، و لكن الكشى لا يقدمه باسم العمرى، ذلك أن اسم العمرى الأصلى هو حفص بن عمر العمرى، و هو وكيل الإمام المختفى فى المنصب، الذى خلفه فيه ابنه أبو جعفر محمد^{٨٧٤}. و كانت المدة الكاملة، التى شغلها الأب و الابن فى المنصب، ٥٠ سنة^{٨٧٥}. يمكننا أن نستخلص من وصف الكشى أن الأمر يتعلق بالسفير الأول و الثانى. و كتب التراجع لا تترك لنا ما يساعدنا فى حسم هذه القضية. ليس من الممكن معرفة ما إذا كان هذان الشخصان مطابقين للسفيرين، أم أن الأمر يتعلق بشخصين آخرين^{٨٧٦}، أو أن هناك خطأ فى الكتابة، فمثل هذه الأخطاء كثيرة عند الكشى^{٨٧٧}. كان محمد بن إبراهيم، الذى روى لنا قصة رحلته إلى بغداد، قد خلف والده فى أيام السفير الأول و عاش فى أيام السفير الثانى أيضا. و مرة أخرى يسمى ابن طاوس محمد بن إبراهيم سفيرا و ليس وكيلا^{٨٧٨}. و هناك أخبار كثيرة تقول عن إبراهيم و ابنه إنهما رأيا الإمام الثانى عشر.

الوكيل أحمد بن إسحاق

أصل هذا الوكيل من قم، و ينتمى إلى أسرة الأشعرى الشهيرة، و كان مبعوث مدينة قم برسائل إلى الإمام التاسع، و العاشر، و الحادى عشر، و يقول عنه ابن طاوس إنه سفير. و قد ألف إبراهيم بن أحمد كتبا دينية، عرف منها اثنان:

(١) كتاب علل الصوم.

(٢) مسائل الرجال لأبى الحسن الثالث. و يحتوى الثانى على ما جمعه من كتاب التراجع.

ص: ٢٥١

و يروى عن أحمد بن إسحاق أنه أراد مرة أن يحج إلى مكة، و لكن بما أنه لم يكن يملك مالا، فقد طلب ١٠٠٠ من الإمام. و فى توقيع يخبره الإمام فيه بأنه يقدم له الألف دينار هدية و أنه سيرسل إليه نفس المبلغ بعد عودته من مكة^{٨٧٩}. أما عن أى طريق

^{٨٧٣} (٣٨) الغيبة، ص ١٨٢ و ١٨٣ و منتهى المقال، ص ٢٧، و منهج المقال، ٢٧٣.

^{٨٧٤} (٣٩) الكشى، ص ٣٢٩ / ٣٣٠.

^{٨٧٥} (٤٠) منتهى المقال، ص ١١٦، و منهج المقال، ص ١٢٠.

^{٨٧٦} (٤١) منتهى المقال، ص ٣٦٥.

^{٨٧٧} (٤٢) منتهى المقال، ص ١١٦.

^{٨٧٨} (٤٣) نفسه، ص ٢٨٤.

^{٨٧٩} (٤٤) الكشى، ص ٣٤٤.

أوصل بها طلب السلفة إلى الإمام، و هل تم ذلك مباشرة أو بواسطة السفير، فإن المصادر لا تحدثنا عن ذلك، رغم أهمية الجواب عن هذا السؤال بالنسبة إلينا. لكن الكشي يقول عن هذا الحج إلى مكة أن أحمد كتب لهذا السبب إلى السفير الثالث الحسين بن روح القمي^{٨٨٠}. و أرسل له السفير قميصا، فاعتبره أحمد كفنا له، و بعد عودته مات في حلوان^{٨٨١}. و لكن خبر موته في حلوان في أيام السفير الثالث لا يتناسب مع القول بأنه مات هناك بعد قيامه بزيارة للإمام الحادي عشر، و ذلك يعني أنه لن يعيش في أيام السفير الأول و الثالث^{٨٨٢}.

الوكيل هاجس الوشاء

لا نعرف عن هاجس سوى أنه كان وكيلا في منطقة الري، و هناك من الناس من شكوا في صحة وكالته، و كتبوا عن ذلك إلى الإمام، فأجاب هذا بأن هاجس رجل و في أمين. و بعد موت هاجس، انتقل المنصب إلى الأسدي. و يذكر كمال الدين اسم هاجس مع الوكلاء، الذين رأوا الإمام المختفي^{٨٨٣}

ص: ٢٥٢

الوكيل الحسن بن النضر

لا نملك عنه أيضا سوى أخبار قليلة، و لا يسميه كمال الدين وكيلا، و إنما هو عنده من الشيعة الأتقياء، الذين رأوا الإمام، و يوصف في كتب أخرى بأنه وكيل^{٨٨٤}.

الوكيل داود بن القاسم بن إسحاق الجعفرى أبو هاشم

ينتمي إلى رؤساء الشيعة في بغداد، و كان الخليفة و الحاشية يقدرونه كثيرا، و يقدره الأئمة بشكل خاص ابتداء من الإمام التاسع. و في سنة ٢٥٢ ه طرد أبو هاشم إلى سامراء، لأن الحكومة اتهمته بمراسلة ثوار الشيعة في الكوفة و مساعدتهم^{٨٨٥}. و كان شاعرا أيضا، و يصفه ابن طاوس بأنه وكيل^{٨٨٦}.

الوكيل الشامي

^{٨٨٠} (٤٥) اسمه عند الكشي الحسين بن روح و لقبه القمي بدل النوبختي، الكشي، ص ٣٥٥.

^{٨٨١} (٤٦) الكشي، ص ٣٤٤.

^{٨٨٢} (٤٧) منهج المقال، ص ٣١ و ٣٢، و منتهى المقال، ص ٣٠٠ و ٣٠١.

^{٨٨٣} (٤٨) كمال الدين، ص ٢٤٦، منتهى المقال، ص ٨٤، منهج المقال، ص ٨٩، الغيبة للطوسي، ص ٢٧٢.

^{٨٨٤} (٤٩) منتهى المقال، ص ١٠٥، كمال الدين، ص ٢٤٦، و منهج المقال ص ١٠٩.

^{٨٨٥} (٥٠) ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ٦١.

^{٨٨٦} (٥١) منتهى المقال، ص ١٣٠، و منهج المقال، ص ١٣٦، الأصول المهمة، ص ١٩١.

كان وكيلا في الري^{٨٨٧}.

الوكيل العطاردي

كان وكيلا في بغداد^{٨٨٨}.

الوكيل العاصمي أو العصيني

كان ميدان وظيفته الكوفة^{٨٨٩}.

ص: ٢٥٣

الوكيل القاسم بن العلاء

كان يدرى أذربيجان و عاش ١١٧ سنة، كان قضى منها ٣٥ سنة أعمى. يقال إنه استعاد بصره بكرامة من الإمام ستة أيام قبل موته، وكانت له مراسلات مع السفير الثاني و الثالث، و مات في أيام السفير الثالث^{٨٩٠}.

أبو الحسين محمد بن جعفر الأسدي

كان أبو الحسين محمد بن جعفر الأسدي واحدا من أشهر الوكلاء و من الرجال، الذين ترأسوا مع الإمام المختفى^{٨٩١}. و بعض الكتاب لا يسمون الأسدي وكيلا و رجلا مشهورا فقط، و إنما يسمونه الباب نفسه^{٨٩٢}، و لكن الطوسي وصفه بأنه متعهد المؤمنين و قال إن توقيعا جاءه من الإمام المختفى، حتى إنه كانت له كرامات. فقد جمع رجل يدعى محمد بن شاذان ٤٨٠ درهما للإمام و أراد أن يذهب إلى الأسدي، ليرسلها هذا إلى الإمام. على أن محمد بن شاذان لم يجد من اللائق أن يكون المبلغ الذي قد جمعه لم يزد عن ٤٨٠ درهما، فأضاف ٢٠ درهما من جيبه الخاص ليكون المبلغ ٥٠٠ درهم. و مع أنه لم يخبر الأسدي بذلك، فقد كتب له في الوصل أن ابن شاذان نفسه قد أضاف ٢٠ درهما إلى ٤٨٠ درهما^{٨٩٣} و أن ٢٠ درهما كانت له. و بعد موت هاجس الوشاء انضمت منطقته في الري إلى منطقة الأسدي، كما يتضح من خبر نقله محمد بن الحسن الكاتب^{٨٩٤}.

^{٨٨٧} (٥٢) كمال الدين، ص ٢٤٦، و منتهى المقال، ص ٣٦٢.

^{٨٨٨} (٥٣) كمال الدين، ص ٢٤٦.

^{٨٨٩} (٥٤) نفسه.

^{٨٩٠} (٥٥) منتهى المقال، ص ٢٤٥، و منهج المقال، ص ٣٠٠.

^{٨٩١} (٥٦) منهج المقال، ص ٢٨٨.

^{٨٩٢} (٥٧) نسبه.

^{٨٩٣} (٥٨) الغيبة، ص ٢٧٣.

^{٨٩٤} (٥٩) نفسه، ص ٢٧٢.

و لسنا ندرى متى تولى الأسدى منصب الوكيل، فالخبر المذكور آنفا لا يحتوى على رقم السنة، على أننا نملك ملاحظة، و هى أن شخصا ما

ص: ٢٥٤

أراد سنة ٢٩٠ هـ أن يحمل مبلغا ماليا إلى الإمام و لم يكن يعرف أين يضع المال. فكتب هذا الرجل إلى الإقامة المقدسة و تلقى جوابا مؤداه أن عليه أن يحمل المال إلى محمد بن جعفر العربى فى الرى، لأن هذا الرجل وكيل عن الإمام^{٨٩٥}. و هناك أيضا توقعات مشابهة، يظهر فيها الإمام ثقته فى الأسدى.

نحن نعرف أن منطقة منصب الأسدى كانت الرى، و قد بقى فى منصبه حتى سنة ٣١٢ هـ، أى إلى زمن السفير الثالث، الذى مات فيه^{٨٩٦}.

و الأسدى معروف فى كتبه أيضا بالعربى، و قد دعى بالأسدى، لأنه من قبيلة بنى أسد. أما عن علاقته بالسفير الثالث و عما إذا كان هذا قد ولاه منصبه أو كان فى نفس المنزلة معه، فإن المصادر لا تحدثنا عن ذلك.

و قد كان بعض الكتاب، كما ذكرنا أعلاه يسمون الأسدى نفسه بابا، و يصفه الطوسى بأنه رجل تلقى توقعات من الإمام عن طريق السفراء، على أن الطوسى لا يذكر أبدا، عند ما يقدم التوقعات، الطرق، التى وصلت بها إلى الأسدى. و نستخلص مما يقوله الطوسى أحيانا أن الأسدى نفسه كان يقدم توقعات، كما تعود السفراء أن يفعلوا ذلك تماما^{٨٩٧}.

و نعرف من الكتب، التى ألفها الأسدى «كتاب الرد على أهل الاستطاعة». و يحتوى، كما يتضح من العنوان، على الرد على الذين يؤمنون بحرية الإرادة. و المعروف أن الذين يؤمنون بحرية الإرادة هم المعتزلة، و عنهم أخذ الشيعة هذا الاعتقاد. و من الغريب أن يكتب

ص: ٢٥٥

الأسدى، و هو نفسه شيعى، هذا الكتاب ضد أغلبية إخوانه فى الدين، خصوصا و أنه كان بابا أو وكلا للإمام. كيف يمكننا إزالة هذا التناقض؟ كما كان الأمر مع ابن الجنيد فى مسألة القياس، كذلك وجد هنا أيضا كاتب، جعل من نفسه مدافعا عن الأسدى. فالذى يبدو أن الأسدى لم يكن يدعو إلى فكرة الجبر، و إنما ذكر خبرا روى على هذا المنوال، ففى القرآن أيضا آيات تدعو ظاهريا إلى الجبر. و لعل الأسدى كان يؤمن بأن للبشر منزلة بين منزلتين الجبر و الاختيار. و لو كان الأسدى قد آمن بالجبر، فإنه ما كان ليصبح وكلا، لأن مثل هذا الاعتقاد يتناقض مع المذهب الشيعى أو كان الإمام قد اعترض على الأقل على الأسدى^{٨٩٨}.

^{٨٩٥} (٦٠) الغيبة، ص ٢٧٢.

^{٨٩٦} (٦١) نفسه، ٢٧٣.

^{٨٩٧} (٦٢) نفسه، ٢٧٣.

^{٨٩٨} (٦٣) منهج المقال، ص ٢٨٨.

نستنتج من هذه الفقرة أن الشيعة في زمن الغيبة الصغرى لم يكونوا يؤمنون لا بحرية الإرادة عند المعتزلة ولا بنقيض ذلك. هناك مأثور للإمام جعفر الصادق يقول فيه: «لا الاختيار ولا الجبر، وإنما منزلة بين المنزلتين»^{٨٩٩}.

وإننا لنجد بين الشيعة، رغم هذا الحديث، من يؤمن بالجبر^{٩٠٠}.

و من الصعب في هذه الحالة إصدار حكم، إلا أن هناك شيئاً واحداً يمكن التأكيد عليه، وهو أن «الاختيار الوسيط» قد أصبح عند الشيعة بعد انتهاء الغيبة الصغرى، أى في نهاية القرن الثالث و بداية القرن الرابع للهجرة، عقيدة ثابتة^{٩٠١}. وهكذا يتم الاستغناء عن الدفاع المذكور عن الأسدى (بوصفه شيعياً قوياً بالعقيدة).

ص: ٢٥٤

الوكيل محمد بن شاذان

يذكره ابن طاووس بين الوكلاء، الذين رأوا الإمام، و كان مكان وظيفة بن شاذان منطقة نيسابور^{٩٠٢}.

الوكيل محمد بن صالح بن محمد الهمداني الدهقان

كانت منطقة عمله همدان، و يعتبر أيضاً من أولئك الذين رأوا الإمام، و كان قد أخذ منصبه عن والده. و عند ما مات والده، كانت له ديون على المؤمنين. و لما اختار الابن في هذا الأمر، راسل الإمام المختفى، و تلقى جواباً مؤداًه أن عليه أن ينذر الدائنين و أن يجمع الأموال بنفسه. و دفع جميع الناس ديونهم إلا واحداً منهم، رفض في إصرار أن يقوم بواجبه و يسدد ما عليه من ديون. فزار ابن صالح الرجل العنيد و طلب منه أن يدفع ما عليه. و تخاصم الاثنان، فضرب ابن صالح المدين، و اجتمع الناس حول المتخاصمين على إثر صراخ المدين. و لما كان المجتمعون كلهم من أهل السنة، فقد صاح ابن صالح قائلاً إنه غريب و أن خصمه غيره بأنه رافضى، لأنه لا يريد أن يدفع ما له عليه من دين.

و عند ما سمع الناس هذا، أرغموا الرجل على تقديم المال لابن صالح، لأنه سنى^{٩٠٣}.

الوكيل محمد بن علي بن بلال

^{٨٩٩} (٤٤) الكافي، ص ٥٥، الشهرستاني، ص ١٢٥ و مجمع البحرين، ص ٣٧٢.
^{٩٠٠} (٤٥) مثل هارون بن مسلم بن سعدان الكاتب (ينظر منهج المقال، ص ٣٥٨ و ٢٨٩؛ ثم ص ٤٧: توجد هنا انحرافات كثيرة في تعاليم أحمد بن نوح عن المذهب الشيعي).

^{٩٠١} (٤٦) مختصر ترجمة التحفة الاثنى عشرية، ص ٥٨ و منهاج السنة، ص ١٦.

^{٩٠٢} (٤٧) منتهى المقال، ص ٢٧٧، كمال الدين، ص ٢٤٦، و منهج المقال، ص ٣٠٠.

^{٩٠٣} (٤٨) منهج المقال، ص ٣٠٠، و منتهى المقال، ص ٢٧٧.

كان من الخلاء الحميمين للإمام الحادى عشر، و يسميه ابن طاوس سفيرا، و لكن الطوسى يعتقد شيئا آخر و يعده من الملعونين. و السبب فى ذلك فيما يقول الطوسى أن ابن بلال جمع مالا كثيرا للإمام و احتفظ به لنفسه. و عند ما سأله السفير الثانى عن ذلك، أجابه بأنه هو نفسه سفير و أنه لن يسلم المال، و عندئذ لعنه جميع الشيعة و تبرءوا

ص: ٢٥٧

منه^{٩٠٤}، كان مكان وظيفته فى بغداد، و يعد فى كتاب كمال الدين من الوكلاء^{٩٠٥}.

الوكيل محمد بن على بن مهزيار

يعده ابن طاوس من السفراء، و نعرف من أحد التوقيعات أن ابن مهزيار كان فى بدايته يشك قليلا فى الأئمة، و لكنه تحسن فيما بعد^{٩٠٦}.

الوكيل حفص بن عمر

كان مقر وظيفته فى بغداد، و قد تحدثنا عنه فى الفصل الخاص بالوكيل إبراهيم بن مهزيار.

الوكيل أبو جعفر محمد بن حفص

كنا قد تحدثنا عنه فى الفصل الذى قدمناه عن أبيه حفص.

ص: ٢٥٩

الفصل العاشر الغيبة الكبرى

ختمت رسالة السفير الرابع إلى طائفته الغيبة الصغرى و أنهت زمن الوساطة بين الإمام و أتباعه، على أن السؤال عما إذا لم يعد من الممكن بعد رؤية الإمام أم أن الأمر لا يتعلق إلا بانتهاء الوساطة. يعتقد الشيعة أن الله لا يمكن أن يترك البشر بدون إمام، لأنهم فى حاجة إلى نصيحته و مساعدته. ما فائدة إمام يعيش مختفيا من غير أن يراه أحد و لا يتمكن الناس من الوصول إليه؟ كان الشريف المرتضى و غيره قد حاولوا فى بداية الغيبة الكبرى الجواب عن هذا السؤال. أما فى الطائفة نفسها، فقد أصبح المشكل يتمثل فى الموقف، الذى يتخذه الشيعى من مؤلفات كتاب الشيعة فى ذلك العصر، مثل ابن بابويه الشيخ الصدوق فى كتابيه كمال

^{٩٠٤} (٦٩) الغيبة، ص ٢٦٠، و منهج المقال ص ٣٠٦، و منتهى المقال، ص ٣٧٢ و ٢٨٢.

^{٩٠٥} (٧٠) كمال الدين، ص ٢٤٦.

^{٩٠٦} (٧١) منتهى المقال، ص ٢٨٤، و منهج المقال، ص ٣١١.

الدين و تاريخ الغيبة فى المقدمة. كان المرتضى يرى أن الإمام لم يختف تماما و أنه ليس من المستحيل أن يظهر لبعض أتباعه، و يمثل هذا رأى نفسه أيضا الطوسى، تلميذ المرتضى^{٩٠٧}.

و قد سمعنا عن لقاءات عديدة تمت بين العلماء و الإمام المختفى و عن توقعات جرت فى زمن السفير الرابع، مثل التوقعات، التى تركها لنا المفيد. و لذلك حاول العلماء التوفيق بين التوقعات المتأخرة و بين رسالة السفير الرابع الأخيرة. فتلك الوثيقة خبر و حيد مرسل، و خبر و حيد

ص: ٢٤٠

من هذا النوع لا يمكن أن يقوم إلى جانب الأخبار الأخرى، التى احتفظ بها علماء الشيعة. و يستنتج العلماء أن أخبار و قصص الغيبة الكبرى قد تضمنت تنبؤات عظيمة بحيث لا يمكن إلا أن تكون شهادة إمام. و قد اعتبروا توقيع السفير الرابع ضعيفا مقارنة بمثل هذه الأخبار، بل ينبغى أن تعتبر بمثابة إجراء وقائى حتى لا يتطلع أحد إلى منصب السفير^{٩٠٨}.

و نقرأ فى مصدر آخر أنه قد وجد سفير أيضا فى الغيبة الكبرى، و كان يؤدى نفس الوظيفة، و يتقلد نفس المنصب مثل سفراء الغيبة الصغرى الأربعة: هو أبو الفرج المظفر بن على بن الحسين الهمداني، عاش فى زمن المفيد، و المرتضى، و الطوسى، و درس على المفيد، لكن الطوسى لا يذكره فى كتاب الغيبة بوصفه سفيراً.

و قد كتب «السفير» أبو الفرج، زيادة على كتبه الأخرى، كتابا يتناول فيه الغيبة الصغرى. و بغض النظر عن هذه الحالة، التى نسمع فيها بوجود سفير مزعوم فى الغيبة الكبرى، لم نسمع شيئا عن محاولات من هذا النوع^{٩٠٩}.

كنا قد ألمحنا إلى أن هناك حكايات و ظواهر عديدة تتصل بالإمام فى الغيبة الكبرى. فكيف يستطيع المرء أن يكون له نصيب فى هذه النعمة، و كيف يحق لكل إنسان أن يرى الإمام و يتحدث معه؟ كثير من أشكال الدعوات و النذور كانت غير معروفة قبل الغيبة الكبرى، و لكنها ظهرت الآن و نسبت إلى الإمام المختفى، الذى أنعم عليهم فى الحلم أو علمهم فى حالة اليقظة. و لنذكر الدعاء المصرى^{٩١٠} و الأدعية، التى وصلتنا من التقى رضى الدين محمد بن محمد بن الآوى^{٩١١} و من كثير غيره.

ص: ٢٤١

الجواب عن السؤال، الذى طرحناه سابقا هو: لا يستطيع كل إنسان أن يرى الإمام، و إنما يراه من يخضع لثمارين على دعوات و تقشفات معينة. و من أجل الإرشادات إلى ذلك تم وضع تعاليم و أشكال تفصيلية بكل أجزائها فى كتاب يشبه الكتاب التعليمى.

^{٩٠٧} (١) ينظر الغيبة، ص ٧٣ و مواضع مختلفة، و كذلك بحار، ج ١٣، ص ٢٨٦.

^{٩٠٨} (٢) جنة المأوى، ملحق ببحار الأنوار، ج ١٣، ص ٣٨٥.

^{٩٠٩} (٣) أسماء مشايخ الشيعة و مصنفهم، ملحق ببحار الأنوار، ج ٢٥، ص ١٠ و تذكرة المتبحرين، ملحق بمنهج المقال، ص ٥١٠.

^{٩١٠} (٤) جنة المأوى، ص ٢٨٦.

^{٩١١} (٥) نفسه، ص ٢٧١.

و عند ما يفى المرء بجميع الشروط، يحق له أن يأمل فى ظهور الإمام له و مساعدته^{٩١٢}. علينا أن نتذكر أن مثل هذه العلاقة مع الإمام فى غاية الأهمية، و لذلك فإنه من الخطورة بمكان تكون مجرد خدعة.

بعد انتهاء وساطة السفراء، حين لم يعد هناك إمام يرى و لا نائب فوق الأرض، تولى العلماء قيادة الطائفة الشيعية. و لم يصلنا حديث عن أسباب إنهاء السفير الرابع للسفارة، و ينبغى أن تبقى هذه الأسباب على الدوام غير معروفة بالنسبة إلينا، لأن السفير كان دائما يحيل على توقيع الإمام و الأمر المتضمن فيه، حتى و لو كان الرؤساء المعروفون قد تجرؤوا على توجيه السؤال إليه عن ذلك. غير أن الأسباب الغامضة لقرار السفير يمكن أن تنسب، إذا ما نحن تأملنا القضية بصورة واقعية دون أن نأخذ علاقة ذلك بالإمام المختفى بعين الاعتبار، إلى وضع خارجى صعب، فضل السفراء و الشيعة فيه أن يتخلوا عن مبدأ السفارة.

لقد قصر العلماء، الذين أخذوا الآن على عاتقهم قيادة مصائر الشيعة الاثنى عشرية، نشاطهم فى بداية الغيبة الكبرى على مسائل الشرع و علم الكلام من غير أن يتدخلوا فى الشؤون السياسية. فكما كان السفراء من قبلهم، و كذلك الأئمة، لم يسببوا مشاكل للحكام الدينيين، من البويهيين مثلا، و لم نسمع عن أى ثورة لهم.

و نستمد من كتب التراجم أن الطائفة الشيعية لم يقدها كما كان الأمر

ص: ٢٤٢

فى زمن الأئمة و السفراء فى بداية الغيبة الكبرى سوى رجل واحد، و هو المسمى «بالمجتهد»، و هذا هو اسم العالم عند الأصوليين. و هكذا تعاقب الواحد منهم بعد الآخر، و إن لم يكن ذلك بشكل مباشر، ابن بابويه الصدوق (توفى سنة ٣٨١ هـ)، و المفيد (توفى سنة ٤١٣ هـ)، و تلميذه المرتضى (توفى سنة ٤٣٦ هـ)، و بعده الشيخ الطوسى (توفى سنة ٤٦٠ هـ)؛ و بعد كان هناك استراحة، كان الشيعة خلالها قد اضطهدوا فيها حتى عهد المغول، الذى استعاد فيه الشيعة الحكم.

افتتح فترة حكم العلماء الجديدة فى العصر المغولى خواجه الطوسى، ثم تبعه ابن طاوس^{٩١٣} و بعده العلامة الحلى. و بعد الحلى تم توزيع الحكم على عدد من الأشخاص. و هذا لا يعنى أنه لم يكن هناك قبل ذلك علماء إلى جانب تلك الشخصيات الكبيرة، بل إن المجتهد كان يعتبر خلال الأزمنة السابقة هو الرئيس القائد العظيم للعلماء. أما الآن فقد تغيرت هذه العلاقة، فأخذ الجميع يطمحون إلى الحكم بدل أن تكون لهم قيادة موحدة. جميع العلماء المذكورين كان لهم فى عيون إخوانهم فى الدين الحق فى تكوين دولة، و لم تكن طاعتهم للحكام الحقيقيين إلا تقيية مثلما كان الأئمة أنفسهم يفعلون فى عصرهم^{٩١٤}. لكن العلماء بدءوا الآن شيئا فشيئا يشتغلون بالسياسة بشكل أقوى، لأن المذهب الشيعى أصبح دين الدولة فى إيران، خصوصا فى منعرج القرن ١٩

^{٩١٢} (٦) نفسه، ص ٢٨٧ و ما بعدها. تتحدث كتب التراجم عن حالات عديدة فى الغيبة الكبرى، يروى الناس فيها أقوال الإمام، التى سمعوها منه حسب دعوامهم بأنفسهم) ينظر روضات الجنات، ج ٣، ص ٢٥٨، قصص العلماء، ص ٣٢ / ٣٣، منتهى المقال، ص ٣٠١، الاحتجاج، ص ٢٨٨ و غير ذلك!)

^{٩١٣} (٧) هناك علماء مختلفون بنفس الاسم من الأسرة نفسها. رضى الدين بن طاوس (ينظر شترومان، الشيعة الاثنا عشرية) جما الدين أحمد بن طاوس (توفى سنة ٦٧٣ هـ) هم أشهر أفراد هذه الأسرة.

^{٩١٤} (٨) آثار الشيعة، ص ١٠٦.

إلى القرن ٢٠ م، حين ضعفت قوة الملك فى بلاد فارس، ازدهر نفوذ العلماء كما لم يكن قبل ذلك أبدا، فلم يألوا جهدا فى المطالبة بالحياة النيابية. فكان خواجه ميرزا حسين بن حاج ميرزا خليل طهرانى، عبد الله المازندراني، و محمد كاظم الخراساني حاملي هذه الفكرة الرئيسيين. على أن هذه الحركة

ص: ٢٤٣

وجدت خصما لها فى شخص سيد كاظم اليزدى، الذى أوضح أن الحياة البرلمانية ليست من الشيعة فى شىء، و قصر السلطة فى الدولة على العلماء وحدهم^{٩١٥}.

ليس من السهل أن يتبين المرء طريقه فى هذه الفوضى، التى يسودها المجتهدون فى الوقت نفسه، فكل مجاهد طالب بأن يكون الحق له وحده فى الحكم فتمزقت الطائفة بذلك. و تبدو القضية على شىء من الشناعة، خصوصا عند ما يتصور المرء أن هناك مجتهدين يحاربون بعضهم بعضا فى المدن المقدسة مثل النجف أو قم أو كربلاء. قد يكون من الأفضل أن يقارن هذا الزمن فى بنيتة و مظاهره بذلك الزمن، الذى كان قبل الغيبة الصغرى، أى حين كان الأئمة لا يزالون يحكمون فوق الأرض.

و على العموم فإن اتجاه العلماء إلى السياسة قد ألحق بالشعب ضررا كبيرا. أما عند ما كانت سلطة الملك ضعيفة، فقد قسّمت القوات الأجنبية بلاد فارس إلى مناطق نفوذ خاصة بمصالحها، فإن العلماء كانوا يضعون يدهم فى يد الشعب و يتصدون للتدخل الأجنبى^{٩١٦}. كان ناصر الدين شاه، ملك بلاد فارس فى ذلك الحين، قد باع سنة ١٣٠٧ هـ احتكار التبغ فى البلاد كلها لشركة إنجليزية، و عندها وقف العالم محمد حسن شيرازى ضد إرادة الملك و أصدر فتوى منع بموجبها التدخين على أى مسلم. و فى النهاية لم يستطع الشاه نفسه التدخين، لأن التبغ لم يقدم له فى القصر، فتم إلغاء الاحتكار فى سنة ١٣٠٩ هـ. و كذلك أصدر سيد محمد مجاهد فتوى، دعا فيها إلى محاربة الروس^{٩١٧}. و قد قدم المجتهدون أيضا خدمات جليلة، ساهموا بها فى استقلال العراق^{٩١٨}.

لا حظ شتروتمان فى دائرة المعارف الإسلامية أنه ليس هناك فرق

ص: ٢٤٤

بين المجتهد عند الشيعة و المفتى عند أهل السنة^{٩١٩}، و هذه الملاحظة صائبة إلى حد ما. ليس من السهل إدراك الفرق بين المفتى عند أهل السنة و المجتهد عند أهل الشيعة. طبعاً من اليسير التفريق بين الاثنين من حيث الموقف الخارجى، و لكن الأصعب هو معرفة الاختلاف بينهما من حيث الجوهر. فالمجتهد هو ذلك الرجل، التى يمتلك علما واسعا فائقا، و يستطيع أن يصدر حكما فى جميع ميادين العلوم الفقهية (القرآن، و الحديث، و الشرع، و التراجم)، و يضع علمه كله فى خدمة هذه الواجبات، بحيث يكون

^{٩١٥} (٩) نفسه، ص ١٠٧.

^{٩١٦} (١٠) سيرجان ملحم، ٨١٢، p. II, Bd. II, SirJanMalham, ٢٤٢.

^{٩١٧} (١١) ينظر عنه آثار الشيعة الإسماعيلية، ج ٤، ص ١٠٧.

^{٩١٨} (١٢) عن مشاركة العلماء فى الثورة العراقية ينظر تاريخ القضية العراقية!

^{٩١٩} (١٣) دائرة المعارف الإسلامية، مادة الشيعة.

فى مقدوره الإجابة عن كل الأسئلة على وجه اليقين^{٩٢٠}. مثل هذا المجاهد يطلق عليه مصطلح مجتهد مطلق. أما عند أهل السنة فإن هذه المرتبة لم تكن فى التاريخ كله إلا من حق الأشخاص الأربعة المعروفين، الذين أسسوا مدارس (مذاهب) خاصة^{٩٢١}. كان يعلم فى هذه المدارس رجال، حاولوا أن يحلوا حسب مبادئ أساتذتهم تلك المشاكل، التى ترك مؤسسو المذاهب العلمية معالجتها. و كان يحق لهم بشكل محدود أن يبحثوا مباشرة مثل أساتذتهم عن أدلة فتواهم فى الكتاب، و السنة، و الإجماع، و القياس، و مثل هذا الرجل يدعى مجتهد المذهب، مثل أبى يوسف^{٩٢٢} (١١٣ - ١٨١ هـ) و أبى محمد^{٩٢٣} (توفى ٢٨٩ هـ) من مدرسة أبى حنيفة^{٩٢٤} (٨٠ - ١٥٠)، و المازنى^{٩٢٥} (توفى

ص: ٢٦٥

سنة ٢٦٤ هـ) و الربيع^{٩٢٦} (توفى ٢٧٠ هـ) فى مدرسة الشافعى^{٩٢٧} (١٥٠ - ٢٠٤ هـ). و هناك مجتهد ثالث و هو مجتهد الفتوى أو ما يسمى اليوم «المفتى». فالمفتى مجتهد أيضا، و لكن ميدان اختصاصه قليل الأهمية:

إذا ما طرح عليه سؤال، فإنه يعود أولا إلى ما قالته المدارس عن ذلك، و يختار بناء على قناعته ما يتلاءم مع الحالة الخاصة. و لا يجوز له أن يأخذ ما يتصل بحكمه من المصادر الأربعة مباشرة، فهذا حق خاص بالنوعين الآخرين من المجتهد. و هكذا حددت بكل هذه الدقة صلاحيات المفتى عند السنة^{٩٢٨}. و للمجتهد عند الشيعة فى واقع الأمر نفس المنزلة، التى هى للمجتهدين الأربعة عند أهل السنة. فلا يزال له حتى اليوم الحق فى أن يأخذ رأيه من الكتب الشرعية الأربعة أو الخمسة^{٩٢٩} لمساندة وجهة نظره. من الواجب على المجتهد الشيعى طبعاً أن يستدل بالمصادر، و إلا كان هو نفسه صاحب الدين. و المجتهد المطلق عند السنة خاضع لنفس الشروط. و المرتبة عند الشيعة، التى تطابق المفتى عند السنة، هو مسألة غوش ... فى العراق و إيران، أى الرجل، الذى يختار من فتوى المجتهد، و يقدمها لمن يطلب الحق و يقدم فتوى فى الوقت نفسه^{٩٣٠}.

^{٩٢٠} (١٤) ينظر ابن دحلان، كيفية المناظرة، ص ٣٣ و ٤٢؛

^{٩٢١} (١٥) ينظر عن حياته الفهرست، ج ١، ص ٢٠٣؛ ابن خلكان، طبعة فوستنفلد، رقم ٨٣٤، أحمد تيمور، نظرة تاريخية، ص ٩، و دائرة المعارف الإسلامية، مادة أبو يوسف.

^{٩٢٢} (١٦) محمد أبو الحسن الشيبانى، ينظر عنه الفهرست، ٢٠٣؛ النووى، تهذيب الأسماء، ص ١٠٣؛ ابن خلكان، ج ١، ٥٧٤، ثم الذهبى، ميزان الاعتدال، ج ٣، ص ٤٢.

^{٩٢٣} (١٧) ينظر عن أبى حنيفة دائرة المعارف الإسلامية.

^{٩٢٤} (١٧) ينظر عن أبى حنيفة دائرة المعارف الإسلامية.

^{٩٢٥} (١٨) ينظر عن المازنى الفهرست، ص ٢١٢؛ طبقات الشافعية، ج ١، ص ٢٣٩ و ما بعدها؛ و ابن دحلان، ص ٤٢.

^{٩٢٦} (١٩) الفهرست، ص ٢١٠ و ما بعدها؛ طبقات الشافعية، ج ١، ص ٢٥٩، النووى، ص ٢٤٣.

^{٩٢٧} (٢٠) ينظر عنه دائرة المعارف الإسلامية، مادة الشافعى.

^{٩٢٨} (٢١) كاشف الغطاء، رسالة خاصة.

^{٩٢٩} (٢٢) نفسه.

^{٩٣٠} (٢٣) نفسه.

و لدينا أمثلة تظهر لنا أن مجتهدي الشيعة يحتلون نفس المرتبة التي يحتلها المجهدون المطلقون عند أهل السنة و أن بعض فتاوى الشيعة يعترف بها السنيون أيضا. و توضح الحالات لنا في الوقت نفسه مدى استقلالية الشيعيين مقارنة بالمفتى السني. فلنأخذ مثلا مسألة نجاسة المسيحي أو اليهودي أو أى كافر آخر بمثابة ميزة للشيعة! قبل الغيبة الصغرى و خلال

ص: ٢٤٤

هذه الفترة لم تكن هذه العلامة موجودة. لكان العماني و ابن الجنيد، فيما يروى لنا، كانا يدافعان عن نظافة غير المسلم. و الأول، الذى قال عن المسيحيين و اليهود إنهم نجسون هو الشريف المرتضى، و لم يغير حكمه أبدا. فأخذه الشيعة عنه و تطور و أصبح علامة على الموقف الشيعي من الحياة، و قد اهتم إغناس غولتسيهر بهذه المسألة. و هو يرى أن هذا الموقف الشيعي من غير المسلمين إنما هو نتيجة لعدم تسامح الفرس فى الأشياء الدينية^{٩٣١}. و لكن عند ما نبحث هذه المسألة بناء على المصادر الأصلية، فإننا نقتنع بأن الحكم الشيعي قد نتج أولا عن دوائر العلماء العرب أو هو ثانيا بدافع الحذر من شاربى الخمر و آكلى لحوم الخنزير أو حسب رأى المسلمين فى المسيحيين، الذين يقومون بأعمال نجسة. و هذا الخوف، الذى يكمن سببه الأصلى فى خوف الكفار من ملازمة الأشياء غير النظيفة، قد نما على مهل حتى أصبح يرى الكفار غير نظيفين^{٩٣٢}، و كدليل على هذا يمكن الإشارة إلى رأى المفيد، أستاذ المرتضى، الذى كان عربيا قحا. كان المفيد يرى أن على الكافر أن يغسل يديه قبل تناول الطعام مع المؤمن، و ذلك ليبعد ما يمكن أن يكون قد اتسخ بواسطة الأشياء غير النظيفة^{٩٣٣}. و فى النهاية نقل مفهوم النجاسة من الكافر و عمم على المحترق لعلى و آل بيته، بل حتى على الأبناء غير الشرعيين حتى و إن كان من أهل الشيعة. و أحب أن أؤكد أن المرتضى و الأكثر حدة و حزما محمد بن أحمد بن إدريس (توفى ٥٩٨ هـ^{٩٣٤} كانا من العرب الخالص.

هناك مثل آخر تقدمه لنا مسألة صلاة الجمعة. كان العالم أبو يعلى

ص: ٢٤٧

حمزة بن عبد العزيز (توفى سنة ٤٦٣ هـ) المعروف باسم سلار الديلمي أول من ذهب إلى أن صلاة الجمعة يجب أن تسقط فى أيام الغيبة الكبرى، لأن هذه كان قد فرضها إمام أو نائب، لم يعد له اليوم وجود، و لذلك يجب أن تمنع صلاة الجمعة^{٩٣٥}. و دعا فى الوقت نفسه عالم آخر، هو الكراجكى أبو الفتح بن محمد بن على إلى الاحتفاظ بصلاة الجمعة^{٩٣٦}. و يمكننا من هذه الأمثلة القليلة

^{٩٣١} (٢٤) محاضرات عن الإسلام، ط ٢، ص ٢٢٣٤ و ما بعدها؛ توجد فرضيته الفارسية فى صفحة ٢٣٧.

^{٩٣٢} (٢٥) كاشف الغطاء، رسالة خاصة بتاريخ ٢٢ رمضان ١٣٥٥ هـ.

^{٩٣٣} (٢٦) مفتاح الكرامة، ج ٢، ص ١٤٢.

^{٩٣٤} (٢٧) روضات الجنات، ج ٣، ص ٤٠٢.

^{٩٣٥} (٢٨) روضات الجنات، ج ٢، ص ٢٠١؛ سلار الديلمي فقيه كبير، درس على المرتضى و المفيد و عمل وكيلا للمرتضى فى منطقة حلب، و قد توفى سنة ٤٦٣ هـ أو ٤٤٨ هـ.

^{٩٣٦} (٢٩) درس الكراجكى على المرتضى أيضا و على الطوسى زيادة على ذلك، و كثيرا ما يتردد اسمه فى مجال الفقه و الحديث. توفى سنة ٤٤٩ هـ. ينظر عنه روضات الجنات، ج ٣، ص ١٥٧٩ عن صلاة الجمعة عموما ينظر مفتاح الكرامة، ج ٢، ١٦١! هنا يجد المرء الآراء المختلفة للعلماء حول منع صلاة الجمعة أو المحافظة عليها. هناك على العموم حكم مسبق بان الشيعة قد تركوا صلاة الجمعة، و لكن هذه الفرضية ليست صحيحة. لهذه لا تسقط عند الأخباريين، و لم يتفق الأصوليون على رفض

و عن طريق الدراسة الدقيقة للأعمال، التى تركها العلماء و المجتهدون و لم يكشف عنها- للأسف- العلم حتى الآن، أن نعرف الفرق الخفى العميق بين المجتهد و المفتى.

تكملة للصورة، التى رسمتها للمجتهد، أحب أن أضيف إلى ذلك ما يلى: على المجتهدين جميعا أن يسجلوا وجهات نظرهم كتابة فى رسالة.

لكن هذه الدراسة لم تكن بالنسبة إلى أولئك، الذين يريدون أن يتخذوها قدوة لهم، ملزمة إلا فى حياة المؤلف و يمكن على أقصى حد أن يكون لها ترخيص عن طريق من يخلف المجتهد المقصود^{٩٣٧}.

ص: ٢٦٨

التوقيعات

يكتب الطوسى فى كتابه عن الغيبة و ابن بابويه فى كتابه كمال (أو إكمال) الدين عن التوقيعات و ينقلون منها. كنا قد ذكرنا فى فصلنا عن المصادر أن ابن بابويه و قبل الحميرى قد جمعوا التوقيعات. و رغم هذا الاكتشاف يجب علينا أن نتدبر لما ذا لم يقتبس الكلىنى التوقيعات فى كتابه الكافى، فلا بد أن يكون هناك سبب. لقد أجابنى هبة الدين على سؤالى عن ذلك بأنه لا يصح أن يعتبر المرء كل التوقيعات صحيحة؛ و قد يكون هذا هو السبب فى سلوك الكلىنى و المفيد.

و توجد توقيعات السفراء الأربعة مطبوعة أمامنا، و لكن نصوصها المطبوعة على الحجر لا تخلو من أخطاء، و هى بلا شرح فوق ذلك، بحيث إن علينا أن نصحح النصوص عند دراستها.

و هناك مع التوقيعات عادة إشارة إلى أن خط المخطوط يتطابق تماما مع خط الراحل الإمام الحادى عشر فى توقيعاته. و نجد فى بعض الأحيان ملاحظة أن المخطوط هو نفس المخطوط، الذى كان الإمام استعمله عند اتصالاته بأتباعه. هكذا تنص الإضافات إلى توقيعات السفير الأول و السفير الثانى^{٩٣٨}.

ابتداء من السفير الثالث نجد فى التوقيعات إضافة مؤداها أن التوقيع من إملاء الحسين بن روح و الخط هو خط أحمد بن إبراهيم النوبختى^{٩٣٩}. و جميع التوقيعات، التى وصلتنا تنسب إلى الحسين بن روح، السفير الثالث، و تتصل بالشرع^{٩٤٠}.

صلاة الجمعة مطلقا. فقد طرحت المسألة، خصوصا أيام الحكم الشيعى فى إيران، و ذلك لأن الشيعة أصبحت لهم دولة و الصلوات تقوى من سلطة الحكومة. ينظر

روضات الجنات، ج ١، ص ١١٤، ج ٢، ص ٣٠٣، ١٩٣، و غيرها؛ ثم مجلة المرشد، سنة ١، عدد ٤، ص ١١٩.

^{٩٣٧} (٣٠) روضات الجنات، ج ١، ص ٣٦؛ ينظر كاشف الغطاء، سؤال و جواب، ص ٣، ففيه معلومات خاصة.

^{٩٣٨} (٣١) ينظر الغيبة، ص ٢٣١، ج ٣، ص ٢٣٥.

^{٩٣٩} (٣٢) الغيبة، ص ٢٤٣ و ٣٤٤.

^{٩٤٠} (٣٣) الغيبة، ص ٢٤٥ - ٢٥٠.

سأحاول أولاً على قدر ما أستطيع تنظيم التوقعات في سياق الشخصيات المذكورة فيها زمنياً، وإذا لم يكن هناك في التوقعات نفسها

ص: ٢٦٩

ذكر لزمن نشأتها- وهذه هي الحالة الغالبة- فسوف أعود إلى ترجمة المحدث، إن أمكن هذا أيضاً، والإشارات إلى المحدث المحتمل في المصادر الأخرى. سأسمى التوقعات المفردة باسم راويها.

التوقعات المبكرة في الغيبة الصغرى

توقيع على بن إبراهيم الرازي

يروى على بن إبراهيم الرازي أنه وقع ذات يوم بين ابن أبي غانم وأحد الشيعة نزاع حول ما إذا كان للإمام الحادي عشر خلف أم لا. فكان رأى أبي غانم أن الإمام مات دون أن يترك خلفاً له. وعند ما لم يصل الرجال إلى نتيجة، كتبوا رسالة إلى الناحية المقدسة للوصول إلى حل لهذه المسألة العويصة. ويضيف على بن إبراهيم الرازي أن الإمام أرسل بخط يده الجواب الآتي:

عافانا الله وإياكم من الضلالة والفتن و وهب لنا و لكم روح اليقين و أجارنا و إياكم من سوء المنقلب. إنه أنهى إلى ترتيب جماعة منكم في الدين و ما دخلهم من الشك و الحيرة ولاة أمورهم^{٩٤١} فغفنا ذلك لكم لا لنا و ساءنا^{٩٤٢} فيكم لا فينا لأن الله معنا و لا فاقة بنا إلى غيره و الحق معنا^{٩٤٣} فلن يوحشنا من قعد عنا و نحن صنائع ربنا و الخلق بعد صنائعنا^{٩٤٤}. يا هؤلاء ما لكم في الريب تترددون و في الحيرة تنعكسون أو ما سمعتم الله عز و جل يقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ»^{٩٤٥}. أ ما علمتم ما جاءت به الآثار مما يكون

ص: ٢٧٠

و يحدث في أمتكم عن الماضين^{٩٤٦} و الباقي منهم عليهم السلام. أو ما رأيتم كيف جعل الله لكم معاقل تأوون إليها و أعلاما تهتدون بها من لدن آدم عليه السلام^{٩٤٧} إلى أن ظهر الماضي عليه السلام^{٩٤٨}، إذا أفل نجم طلع نجم فلما قبضه الله إليه ظننتم أن

^{٩٤١} (٣٤) بحار: في ولاة امرهم.

^{٩٤٢} (٣٥) بحار: و ساءنا.

^{٩٤٣} (٣٦) بحار: لأن الله معنا فلن يوحشنا.

^{٩٤٤} (٣٧) بحار: صنائعنا.

^{٩٤٥} (٣٨) قرآن، ٤، ٥٩.

^{٩٤٦} (٣٩) بحار: ما جاء به الآثار. و: ما جاءت بها الآثار.

^{٩٤٧} (٤٠) بحار: على الماضين و الباقيين.

^{٩٤٨} (٤١) بحار: لا توجد جملة: عليه السلام.

الله تعالى^{٩٤٩} أبطل دينه و قطع السبب بينه و بين خلقه. كلا ما كان ذلك و لا يكون حتى تقوم^{٩٥٠} الساعة و يظهر أمر الله سبحانه^{٩٥١} و هم كارهون. و أن الماضي عليه السلام مضى سعيدا فقيدا على منهاج آبائه عليهم السلام حذو النعل بالنعل و فينا وصيته و علمه و من هو خلفه و من يسد مسده لا ينازعنا^{٩٥٢} موضعه إلا ظالم إثم و لا يدعيه دوننا إلا جاحد كافر و لو أن الله تعالى لا يغلب و سره لا يظهر و لا يعلن لظهر لكم من حقنا ما تبين^{٩٥٣} منه عقولكم و يزيل شكوككم لكنه ما شاء الله كان و لكل أجل كتاب فاتقوا الله و سلموا لنا و ردّوا الأمر إلينا فعلينا الإصدار كما كان منا الإيراد و لا تحاولوا كشف ما غطى عنكم و لا تميلوا عن اليمين و تعدلوا إلى الشمال^{٩٥٤}. و اجعلوا قصدكم إلينا بالمودة على السنة الواضحة فقد نصحت لكم و الله شاهد على و عليكم و لو لا ما عندنا من محبة صلاحكم و رحمتكم و الإشفاق عليكم لكنا عن مخاطبتكم فى شغل فيما^{٩٥٥} قد امتحنا به من منازعة الظالم العقل الضال

ص: ٢٧١

المتتابع فى غيه^{٩٥٦} المضاد لربه المدعى ما ليس له الجاحد حق من افترض الله طاعته الظالم الغاصب. و فى ابنة رسول الله صلى الله عليه و آله لى أسوة حسنة و سيردى الجاهل رداء^{٩٥٧} عمله و سيعلم الكافر لمن عقبى الدار عصمنا الله و إياكم من المهالك و الأسواء و الآفات و العاهات كلها برحمته فإنه ولى ذلك و القادر على ما يشاء و كان لنا و لكم وليا و حافظا و السلم^{٩٥٨} على جميع الأوصياء و المؤمنين و رحمة الله و بركاته و صلى الله على محمد النبى و آله تسليما^{٩٥٩}.

توقيع سعد بن عبد الله

يروى سعد بن عبد الله أن الإمام المختفى قد وجه التوقيع الموالى إلى السفير الأول و إلى ابنه، يتحدث فيه عن خليفة الإمام الحادى عشر.

^{٩٤٩} (٤٢) بحار: إن الله أبطل.

^{٩٥٠} (٤٣) الغيبة: حتى يقوم الساعة.

^{٩٥١} (٤٤) بحار: سبحانه غير موجودة.

^{٩٥٢} (٤٥) بحار: و لا ينازعنا.

^{٩٥٣} (٤٦) بحار: ما تبهى منه

^{٩٥٤} (٤٧) بحار: إلى اليسار.

^{٩٥٥} (٤٨) بحار: مما.

^{٩٥٦} (٤٩) بحار: المتابع فى غيه.

^{٩٥٧} (٥٠) بحار: رداء عمله.

^{٩٥٨} (٥١) بحار: و السلام

^{٩٥٩} (٥٢) الغيبة، ص ١٨٤ و ما بعدها، و بحار، ج ١٣، ص ٢٤٤.

و يتوجه التوقيع بكلمات حادة إلى أولئك الذين ينكرون وجود الإمام المختفى و يصرحون بالإمامة بجعفر بن على^{٩٦٠}. نص التوقيع هو:

وفقكم الله لطاعته و ثبتكم على دينه و أسعدكم بمرضاته. انتهى إلينا ما ذكرتموه أن الميشي^{٩٦١} أخبركم عن المختار^{٩٦٢} و مناظرته من لقي و احتجاجه بأنه لا خلف غير جعفر بن على و تصديقه إياه و فهمت جميع ما كتبتم به مما قال أصحابكم عنه و أنا أعوذ بالله من العمى بعد الجلاء و من الضلالة بعد الهدى و من موبقات الأعمال و مرديات الفتن فإنه عز و جل يقول: الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا و هم لا

ص: ٢٧٢

يفتنون^{٩٦٣}. كيف يتساقطون فى الفتنة و يترددون فى الحيرة و يأخذون يمينا و شمالا. فارقوا دينهم أم ارتابوا أم عاندوا الحق أم جهلوا ما جاءت به الروايات الصادقة و الأخبار الصحيحة أو علموا ذلك فتناسوا. أما تعلمون أن الأرض لا تخلو من حجة إما ظاهرا و إما مغمورا أو ما يعلموا انتظام أئمتهم بعد نبهم صلى الله عليه و آله واحدا بعد واحد إلى أفضى الأمر بأمر الله عز و جل إلى المضى يعنى الحسن بن على صلوات الله عليه فقام مقام آبائه يهدى إلى الحق و إلى صراط مستقيم. كان نورا ساطعا و قمرا زاهرا اختار الله عز و جل له ما عنده فمضى على منهاج آبائه عليهم السلام حذو النعل بالنعل على عهد عهده و وصية أوصى بها إلى وصى سره الله عز و جل بأمره إلى غاية و أخفى مكانه بمشيئته للقضاء السابق و القدر النافذ و فينا موضعه و لنا فضله. و لو قد أذن الله عز و جل فيما قد صنعه و أزال عن ما قد جرى به من حكمه لأراهم الحق ظاهرا بأحسن حلية و أبين دلالة و أوضح علامة. و لأبان عن نفسه و قام بحجته. و لكن أقدار الله عز و جل لا تغالب و إرادته لا ترد و توفيقه لا يسبق فليدعوا عنهم أتباع الهوى و ليقيموا على أصلهم الذى كانوا عليه و لا ييحثوا عما ستر عنهم فبأثموا و لا يكشفوا ستر الله عز و جل فيندموا و ليعلموا أن الحق معنا و فينا و لا يقول ذلك سوانا إلا كذاب مفتر و لا يدعيه غيرنا إلا ضال غوى فليقتصروا منا على هذه الجملة دون التفسير و يقنعوا من ذلك بالتعريض دون التصريح إن شاء الله^{٩٦٤}.

توقيع أحمد بن إسحاق

يتصل التوقيع أيضا بالنزاع حول خليفة الإمام الحادى عشر. يروى جعفر بن على، أخو الإمام لحادى عشر، قد كتب إلى بعض الشيعة أنه هو الإمام الصحيح و أنه يسيطر على جميع العلوم بكامل أسرارها. و قد

ص: ٢٧٣

^{٩٦٠} (٥٣) كمال الدين، ص ٢٨١، بحار، ج ١٣، ص ٢٤٧.

^{٩٦١} (٥٤) لم أجد أية معلومات عن الميشي.

^{٩٦٢} (٥٥) لا يمكن معرفة شيء عن المقصود بالمختار من حملة هذا الاسم، لأن اسم الأب لم يذكر.

^{٩٦٣} (٥٦) قرآن ٢٩، ١-٢.

^{٩٦٤} (٥٧) بحار، ج ١٣، ص ٢٤٧ / ٢٤٨، و كمال الدين، ص ٢٨١.

سمعنا أن مستلمى الرسائل قد حملوها إلى أحمد بن إسحاق^{٩٦٥} و إنه بعث بها فى لفّة كتاب إلى الإمام. و سرعان ما وصل منه الجواب الآتى:

بسم الله الرحمن الرحيم أتانى كتابك أبقاك الله و الكتاب الذى أنفذته درجة و أحاطت معرفتى بجميع ما تضمنه على اختلاف ألفاظه و تكرر الخطأ فيه و لو تدبرته لوقفت على بعض ما وقفت عليه منه و الحمد لله رب العالمين حمدا لا شريك له على إحسانه إلينا و فضله علينا أبى الله عز و جل للحق إلا إتماما و للباطل إلا زهوقا و هو شاهد على بما أذكره ولى عليكم بما أقوله إذا اجتمعنا ليوم لا ريب فيه و يسألنا عما نحن فيه مختلفون إنه لم يجعل لصاحب الكتاب على المكتوب عليه و لا عليك و لا على أحد من الخلق جميعا إمامة و لا طاعة و لا ذمة و سائبين لكم جملة تكفون بها إن شاء الله تعالى.

يا هذا يرحمك الله إن الله تعالى لم يخلق الخلق عبثا و لا أهملهم سدى بل خلقهم بقدرته و جعل له أسماعا و أبصارا و قلوبا و ألبابا ثم بعث إليهم النبيين عليهم السلام مبشرين و منذرين يأمرونهم بطاعته و ينهونهم عن معصيته و يعرفونهم ما جهلوه من أمر خالقهم و دينهم و أنزل عليهم كتابا و بعث إليهم ملائكة يأتين بينهم بين من بعثهم إليه بالفضل الذى جعله لهم عليه و ما آتاهم من الدلائل الظاهرة و البراهين الباهرة فمنهم من جعل النار عليه بردا و سلاما و اتخذته خليلا^{٩٦٦} و منهم من كلمه تكليما و جعل عصاه ثعبانا مبينا^{٩٦٧} و منهم من أحيى^{٩٦٨} الموتى بإذن الله و أبرأ الأكمه

ص: ٢٧٤

و الأبرص بإذن الله^{٩٦٩} و منهم من علمه منطق الطير و أتى من كل شىء^{٩٧٠} ثم بعث محمدا صلى الله عليه و آله رحمة للعالمين و تتم به نعمته و ختم به أنبياءه و أرسله إلى الناس كافة و أظهر من صدقه ما أظهر و بين من آياته و علاماته ما بين ثم قبضه الله صلى الله عليه و آله حميدا فقيدا سعيدا و جعل الأمر بعده إلى أخيه^{٩٧١} و ابن عمه و وصيه و ورثته على بن أبى طالب عليه السلام ثم إلى الأوصياء من ولده واحدا واحدا حتى^{٩٧٢} بهم دينه و أتم بهم نوره و جعل بينهم و بين إخوانهم و بين عمهم و الأدنين فالأدنين من ذوى أرحامهم فرقانا بينا يعرف به الحجة من المحجوج و الإمام من المأموم بأن عصمهم من الذنوب و برأهم من العيوب و طهرهم من الدنس و نزههم من اللبس و جعلهم خزان علمه و مستودع حكمته و موضع سره و أيدهم بالدلائل و لو لا ذلك لكان الناس على سواء و لادعى أمر الله عز و جل كل أحد و لما عرف الحق من الباطل و لا العالم من الجاهل و قد ادعى

^{٩٦٥} (٥٨) تحدثنا عن أحمد بن إسحاق فى الفصل الخاص بالوكلاء. و يعتقد الشيعة بناء على هذا التوقيع أن ابن إسحاق كان على صلة مباشرة بالإمام. توفي ابن إسحاق سنة ٢٩٩، ٣٠٠ أو ٣٠١، ينظر منهج المقال، ص ١٥٩ و فصلنا عنه.

^{٩٦٦} (٥٩) قرآن، ٢١، ٦٩.

^{٩٦٧} (٦٠) نفسه، ٧، ١٠٧؛ ٢٧، ١٠، ٢٦، ٢٣.

^{٩٦٨} (٦١) فى الغيبة و بحار: من أحياء.

^{٩٦٩} (٦٢) قرآن، ٥، ١١٠.

^{٩٧٠} (٦٣) نفسه، ٢٧، ١٦ - ٢١.

^{٩٧١} (٦٤) ابن الأثير، ج ٢، ص ٢٣ و ما بعدها.

^{٩٧٢} (٦٥) بحار: أحياء!

هذا المبطل المفتري على الله الكذب بما ادعاه فلا لأدرى بآية حالة هي له رجاء أن يتم دعواه أ بفقهه في دين الله فوا الله ما يعرف حلالاً من حرام ولا يفرق بين خطأ و صواب^{٩٧٣} أم بعلم فما يعلم حقاً من باطل ولا محكماً من متشابه ولا يعرف حد الصلة و وقتها أم بورع فالله شهيد على تركه الصلة أربعين يوماً. يزعم ذلك لطلب الشعوذة و لعل خبره قد تأدى إليكم و هاتيك ظروف منكرة منصوبة^{٩٧٤} و آثار عصيانه لله عز و جل مشهورة قائمة أم بآية فليأت بها أم بحجة فليقلها أم بدلالة فليذكرها قال الله عز و جل في كتابه: بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل

ص: ٢٧٥

الكتاب من الله العزيز الحكيم ما خلقنا السموات الأرض و ما بينهما إلا بالحق و أجل مسمى و الذين كفروا عما أنذروا معرضون قل أ رأيتم ما تدعون من دون الله أروني ما خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات ائتوني بكتاب من قبل هذا و إثارة من علم إن كنتم صادقين و من أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة و هم عن دعائهم غافلون و إذا حشر الناس كانوا لهم أعداء و كانوا بعبادتهم كافرين^{٩٧٥} فالتمس تولى الله توفيقك من هذا الظالم ما ذكرت لك و امتحنه و سلّه عن آية من كتاب الله يفسرها أو صلاة فريضة يبين حدودها و ما يجب فيها لتعلم حاله و مقداره و يظهر لك عواره و نقصانه و الله حسيبه حفظ الله الحق على أهله و أقره في مستقره و قد أبى الله عز و جل أن تكون^{٩٧٦} الإمامة في أخوين بعد الحسن و الحسين عليهما السلام و إذا أذن الله لنا في القول ظهر الحق و اضمحل الباطل و انحسر عنكم و إلى الله أرغب في الكفاية و جميل الصنع و الولاية و حسبنا الله و نعم الوكيل و صلى الله على محمد و آل محمد.

تتعلق توقيعات السفير الأول هذه بالنزاع بين الشيعة حول من يخلف الإمام، و تتصل بذلك السؤال العويص و تؤكد على شئون الخراج عند الطائفة الشيعية و الأوقاف الموجودة باسم الإمام، ذلك أن هذه الأوقاف لم تكن قليلة، و كانت تتكون من المواد الحياتية من القرية بأسرها و من كنوز الذهب و الفضة إلى الأشياء البسيطة من قطع الألبسة، فكان الرجال و النساء يتبرعون بلا فرق. و لم يكونوا يخشون لا الأتعاب و لا الحرمان خلال الرحلات الطويلة، ليقدموا هداياهم بأنفسهم إلى السفير، و هو الوحيد الذي يتصل بالإمام و يقدم له الهدايا.

ص: ٢٧٦

و لعل في التوقيعات القادمة ما يوضح ما قدمناه من ملاحظات:

توقيع إسحاق بن يعقوب

^{٩٧٣} (٦٦) المقصود هنا هو جعفر، أخو الإمام الحادي عشر.

^{٩٧٤} (٦٧) هذه الكلمة غير واضحة؛ قد تكون: مسكرة، مكره، منكرة.

^{٩٧٥} (٦٨) قرآن، ٤٦، ١ - ٦.

^{٩٧٦} (٦٩) في الغيبة، ص ١٨٦ - ١٩٨: أن يكون الإمامة؛ و في بحار، ص ٢٤٨: أن يكون في أخوين.

يروى إسحاق بن يعقوب^{٩٧٧} أن مسائل كثيرة عرضت له، و كان يأمل أن يجد لها حلا، مثلا عن وجود ابن لدى الإمام الحادي عشر، الذى أنكر وجوده أحفاد الإمام و عشيرته، و عن فائدة إمام مختف، ثم عن الأوقاف المسجلة باسم الإمام. فأرسل إسحاق بن يعقوب هذه الأسئلة فى شكل رسالة إلى السفير الثانى، فقدم هذا الرسالة إلى الإمام، و جاءه بالتوقيع التالى، الذى كتبه الإمام المختفى بخط يده^{٩٧٨}:

... أما ما سألت عنه أرشدك الله و ثبتك من أمر المنكرين لى من أهل بيتنا و بنى عمنا أنه ليس بين الله عز و جل و بين أحد قرابة و من أنكرنى فليس منى و سبيله سبيل ابن نوح^{٩٧٩}. و أما سبيل عمى جعفر و ولده فسبيل إخوة يوسف على نبينا و آله السلام^{٩٨٠} و أما الفقاع فشرايه حرام^{٩٨١} و لا بأس بالشلماب^{٩٨٢} و أما أموالكم فما تقبلها إلا لتطهروا فمن شاء فليصل و من شاء فليقطع فما آتانا الله خير مما آتاكم^{٩٨٣} و أما ظهور

ص: ٢٧٧

الفرج فإنه إلى الله عز و جل^{٩٨٤} كذب الوقتون^{٩٨٥} و أما من زعم أن الحسين عليه السلام لم يقتل فكفر و تكذيب و ضلال^{٩٨٦} و أما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا فإنهم حجتى عليكم و أنا حجة الله عليهم^{٩٨٧} أما محمد بن عثمان العمرى رضى الله عنه و عن أبيه من قبل فإنه ثقتى و كتابه كتابى و أما محمد بن عثمان بن مهزيار الأهوازي فيصلح الله قلبه و يزيل عنه شكه و أما ما وصلتنا به فلا قبول عندنا إلا لما طاب و طهر و ثمن المغنية حرام و أما محمد بن شاذان بن نعيم فإنه رجل من شيعتنا^{٩٨٨} و أما أبو الخطاب محمد بن زينب الأجدع فإنه ملعون و أصحابه ملعونون^{٩٨٩} فلا تجالس أهل مقاتلهم و إنى منهم برىء و آبائى عليهم السلام منهم براء و أما المتلبسون بأموالنا فإن استحل منها شيئا فأكله فإنما يأكل النيران و أما الخمس فقد أبيح لشيعتنا و

^{٩٧٧} (٧٠) لم أجد أية معلومات عن إسحاق بن يعقوب.

^{٩٧٨} (٧١) الغيبة، ص ١٨٨، كمال الدين، ص ٢٦٦ / ٢٦٧، بحار، ج ١٣، ص ٢٤٥.

^{٩٧٩} (٧٢) قرآن، ١١، ٤١ - ٤٦.

^{٩٨٠} (٧٣) نفسه، ١٢، ٨ - ٢٠.

^{٩٨١} (٧٤) عن الفقاع و إباحته ينظر أصل الشيعة، ص ١٧٨؛ سؤال و جواب، ص ٢٣.

يعنى بالفقاع مشروبا مصنوعا من الشعير أو من حب آخر أو من العنب، مما هو ممنوع عند الشيعة، ولكنه مباح عند السنة.

^{٩٨٢} (٧٥) الشلماب: يبدو لى أن هذه الكلمة مركبة من قسمين، أى كلمة شلم، و هو نوع من النبات، ينمو فى حقول القمح (ينظر أقرب الموارد، ج ١، ص ٦٠٩) و آب، و هى كلمة فارسية تعنى الماء.

^{٩٨٣} (٧٦) بحار: مما آتكم.

^{٩٨٤} (٧٧) غير موجودة فى بحار كلمتا: عز و جل.

^{٩٨٥} (٧٨) بحار: و كذب الوقتون.

^{٩٨٦} (٧٩) ينظر التصيرية فى فصل سابق ...

^{٩٨٧} (٨٠) الغيبة: و أنا حجة الله عليكم.

^{٩٨٨} (٨١) عن محمد بن شاذان ينظر الغيبة، ص ٢٧٣.

^{٩٨٩} (٨٢) عن أبى الخطاب ينظر مقالات الأشعرى، ص ١٠، الكشى، ص ١٨٧ و ما بعدها؛ ابن حزم، ج ٤، ص ١٨٦ و ما بعدها؛ منهج، ج ١، ص ٢٣٩؛ المقرئى،

الخطوط، ج ٤، ١٧٤؛ خندانى التوبختى، ٢٥٥.

جعلوا منه فى حل إلى وقت ظهور أمرنا لتطيب ولادتهم ولا تخبث^{٩٩٠} وأما ندامة قوم قد شكوا فى دين الله على ما وصلونا فقد أقلنا من استقال ولا حاجة لنا فى صلة الشاكين وأما عدة ما وقع من الغيبة فإن الله عز وجل يقول: يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم^{٩٩١} إنه لم يكن أحد من آبائى إلا وقد وقعت فى عنقه بيعة لطاغية زمانه وإنى أخرج حين أخرج ولا بيعة

ص: ٢٧٨

لأحد من الطواغيت فى عنقى أما وجه الانتفاع بى^{٩٩٢} فى غيبتى فكالانتفاع بالشمس إذا غيبتها عن الأبصار كالسحاب وإنى أمان لأهل الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء فاغلقوا أبواب السؤال عما لا يعينكم ولا تتكلفوا علم ما قد كفيتهم و اتركوا الدعاء بتعجيل الفرج فإن ذلك فرجكم. والسلام عليك يا إسحاق بن يعقوب.

توقيع على بن أحمد بن عبد الله القمى

يروى على بن أحمد بن عبد الله القمى أن الشيعة تنازعوا فى عهد السفير الثانى حول العالم والحفاظ على حياة الإنسان وصلاحيته الإمام فى هذه الأمور. فقال بعضهم إن الله خول للإمام أن يحكم العالم ويخلق الحياة ويحافظ عليها. و عارضهم فى ذلك آخرون وقالوا إن هذا غير ممكن بالنسبة إلى الله، لأنه هو وحده القادر على خلق الأشياء، ولكنه غير قادر على نقل قدرته إلى غيره. و رأى الثالث يقول: صحيح أن الله هو الخالق الحقيقى، ولكنه نقل قدرته إلى الإمام بحيث يستطيع الخلق هو أيضا. و عند ما عجزوا عن الوصول إلى إيجاد حل لهذه المسألة، قرروا التخلي عن النزاع و فضلوا أن يسألوا السفير، الذى هو نائب الإمام.

و هكذا وضعوا سؤالا فى كتاب وجهوه إلى الإمام عن طريق السفير.

و يقول التوقيع، الذى تلقوه جوابا عن سؤالهم إن الله هو خالق جميع الأشياء و حافظ لها. فالله ليس جسما ولا هو عرضيا، و الأئمة لا يستطيعون فعل شيء إلا عند ما يستجيب الله لدعائهم، لأن لهم مكانة رفيعة عنده. و نص التوقيع هو:

^{٩٩٣} ... إن الله تعالى خلق الأجسام و قسم الأرزاق لأنه ليس بجسم و لا حال فى جسم ليس كمثل شيء و هو السميع العليم. و أما الأئمة عليهم السلام فإنهم يسألون الله تعالى فيخلق و يسألونه فيرزق إجابا

ص: ٢٧٩

لمسألهم و إعظاما لحقهم.

^{٩٩٠} (٨٣) هذا خطأ لم يسقط الخمس فى أيام الغيبة الكبرى (ينظر الغيبة، ص ١٨٩؛ و أصل الشيعة، ص ١٢٢).

^{٩٩١} (٨٤) قرآن، ٥، ١٠١.

^{٩٩٢} (٨٥) الغيبة، ص ٢٨٩؛ بحار، ج ١٣، ص ٢٤٥.

^{٩٩٣} (٨٦) الغيبة، ص ١٩٠.

أرسل الأسدي، الوكيل^{٩٩٤} ذات مرة أسئلة إلى الإمام و طلب من السفير الثاني إيصال الرسالة إليه، ففعل السفير ذلك. و جاءه توقيع يهتم بالدرجة الأولى بمسائل الأوقاف و الخراج و المستغلين غير الشرعيين لتلك الهبات. و تضمن جواب الإمام جميع أشكال الاستغلال بأدق تفاصيلها مثل أكل الثمار من بساتين الإمام. و سيجد المرء الكثير من هذا في نص التوقيع^{٩٩٥}:

... أما ما سألت عنه من الصلة عند طلوع الشمس و عند غروبها فلتن كان كما يقولون إن الشمس تطلع من بين قرني شيطان و تغرب من بين قرني شيطان^{٩٩٦} فما أرغم أنف الشيطان بشيء مثل الصلة فصلها و ارغم أنف الشيطان و أما ما سألت عنه من أمر الوقف على ناحيتنا و ما يجعل لنا ثم يحتاج إليه صاحبه فكل ما لم يسلم فصاحبه بالخيار و ما سلم فلا خيار لصاحبه فيه احتاج أو لم يحتج افتقر إليه أو استغنى عنه و أما ما سألت عنه من أمر من يستحق ما في يده من أموالنا أو يتصرف فيها^{٩٩٧} تصرفه في ماله من غير أمرنا فمن فعل ذلك فهو ملعون و نحن خصمائه يوم القيامة و قد قال النبي صلى الله عليه و آله و سلم المستحل من عترتي ما حرم الله ملعون على لسانى و لسان كل نبي مجاب^{٩٩٨}. فمن ظلمنا

ص: ٢٨٠

كان في جملة الظالمين لنا و كانت لعنة الله عليه لقوله عز و جل ألا لعنة الله على الظالمين^{٩٩٩}. و أما ما سألت من أمر المصلى و النار و الصورة و السراج بين يديه هل تجوز صلاته فإن الناس اختلفوا في ذلك قبلك إنه^{١٠٠٠} جائز لمن لم يكن من عبدة الأوثان و النيران يصلى و الصورة و السراج بين يديه و لا يجوز ذلك لمن كان من أولاد عبدة الأوثان و النيران. و أما ما سألت عنه من أمر الضياع التى لناحيتنا هل يجوز القيام بعمارته و أداء الخراج منها و صرف ما يفضل من دخلها إلى الناحية احتساباً للأجر و تقرباً إلينا^{١٠٠١} فلا يحل لأحد أن يتصرف في مال غيره بغير إذنه فكيف يحل ذلك في مالنا من فعل شيئاً من ذلك بغير أمرنا فقد استحل منا ما حرم عليه و من أكل من أموالنا شيئاً فإنما يأكل في بطنه ناراً و سيصلى سعيراً. و أما ما سألت من أمر الرجل الذى يجعل لناحيتنا ضيعة و يسلمها من يقوم بها و يعمرها و يؤدي من دخلها خراجها و مؤنتها و يجعل ما يبقى من الدخل لناحيتنا فإن ذلك جائز لمن جعله صاحب الضيعة قيماً عليها إنما لا يجوز ذلك لغيره. و أما ما سألت عنه من الثمار من أموالنا يمر به المار فيتناول منه و يأكل هل يحل له أكل ذلك فإنه يحل له أكله و يحرم عليه حمله.

^{٩٩٤} (٨٧) عن الأسدي ينظر فصلنا عن الوكلاء أعلاه.

^{٩٩٥} (٨٨) كمال الدين، ص ٢٨٧، بحار، ج ١٣، ص ٢٤٥، الغيبة، ص ١٩٢؛ لم نجد في الغيبة سوى الجملة الأولى من التوقيع عن الصلاة عند الغروب و عند الشروق. و يحدث عند الطوسي أحياناً ألا ينقل على قطعة من التوقيع و لا يذكر شيئاً عن القطع المتبقية بحيث يوزع التوقيع على عدد من صفحات كتابه.

^{٩٩٦} (٨٩) في الغيبة: إن الشمس يطلع بين قرني شيطان و يغرب بين قرني شيطان.

^{٩٩٧} (٩٠) في بحار: لو تصرف فيه ...

^{٩٩٨} (٩١) حديث غير معروف لدى و لم أجده في الكافي!

^{٩٩٩} (٩٢) قرآن، ١١، ١٨.

^{١٠٠٠} (٩٣) في بحار: فإنه.

^{١٠٠١} (٩٤) بحار: و تقرباً إليكم.

و هناك توقيع ثان يتناول المسائل نفسها، أى عن مال الإمام و عن مسيريه من مختصيين و غير أمناء، فأرسل إليه السفير الثانى، كما يقول الأسدى، التوقيع التالى:

بسم الله الرحمن الرحيم لعنة الله و الملائكة و الناس أجمعين على من استحل من أموالنا درهما.

ص: ٢٨١

و بعد أن قرأ الأسدى التوقيع، فكر فى أن الأمر لا يتعلق إلا بأولئك الذين يأكلون مال الإمام من غير إذن منه، و لكنهم يعترفون بأن المال للإمام. و لم يجد الأسدى فى ذلك ما يدعو إلى العجب، لأن الأمر كان واضحا وضوحا تاما و لكنه اكتشف، عند ما قرأ التوقيع للمرة الثانية، ما غير رأيه^{١٠٠٢}:

بسم الله الرحمن الرحيم لعنة الله و الملائكة و الناس أجمعين على من أكل من مالنا درهما حراما.

توقيع على بن محمد الكلينى^{١٠٠٣}

عرفنا من الكلينى أن محمد بن زياد الصيمرى^{١٠٠٤} قد كتب رسالة إلى الإمام المختفى و التمس منه أن يرسل له كفنا، لكن الإمام أجابه:

إنك تحتاج إليه سنة إحدى و ثمانين.

و فى هذه السنة بالذات وصله الكفن المذكور شهرا قبل موته، و مات فعلا^{١٠٠٥}.

توقيع أبى على محمد بن همام^{١٠٠٦}

يقال إن محمدا بن همام عرف من السفير الثانى أن الإمام المختفى أرسل توقيعاً، كان نصه ما يلى:

من سمانى فى مجمع من الناس باسمى فعليه لعنة الله.

ص: ٢٨٢

^{١٠٠٢} (٩٥) كمال الدين، ص ٢٨٨، بحار، ج ١٣، ص ٢٤٥ / ٢٤٦.

^{١٠٠٣} (٩٦) لم أجد معلومات عن على بن محمد الكلينى.

^{١٠٠٤} (٩٧) ينظر منهج المقال، فى ص ٢٣٧، التى يذكر فيها!

^{١٠٠٥} (٩٨) الغيبة، ص ١٩٣.

^{١٠٠٦} (٩٩) محمد بن همام بن على عاش من ٢٥٨ إلى ٣٣٢؛ ينظر عنه منهج المقال، ص ٣٥٨، بحار، ج ١٣، ٢٤٦.

وكان الراوى قد سأل الإمام عن موعد عودته، وكان جواب الإمام عن هذا السؤال الفضولى:

كذب الوقتون^{١٠٠٧}.

توقيع محمد بن صالح الهمداني^{١٠٠٨}

اشتكى محمد بن صالح الهمداني، الذى كان هو نفسه خادما للإمام و وكيله فى رسالة وجهها إلى الإمام المختفى من أسرته، التى تهينه باستمرار بأن الإمام يعتبر جميع الخدم من أسوأ خلق الله و أفضعهم^{١٠٠٩}.

فأجابه الإمام فى هذا التوقيع:

... و يحكم أ ما قرأتم قول الله عز و جل و جعلنا بينهم و بين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة نحن و الله القرى التى بارك الله فيها و أنتم القرى الظاهرة.

توقيع ابن مهزيار^{١٠١٠}

دعا ابن مهزيار، والد الراوى، ابنه قبل موته و اعترف له بأن لديه مالا للإمام و أنه يرجوه أن يذهب به إلى بغداد و يسلمه بأمانة، لكن الابن لم يكن يؤمن إيماناً كبيراً بالسفراء. فأخذ أكياس المال الثلاثة المختومة و مضى بها إلى بغداد، التى تلقى فيها توقيعاً يخص هذا الأمر من غير أن يعرف أحد أقل شىء عن ذلك. فأخذه العجب من هذه الكرامة، و تحرر من شكه و سلم المال إلى السفير، و بذلك تولى منصب والده. و هذا نص التوقيع العجيب:

قل للمهزيار قد فهمنا ما حكيتك عن موالينا بناحيثكم فقل لهم أ ما

ص: ٢٨٣

سمعت الله عز و جل يقول يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله و أطيعوا الرسول و أولى الأمر منكم^{١٠١١} هل أمر إلا بما هو كائن إلى يوم القيامة أو لم تروا أن الله عز و جل جعل لهم معاقل يأوون إليها و أعلاماً يهتدون بها من لدن آدم إلى أن ظهر الماضى صلوات الله عليه كلما غاب علم بدا علم و إذا أفل نجم طلع نجم فلما قبضه الله عز و جل إليه ظننتم أن الله قد قطع السبب بينه و بين خلقه كلا ما كان ذلك و لا يكون حتى تقوم الساعة و يظهر أمر الله و هم كارهون.

^{١٠٠٧} (١٠٠) بحار، ج ١٣، ص ٢٤٤.

^{١٠٠٨} (١٠١) ينظر عن محمد بن صالح الهمداني منهج المقال، ص ٣٠٠.

^{١٠٠٩} (١٠٢) بحار، ج ١٣، ص ٢٤٤.

^{١٠١٠} (١٠٣) عن ابن مهزيار ينظر منهج المقال، ص ٢٨.

^{١٠١١} (١٠٤) قرآن، ٤، ٥٩.

يا محمد بن إبراهيم لا يدخلك الشك فيما قدمت له فإن الله لا يخلو الأرض من حجة أليس قال لك أبوك قبل وفاته احضر الساعة من يعير هذه الدنانير التي عندي فلما أبطأ ذلك عليه و خاف الشيخ على نفسه قال لك غيرها على نفسك و أخرج إليك كيسا كبيرا و عندك بالحضرة ثلاثة أكياس و صرة فيها دنانير مختلفة النقد فعيرتها و ختم الشيخ عليها بخاتمه و قال لك اختم مع خاتمي فإن أعش فأنا أحق بها و إن أمت فاتق الله في نفسك أولا ثم في فخلصني و كن عند ظني بك. اخرج رحمك الله الدنانير التي استفضلتها من بين النقدين من حسابنا و هي بضعة عشر دينارا و استرد من قبلك فإن الزمان أصعب ما كان و حسبنا الله و نعم الوكيل^{١١٢}.

توقيع من عهد السفير الثالث

توقيع أبي غالب الزراري

كانت لأبي غالب الزراري امرأة محبة للنزاع، و كانت بسبب هذه النزاعات الزوجية تعيش معظم وقتها عند والديها. فترك أبو غالب ذات يوم بيته بالكوفة و سافر مع صديق له إلى بغداد. كانا يريدان زيارة المحلة

ص: ٢٨٤

المقدسة فيها و إخبار السفير بهومهما الشخصية. و لم يكن في استطاعة السفير آتذ الخروج في الناس، و لذلك أناب عنه الشلمغاني. وصل الغريبان إلى الشلمغاني و طلبا منه أن يخبر الإمام المختفى بهومهما.

و ناشد صديق أبي غالب الشلمغاني أن يخبر الإمام بهوم صاحبته حتى يخفف الأمر عنه، فوعدهما الشلمغاني بذلك. عندئذ تشجع أبو غالب و لا حظ أن لديه أمرا يقلقه أيضا، فوعده الشلمغاني بمساعدته. و انتظر الصديقان النتيجة بفارغ الصبر، و بعد أيام خاطبا الشلمغاني في ذلك مرة أخرى، فأرأوا في يده ورقا ملفوفا، كتب فيه بوضوح و بكلمات مناسبة:

... و أما الزراري و حال الزوج و الزوجة فأصلح الله ذات بينهما^{١١٣} ...

فاندهش أبو غالب و تساءل عما إذا لم يكن الجواب قصيرا، و لكن صديقه أوضح له الأمر: إن المحلة المقدسة، هي التي تحقق هذا كله، فلا ينبغي أن يندهش المرء لذلك.

و عند ما عاد الزوج الشقي إلى الكوفة، وجد زوجه في بيته في دعة و سلام، و منذ ذلك اليوم لم يحدث بينهما أى نزاع، و أنجبا الأولاد و عاشا عيشة راضية.

^{١١٢} (١٠٥) بحار، ج ١٣، ص ٢٤٦.

^{١١٣} (١٠٦) الغيبة، ص ١٩٦.

و كان أبو غالب الزراري قد حاول قبل وقوع هذه القصة بكثير أن يتصل بالسفير الثالث بطريقة ما ليتمكن بواسطته من إقامة علاقة بأسرة التوبختي ذات النفوذ الكبير. و استعمل أبو طالب قرية كاملة، كانت ملكا له، من أجل الوصول إلى ذلك. كان قد زعم في البداية أنه يريد تقديمها هبة إلى الإمام المختفى، بينما كان يريد في الحقيقة أن يرشو بها السفير.

لكن السفير تفتن إلى طموح الرجل، و أوضح له أن المحلة المقدسة ما بها الآن حاجة إلى القرية، و سيأتي وقت يكون فيه أبو غالب نفسه في حاجة ملحة إلى قريته. و ألح أبو غالب على السفير في قبول الهدية، غير

ص: ٢٨٥

أن السفير أصر على الرفض و نصحه في النهاية أن يقدم القرية إلى رجل أمين يتولى استغلالها. و هكذا كتبها أبو غالب باسم أبي القاسم موسى بن الحسن الزجوزجي^{١٠١٤}. و بعد أيام أغار لصوص البدو على المنطقة و أخذوا أبا غالب رهينة معهم، و بقي معهم مدة طويلة إلى أن دفع فدية بمبلغ ١١٠٠ دينار و ٥٠٠ درهم، و كان على الأسير أبي غالب أن يقدم للرسول ٥٠٠ درهم، و لم يتمكن من مال الفدية إلا بعد أن باع قريته^{١٠١٥}.

توقيع أبي العباس أحمد بن الحسن الجحضرى^{١٠١٦}

كان الجحضرى قد تنقل في بلدان كثيرة للعثور على ما كان يريد الحصول عليه، و حين استبد به القلق، كتب إلى الإمام المختفى ليحبيه عن الأسئلة، التي تؤرقه، فأجابه الإمام:

من بحث فقد طلب و من طلب فقد ذل و من ذل فقد أشاط و من أشاط فقد أشرك.

توقيع عن أسئلة مواطني قم

عند ما كان النزاع بين السفير الثالث و السلمغانى حول الصلاحيات و مفاهيم السلمغانى لا يزال قائما، وجه مواطنو قم رسالة إلى الإمام المختفى، طلبوا منه فيها أن يوضح لهم ما إذا كان ما كتبه السلمغانى و ادعاه لنفسه منه هو حقيقة أم من الإمام نفسه. فقرأ السفير الثالث الرسالة، التي ذهبت عن طريقه، و أملى على أحمد بن إبراهيم التوبختي، كاتبه، خبرا، يوضح فيه رأيه في الموضوع:

ص: ٢٨٦

^{١٠١٤} (١٠٧) فيما عدا هذا لا نعرف عنه شيئا، بحار، ج ١٣، ص ٩٧.

^{١٠١٥} (١٠٨) الغيبة، ص ١٩٩.

^{١٠١٦} (١٠٩) الغيبة، ص ٢١١.

بسم الله الرحمن الرحيم قد وقفنا على هذه الرقعة و ما تضمنته فجميعه جوابنا و لا مدخل للمخذول الضال المضل المعروف بالعزاقري لعنه الله في حرف منه و قد كانت أشياء خرجت إليكم على يد أحمد بن بلال و غيره من نظرائه و كان ارتدادهم عن الإسلام مثل ما كان من هذا عليهم لعنة الله و غضبه.

طرح بعض العلماء سؤالا مماثلا، و كان الجواب عنه كما يلي:

العلم علمنا و لا شيء عليكم من كفر فما صح لكم على يده برواية غيره له من الثقات رحمهم الله فاحمدوا الله و اقبلوه و ما شككتهم فيه أولم يخرج لكم في ذلك إلا على يده فردوه إلينا لنصححه أو نبطله و الله تقدست أسمائه و جل ثنائه ولى توفيقكم و حسبنا فى أمورنا كلها و نعم الوكيل^{١٠١٧}.

توقيع أبى على بن همام

روى على بن همام نوعا من الدعاء، نشره السفير و أوصى بقراءته للغيبة^{١٠١٨}. نص هذا «الدعاء» هو:

اللهم عرفنى نفسك فإنك إن لم تعرفنى نفسك لم أعرف رسولك.

اللهم عرفنى رسولك فإنك إن لم تعرفنى رسولك لم أعرف حجتك.

اللهم عرفنى حجتك فإن لم تعرفنى حجتك ضللت عن دينى. اللهم لا تمتنى ميتة جاهلية^{١٠١٩} و لا ترغ قلبى بعد إذ هديتنى. اللهم فكما هديتنى بولاية من فرضت طاعته على من ولاية أمرك بعد رسولك صلواتك عليه و آله حتى و آليت ولاية أمرك: أمير المؤمنين و الحسن و الحسين و عليا

ص: ٢٨٧

و محمدا و جعفرا و موسى^{١٠٢٠} و عليا و محمدا و عليا^{١٠٢١} و الحسن و الحجة القائم المهدي صلواتك عليهم أجمعين. اللهم فبتنى على دينك و استعملنى لطاعتك و لين قلبى لولى أمرك و عافنى مما امتحنت به خلقك و ثبتنى على طاعة ولى أمرك الذى سترته عن خلقك فبإذنك غاب عن بريتك و أمرك ينتظر و أنت العالم غير معلم بالوقت الذى فيه صلاح أمر ولىك فى الإذن له بإظهار أمره و كشف سره و صبرنى على ذلك. حتى لا أحب تعجيل ما أخرت و لا تأخير ما عجلت و لا أكشف عما سترته و لا أبحث عما كتمته و لا أنازعك فى تدبيرك و لا أقول لم و كيف و ما بال أمر ولى الله لا يظهر و قد امتلأت الأرض من الجور.

^{١٠١٧} (١١٠) الغيبة، ص ٢٤٢-٢٤٣، بحار، ج ١٣، ص ٢٣٧.

^{١٠١٨} (١١١) الغيبة، ص ٢٤٤.

^{١٠١٩} (١١٢) ينظر الكافي، ص ١٩٠ و ما بعدها.

^{١٠٢٠} (١١٣) ناقصة فى نص بحار، لكنها أضيفت فى الهامش.

^{١٠٢١} (١١٤) هذه الأسماء الثلاثة ناقصة فى بحار و أضيف فى الهامش.

و أفوض أموري كلها إليك. اللهم إني أسألك أن تريني ولي أمرك ظاهرا نافذا لأمرك بأن لك السلطان والقدرة والبرهان والحجة والمشينة والإرادة والحوال والقوة فافعل ذلك وجميع المؤمنين حتى ننظر إلى وليك ظاهر المقالة واضح الدلالة هاديا من الضلالة شافيا من الجهالة أبرز يا رب مشاهدته و ثبت قواعده واجعلنا ممن تقر عيننا برؤيته وأقمنا بخدمته وتوفنا على ملته واحشرنا في زمرة اللهم أعذه من شر جميع ما خلقت و برأت و ذرأت و أنشأت و صورت و احفظه من بين يديه و من خلفه و عن يمينه و عن شماله و من فوقه و من تحته بحفظك الذي لا يضيع من حفظته به و احفظ فيه رسولك و وصى رسولك. اللهم و مد في عمره و زد في أجله و أعنه على ما أوليته و استرعيته و زد في كرامتك له فإنه الهادي المهدي القائم المهتدى الطاهر التقى النقى الزكى الرضى المرضى الصابر المجتهد الشكور. اللهم و لا تسلبنا اليقين لطول الأمد في غيبته و انقطاع خبره عنا و لا تنسنا ذكره و انتظاره و الإيمان به و قوة اليقين في ظهوره و الدعاء له و الصلاة عليه حتى لا يقنطنا طول غيبته من ظهوره و قيامه و يكون يقيننا في ذلك كيقيننا في

ص: ٢٨٨

قيام رسول الله صلى الله عليه و سلم و ما جاء به من وحيك و تنزيلك قو قلوبنا على الإيمان به حتى تسلك بنا على يده منهاج الهدى و الحجة العظمى و الطريقة الوسطى و قونا على طاعته و ثبتنا على مشايعته واجعلنا في حزبه و أعوانه و أنصاره و الراغبين بفعله و لا تسلبنا ذلك في حياتنا و لا عند وفاتنا حتى توفنا و نحن على ذلك غير شاكين و لا ناكثين و لا مرتابين و لا مكذبين. اللهم عجل فرجه و أیده بالنصر و انصر ناصريه و اخذل خاذليه و دمدم على من نصب له و كذب به و أظهر به الحق و أمت الجود و استنقذ به عبادك المؤمنين من الذل و انعش به البلاد و اقتل به جبابرة الكفرة و اقسم به رءوس الضلالة و ذلل به الجبارين و الكافرين و ابر به المنافقين و الناكثين و جميع المخالفين و الملحدين في مشارق الأرض و مغاربها و بحرهما و برهما و سهلها و جبلها حتى لا تدع منهم ديارا و لا تبقى لهم آثار و تطهر منهم بلادك و اشف منهم صدور عبادك و جدد به ما امتحنا من دينك و اصلح به ما بدل من حكمك و غير من سنتك حتى يعود دينك به و على يده غضا جديدا صحيحا لا عوج فيه و لا بدعة معه حتى تطفئ بعدله نيران الكافرين فإنه عبدك الذي استخلفته لنفسك و ارتضيته لنصرة دينك و اصطفيته بعلمك و عصمته من الذنوب و برأته من العيوب و أطلعته على الغيوب و أنعمت عليه و طهرته من الرجس و نقيته من الدنس^{١٠٢٢}.

اللهم فصل عليه و على آبائه الأئمة الطاهرين و على شيعتهم المنتخبين و بلغهم من آمالهم أفضل ما يأملون واجعل ذلك منا خاصا من كل شك و شبهة و رياء و سمعة حتى لا نريد به غيرك و لا نطلب به غير وجهك اللهم إنا نشكوا إليك فقد نبينا و غيبية و لينا و شدة الزمان علينا و وقوع الفتن و تظاهر الأعداء و كثرة عدونا و قلة عددنا. اللهم فافرج ذلك بفتح منه منك تعجله و بصبر منك تيسره و إمام عدل تظهره إله الحق رب العالمين. اللهم إنا نسألك أن تأذن لوليک فی إظهار عدلك في عبادك و قتل أعدائك في

ص: ٢٨٩

بلادك حتى لا تدع للجور دعامة إلا قصمتها و لا بنية إلا أفنيته و لا قوة إلا أوهنتها و لا ركنا إلا هددته و لا حدا إلا أفلته و لا سلاحا إلا كللته و لا راية إلا نكستها و لا شجاعا إلا قتلته و لا حيا إلا خذلته ادمهم يا رب بحجرک الدامغ و اضربهم بسيفك القاطع و ببأسك الذى لا يرد عن القوم المجرمين و عذب أعدائك و أعداء دينك و أعداء رسولك بيد و ليك و أيدى عبادك المؤمنين. الله اكف و ليك و حجتك فى أرضك هول عدوه و كد من كاده و امكر بمن مكر به و اجعل دائرة السوء على من أراد به سوءا و اقطع عنه مادتهم و أرعب به قلوبهم و زلزل له أقدامهم و خذهم جهرة و بغتة شدد عليهم عقابك و العنهم فى بلادك و أسكنهم أسفل نارك فإنهم أضاعوا الصلاة و اتبعوا الشهوات و أذلوا عبادك. اللهم و أحيى به القلوب الميتة و اشف به الصدور الوجرة و اجمع به الأهواء المختلفة على الحق و أقم به الحدود المعطلة و الأحلام المهملة حتى لا يبقى حق إلا ظهر و لا عدل إلا زهر و اجعلنا يا رب من أعوانه و ممن يقوى بسلطانه و المؤتمرين لأمره و الراضين بفعله و المسلمين لأحكامه و ممن لا حاجة به إلى التقية من خلقك أنت يا رب الذى تكشف السوء و تجيب المضطر إذا دعاك و تنجى من الكرب العظيم فاكشف الضر عن و ليك و اجعله خليفتك فى أرضك كما ضمنت له. اللهم و لا تجعلنا من خصماء آل محمد و لا تجعلنا من أعداء آل محمد و لا تجعلنى من أهل الحنق و الغيظ على آل محمد فإنى أعوذ بك من ذلك فأعذنى و أستجير بك فأجرنى اللهم صل على محمد و آل محمد و اجعلنى بهم فائزا عندك فى الدنيا و الآخرة و من المقربين^{١٠٢٣}.

التوقيعات بعد الغيبة الصغرى

عرف سنة ٤١٠ هـ رغم «غيبة الإمام الكبرى»، التى لا صلة له فيها بأتباعه، توقيعان، يقال إنه أرسلهما من المكان، الذى يختفى فيه، إلى

ص: ٢٩٠

الشيخ المفيد. و هذان التوقيعان لا يوجدان فى كمال الدين و فى الغيبة الصغرى و كذلك فى الكتب الأخرى، التى تعود إلى عصر المفيد و الطوسى، فهما لم يظهرهما للمرة الأولى إلا فى «كتاب الاحتجاج» للطبرسى. و شكل هذين التوقيعين يختلف عن بقية التوقيعات اختلافا كبيرا. فبدل القصر المعتاد يتحول البلاغان إلى رسالتين. و إشارتهما الزميتان ترشداننا إلى زمن، كانت فيه بلاد الإسلام مهددة من الشرق و كانت الاضطرابات و الثورات تهز العالم الإسلامى كله. و أسلوب هاتين الرسالتين كذلك لا يتلاءم مع أسلوب التوقيع المعهود، و قد قدم المضمون فى نثر إيقاعى، مسجوع، كان الناس يميلون إليه ميلا شديدا فى العصر العباسى الأخير. و كتب فى نهاية هاتين الرسالتين: «نسخة من ختم اليد المقدسة، منح الله روحك السلام» و توجد تحتها ملاحظة: لا ينبغى للمرسل إليه أن يطلع أحدا عليه، و إنما يخبر بالمضمون من يراهم أهلا للثقة.

التوقيع الأول يحمل تاريخ شهر صفر سنة ٤١٠ هـ، و هذا نصه:

للأخ السديد و الولي الرشيد الشيخ المفيد أبي عبد الله محمد بن النعمان^{١٠٢٤} أدام الله إعزازه مكن مستودع العهد المأخوذ على العباد^{١٠٢٥}.

بسم الله الرحمن الرحيم سلام عليك أيها المولى المخلص في الدين المخصوص فينا باليقين فإننا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو و نسأله الصلاة على سيدنا و مولانا و نبينا و آله الطاهرين و نعلمك أدام الله توفيقك لنصرة الحق و أجاز مثوبتك عل نطقك عنا بالصدق إنه قد أذن لنا في تشريفك بالمكاتبة و تكليفك ما

ص: ٢٩١

تؤديه عنا إلى موالينا قبلك أعزهم الله بطاعته و كفاهم المهم برعايته لهم و حراسته - فقف أمدك الله بعونه على أعدائه المارقين من دينه على ما نذكره و اعمل في تأديته إلى من تسكن إليه بما نرسمه إنشاء الله. نحن و إن كنا ناوين بمكاننا النائي عن مساكن الظالمين حسب الذي أرانا الله تعالى من الصلاح و لشيعتنا المؤمنين في ذلك ما دامت دولة الدنيا للفاسقين فإننا يحيط علمنا بأنبائكم و لا يعزب عنا شيء من أخباركم و معرفتنا بالزلل الذي أصابكم منذ جنح كثير منكم إلى ما كان السلف الصالح عنه شاسعا و نبذوا العهد المأخوذ منهم وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون أنا غير مهملين لمراعاتكم و لا ناسين لذكركم و لو لا ذلك لنزل بكم الأعداء فاتقوا الله جل جلاله و ظاهرنا على انتباهشكم من فتنة قد أنافت عليكم يهلك فيها من حم أجله و يحمي عليه من أدرك أمله و هي أمانة لأزوف حركتنا و مياشتكم بأمرنا و نهينا^{١٠٢٦} و الله متم نوره و لو كره المشركون اعتصما بالتقية من شبت نار الجاهلية يحششها^{١٠٢٧} عصب أمية يهول بها فرقة مهدية أنا زعيم بنجاة من لم يرم منها المواطن الخفية و سلك في الطعن الطعن منها السبل الرضية إذا حل جمادى الأولى من سنتكم هذه فاعتبروا مما يحدث فيه و استيقظوا من رقدتكم لما يكون من الذي يليه ستظهر لكم من السماء آية جلية و من الأرض مثلها بالسوية و يحدث في أرض المشرق ما يحزن و يقلق و يغلب من بعد على أرض العراق طوائف عن الإسلام إمراق يضيق بسوء فعالهم على أهله الأرزاق، ثم تنفرج الغمة من بعده ببوار طاغوت من الأشرار و يسر بهلاكه المتقون الأخيار و يتفق لمريدى الحج من الآفاق ما يأملونه على توفير غلبة منهم و اتفاق و لنا في تسيير حجهم على الاختيار منهم و الوفاق شأن يظهر على نظام و اتساق، فيعمل كل امرئ منكم ما يقرب به من محبتنا و ليتجنب ما

ص: ٢٩٢

يدنيه من كراهيتنا و سخطنا فإن أمرا يبيغته فجاء محين لا تنفعه توبة و لا ينجيه من عقابنا ندم على حوبة و الله يلهمك الرشد و يلطف لكم بالتوفيق برحمته.

^{١٠٢٤} (١١٧) لا يوجد في النص إلا المفيد، و جاء الاسم الكامل في الهامش!

^{١٠٢٥} (١١٨) هذه الصيغة لا تأتي عادة في التوقيعات الشيعية، فالشكل و الأسلوب يختلفان عن التوقيعات الماضية، خصوصا من حيث القصر!

^{١٠٢٦} (١١٩) كتبت كلمة و مياشتكم في الهامش مياشتكم، ينظر لسان العرب، ج ٨، ص ١٤.

^{١٠٢٧} (١٢٠) لسان العرب، ج ٨، ص ١٧١.

نسخة التوقيع باليد العليا على صاحبها السلام

هذا كتابنا إليك أيها الأخ الولي والمخلص في و دنا الصفي و الناصر لنا الوفي حرسك الله بعينه التي لا تنام فاحتفظ به و لا تظهر على خطنا الذي سطرناه بما له ضمناءه أحدا واد ما فيه إلى من تسكن إليه و و ص جماعتهم بالعمل عليه إنشاء الله و صلى الله على محمد و آله الطاهرين^{١٠٢٨}.

يقال عن الرسالة الثانية أنها وصلت المفيد يوم ٢٣ ذى الحجة من سنة ٤١٢ هـ، و كان المفيد قد كتب إلى الإمام كتابا عبر فيه عن رغبة له، فأجاب الإمام بأنه قد استجاب لرغبته و دعا الله من فوق جبل عال، يوجد به في هذه اللحظة بالذات، أن يسوى القضية. فالإمام يحذر شيعته من الأخطار المقبلة و يدعوهم إلى مخافة الله، و أداء الصلاة في مواعيدها، و إيصال خراجهم إلى الإمام بصورة منتظمة، فستأتي ساعة لا يجد فيه المدينون المتأخرون في دفع ديونهم رحمة، أما الذين دفعوا فلا خوف عليهم، لأن الإمام سيحميهم و يشفع لهم عند الله. و سيكتب مرة أخرى إلى المفيد عند ما نزوله إلى السهل من الجبل، الذي له فيه الآن عمل كثير، يجب عليه القيام به.

و الرسالة مكتوبة بنفس الأسلوب الذي كتبت به الرسالة الماضية، و لعل الأمر يتعلق في هاتين الرسالتين بنفس المؤلف. لقد لاحظت المجلسي في بحار الأنوار أن مصدر الطبرسي مخطوط تصعب قراءته إلى حد كبير و أنه هو نفسه نقل الأصل كما هو^{١٠٢٩}. و التوقيع كما يلي:

ص: ٢٩٣

من عبد الله المراض في سبيله إلى ملهم الحق و دليله

بسم الله الرحمن الرحيم سلام عليك أيها الناصر للحق الداعي إلى كلمة الصدق فإننا نحمد إليك الذي لا إله إلا هو إلهنا و إله آبائنا الأولين و نسأله الصلاة على نبينا و سيدنا و مولانا محمد خاتم النبيين و على أهل بيته الطيبين الطاهرين:

و بعد فقد كنا نظرننا مناجاتك - عصمك الله - بالسبب الذي وهبه لك من أوليائه و حرسك من كيد أعدائه و شفّعنا ذلك الآن^{١٠٣٠} من مستقر لنا ينصب في^{١٠٣١} شمراخ^{١٠٣٢} من بهاء^{١٠٣٣} صرنا إليه أنفا من غماليل^{١٠٣٤} ألجأنا إليه السباريت^{١٠٣٥} من الإيمان و

^{١٠٢٨} (١٢١) بحار، ج ١٣، ص ٢٤٣.

^{١٠٢٩} (١٢٢) بحار، ج ١٣، ص ٢٤٤.

^{١٠٣٠} (١٢٣) ملاحظة ناشر بحار: و شفّعنا لك الآن. ينظر بحار، ج ١٣، ص ٢٤٤.

^{١٠٣١} (١٢٤) نفسه: و تنصب، و أظن نصب.

^{١٠٣٢} (١٢٥) لسان العرب، ج ٣، ص ٥٠٩.

^{١٠٣٣} (١٢٦) ناشر بحار، ج ١٣، ص ٢٤٤: بهاء، ينظر لسان العرب، ج ١، ص ١٧٩.

^{١٠٣٤} (١٢٧) بحار، ج ١٣، ص ٢٤٤، لسان العرب، ج ١٤، ص ١٨ و ما بعدها.

^{١٠٣٥} (١٢٨) بحار، ج ١٣، ص ٢٤٤، لسان العرب، ج ٢، ص ٣٤٤.

يوشك أن يكون هبوطنا منه إلى صحح^{١٠٣٦} من غير بعد من الدهر و لا تطاول من الزمان و يأتيك نبأ منا بما يتجدد من حال فتعرف بذلك ما نعتمده من الزلفة إلينا بالأعمال و الله موفقك لذلك برحمته فلتكن - حرسك الله بعينه التي لا تنام - أن تقابل بذلك ففيه تبسل نفوس حرشت باطلا لاسترهاب المبطلين و يبتهج لدمارها المؤمنون و يحزن لذلك المجرمون؛ و آية حركتنا من هذه اللوثة حادثة بالجرم المعظم من رجس منافق مذمم مستحل للدم المحرم، يعمد بكيده أهل الإيمان، و لا يبلغ بذلك غرضه من الظلم لهم و العدوان، لأننا من وراء حفظهم بالدعاء الذي لا يحجب عن ملك الأرض و السماء، فليطمئن بذلك من أوليائنا القلوب، و ليتقوا بالكفاية منه و إن راعتهم منه الخطوب، و العاقبة لجميع صنع الله تكون حميدة لهم ما اجتنبوا النهى عنه من

ص: ٢٩٤

الذنوب، و نحن نعهد إليك أيها الولي المجاهد فينا الظالمين أيدك الله بنصره الذي أيد به السلف من أوليائنا الصالحين، إنه من اتقى ربه من إخوانك في الدين و خرج مما عليه لمستحقه، كان آمنا من الفتنة المبجلة و محنها المظلة و من بخل منهم بما أعاره الله من نعمته على من أمره بصلته فإنه يكون خاسرا بذلك لأولاه و آخرته و لو أن أشياعنا - وفقهم الله لطاعته - على اجتماع من القلوب في الوفاء بالعهد عليهم لما تأخر عنهم اليمن بلقائنا و استعجلت لهم السعادة بمشاهدتنا على حق المعرفة و صدقها منهم بنا فما يحبسنا عنهم إلا ما يتصل بنا مما نكرهه و لا نؤثره منهم و الله المستعان و هو حسبنا و نعم الوكيل و صلواتنا على سيدنا البشير النذير محمد و آله الطاهرين و سلم. و كتب في غرة شوال من سنة اثني عشرة و أربعمئة

نسخة التوقيع باليد العليا صلوات الله على صاحبها.

هذا كتابنا إليك أيها الولي - الملهم للحق العلي - بإملائنا و خط تقتنا فاخفه عن كل أحد و اطوه و اجعل له نسخة يطلع عليها من تسكن إلى أمانته من أوليائنا شملهم الله ببركتنا و دعائنا إن شاء الله و الحمد لله و الصلاة على سيدنا محمد و آله الطاهرين.

عند موت المفيد الشهير، أعلن، فيما يقال، عن توقيع عبر فيه الإمام عن ألمه لموت هذا الرجل في بضعة أبيات:

يوم على آل الرسول عظيم

لا صوت الناعي بنعيك إنه

فالعلم و التوحيد فيك مقيم

إن كنت قد غيّبت في جدث الثرى

تليت عليك من الدروس علوم^{١٠٣٧}

و القائم المهدي يفرح كلما

^{١٠٣٦} (١٢٩) لسان العرب، ج ٣، ص ٣٣٨.

^{١٠٣٧} (١٣٠) قصص العلماء، ٣١١.

عودة المهدي و دولته

قبل أن نصل إلى نهاية أطروحتنا، علينا أن نضيف فصلا عن التصورات و الآمال المستقبلية عند الشيعة و التحقق المأمول للدولة الشيعية، فهذه المناقشة ستغدو أشياء لها صلة وثيقة بما نحن بصدد أكثر وضوحا. فأما متى تنشأ هذه الدولة المأمولة، فلا يتم الحديث عنها بوضوح أبدا، فزمن الاستجابة لا يعلمه إلا الله. على أن هناك علامات قد أعلنت للناس، يستطيعون أن يعرفوا منها اقتراب المهدي. و هذه العلامات، كما نقلتها إلينا الكتب التي تتحدث عن المهدي، مرتبطة دائما بالشيعة و أعدائهم. و من العلامات أيضا الانحلال الخلقي الرحيب و القسوة العامة و الظلم. في الكوفة سيظهر، فيما يقال، داعية ينادي من حمل إليه شيعيا فله مكافأة ١٠٠٠ درهم على كل رأس^{١٠٣٨}.

و تقول لنا كتب الشيعة أن الأئمة كثيرا ما سئلوا عن ظهور المهدي، لأن مطاردته في وقتهم كانت قد بلغت أقصى حد لها. و لا شيء يسهل فهمه من أن الشيعة كانوا متشوقين إلى نهاية القسوة، التي كانوا يعانون منها^{١٠٣٩}. عند ما نتأمل تصورات الشيعة عن أجوبة الأئمة، التي يعززون بها الطائفة يبدو لي أن البشارة القريبة، التي كان الأئمة، حسب ما نجده في المصادر الشيعية، يوجهونها إلى أتباعهم، كانت ممكنة على أقل تقدير: لن يكون هناك ظهور لحكومة الشيعة المستقبلية قبل أن ينشأ نزاع بين العباسيين و تعم الاضطرابات دولتهم؛ عندئذ يظهر في الشرق رجل يكنى بالخراساني و يظهر في الغرب رجل في اليوم نفسه يكنى السفيناني و يقضيان على الخلافة العباسية^{١٠٤٠}.

و هناك علامة أخرى و هي نشوب الحرب بين الأتراك و «الروم» (اليونان). يموت حينئذ خليفة، كان قد أمر سحب خراج، و يخلفه آخر جديد، يتم طرده بعد بضع سنين و يترك مكانه من جديد لخليفة آخر.

و تتسع الحرب بين الترك و الروم بصورة مطردة إلى أن تشمل في النهاية الأرض كلها. فيرفع رجل صوته في دمشق و يعلن عن تحول عنيف في مصير الإنسانية. بعدها يتنازع ثلاثة رجال من أجل الحكم، و في الوقت نفسه يدخل ناس من الغرب بلاد الشرق و يقضون على مصر. و الآن يستولي الأتراك على مدينة الحيرة، بينما يستولي الروم على فلسطين، و يظهر السفيناني عند هذه النقطة من التطور يظهر السفيناني^{١٠٤١}.

^{١٠٣٨} (١٣١) بحار، ج ١٣، ص ١٥٨.

^{١٠٣٩} (١٣٢) تعليقات على منهج المقال، ص ٩، و جميع كتب الغيبة و الحديث مثل الكافي و غير ذلك.

^{١٠٤٠} (١٣٣) بحار، ج ١٣، ص ١٦٢.

^{١٠٤١} (١٣٤) نفسه، ص ١٥٦.

يزحف السفيناني من الغرب و الخراساني من الشرق بقواتهما و يتنافسان على الكوفة من أجل الاستيلاء على هذه المدينة. و بسبب حربهم هذه يكابد العالم الإسلامي خسائر كبيرة. و في هذه النقطة من الصراع أيضا يرفع رجل يكنى اليمنى الراية في الجنوب و يجمع حوله من احتفظوا في قلوبهم بشرارة من الإيمان^{١٠٤٢}.

و بعد خسائر كبيرة في أرواح البشر، و انتشار الكفر، و اضطهاد الإيمان و علامات أخرى كثيرة يتلقى الإمام المختفى الأمر من الله بالعودة إلى الأرض و إعادة الشريعة و الحقيقة. و يقف مع المهدي، كما حدث قديما مع الرسول في معركة بدر، ثلاثمائة و ثلاثة عشر من صحابته من جميع المدن ما عدا البصرة^{١٠٤٣} دون أن يعرف أحدهم الآخر، و يرسل المهدي رسولا إلى مكة يأمر السكان بمبايعته. ثم يخطب رسول المهدي ليعيدهم إلى الإيمان، و لكنهم لن يهتموا برسول الإمام المختفى، و إنما يذبحون الخطيب في المسجد المقدس. وقتئذ يأتي المهدي مع مرافقيه

ص: ٢٩٧

إلى الأرض و ينتقم من أعدائه. يستولى على الكوفة، و يهدم جميع المساجد و المنارات، التي لا يعود أصلها إلى أيام محمد. أما أبناء قتلة الأئمة و أعداء الشيعة فيذبحون كلهم ذبحا؛ و لن يستطيع أى كافر إخفاء نفسه، لأن الحجر، الذى يختفون وراءه، سيشفى بهم نفسه. و تصبح كل البلدان تحت حكم المهدي، الصين، و القسطنطينية، و رومة و جميع ممالك العالم. و لن يكون هناك دين، لا المسيحية و لا اليهودية، و إنما سيصبحون كلهم مسلمين و يعترفون بحكم المهدي.

لن يستطيع السفيناني و لا الخراساني مقاومة المهدي، فهو ينتصر على كل الأعداء. و يظهر الإمام رجلا في الأربعين، و يبقى كذلك، لأن السن لن تتقدم به أبدا^{١٠٤٤}. تضىء السماء كلها بنور ساطع بحيث لا تكون هناك ضرورة للشمس و لن يستقر الظلام فوق الأرض. و كل رجل يعيش إلى أن يكون له ألف ولد دون أن تولد له فتاة. كل كنوز الأرض ستصعد فوق الأرض، و الرجل، الذى يدفع الصدقة إلى المحتاجين لن يجد منهم أحدا، لأنهم سيكونون كلهم أغنياء راضين^{١٠٤٥}. و يخلص المهدي المدينين من كل الالتزامات حتى من الأشياء الصغيرة منها. و بعدها يعيش الناس من غير أن تتقل كاهلهم الديون. و لن تهز العلاقات الإنسانية لا بسبب الخصام و لا العراك، ستسود الأخوة الصافية و السلام الدائم الإنسانية جمعاء و تجعلها سعيدة.

في بحار الأنوار حديث للإمام جعفر الصادق نقله المفضل بن عمر^{١٠٤٦}. و قد أخذ من مصادر شيعية أخرى، اقتبستها من كتاب الحسين بن حمدان الخصبي. كنا قد تناولنا الحسين بن حمدان الخصبي بوصفه واحدا من النصيرية، تطابق مكانته مكانة سفير أو وكيل عند الشيعة على

^{١٠٤٢} (١٣٥) نفسه، ص ١٤٣.

^{١٠٤٣} (١٣٦) بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٨٥؛ ربما استنثيت البصرة، لأنها حاربت عليا بن أبي طالب.

^{١٠٤٤} (١٣٧) نفسه، ص ١٨٣؛ الرسول جاءه الوحي أيضا و هو في سن الأربعين.

^{١٠٤٥} (١٣٨) بحار، ج ١٣، ص ١٨٧؛ و المصدر خبر نقله المفضل بن عمر. عن المفضل ينظر منهج المقال، ص ٣٤١.

^{١٠٤٦} (١٣٩) نفسه، ص ٢٠٠ و ما بعدها.

التقريب. و الخصيبى ينقل أيضا عن الرواة، الذين نقلوا أحاديث عن مؤسس النصيرية أبى شعيب محمد بن نصر النميرى. و هذا الأحاديث المنقول عن المفضل بن عمر مباشرة جدير بالاهتمام، لأنها تحافظ على جميع الأشياء، التى دار الحديث حولها، و غيرها، و تقدم من جهة أخرى آراء النصيرية، التى تسربت إلى كتب الشيعة الاثنى عشرية. إذن فهذا الحديث يقدم لنا صورة المهدي عند النصيرية حسب معلمهم. كان المفضل بن عمر بناء على هذا الحديث قد أرسل أسئلة إلى الإمام المختفى و أجاب عنها الإمام. و قد تضمنت الأسئلة العديد من الآيات القرآنية، تم تفسيرها وفقا لأفكار المهدي.

و المجلسى لا يذكر المصدر، الذى نقل عنه حديث المفضل، و إنما يذكر فقط أن كتب الشيعة قد أخذت الحديث عن كتاب الخصيبى، و لم يخطر بذهن المجلسى أنه بهذا يثنى على خبر ينسب إلى النصيرية و إلى النصيرى، الذى تبرأت منه الطائفة الشيعية و لعنه السفراء بوصفه ملحدًا.

يروى أن المفضل قد توجه إلى جعفر الصادق بسؤال عن يوم القيامة و علاماتها. فذكر الإمام أن من علامات القيامة ظهور المهدي، و عقب ذلك سأل المفضل الإمام عن المهدي و ما يروى عن حياته و ظهوره و تأسيس دولته، فكان الجواب: ولد المهدي سنة ٢٥٧ هـ يوم الجمعة ٨ شعبان عند ما لاحت تباشير الصباح. و مضى عليه إلى يوم موت أبيه فى ٨ ربيع الأول من سنة ٢٦٠ هـ عامان و تسعة أشهر. لم يكن المهدي حتى موت أبيه يرى غير أصدقائه و المؤمنين الصادقين. و من هذه السنة لم يبق المهدي بسامراء، و إنما انتقل إلى قصر صابر فى المدينة. و بعد أن أقام هناك ست سنوات، اختفى عام ٢٦٦ هـ عن الأنظار كلها و أصبح يعيش بعدها فى الخفاء^{١٠٤٧}.

عند ما كان المهدي يقيم فى قصر صابر، كان المفضل بواب القصر.

عند ما يذهب المهدي من قصر صابر إلى مكة، يلتقى هناك بالملكين جبرائيل و ميكائيل، و يكون عندهما محل إجلال و احترام، و عندئذ يعلن المهدي أنه جاء ليحكم العالم؛ فيعلن حتى سكان الشمس ظهوره باللغة العربية. و بعدها يندفع إليه الصحابة ٣١٣ مثل العدد الذى وقف إلى جانب النبی فى معركة بدر. و يظهر كذلك الحسين بن على شهيد كربلاء فى الميدان مع ١٢٠٠٠ من المؤمنين. و يتردد نداء المهدي فى جميع أنحاء المعمورة و يجتمع الناس كلهم. فجأة يظهر رجل من بين الجماهير و يهتف: «أيها الناس، لقد ظهر إلهكم فى الوادى اليابس بفلسطين! إنه عثمان بن عنبسة الأموى من عقب يزيد بن معاوية» يسمع كل الناس نداءه، و لكنهم لن يتبعوه.

و بعد نداء هذا الرجل يبدأ المهدي، أى صاحب الزمان، خطابه على الجماهير: من أراد أن يرى إبراهيم و إسماعيل، فلينظر إليه، إى إلى المهدي؛ و من أراد أن يرى موسى و المسيح فليأتأمله إلى آخره إلى أن يأتى المهدي إلى ذكر النبی و أئمتته. ثم يقرأ

^{١٠٤٧} (١٤٠) لا تقع على هذا التاريخ إلا فى كتب النصيرية، أما كتب الشيعة الاثنى عشرية فتقدم التاريخ، الذى قدمناه فى بداية أطروحتنا، على أن الكتب الشيعية الاثنى عشرية المتأخرة تأخذ التاريخ النصيرى.

المهدي كل أقوال النبي ليظهر ما ألحقته بها أيدي البشر من تزييف. و بعدها يخبر رجل جالس و رأسه إلى الخلف المهدي أن جيوش السفيناني قد أبيدت كلها.

و يأمر المهدي بهدم المسجد الحرام في مكة باستثناء أسسه، التي شيدها آدم و إبراهيم و إسماعيل، و بعدها يأمر ببناء المسجد حسب الخطة القديمة، التي أمر الله بها. و يلقي مسجد الكوفة المصير نفسه.

بعد أن يتولى المهدي الحكم في مكة، ينتقل إلى فتح العالم. ثم ينتقل من مكة إلى المدينة لزيارة قبر جده، النبي. و هناك يدلّه الناس على قبري الخلفيتين الأولين إلى جانب قبر الرسول، فيأمر باستخراج الجنتين و تعليقهما في شجرة يابسة؛ و لكن الميتين سيكونان كما لو أنهما قد وضعتا في القبر الآن. و تخضر و تزدهر الشجرة الميتة فجأة و تنمو بسرعة على نحو رائع. و يعتبر المشاهدون الحدث بمثابة معجزة كبرى، فتتهتز

ص: ٣٠٠

عقيدتهم و تتزعزع. لكن آخرين يتمسكون على العكس من ذلك بإيمانهم بعلي و يرفضون معرفة أي شيء عن الخلفيتين. و في تلك اللحظة يأمر المهدي عاصفة سوداء، تقتلع كل الذين آمنوا بمعجزتي أبي بكر و عمر كما تقتلع الأشجار فينقلبون و يموتون. و في النهاية يؤخذ أبو بكر و عمر من الشجرة و يبعثان إلى الحياة بإذن الله. و على أبي بكر و عمر أن يتحملا مسؤولية ما فعلاه مع فاطمة و علي، و في تلك اللحظة تصعد النار من الأرض و تأكل الخلفيتين. و لكن هذا ليس هو نهاية العقاب، و إنما سيأتي جميع الأئمة و يأخذون ثأرهم من أعدائهم: سيبعثان إلى الحياة ١٠٠٠ مرة كل ليلة و يعاقبان عقاب ميتة مريضة.

بعد هذه النعمة سيعود المهدي إلى الكوفة. و في الوقت نفسه يظهر الحسن في منطقة الديلم، فيبايعه أناس الطالقان^{١٠٤٨} و يتبعونه في فرقة قوية مدرعة. و يتجه هو الآخر إلى الكوفة و يسمع من المهدي، و يطلب من المهدي علامات إرساله، و عند ما يتسلمها منه، يبايعه. إلى أن ٤٠. ٠٠٠ من أشياع الحسن، الذين يعرفون باسم الزيدية^{١٠٤٩}، قد يعتبرون المهدي ساحرا و يمتنعون عن مبايعته. عندئذ يوجه إليهم الإمام إنذارا مدته ثلاثة أيام، و بعد ذلك يأمر بإعدام كل من ظلوا على ارتيابهم فيه. و عقب إعدام ال ٤٠. ٠٠٠ أمر المهدي من أتباعه ألا يأخذوا مصحف الزيدية، لأنه أصبح على مر الأيام مصحفا مزيفا^{١٠٥٠}.

ص: ٣٠١

^{١٠٤٨} (١٤١) هناك مدينتان بهذا الاسم، إحدهما الطالقان و تقع في خراسان و الأخرى منطقة الديلم قرب مدينة قزوین. و كان سكان الطالقان في منطقة الديلم متهمين بأنهم من الإسماعيلية في الباطن (ينظر دائرة المعارف الإسلامية، مادة طالقان و كتاب نزّهة القلوب لحمد الله مستوفى القزويني، LeStrange. ed GibbMemorial, ٤٥. S. و لهذا فقد يكون الحديث هنا عن الطالقان.

^{١٠٤٩} (١٤٢) يطلق على الزيدية في الرواية أصحاب المصاحف، لأنهم يحملون المصحف في حربهم ضد المهدي.

^{١٠٥٠} (١٤٣) تذكر الرواية أن الأمر في القرآن، الذي سيحمله الزيدية، لا يتعلق بالقرآن الصحيح، إنما بمصحف مزيف. و هكذا يوصف الزيدية هنا بأنهم مزيفو القرآن. و ينظر عن موضوع قوام القرآن الكافي، ص ١١٠.

لقد أصبح من المناسب الآن أن يحدث للسفياني ما حدث للآخرين. و هكذا يرسل المهدي عاصفة إلى دمشق، تكون سببا في ثورة الأتباع على السفياني و اغتياله. و بعد تنحية الخصم الأخير يجتمع النبي و جميع الأئمة الاثنى عشر في الأرض مع أعدائهم: النبي قاضيا، و الأئمة من على ابن أبي طالب فصاعدا مدعين و الخصوم الشخصيون للأئمة مدعى عليهم. و من خلال مرافعة الاتهام سيكون الحديث عن تاريخ الخلافة كلها من بداية الإسلام إلى عهد المهدي و يتم الحكم على هذا التأريخ، و عودة النبي مع الأئمة إلى المحاكمة تدعى الرجعة.

يتولى المهدي بعدئذ السيادة على العالم و يختار الكوفة عاصمة له.

و تختفى كل الديانات ما عدا الإسلام، أى أنه سيكون كل إنسان مسلما و لن تكون هناك فى أى مكان عبادة للأوثان. و عندها تمطر السماء جرادا من الذهب الخالص و جميع كنوز الأرض توزع على البشر على السواء، بحيث لا يبقى فوقها غنى و لا فقير. وصلنا هذا الحديث مع قليل من الاختلافات فى كتاب منتخب البصائر^{١٠٥١}.

هذه هى صورة السلام المأمول عند الشيعة و دولتهم فى المستقبل، و هى دولة يعم فيها السلام بين الناس و الحيوانات، و لا توجد فيها فروق اجتماعية و دينية، و سيقود المهدي من عاصمته الكوفة العالم كله و يحكمه^{١٠٥٢}.

و يبدو فى هذا المقام أنه لا بد لى من عقد مقارنة بين مهدي الشيعة، الذى تحدثنا عنه آنفا و بين «مهدى» أهل السنة. فالمهدي الشيعي يقدم لنا بوصفه شخصية «تاريخية» بسنة ميلاد معينة و كذلك بسنة اختفاء تاريخية

ص: ٣٠٢

معينة. و هناك من يزعم عن هذا الإمام الثانى عشر الذى دخل تاريخ الأئمة أنه كان بعد اختفائه على صلة بطائفته خلال الغيبة الصغرى عن طريق سفرائه بوصفهم نوابه و لا يزال اليوم يعيش فى الغيبة الكبرى. هذا المهدي إذن شخصية معينة، عاشت حياتها فى الماضى خلال فترة زمنية محددة نوعا ما، فارتبطت عودته بالحركة الشيعية ارتباطا وثيقا، و انسحبت على حياتهم الظرفية، منها مثلا المطاردات، التى تعرض له الشيعة، و انسحبت كذلك على أفكارهم فى العقاب و ما أشبه ذلك^{١٠٥٣}.

أما «مهدى» أهل السنة، فإنه لم يوجد حتى اليوم مثل مسيح اليهود، فهو مجرد أمل، مجرد فكرة، تجسيدها غير مؤكد على الإطلاق.

^{١٠٥١} (١٤٤) بحار، ج ١٣، ص ٢٠٩.

^{١٠٥٢} (١٤٥) نفسه، ١٩٨.

^{١٠٥٣} (١٤٦) ينظر مثلا بحار، ج ١٣، ص ١٥١، عن النزاع بين الأخوين الأمين و المأمون عن الخلافة. فقد عين المأمون المنتصر على بن موسى الرضا، الإمام الثامن، ليكون خلفه فى الخلافة. و عن سقوط الخلافة العباسية ينظر بحار، ج ١٣، ص ١٦٢، و عن نشأة المملكة الصفوية فى بلاد فارس ينظر ص ١٦٤ و أماكن مختلفة من كتب الغيبة.

و ظروف تجسيدها (مطابقة مع التصورات الشيعية) مرتبطة بتاريخ أهل السنة، مثلاً باحتلال المسيحيين لفلسطين، و بالحرب بين الروم، اليونان، و المسلمين، كما كانت مرتبطة بكل الاضطرابات التي ستجتاح البلدان الإسلامية^{١٠٥٤}

المهدى الشيعي بوصفه شخصا هو موضوع العقيدة. و لكن بعض علماء السنة هاجموا فكرة المهدى بحدة، ثم إنها ليست مما يدخل فى مضمون عقيدتهم^{١٠٥٥}.

ص: ٣٠٣

نتائج البحث

يمكن تلخيص نتائج بحثي (عن تاريخ الشيعة) فى الجمل التالية:

- (١) لا يمكن عرض تاريخ الشيعة دون دراسة حياة العلماء و الكتاب الشيعيين و كتبهم قبل ذلك؛
- (٢) كانت فكرة الإمامة فى المذهب الشيعي القديم هى الحاسمة، بينما كان الشيعة أحرارا فى البقية. و فيما بعد تطور المذهب الشيعي إلى عقيدة كلامية موحدة.
- (٣) هكذا ينتقل التأمل الكلامي عند المعتزلة إلى الشيعة. فكما انقسم غير الشيعة إلى معتزلة و مرجئة و أشعرية فى ميدان علم الكلام، كذلك كانت هناك عدة اتجاهات فى المذهب الشيعي من هذا الناحية.
- (٤) كما كان الصدام قويا بين المعتزلة و السنة بسبب الآراء الكلامية المختلفة، كانت هناك كذلك مناقشات شخصية حادة بين علماء الشيعة، جعلت من الصعب إلى حد كبير عرض التاريخ الشيعي.
- (٥) هناك بعض الفرضيات حول أصل المذهب الشيعي، التى كانت فى البحوث القديمة مقبولة بلا نزاع، تتحطم عند ما تتم دراسة المصادر بدقة أكبر^{١٠٥٦}.

ص: ٣٠٤

- (٦) لا يكفى كتابة تاريخ الشيعة بناء على تراجم و شروح مفردة، خصوصا فى ميدان الحديث، و إنما يجب على المرء أن يستعمل كل ما يمكن الوصول إليه من أجل اختبار الدقة و الأمانة، و قد قدمنا أمثلة عن ضرورة هذا الإجراء.

^{١٠٥٤} (١٤٧) دائرة المعارف الإسلامية، مادة مهدى.

^{١٠٥٥} (١٤٨) ابن خلدون، ج ١، ص ٢٦٠ (الطبعة المصرية) الآلوسى، تفسير، ج ٦، ص ٣١٥، تذكرة القرطبي، ص ١٥٢، أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج ٣، ص ٢٣٥.

^{١٠٥٦} (١) (١) رأى السائد الدراسات الشرقية الأوروبية عموما هو أن الإمامة تنظيم شيعي لا غير. و لكن هذا رأى لا يطابق الحقيقة الواقعية. فقد كانت عند السنة - و إن بعد لهذا الاتجاه اليوم وجود - فى الزمن القديم فرضية أن الله نقل الإمامة إلى أبى بكر عن طريق النبى قبل موته. انظر عن ذلك، مقالات الأشعرى، ج ٢، ص ٤٥٥ و ابن تيمية، منهاج السنة، ج ١، ص ١٣٤، ٢٣٢؛ ثم ميزان الاعتدال، ج ١، ص ١٠٧ و ٢٣٣ و أماكن أخرى!

٧) يجب أن يأخذ المرء المصادر الشيعية من جميع العصور بعين الاعتبار، حتى يستطيع كتابة تاريخ الشيعة، فهناك أشياء كثيرة، ذكرت في المصادر المتأخرة لا توجد في القديمة، والعكس بالعكس. من خلال مقارنة المصادر القديمة و المتأخرة يتوصل الإنسان إلى نتائج عن التطور التاريخي لا غبار عليها.

٨) ولتجنب سوء الفهم نريد أن نؤكد مرة أخرى أننا لا نبحث أفكار الغيبة إلا بوصفها ظاهرة تاريخية - عقائدية، و ليس عقيدة دينية: فلا ينتمى من الموضوع كله إلى ميدان العقيدة سوى وجود الإمام الثانى عشر، المهدي، و رجعتة. و على العكس من ذلك فإن عمل السفراء و الهدف من إقامة دولة شيعية، و كذلك انتظار المنقذ، كل ذلك هو الخطوة الحاسمة و الباعث المحرك خلال التاريخ الأرضي لهذه الدائرة الشيعية الخاصة.

٩) لقد ادعى الشيعة في أزمنة مختلفة من المذهب الشيعي أن الاختلاف بين الشيعة و السنة ليس أكثر من اختلاف الآراء بين علماء السنة. و هكذا تصدى ابن بابويه (توفي سنة ٣٨١ هـ) في كتابه التوحيد على أولئك، الذين يتهمون الشيعة بالتشبيه و الجبرية، لرفض دعوى و جهات النظر الخاصة و الانحرافات في المذهب الشيعي^{١٠٥٧}. و كذلك أعرب عن رأيه الشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٣٣ في كتابه

ص: ٣٠٥

الانتصار^{١٠٥٨}. ففي القرن السادس للهجرة أنكر المرتضى بن الداعي الحسيني^{١٠٥٩} الاختلاف بين العقيدتين؛ ثم بهاء الدين (توفي سنة ١٠٣١ هـ)^{١٠٦٠}. و في زماننا العلامة محمد حسين كاشف الغطاء^{١٠٦١} يعبرون عن المعنى نفسه.

يبدو أن هذه النقاط تستحق الاهتمام التام، إذا ما أراد المرء أن يصل عند عرض التاريخ الشيعي إلى نتائج مقنعة.

ص: ٣٠٧

المصادر و المراجع

أ. المصادر الشرقية

أبو الفرج الأصفهاني على بن الحسين الأموي، كتاب الأغاني، القاهرة ١٩٠٥، ٢٠ مجلدا.

^{١٠٥٧} (٢) الكنتوري، ص ٤٣٠.

^{١٠٥٨} (٣) نفسه، ص ٦١.

^{١٠٥٩} (٤) ينظر كتابه تبصرة العوام في أماكن مختلفة! عن المرتضى بن الداعي الحسيني ينظر الكنتوري، مادة تبصرة العوام.

^{١٠٦٠} (٥) ينظر الكنتوري، ص ٥٢.

^{١٠٦١} (٦) ينظر كتابه أصل الشيعة!

أحمد أمين، فجر الإسلام، القاهرة ١٩٢٨.

ـ، ضحى الإسلام، القاهرة ١٩٣٣، ج ٢. ١٩٣٦.

يعالج المؤلف العقيدة الإسلامية، و لم يخل من الأحكام المسبقة و الأخطاء التاريخية و الجغرافية. و قد حاولت تقديم تقويم نقدي للكتاب فى: جريدة الطريق، ١٩٣٣، رقم ٩ و ما بعده. عدم دقة المؤلف فى تقديم طبعات الكتاب و غيرها تستوجب النقد الصارم.

أحمد بن يحيى المرتضى، المنية و الأمل فى شرح كتاب الملل و النحل، حيدرآباد ١٣١٦ هـ.

أحمد تيمور، نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة، القاهرة ١٣٤٤ هـ.

العلامة الحلى حسن بن مطهر، خلاصة المقال فى علم الرجال، طهران ١٣١١ هـ.

الأشعرى أبو الحسن بن إسماعيل، مقالات الإسلاميين و اختلاف المضلين، إستانبول ١٩٢٩، جزءان.

البغدادى أبو منصور عبد القاهر الأشعرى، الفرق بين الفرق، القاهرة ١٣٢٨ هـ.

ص: ٣٠٨

البيرونى أبو ریحان أحمد بن محمد، الآثار الباقية، لايبستغ ١٩٢٣.

دحلان أحمد بن زينى، فى كيفية المناظرة مع الشيعة و الرد عليهم، القاهرة، ١٣٢٣، و معه كتاب السويدى فى أسفله.

ابن الحر العاملى محمد بن الحسن، أمل الآمل على جبل عامل، طهران ١٣٠٢.

ـ تذكرة المتبحرين، طهران ١٣٠٢، طبع الاثنان مع منهج المقال المذكور أسفله.

الذهبي شمس الدين، ميزان الاعتدال فى نقد الرجال، القاهرة ١٣٢٥ هـ، ٣ أجزاء.

الفخرى محمد بن على بن طباطبا، الآداب السلطانية، القاهرة ١٣١٧.

الجرجاني على بن محمد السيد الشريف، شرح المواقف، استامبول ١٢٢٩ هـ، ٣ أجزاء.

جواهر الكلام عبد العزيز، آثار الشيعة الإمامية، طهران ١٣٤٨ (طبع ج ٣ و ٤ فقط).

ابن الأثير زين الدين، الكامل فى التاريخ، القاهرة ١٢٩٠ هـ، ١٢ مجلدا.

ابن تيمية تقى الدين أحمد بن عبد الله، منهاج السنة النبوية فى نقد كلام الشيعة القدرية، القاهرة ١٣٣١ هـ، ٤ أجزاء.

ابن أبى طاهر أحمد طيفور، كتاب بغداد، لايبستغ ١٩٠٨.

ابن جبير، رحلة بن جبير، ١٩٠٧، V. Gibb Memorial Series vol.

ابن الجوزى أبو الفرج عبد الرحمن، تلبيس إبليس، القاهرة ١٣٤٠ هـ.

ابن حزم الظاهري على بن محمد، الفصل فى الملل و الأهواء و النحل، القاهرة ١٣١٧- ٢١ هـ، ٥ أجزاء.

ابن خلدون،

prolegomenes D, ebn Khaldun, par M/ Quatremere, Paris ٨٥٨١

ابن خلكان شمس الدين أحمد البرمكى، وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان، القاهرة؟، جزءان.

ابن العبرى أبو الفرج الملطى، تاريخ مختصر الدول، بيروت ١٨٩٠.

ص: ٣٠٩

ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم المصرى، لسان العرب، القاهرة ١٣٠١ هـ.

ابن النديم أبو الفرج محمد بن إسحاق، كتاب الفهرست، لايبستغ ١٨٧١.

ابن واضح أحمد اليعقوبى، كتاب البلدان، ليدن ١٨٦١.

ياقوت الحموى، معجم الأدباء، ليدن ١٩٠٩- ١٦، ٧ مجلدات.

-، معجم البلدان، ليدن ١٨٦٦- ٧٣، ٦ مجلدات.

الكنتورى أعجاز حسين، كشف الحجب و الأستار فى أسماء الكتب و الأسفار، كالكو تا ١٣٣٠ هـ.

الكشى عمر بن عمر، معرفة أخبار الرجال، بومباى ١٣١٧ هـ.

كتب المؤلف كتباً (قاموساً) تحت العنوان المذكور أعلاه، و يذكر أسماء سنّية و شيعية، فيه أخطاء كثيرة، و لذلك صلحه الطوسى، الذى اختار منه مختارات، اسمها اختيار رجال الكشى. و الكتاب الذى لدينا اليوم ليس للكشى، و إنما الطوسى هو الذى نظمته.

ينظر منتهى المقال، ص ٣٧٩، و قصص العلماء، ص ٣٣٣، و كذلك خاتمة الكتاب المذكور أعلاه. و عن الكتاب عموماً ينظر شتروتمان، مصادر الشيعة، ص ١٠!

الكليني محمد بن يعقوب، (أصول) الكافي، طهران ١٢٨١ و ١٣١٠ - ١٣١١.

مجلسي محمد باقر الأصفهاني، بحار الأنوار، طهران ١٣٠١ هـ ٢٦ مجلداً.

محمد مهدي الأصفهاني، أحسن الوديعه في تراجم أشهر مشاهير مجتهدى الشيعة، بغداد ١٣٤٨، جزءان.

المرتضى بن الداعي الحسيني، تبصرة العوام في مقالات الأنام، طهران ١٣٢٧ هـ ذيلاً لقصص العلماء.

يسمى د. م. دونالدسون المؤلف خطأ المرتضى «علم الهدى» و يضيف إلى ذلك ١٠٤٤ سنة الوفاة. و قد ذكر ناشر الكتاب الذى صدر فى بلاد فارس تحت اسم المرتضى علم الهدى، أن هذا الكتاب ليس له و إنما هو لمرتضى آخر. فى ص ٤١٧ يذكر المؤلف الشهرستانى و فى ص ٢٠٣ الغزالى، و هما مؤلفان عاشا بعد علم الهدى. عن المؤلف و الكتاب ينظر إضافة إلى ذلك

ص: ٣١٠

روضات الجنات، ج ٣، ص ٥٦٥، الكنتورى، مادة تبصرة العوام و غيرها.

المرتضى الشريف على بن الحين، كتاب الشافى، طهران ١٣٠١.

النجاشى أحمد بن على، كتاب الرجال، بومباى ١٣١٧ هـ.

نور الله القاضى الششتري، مجالس المؤمنين، طهران ١٢٦٨ هـ.

السمعانى عبد الكريم بن محمد، كتاب الأنساب، ليدن ١٩١٢.

السويدى عبد الله أفندى بن حسين، الحجج القطعية، القاهرة ١٣٢٣ هـ.

الشهرستانى محمد بن عبد الكريم، الملل و النحل، لايبستغ ١٩٢٣، القاهرة ١٣١٧ هـ.

الصابى هلال بن محسن، تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء، بيروت ١٩٠٤ هـ.

الصدوق محمد بن بابويه، كمال الدين و تمام النعمة، طهران ١٣١١.

الصولى أبو بكر محمد بن يحيى، كتاب الأوراق، القاهرة ١٩٣٦.

الطبرسى أبو منصور أحمد بن على، كتاب الاحتجاج، طهران، ١٣٠٢ هـ.

الطبرى أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الأمم و الملوك، ليدن ١٨٧٦ - ١٩٠١، ١٣ جزءا.

الطوسى أبو جعفر محمد بن الحسن، كتاب الغيبة تبريز ١٣٢٢.

- فهرست كتب الشيعة، كالكو تا ١٨٥٣.

طويل أمين غالب، تاريخ العلويين، اللاذقية (سورية) ١٩٢٤.

عريب بن سعيد القرطبي، صلة تاريخ الطبرى، ليدن ١٨٩٧.

الواقدى محمد بن سعد الكاتب، كتاب الطرقات الكبرى، ليدن ١٣٢١ هـ.

المخطوطات

ابن بابويه، محمد بن على بن الحسين بن موسى، تاريخ الغيبة، - Petermann II .Berlin ,Preuss -Staatsbibl .
٥٦٤ البحرانى عبد الله بن صالح، الوسيلة إلى تحصيل الأمانى فى ضبط أيام التعازى و التهانى، .Berlin ,Pr .Staatsbibl .

ص: ٣١١

ابن الجوزى، المنتظم، ٨، Wetzstein I .Berlin ,Pr .Staatsbibl .

ابن الصباغ نور الدين على بن محمد بن أحمد المالكى، الأصول المهمة فى معرفة الأئمة،

Berlin, Pr. Staatsbibl. Petermann I ٧١٣ und Petermann II ٥٤٣

ابن طاوس، كفاية الأثر، ٣٣، .Berlin ,Pr .Staatsbibl .Ptetermann II

ابن كثير إسماعيل، البداية و النهاية، .Berlin ,Pr .Staatsbibl .

الحلى الحسن بن يوسف بن على بن مطهر، خلاصة الأقوال، (. .Berlin ,Pr .Staatsbibl .) Sprenger ٧٠٣

الخصيبى الحسين بن حمدان، قصيدة الحسين بن حمدان، ٧٧٤ MQ .Berlin ,Pr .Staatsbibl .

الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام، ١٨٥١ Paris ,Bibl .Nat .arabe

النجاشي أحمد بن علي، كتاب الرجال، ٥٠٣ Berlin Pr .St .Sprenger

البافعي عبد الله بن أسعد بن علي، مرآة الجنان و عبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، Berlin Pr .St .Petermann

١١٠٦

مراسلات و مجلات و سجلات

كاشف الغطاء محمد بن حسين، النجف (العراق) رسالتان بتاريخ ٢٢ رمضان ١٣٥٥ هـ و ٢٨ محرم ١٣٥٥ هـ

هبة الدين الشهرستاني، بغداد، رئيس محكمة التمييز الجعفرية، رسالتان بتاريخ ١٥ أبريل ١٩٣٦ م،

و بتاريخ ٢ أبريل ١٩٣٧ م، و جواب عن سؤال بتاريخ ١٧. ١٢. ٣٧ و رسالة بدون تاريخ (اختصار هبة).

مجلة لغة العرب، بغداد، نشر الأدب أنستاس الكرمل، السنة الثامنة، عدد ٧.

المرشد، بغداد، نشر السيد صالح الشهرستاني، السنة الأولى.

فهرست كتاب خانه رضوى، طبع في طهران ١٣٤٥ هـ.

ص: ٣١٢

ب. المصادر الغربية

ص: ٣١٣

الفهرس العام

المقدمة ٥ تمهيد ٧ الفصل الأول: فكرة الإمامة عند الشيعة ١٣ المصادر ١٧ أبو الحسن بن علي بن فضال، الحسن بن علي البطاجني، محمد بن الحسن القمي البصري، علي بن الحسن الطاطري، علي بن عمر الأعرج، إبراهيم بن صالح الأنماطي، علي بن مهزيار الأهوازي، محمد بن عيسى بن عبيد بن يقطين، الفضل بن شاذان، إبراهيم بن إسحاق النهاوندي، عبد الله بن جعفر بن الحسين الحميري القمي، محمد بن مسعود بن أيوب العياشي، علان الرازي، أحمد بن إبراهيم الرازي الكليني، علي بن محمد بن علي السواق، محمد بن القاسم أبو بكر البغدادي، محمد بن إبراهيم النعماني، أبو الحسن أحمد بن جعفر بن محمد المنادي، عبد العزيز بن يحيى الجلودى، محمد بن علي بن الفضل بن تمام بن سكين، أبو محمد الطبري المرعشي الحسن بن حمزة المرعشي، محمد بن أحمد بن عبد

ص: ٣١٤

الله الصفواني، الحسن بن محمد بن يحيى أبو محمد، الحسن بن أحمد الجنبلائي، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي، حنظلة بن زكريا بن يحيى بن حنظلة التميمي القزويني أبو الحسن، عبد الله بن محمد البلوي، أبو محمد عبد الوهاب المادرائي أو المادري، أبو نصر هبة الله أحمد بن محمد الكاتب، أحمد بن محمد بن نوح أبو العباس الصيرفي، أحمد بن محمد بن الحسين بن عياش الجوهري، المفيد محمد بن النعمان العكبري البغدادي، المرتضى علي بن الحسين الموسوي، محمد بن زيد بن علي الفارس، محمد بن علي بن عثمان الكراچكي، أحمد بن محمد بن عمر بن موسى الجارح، أحمد بن علي أبو العباس الرازي الخضيب، أبو الفرج المظفر علي بن الحسين الهمذاني الأسدي، أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي، محمد بن الحسن بن حمزة الجعفري أبو علي، أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسين العلوي، أمين الدين أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي، قطب الدين أبو الحسين سعيد بن هبة الله بن الحسن الراوندي، أحمد بن الحسين بن عبد الله المهراني الآبي، رشيد الدين أبو جعفر محمد بن علي بن شهر آشوب المازندراني، الأشرف بن الغر بن هاشم، يحيى بن أبي طي الغساني، سبط بن الجوزي، أبو عبد الله بن يوسف الشافعي الكنجي، رضى الدين علي بن موسى الطاوس (الطاوسي)، بهاء الدين أبو الحسن علي بن عيسى الإربلي، الفضل بن يحيى الطي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قيمان شمس الدين الذهبي، الحسن بن سليمان بن محمد بن خالد الحلبي، علي بن عبد الله بن عبد الحميد بن فخار بن مسعود الحسيني النجفي، علي بن الحسين بن عبد

ص: ٣١٥

العالى العاملى الكركى المحقق الثانى، محمد باقر بن سيد شمس الدين الداماد، محمد بن الحسن الحر العاملى، محمود بن فتح الله الحسينى الكاظمى، محمود بن غلام على الطبرسى، محمد بن الحسين بن عبد الصمد الحارثى البهائى، سيد على خان الحويزى، سيد نعمة الله الجزائرى، سيد محمد مؤمن الحسينى الأسترآبادى، سيد حسين بن سليمان بن إسماعيل التنكانى (الكتكانى) البحرانى، محمد باقر بن محمد تقى الأصفهاني المجلسى، أبو الحسن الشريف العاملى، عبد الله بن نور الدين البحرانى، مولى محمد رضا الإمامى، شيخ محمد بن أبى عزيز الخطى البحرانى، على أصغر بن على أكبر البروجردى، سيد دلدار على بن محمد الناصرآبادى، الشيخ أحمد الأحسائى، سيد على شبر، شيخ درويش بن الحسين بن على بن محمد البغدادي الحائرى، سيد أسد الله بن حجة الإسلام الأصفهاني، سيد محمد حسين بن ميرزا على أصغر الطباطبائى التبريزى، المفتى مير عباس اللكناهورى، نجف على بن محمد رضا الزنونى التبريزى، سيد محمد حسين الشهرستانى، سيد مصطفى بن إبراهيم بن سيد حيدر الكاظمى، حاج ميرزا حسين النورى الطبرسى، شيخ فضل الله بن مولى عباس، أغا أشرف الحسينى، محمد باقر بن محمد جعفر البحارى، سيد حسين بن نصر الله الموسوى، سيد حسن صدر الدين.

العلماء المعاصرون ٥٣ سيد أولاد حيدر، سيد رضا الهندى، محمد جواد البلاغى، محمد حرز النجفى، محمد حسين كاشف الغطاء، محمد بن رجب على طهرانى، هبة الدين شهرستانى.

ص: ٣١٦

مصادر أخرى ٥٤

أحمد بن رميح، حسن بن عبد الرزاق الكاشي، حسن بن محمد ولي الرومي، حيدر علي بن المحقق الشرواني، داود بن إبراهيم، سيد محمد سبطين سرسوي، شيخ الشريعة الأصفهاني، عبد الغني الحر العاملي، عبد الكريم النجفي، مولانا علي، سيد علي بن أبي القاسم القمي اللاهوري، عيسى بن مهران المستعطف أبو موسى، كاظم الهزار جريي، محمد باقر الرشتي، محمد رضا نجيب الدين التبريزي، محمد شمس آبادي، محمد هادي الميرلوحى الحسيني، محمد كاظم بن صافي، معلى بن محمد البصري، مهدي بن سيد علي البحراني النجفي، ميرزا محمد الرضا الواعظ الهمداني، نصر بن علي الجهضمي.

كتب مجهولة المؤلفين ٥٨

الفصل الثاني: الخلفاء «الحقيقيون» للنبي ٦١

الفصل الثالث: الغيبة و الرجعة ٧٥

الفصل الرابع: السفيران الأولان للإمام الثاني عشر ٩٥

السفير الأول ٩٨

الفصل الخامس: السفير الثاني ١٠٧

الوضع السياسي في فترة الغيبة الصغرى ١١٣

عمل السفراء ١٢٤

الفصل السادس: السفير الثالث أبو القاسم الحسين بن روح ١٣١

نشاط ابن روح في وظيفته ١٣٤

مصير السفير الثالث ١٤٠

ص: ٣١٧

الفصل السابع: محمد بن علي السلمغاني ١٤٧

مذهب السلمغاني ١٥٦

مؤلفات السلمغاني ١٦٢

الفصل الثامن: تطور علم التوحيد عند الشيعة ١٦٧

زرارة بن أعين، أبو جعفر مؤمن الطاق، هشام بن سالم الجواليقي، هشام بن الحكم، أبو الحسن علي بن ميثال، أبو جعفر السكاك،
يونس بن عبد الرحمن القمي، علي بن منصور، أبو الأحوص البصري، أبو عيسى الوراق.

علم الكلام ١٨٩

ابن الراوندي، أبو سهل النوبختي، تلاميذ أبي سهل النوبختي، الناشئ الأصغر، أبو الجيش البلخي، محمد بن بشر السوسنجردى، أبو
جعفر محمد بن قبة الرازي، الحسن بن موسى النوبختي، أبو إسحاق إبراهيم، الإسكافي محمد بن أبي بكر بن همام بن سهل.

علم الحديث ٢١٦

الفقه ٢٢٠

الأخباريون و الأصوليون ٢٢٦

الفصل التاسع: نهاية الغيبة الصغرى ٢٣٩

السفير الأخير علي بن محمد السمرى ٢٣٩

مدافن السفراء الأربعة ٢٤٣

الوكلاء ٢٤٨

الوكيل أحمد بن إسحاق، الوكيل هاجس الوشاء، الوكيل الحسن بن النضر، الوكيل داود بن القاسم بن إسحاق الجعفرى

ص: ٣١٨

أبو هاشم، الوكيل الشامي، الوكيل العطاردى، الوكيل العاصمى أو العصيني، الوكيل القاسم بن العلاء، الوكيل أبو الحسن محمد بن
جعفر الأسدى، الوكيل محمد بن شاذان، الوكيل محمد بن صالح محمد الهمداني الدهقان، الوكيل محمد بن علي بن بلال، الوكيل
بن علي بن مهزيار، الوكيل حفص بن عمر، الوكيل أبو جعفر محمد بن حفص.

الفصل العاشر: الغيبة الكبرى ٢٥٩

التوقيعات المبكرة فى الغيبة الصغرى ٢٦٩

توقيع على بن إبراهيم الرازي، توقيع سعد بن عبد الله، توقيع أحمد بن إسحاق، توقيع إسحاق بن يعقوب، توقيع على بن أحمد بن عبد الله القمي، توقيع أبي الحسن محمد بن جعفر الأسدي، توقيع على بن محمد الكليني، توقيع أبي على محمد بن همام، توقيع محمد بن صالح الهمداني، توقيع ابن مهزيار.

توقيعات من عهد السفير الثالث ٢٨٣

توقيع أبي غالب الزراري، توقيع أبي العباس بن الحسن الجحضرى، توقيع عن أسئلة مواطنى قم، توقيع أبي على بن همام.

التوقيعات بعد الغيبة الصغرى ٢٨٩

عودة المهدي و دولته ٢٩٥

نتائج البحث ٣٠٣

المصادر و المراجع ٣٠٧

أ- المصادر الشرقية ٣٠٧

ب- المصادر الغربية ١٠٦٣١٢